توقاً إلى الحياة

أوراق سجين

عباس عباس

دار الخيال

توقاً إلى الحياة

توقاً إلى الحياة

عباس محمود عباس

حقوق الطبعة العربية محفوظة للناشر ©

دار الخيال

بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3-شارع الكويت
المنارة-بيروت-2036 6308
لبنان-تلفاكس : 009611-740110

E-mail: alkhayal@inco.com.lb

التنفيذ الفني دار الخيال

صمم الغلاف: يوسف عبدلكي

الطبعة الأولى 2015

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية؛ بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

عباس محمود عباس

توقاً إلى الحياة

أوراق سجين

دار الخيال

المقدمة

جمعتلك بعض الشوق يا ذا الشوق

أيها السابح في الضوء، أخواتي ومحبوك الذين رأوك في ظلمتك انحنوا لضوئك. من الغواية أن أكتب عن عباس ـ ولكن بكلمة بسيطة (ضمنّا الشوق والحنين... والأكثر، التآخي.

عباس ليس ذاكرة ـ إنه حضورٌ طاغٍ

تدفّقَ إلى آخر آهٍ وانهمارِ دموعنا

فإلى الذي كان وكنتُ وكنا وفي كان وأشباهها تنطمر أجمل لحظات العمر...

كان إباؤه شامخاً... أو على حدٍّ وصف رفيق دربه وصديقه «أصلان عبد الكريم» عباس هو الإباء صِرْفاً.

هذا أخي عباس... في طفولتنا تعاركنا كثيراً، ودائما كنت المعتدي ولكنه كان يتقنُ فن الصمت والخجل خشية غضب والدي.

ولقد مارس هوايته حتى في أقبية الخوف، ولم يقحمْ أحداً من رفاقه والجميع يدرك ذلك.

المبتسم في أحلك اللحظات... يا لَتوقي لهذه الابتسامة. ضاعت ابتسامته ذات ضياع... ذات فقدْ.

يا له من عباس!! لوجوده جمالُ اللحظة ولغيابه وترُ الحزن والضياع والتأوهات.

أمي التي أنعم عليها عمرها التسعيني بالنسيان... تسأل عن عباس... فنقول لها: (مبارح كان هون) فتقول: (والله نسيت).

أماه... إنه يستوطن الفرح والدهشة.

تناغش نسيانها حتى لا تعاني... كفاها ما عانت وما تعاني ومما سيأتي، ومع ذلك لا تني تتذكر عباس ووالدي وشجرة الزيتون وفاطمة...

أوّاهُ يا أماه: كم أغبطك على نعمة نسيانك وعلى مدى فرحك الحزين التي لا تدري إلى أين مداه...

عباس... أنت أكبرُ من أبجديتنا... لك المجد.

وأخيراً ما قالهُ رفاقهُ وأصدقاؤه حالَ رحيله ـ :

تحية وفاءٍ لعباس:

شهيداً في حياته، وحيّاً في مماته.

ممتّدُ القامة من باريس إلى دير ماما ـ كقامة العصر. ووطن يزدهر بالحرية والعدالة والمواطنة والكرامة الانسانية.

... ومع ذلك كل هذا الذي قيل ينحني أمام ما كتبهُ عن نفسه قبل رحيله بأيام... يقول عباس:

هجرة صيفي مضتْ، وشتاءٌ قاحلٌ مرَّ على مهلٍ ولا غيمٌ سكوب، هجرة أخرى وشتاءٌ دون أن يأتي الربيع

سكنتني رعشات الخوف من كل جهاتي، واستكانت حركاتي وابنتي تحنو على مهدي، ولا تقوى على غير التّرجي والدعاء.

يا إلهي!! لم اعدْ أقوى على ويلٍ خبيءٍ في ثنايا الروح عميقاً في دمي... كما الجمر الذي تحت الرماد...

راحتِ الدنيا تصلي لشقائي... من أقاصيها... إلى أدنى وريد، وكوت جرحي بنار الصبر والملح وقالت:

قد يكون الله مثواك على متنِ الغمام.
أو يواريك المدى... كي تطلعَ الشمسُ على أغصانك الثكلى وأسراب الحمام.
ما عليكمْ: هدِّئوا...، إن أمكن، الأوجاعَ بالملح المُنَّدى أو بأغلى ما لديكم من رجاءاتٍ ومن جمر احتدام.
عباس عباس
2102 - 8 - 31
رحل في 2012/9/5

تستطيعون قطف كل الزهور
لكن لا تستطيعون حجب الربيع
هذا بعض ما لدي ولرفاق دربه وأصدقائه أن يدلوا بدلوهم...
ثابت عباس

عبْس...
«ويح العمر - وويح الدهر - لم يترك لي صاحب».
اقتباس بتصرف من قصيدة للشاعر السلموني عبد الله ونوس.
أقْتَلُ الأصدقاء...
«يلوحون كالوشم في ظاهر القلب»
هكذا غادروا
هكذا تركوك وحيداً وغابوا
على عجلٍ تركوا كلَّ أشيائهم في يديك
ولون عيون حبيباتهم
والمواعيد تلك التي قطعوها لهن
ورمان أحزانهم لمّا يزلْ حامضاً

في سقوف الحنين
ويبقى لحمّى القصيدة في القلبِ
طعم وجيع
اقتباس من ديوان الشاعر المذكور نفسه

عبّس...

لأن الويح هو ما ذكرت فقد اقتبست ذات ويلٍ في تأبين الصديق النبيل عدنان محفوض من قصيدة لفرج بيرقدار ما يلي: يكفي جناح واحد كي لا أطير. وأضفت لقد انكسر أحد جناحي . فيما الآخر حيٌّ يرزق بينكم، وناشدت كل أرباب القوة والوفاء ألاّ يخذلني هذا الآخر، آنذاك ظنّ كثر من الحاضرين أنهم المقصودون بالكلام. والحق أنت الذي كنت المقصود، وأعتقد أنك عرفت نفسك، ومع ذلك فقد خذلتني أيها الفارس النبيل، وترجلت قبل الأوان بكثير، كما ترجّل قبلك وبعدك «ما يكفي» من الفرسان كي ينوء المرء بالحمل ويغصّ بالعمر والزمن إلى أقصى حلق الحلق!

لقد تُركتُ مخذولا أتساءل: هل بقي من العمر بعدُ ما يستحق العيش وما يكفي للحديث عن الأجنحة؟!

من أجل من رحل، ومن أجل من بقي، وكرمى لهم، ومن أجل بروميثيوس ـ سارق النار الإلهية ـ ومن أجل الحياة ـ الأغلى والأقدس في الوجود ـ سأظل أستنبت أجنحة الصداقة بعزم لا يلين فقد ذقتها وعرفتها وعشتها حتى الثمالة والثمل، ولذا فإني لا أخلع صاحبي، وسأظل كذلك حتى يحمّ القضاء فأسقط من حالقٍ مثل طير في حفرة الرمق الأخير.

عبّس...

من أين لي القدرة على أن أقولَ فيك ما أنت أهل له؟ من يزنّرني بالقوة كي أقول فيك ما أريد، وكيف أريد؟ من يشدّ أزري كي أجرؤ على البدء بالصلاة الأزلية ـ الأبدية للإنسان، صلاتك، صلاتنا ـ نحن عشاق الحياة

والحرية والكرامة ـ صلاتنا نحن الذين ذقنا ـ ولانزال ـ ويلات الطغيان بكل الإباء، صلاة الشاعر اليوناني: يانيس ريتسوس.

«إذا كان هو الموت يأتي دائماً، فإنه يأتي تالياً، الحرية أبداً هي الأولى»

هذه الصلاة تكثف إلى الحد الأقصى عباس وكتابه في السجن والحياة، عباس هذا الإباء المقاتل ضد كل القيود والأغلال، والكتاب هذا الذي يشكل شهادة حارة حتى الاحتراق عن المستنقع الذي نعيش فيه وعن النساء والرجال الأحرار الذين صارعوا حتى الموت كي يشمخوا بأنوفهم فوق النتن.

لقد كان السجن المكان الذي تحدث وكتب عنه كثر وهم بغنى عن التعريف كما كان الطغيان ـ ولا يزال ـ مادة خصبة للحديث في كل الاتجاهات، ومع ذلك هنالك دائماً ما يقال.

فلنستمع إلى سعد الله ونوس ذات صحوة: حين فرغت من رواية عبد الرحمن منيف الجديدة أحسست حلقي جافاً وغمرني شعور ذاهل بالعار، كيف نعيش حياتنا اليومية ونحن نساكن هذا الرعب الذي يتربص بنا هنا والآن، أي صملاخ بليد يحجب عن أسماعنا الصراخ والأنين، كي نواصل نومنا كل ليلة، أية ذاكرة مثقوبة تلك التي تتيح لنا أن نتناسى الآلاف الذين يهترئون في السجن هنا والآن، هذا عارٌ يكاد يلامس التواطؤ.

من خوفنا، وغفلتنا، وصمتنا يغزل الجلاد سياطه، ومن خوفنا، وغفلتنا، وصمتنا تغصّ بنا السجون، وتغدو الحياة هنا ـ والآن ـ كابوساً من الجنون والرعب.

ولأن الصمت هو ما يسمح بخيانة الانسان، ويمهد الطريق أمام الطغاة، كل الطغاة. فإن هذا الكتاب الذي بين أيدينا لا يكسر جدار الصمت فحسب، بل تنجدل فيه كل ضفائر العقل والقلب واللغة والشفافية ليتحول إلى احتجاج صارخ ضد مملكة الصمت الذليل، وضد

الطغيان بكل وجوهه وأشكاله، بما يذكرنا بحق بصرخة ذلك الفلاح المصري الفصيح التي دوّت ولا تزال تدوّي ضد الطغيان منذ آلاف السنين بلسان الآلاف بل الملايين، بل آلاف الملايين من البشر.

وأود أن ألفت النظر هنا إلى أن تسمية الفلاح المذكور بالفصيح لم تكن اعتباطاً، فالفصاحة عنده وعند عباس لا تتعلق ببنية اللغة بقدر ما تتعلق بالوضوح والصدق والجرأة والشفافية والاقناع، ومعانقة الخطر في أعلى ذراه، إن لم نقل معانقة المحال.

لكل ما سبق ذكره أترك الجانب المذكور لك ولسفرِكَ الناطق وللقراء حتى يعيشوه بأنفسهم، وأتجرّد لإماطة اللثام عن جوانب أخرى لها الحق في رؤية النور بالتأكيد.

قبل كل شيء ألفت الانتباه إلى أنني أرفض أن أنصّب نفسي دليلاً ومرشداً في قراءة النص لأن في ذلك افتئاتاً على النص أولا وعلى حق القارئ المطلق في كيفية القراءة ثانياً، كما أرفض اعتبار ما سأقوله مدخلا أو مقدمة للكتاب الذي هو بغنى عن أي شكل من أشكال التقديم فهو ينطق بلسان مبين، ويتحدث عن نفسه بنفسه بحساسيةٍ مرهفة إلى حد الأثير، الأمر الذي يجعل ما سوف أقوم به مجرد قراءة خاصّة من قبل صديق حميم ورفيق درب وحياة ومعاناة عايش عباس بما يكفي قبل السجن وفيه وبعده بما يسمح بالقول: إن لديه شيئاً ذا معنى ليقوله فلأبدأ:

إن الوضع الراهن في سورية بكل ما فيه من قمعٍ بهيمي سلطوي وغير سلطوي تجاوز كل الحدود وأوغل حتى الدرك الأسفل في «فن» العذاب والموت والقهر والاذلال المادي والمعنوي والهلاك والدمار والخراب الفردي والاجتماعي بشكل لم يسبق له مثيل في الألفية الثالثة الأمر الذي يجعل من نص عباس الذي بين أيدينا مادةً قد تضيع في زحام التفاصيل الفظيعة الدامية، ومع ذلك فليس من الخطأ المراهنة على أن البعد الانساني العميق في نص عباس والذي ينضحُ من كل كلمةٍ فيه كفيل بإعطائه حقه

على الرغم من كل الملابسات والظروف الراهنة، بل ربما بسببها، وبسبب أن الملحمة السورية الراهنة لم تكتب بعدُ، وإن كانت تصنع في كل ثانية عبر الدم والموت والخراب، ثم أليس هذا المطر من ذاك الغيم؟!

لقد قلت إن تجربة السجن كتب عنها وقيل فيها الكثير وربما في كل زمان ومكان، لكنها ـ وبحدود معرفتي ـ كانت على الغالب ـ عدا بعض الاستثناء وعباس منه ـ تركّز على السجين في أحواله في مواجهة القمع وداخل المعتقل بشكل خاص في حين أن ما فعله عباس يشكل إضافة جديرة بالإعجاب والتقدير لأنها تضعنا وجهاً لوجه أمام الانسان في أعمق دواخله ـ وليس أمام السجين فحسب ـ وفي كلّ أحواله وصوره من أقصى القوة إلى أقصى الضعف مبرهناً على صدق المقولة: لا سقف للسموّ ولا قاع للانحطاط. وسوف يلاحظ القارئ ـ دون تعب ـ أن عباس لا يكتفي بالتركيز على القمع والتعذيب والموت والآثار المدمرة لها. بل على الحياة جنباً إلى جنب مع كل ذلك إلى درجة يصحّ القول فيها: إن عنوان الكتاب يمكنه أن يكون «وشائج الموت والحياة».

وهو بهذا المعنى لا يعالج الدمار المادي والمعنوي في السجن ليستدرّ المشاعر والدموع عطفاً أو إشفاقاً أو رثاءً أو ما شابه، ولذا فإن البكاء الحارق والتعاطف العميق هو ما يجعل الدمع الحار ـ حال انهماره ـ استجابة طبيعية لهذا التدفق الجارف للسيل الإنساني العميق في سبيل الحرية والعشق والجمال والنبل. في سبيل العقل والقلب. مثلما هو استثارة لكل ما في الروح البشرية من عنفوان وقيم ومسؤولية من أجل امتلاك القوة المعنوية الضرورية لمقاومة الطغاة والقتلة والمجانين، ومن أجل العمل دائماً وأبداً حتى لا يتكرر هذا الذي جرى ويجري في أي زمان ومكان آخرين عبر كل الوسائل بما في ذلك جعل تجربة السجن نفسها جسراً إلى ذلك.

إن هـذا التـدفـق غير المجاني للـمشاعر الإنسانية وصدقها وحرارتها

وقوتها، وقوة النداء الداخلي العميق إلى حد الفجيعة هو ما يجعل من عباس ـ وأمثاله ـ مناضلاً من طراز رفيع، مناضلاً مثل خيط الحرير، أقوى من الفولاذ، وأنعم من الياسمين، وفي بعض الأحيان أوهى من بيت العنكبوت،

ـ إنّ نصّ عباس لا يقتصر على ما سبق أو على التركيز على التجربة الذاتية حتى في بعدها الإنساني الهائل، بل ينتقل بنا إلى تجارب الآخرين داخل وخارج السجن وهي كثيرة ـ وهو ينداح بينها كي يحبكها بعناية وصدق وأناة وصبر ـ طوبى لمن كان صبره أطول من عمره ـ مركزاً في أحيان كثيرة عليها أكثر من تجربته الذاتية، وفي هذا البعد الغيري ـ بعد الآخر ـ تكمن سمة من أهم سمات نص عباس، وهي السمة التي تعطيه الحق في أن يشكل إضافة مميزة من الغالبية الساحقة من نصوص السجن التي تعرّفنا إليها ولا نزال.

ـ في سياق التميّز المذكور يُسجل لنص عباس أيضاً الاهتمام البارز بالضفة الأخرى ضفة الخارج ـ خارج السجن ـ حيث الحيّز الأوسع للمرأة العاشقة، الزوجة، الأخت، للبنت، للابن، للأب، للأخ... الخ ويرصد بإحساس مرهف المعاناة اليومية لهم جميعاً بدءاً من نداء الحياة وانتهاءً بنداء الوفاء بكل ما بينهما وفيهما من الصراع العنيد. إن إصغاء عباس المرهف لكل الأصوات ولكل الفئات العمرية والاجتماعية داخل السجن وخارجه بما فيها تلك التي تحمّل السجين المسؤولية ـ بل والتعاطف التام مع هذه الأصوات أحياناً ـ هو ما يجعل من النص الذي بين أيدينا آية في الشمول والعمق والرحابة والتسامح والتفهم الساطع، وبخاصة إذا تذكرنا تلك النصوص الإنسانية السامية عن الولادات والمواليد في السجن وعن حيواتهم في هذا المكان الكئيب وعن المواقف الإنسانية التي صدرت عن القسم الأعظم من المعتقلات السياسيات وغير السياسيات بدءاً من لحظة الحمل والخوف من الفضيحة وصولاً إلى الولادة مروراً

بالانتظار المرير والخوف الفظيع على حيواتهم وكذلك الأمر فيما يتعلق باختيار الأسماء والقلق العارم حول المستقبل الذي ينتظر البنات الثلاث إنْ في السجن حيث ولدنَ وإنْ في الحياة.

ولنا الحق بعد كل ما سبق أن نقول: من حسن الحظ أن القرطاس لم يحترق، وأن الكلام لم يترمّد تحت وطأة هذا البركان الشامل والفسيح من المشاعر والقيم والأفعال والأقوال، وإلا لكنا فقدنا سِفْراً من ملحمة إنسانية بامتياز تحيل المألوف في كل الحقول إلى كائن حيّ نابضٍ بالحياة والاعجاز ـ على وجه الحقيقة لا المجاز.

ـ على صعيد آخر، صعيد اللغة، ينتصب عباس ـ مثله في ذلك مثل كل القامات السامقة التي عرفناها ـ لاكتشاف اللغة من جديد فهو يعجنها ويخبزها ويلهو بها كيفما شاء دون أن يأبه كثيراً بالقواعد الصارمة المتوارثة ذاهباً في ذلك كل مذهب، بخاصة فيما يتعلق بالظروف والمصادر والإضافات وحتى الأفعال.

ليس هذا فحسب، بل لقد أجاد أيّما إجادة في توظيف الرموز الدينية والأساطير والأمثال والحكم الشعبية والثقافية جاعلاً من هذا الدفق اللغوي والشعوري سداة النص ولحمته المندغمين في وحدة ليس منها فكاك، وصولاً إلى الهدف الأمثل الذي هو معرفة الإنسان بنفسه ولنفسه أينما ومتى وكيفما كان عبر الانفجار العاصف للكينونة الإنسانية بكليتها دون حدود أو سدود بكل العري الإنساني النبيل والجميل بعيداً عن سموم الخجل والخوف والشعور بالنقص والذنب والعاروالغطرسة والوهم والكذب والكبرياء المريضة، وقد واكب عباس ذلك كله بإعادة اكتشاف الطبيعة والحياة من الجماد إلى الإنسان، من الشمس والقمر والشجر والزهر إلى الزمن والحلم والوهم والحرية، إلى المرأة والعشق والحب والمحبة، إلى الايديولوجيا والسياسة والتمرد والتطور والتحقق والحضور وقد ذهب بعيداً في كل الجهات والأعماق لإعادة الاعتبار الرفيع للحياة

بكل ما فيها، وعبر الولادة الدائمة لها مرة إثر أخرى بلا توقف ولا خط نهاية.

وقد بلغ في ذلك قمة القمم عندما عانق الإنسانية الكونية وهو يوصي ـ حال وفاته ـ بأعضائه لمطلق إنسان بغض النظر عن أي محمول له باستثناء الحاجة الفعلية بما يسمح بالقول: في منظور عباس للإنسان تتبخّر كل الانتماءات الدينية والطائفية والعرقية والقومية والايديولوجية والأفكار القبلية ولا يبقى راسخاً أمام هذا العناق الكوني الرفيع إلا الإنسان. فطوبى لك يا عَبْسُ وطوبى للإنسان بك وفيك.

بقي أن أشيرإلى بعض الملاحظات الشكلية كي لا يكون هناك أيُّ لَبسْ من مثل:

1 ـ إن النص يقوم على بعض البعثرة الزمانية والمكانية، إنْ يكنْ في تسلسل الأحداث، أو تسلسل الأمكنة، أو في أحيان قليلة جداً داخل النص الواحد نفسه ـ وعلى سبيل المثالنص سقراط الصغير الذي هو نصٌ المراهقة في الأسر، نصٌ التوأمين وما ذلك إلا لأسباب فنية يعرفها أي قاصّ مبتدئ سواء أكان الأمر في بنية النص أو فن القص، أو النهاية المفتوحة... الخ وقد اتفقنا ـ ثابت أخوه وأنا ـ على قاعدة التفويض الواسع الذي منحنا إياه عباس في بدايات كتابه ـ أقول اتفقنا على أن نترك البعثرة المذكورة على حالها دون أي تدخل منا كي يستطيع القارئ الإمساك بالنص الخام، ايماناً منا بأنه سيكون ـ في هذه الحال ـ أصدق تعبيراً عمّا أراده عباس وهو يبني نصّه، ناهيك عن أن ذلك سوف يكون أيضاً تجسيداً لتبعثر عباس نفسه ولبعثرة عمرنا وزماننا ومكاننا ومصيرنا ومصير القارئ معنا.

2 ـ كما اتفقنا على ترك علامات الترقيم على حالها حتى في حال الخطأ، ما دام المعنى مفهوماً مع التدخل عندما تكون هنالك إساءة فادحة للمعنى فقط، كما تركنا بعض الأخطاء اللغوية البسيطة كي لا نثلم أصالة

النص وروحه، بل حتى «فجاجته» أحياناً، ضاربين بالقواعد الجامدة، وبإغراءات البلاغة الشكلية والفصاحة الموروثة عرض الحائط.

3 ـ لقد تركنا أيضاً تصنيف هذا النمط من الكتابة على الرغم من وفرة الإيحاءات التي تحيل إلى هذا النمط أو ذاك من مثل سفارة، سفر، شهادة، صور... الخ، وما ذلك إلا لأن النص يفيض عن هذه الأنماط ولا يقبل الاندراج تحت أي نوع منها، فلا هو بالرواية التوثيقية على الرغم من أن فيه كثير من ذلك، ولا هو بالوثيقة الروائية على قربه من ذلك ولا برواية الرسائل ولا ملعب الخواطر ولا...الخ ووجدنا أن أي محاولة في التنميط ستبوء بالاخفاق، وستسيء للاسم والمسمى معاً. الأمر، الذي جعلنا نترك كل شيء على حاله.

وإذا أراد أحد أن يجد اسماً للكتاب فهو حر فيما يريد وقد يكون الاسم التالي واحداً من بين أسماء كثيرة وهو «صور وأحوال وشهادات إنسانية».

أخيراً أجرؤ على القول: إن نص عباس هو عباس نفسه إنه كائن حيّ بكل ما في الكينونة الحيّة من حضور وطزاجة وحيوية واندفاع إلى معانقة المحال.

إني أرى العَبْس عبره حاضراً في كل كلمة، في كل صورة في كل حال في كل شهادة، في كل حلم أو كابوس، في كل نقد ذاتي عميق لذاته ولحزبه ولمجتمعه، في كل إعادة نظر في الايديولوجيا والفكر والسياسة، في كل مراجعة للمسلمات في الحياة والسياسة والأخلاق، في كل لمسة تطور على صعيدي النظرية والممارسة في كل تخليق وإبداع في الفعل والقول، في كل خيط من نصه المغزول من اللحم والدم والعظم، والعقل والقلب والحلم والعزم، ـ بل حتى في الهزيمة ـ نعم الهزيمة لا الانكسار، في كل الشبق للحياة والعشق والحرية.

ولأنني أزعم أنني صديقه الحميم ـ بل ربما على الرغم من ذلك ـ يحق

لي القول دون تردد أو تحفظ أو أي إحساس بالخطأ: إنني لا أغبط العَبْس على نصه فحسب بل إني أحسده عليه دون أيِّ شعور بالذنب على الإطلاق.

طوبى لك يا عَبْسُ حيّاً وميتاً، وطوبى لكل الذين عرفوك أو كانوا جزءاً من حياتك، أو حتى مرّوا فيها مرور الكرام، بل مروا فيها مجرد مرور.

أصلان عبد الكريم

خاصرتي ضعيفة، وروحي أبداً كانت تحتاج إلى كتف، وحين أحضروا جسدك ممزقاً مهشماً وآثار الضباع غشيمةً في كلِّ ثناياه، كان بريقُ عينيك ورونقُ روحك ونبالتها في ظلِّ ابتسامةٍ لم يرها أحدٌ غيري في تلك الغرفة الضيقة المحتشدة بكلِّ ماأنجزه الكفرُ البشريُّ من أدوات القهر والتعذيب.....

كان هو(عباس) كلَّ ما رأيت. ولم أنكسرْ بعدها، وأظنني لن أنكسر بعدها، وأظنني لن أنكسر يوماً، لأنكَ مازلتَ حيّاً وستظلْ.

راشد صطوف

الفصل ما بعد الأخير

وصية

رجل في نهاية العقد الخامس، موفور الصحة والوجدان والنسل، نومه عادي ويقظته كالنسيم. يتحاشى الخصام، وحكمته الدائمة، حتى في لعب الورق: الوعاء الكبير يستوعب الصغير. محكوم بالأشغال الشاقة المؤقتة لمدة عشر سنوات، مع الحجر والتجريد لسبعٍ أُخر.

«والله لن أُخرج من أغراضي شيئاً، أريد أن أنسى»! قال أبو حمود هامساً في أذن جاره.

تناول أبو حمود عشاءه، وراح يتسلّى بلعب الورق مع أصدقائه. بعد دقائق اعتذر عن اللعب ونهض، ثم تمدّد على فراشه. علا صوت تنفّسه وانتظم. تابع أصدقاؤه اللعب. فجأة انتفض جسده، ثم همد مرةً وإلى الأبد. صراخ وأصوات استغاثة تطالب بإسعافه. حضر الطبيب ـ السجين، وبذل كافة جهوده، مرفقةً بطمأنة وجِلة، لكن الرجل فارق الحياة.

في اليوم التالي نُقل إلى أهله، مرفقاً بتقريرٍ رسمي من المشفى العسكري يؤكدّ وفاته بسكتة قلبية. كانوا قد انتظروه عشر سنين. بعد أيام من هذا التاريخ ورد اسمه في رأس قائمة المُفرَج عنهم.

سجَّل أبو حمود سابقتين سجنيتين معاً: على عتبة الكهولة وإخلاء السبيل، أُفرِج عنه قبل مجموعته بعشرة أيام، ولكن ميتاً؛ فأوفى بيمينه، تاركاً أشياءه والفراغ. والسابقة الأخرى كانت ميتة بلا سكرات، جليلة وهادئة. خمس دقائق فقط وانتهى كل شيء، ما خلا ضحكته التي ظلت تدوِّم في سماء فجيعتنا لتستقر أخيراً على وجهه وتكفِّن جسده المسجَّى. كان ثمة كلمات تعلو شفتيه، مشفوعة بابتسامة بدت في مكان ما من ملامحه؛ لكن الموت لم يمنحه فرصة لقول وصية أو ترك أمانة.

هنيئاً أيها الأولاد، لقد أُغلقت دائرة يُتمكم، وأنت يا حمود صرتَ رب العائلة!!

* * *

كانت ميتة هادئة رحيمة، جاءت أثناء نومه خالية من ألم المعرفة المسبقة وخوف الانتظار. لا أرغب أبداً في ميتة كهذه. فلتأتِ مفاجِئة، لا بأس، ولكن أتمنى أن أمنح فرصة أقول خلالها شيئاً ما لمن أحب، وللناس أجمع. لا يهم إن كان موتي يعنيهم أم لا. لعل أسوأ ما في الموت أنه يدهمك وأنت ما تزال تدرك أن ثمة ما يمكنك أن تفعله غداً، أو بعد غد، بعد أسبوع، أو في السنة التالية.

كلمح البرق يجتاحك الحاضر بأسئلة كنت تخبئها لوقت آخر: هل تحليت بشجاعة الكشف عما لك وما عليك؟ هل قلت ما ينبغي لك أن تقوله؟ هل حملتك راحلةُ الانتماء إلى منعرج تجاوزت فيه ذاتك إلى ما صار يميزك ماضياً وحاضراً وغداً. هل ابتنيت حلماً غير الذي صاغه لك الآخرون؟ وإن فعلت، هل أشهرته على مرأى من كهنة الأغلال والحصار المحلَّفين لاتهامك بالمروق والهرطقة وأعراض الجنون!! هل قدَّمت للحياة ما يكافئ العمر الذي وُهِبتَه؟ وهل تسكن روحَك طمأنينةُ الرضى عن النفس، أم ينتابك شعورُ البهلوان قبيل السقوط؟

كثيرة هي الأسئلة التي قد لا يتسنى لك الإجابة عنها حين تتلبَّسك فكرة الموت، لأن كيانك يغدو قيد اللحظة التالية. وحين يقام الحدُّ على عمرك تصبح تلك الأسئلة المتعلقة بالماضي في عهدة غيرك، فيجيبون عنها، كلٌ على هواه، متمتعين بحرية غيابك الأبدي.

* * *

هذه الميتة العاجلة ألهمتني أمراً لم أفكر به من قبل، ألحت عليَّ في الحلم أولاً، وفي اليقظة تالياً. ولم يمضِ وقت طويل حتى تبوأني فجأة حوار فصامي:

- أيها الطاعن بالقلق، أنت تشاكس الريح!

سكتُّ. كانت أمواج اضطرابي بين حركة وسكون.

- رخاؤك الروحي مبعثر، وخيالك يشبُّ كمهر. فارحم فوضاك واسترجع إن استطعت تلقائية الصراخ، وإن تعثرتَ في بعض الطريق، أطلق جناحيك. وكلما استطالت تجاعيد خوفك، قلِّمها؛ عندئذ، مُتْ كما يليق.

أثملتني مسارَّته. أحسسته صوتاً مشفِقاً ومخاتلاً في آن!

- وماذا بعدُ؟ سألتني.

لم أُجِب. انتابني صمت صوَّاني، واتسعتْ فيَّ البراري، وجدتني لا أزال حيّاً. كان حتفي يجوس بعيداً، في مكان ما، منتحلاً هيئةً لا تُرى. راقت لي هذه القطيعة بين الموت والحياة.

- «سأحيا إلى ما بعد المائة عام». قلت هامساً كي لا يسمعني الموت.

شعرت كأن السماء ارتفعت قامتين.

نظرت مواربةً إلى الخلف، كما يفعل نصف الخائف. كان ورائي عقد

ونيف من الليالي المفخّخة، وخمسٌ وأربعون سنة من الدَّين الحياتي المؤجَّل. أقتفي أثري في السنين، فأراني معلّقاً هناك كأي كَفَنٍ شِعري يفصّله العرّافون والشعراء والغاوون قبل الفداحة بإشارة. أعدُّ الموتى والموتى المؤجلين، والأحياء إلى أجَل، فتحفُّ بي سحابة من العويل والهديل تخلخل جهاتي الخمس.

المواجع حولي بلا أنين: كثر من سبقوني إلى هذه الدرب، أصدقاء قدامى، وأصحاب لم أكن أعرفهم من قبل. أتلفّت حولي، أتلصص على خاطري، متفقداً ساحل روحي. أخال الرمال انحسرت، وزوايا صبري انفرجت. فجأة يحطُّ طائر الذكرى على أغصاني ويدوّنني عاماً بعد آخر. يباغتني حصاري طالباً النِزال، فيرشقني بزخّة من اليأس وبضع غوايات، تاركاً لي حيلة الاستسلام تحت السلاح:

ـ إليك شراعاً وزوَّادةً للرجوع!

في هذا الخليج، الذي كلما دانيته نأى، كان لي بضعُ سنوات أُخر من العوم والتثنّي وابتلاع الملح، وأمامي مدى من الأسوار والبوابات الموصدة. قلت، رافضاً رتاج الخيبة: ثمة ما تضمره الطبيعة للرمق ما قبل الأخير.

ـ وهل يمكنكَ العوم أيها الكهل؟

قلت: «أجرّب».

ـ وأصفادك؟

ارتعشتْ آونتي الأخرى، وجدتُ كاهلي ينوء باحتمال الهلاك. رفعتُ ذراعي لعلَّ موجةً توكِئني، فاصطدمت بالجدار وعادت متهالكة. أسندتُ مرفقي إلى الأرض، ونظرتُ دوني؛ كان درباً من السوس يفلُّ

عظامي. حاولت نهوضاً على ركبتيّ، فتناهى إلى سمعي فرقعة عظام متآكلة، تهاوى جسدي.

في خضم هذه الهلوسات انفصلتُ عني وغفوت. وبعد وقت حسبته دقائق قليلة استيقظت، أو هكذا خُيِّل إلي. انتظمتْ أنفاسي الربوية، وصارت قصباتي بلا حشرجات؛ شهيق خالص جعلني أنهض. جلست إلى طاولتي الكرتونية، وأشعلت كوة مصباحي الباهت. كانت هيولى السكينة تغشى أحلام كل من معي في المهجع.

تركتُني على رِسلي بعد أن أزحت من حولي كل ما يمكن أن يحرف انتباهي، وأدنيت وجهي من أوراقي البيض ما أمكنني. أحسست أن الصورة، التي لم تبرح طاولتي أبداً، ترمقني بعتاب صامت لم ألمحه طيلة السنوات الفائتة أسدلت عينيّ على الصورة وأزحتها باستغفار.

قلت: في هذه الأمكنة المناوئة لشرائع الكون، حيث العمر قابلٌ للتوقف في أي لحظة، حريٌّ بك، وأنت أسير، أن تنتزع حريتك مرةً، فتهب نفسك لشقائق الحياة دون أن يقوى أحد على مقاضاتك. حتى إذا اقتربتْ الساعةُ وانشقَّت نِياطُ القلب بغتةً، تكون روحك مطمئنّة أنك كتبتَ وصيَّتك الأخيرة، وأن مشيِّعيك سيدوِّنون على شاهدة قبرك: «مات توقاً إلى الحياة».

إن كان شرعنا النسيان، فلأننا نحتفظ ببعض طبيعتنا البشرية على نحو ما، ولكن حين يطوي النسيان ماضينا القريب وهنيهاته العاتية، فكأنما تحجرت ذواتنا، ولم يبق منا سوى أطلال ذاكرة وبعض ركام.

لا مخططات مسبقة ولا أطر، وإنما أفكار وشخوص وحوادث ارتسمت تلقائياً في سياق طبيعي لحياة غير طبيعية. كنت أشعر أحياناً أنني أشبه بعقلٍ صرف، جافٍ وبارد، وأحياناً أخترق حدود المكان كي أستطيع التكيُّف مع ما يقتضيه الحال، متوارياً خلف أسماء وأماكن لا

شرقية، وتهويمات وأساطير ورؤى، لعلَّ ما دوَّنتُه على مدى تسع سنين يكون أقل إيلاماً مما كابده شخوص هذا العمل.

أحياناً أخرى كنت أجدني شِلة من الخيوط الوجدانية المتشابكة، الممتدة نحو الدنيا. وغالباً ما كان يبرز أمامي خيال لشخص كأني أعرفه، تنبض له خلاياي وأحدثه كما لو أنه ندّي، يهامس مجاهلي، وينزع عني التوسفات العالقة. وكلما أوشك صبري على النفاد، يعود للتجدد من حيث لا أدري، فأشعر كما لو أنني تطهّرت من كل ما مضى. حينئذ كان لا بدَّ لي من تكبُّد ما يقتضيه التناسخ الجديد من تجلُّد لدى كل عوم مجهول وسط التيار.

هذا الدرب الإنساني المديد، الذي عبرته برفقة الكثيرين، جعلني حلقة في سلسلة بشرية، متصلة ومنفصلة في آن. معتقلون انتزعهم «العتو» من معركة لا متكافئة، ثم، إمعاناً في بهيمية الانتصار، أراد إخراجهم عن سكة الحياة. بشر مؤهلون للعيش، تطحنهم مسننات هذه الآلة الأسْرية الغاشمة. ولأنه يستحيل ذكر هؤلاء جميعاً، فقد وجدتني مضطراً، بعشوائية حيناً، وانتقائية أحياناً أخرى، لتضمين الكل في الواحد والواحد في الكل بغية الإنصاف ما أمكن والتماس الشفاعة ما أمكن.

لا كتب تفي، ولا مدوَّنات. فالخسائر، على فداحتها، لم تبلغ نهاياتها كي تُحصى. وهذه الخبيئة من أوراق الأسر المهرَّبة انتحلت أمكنة وأزمنة وأسماء وجغرافيا ومفردات، فخرجت على شكل ترجمات أو اقتباسات خلبية تمويهاً على هويتها السجنية.أوراق ملأتها سِير انضفرت بوشائج الموت والحياة. ذواكر لأناس أفصح قليلهم واكتتم كثيرهم تواضعاً أو خوفاً أو تفادياً لوجع الإدلاء بشهادة دمهم المهدور وهزائمهم.

ربما تبدو بعض هلوساتي ضرباً من الوسواس أو أي عَرَض نفسي ترتأونه. ولكم الحق في أن تقولوا ما شئتم إزاء هذه التحوُّطات؛ ولكن لي

الحق أيضاً أن أذكِّركم بأن الكثيرين ممن أعرف قد قضوا في هذا المكان، أو في الخارج، بعد أن أُطلِقوا. قضوا على نحو مفاجئ، ولم يكن يبدو عليهم نذيرُ الموت قط. بعضهم تداعى جسده ما إن لامس الضوء والأوكسجين كما يحدث للقية أثرية حالَ تعرضها للهواء، وآخرون أودى بهم التعذيب أو مرض عضال، أو أزمة قلبية مباغتة، ومنهم من اختار انتحاراً طبيعياً مذ تراءى له مشهد الحياة بكل عريه واتساعه ووعورته، فتفادى بذلك معصية الجنون.

وسط هذا الهشيم، لم أصل بعدُ إلى موقف من الحياة والذات يجعلني أُقدِم على شجاعة أو هروب أو عجز كي أتكبَّد انتحاري. وكذلك لم أعانِ حتى الآن من مرض عضال قاتل. ما زلت أخفق وآمل وأضحك وأبكي وأغني، مازلت أتضور شوقاً إلى الحرية، وما زال الحنين إلى من أحب يرفعني إلى السماء السابعة فوق الأسر.

أترك كل احتمال آخر، قصيّاً كان أم دنيّاً، وأقول إن قلقاً يستحثني لتدوين وصيّة، على سبيل الحيطة وكثير الأمل، وأنا بكامل ما تبقّى لي من قوى. وصيةٌ محمَّلة بتركة موجَّهة إلى امرئ غير مسمّى، ولا يُشترَط به أبداً أن يكون حاملاً لهويتي القومية أو الوطنية أو الدينية، يكفي أن يكون كونيَ الهوى، رافضاً أي تمييز بين البشر، متحيزاً للإنسان بوصفه القيمة الأسمى، ويمكنه تحمُّل وِزر هذه الأوراق بحرص ومسؤولية أخلاقية وثقافية وتقنية بغية إيصال مخطوطاتي إلى أوسع مدىً ممكن.

يحق لهذا المخوَّل ألاَّ يذكر اسمي إلاَّ بوصفي واحداً من ملايين يرومون إلى عالم لصيق بإنسانيتهم، عالم يمكن له أن ينصف موتنا ومعاناتنا بقدر ما كان مقصّراً عن ذلك خلال حياتنا. عالم يعيدنا بشراً ذوي صلاحية، أسوياء العقل والجسد والنفس والروح، بعد أن جُعِلنا لزمن طويل مجرّد أرقام أو صرخات في تقاويم الجهلة.

يحق للمعني أن يعيد تشكيل كتاباتي بالترتيب الذي يراه، وليس لي أن أطالبه إلا بالمحافظة عليّ لغةً وخواطر، ويسعفني بالبقاء كما أنا، في تناقضاتي الإنسانية الأصيلة، وانسجامي، ونزقي، وفساحة صدري، وغبني واندفاعاتي وإقدامي وتهوّري وغواياتي ومواطن ضعفي. وكذلك الحفاظ على أولئك الشخوص الذين تقمّصتني معاناتهم دون حساب لاختلافي أو اتفاقي معهم، أخصُّ أولئك التسعة عشر شاهداً أو شهيداً احتمالياً الذين كانوا صبحي وفجري وسَحَري وضُحاي وصباحي ونهاري وظهيرتي وعصري ومغربي وعشائي وليلي وغسقي ودُجاي وجِهاتي من أقصى الوجع إلى أقصر الفرح التدمري الأخرس. أولئك الذين اشتعلوا معاً فأضاؤا جميعاً، سوى جمرات ثلاث (عماد ومحمد وعدنان)، أولهم قتله الأسر وثانيهم قتلته «الحرية» وثالثهم قتله البحر.

يحق لي أن أطالب من يرسو عليه الاختيار بالتدقيق والمتابعة واستنفار ذواكر الآخرين، وإعادة تجميعي، بما في ذلك الكم الهائل من المراسلات التي أضعفت كتابتُها بصري، وتلك التي منحني أصحابها الحرية في تضمينها على شكل نصوص كاملة أو اقتباسات، بتصرفٍ أو كما هي.

يحق أيضاً لمن ترسو عليه الوصيّة أن يلتقي أولئك الأطفال الذين كبروا - «مثل الكذبة» - في غفلة عن أمهاتهم حيناً وآبائهم دائماً، وهم يمضون سني غرارتهم وطفولتهم ويفاعتهم بملامح يصرون على ألاّ تبرح عيونهم وذواكرهم وشطحات خيالهم. إذن يحق له، وينبغي عليه، أن يلتقي بهم، ويسمع منهم ويقرأ مذكراتهم ورسائلهم وأشعارهم وأحلامهم وهواجسهم والخوف الذي سمّر مخالبه في وسائدهم، وبين قضبان أسرّتهم، وفوق السبورة المدرسية، وبين كتبهم، وفي شعور البنيّات وألعابهن الفقيرة.

سيكون أمام من ينوء تحت وصيتي فرصة التعرُّف على نماذج مختلفة

مـن أحـلام اليـقـظـة التـي كـانت تـقـضُّ مضـاجع أصحـابهـا، من مختلف الاتجاهات، وسيجد الأحلام الضائعة والجهود المهدورة وموت الآمال، وعلى بقايا الأرواح التي احتفظت، كجذوع الشجر، ببعض ريَّاها، فظلَّت متشبثة بالحياة ومشتبِهة بنفسها، وقد وردتني، بخط اليد أحياناً قليلة أو شفاهاً، استجابة لسؤال في غاية الفضول. كان ذلك في النصف الثاني من عتمة العقد الأخير للألفية الفائتة.

بوصفي الآن رهن الحجز والوصاية، واستتباعاً، التجريد لما بعد سبعة أعوام من الإفراج، فقد حددت خمسة معنيين بتنفيذ البند الأول من الوصية: وليتَيّ أمري (اللتين لم أجرؤ على إبلاغهما)، زوجتي، وابنتي القاصر التي دخلت سنَّ الفضول المعرفي، وصارت تميز بين حضوري والغياب، وبين يُتمها المجازي والاحتمالي؛ أما الثلاثة الباقون فأبلغتهم وجاهياً.

يفترض بهذا الجانب من الوصية أن ينفَّذ حصراً بعد مرور عام واحد على الأقل أو عامين على الأكثر من انتفاء كينونتي.

أما الجانب الآخر فأترك حق تنفيذه إلى غُصْنَيَّ وجودي، عائلتي الصغرى وعائلتي الكبرى، سندي في الغياب؛ وأناشدهما الموافقة ـ مهما الألم ـ على التبرُّع بأي عضو من أعضاء جسدي يمكن الإفادة منه لإنقاذ حياة امرئ أو أكثر من مواطنيَّ الكونيين، أو تجنيبه البقاء مقعداً أو مشوَّهاً، على ألاَّ يكون قادراً على دفع نفقات علاجه، وأن يجري ذلك في البقعة التي تشهد غيابي الأبدي.

ما زال الخلود محالاً، فلمَ لا تسعدُ أرواحنا بعد الموت أنَّ لنا عيوناً ترى بمرح في محاجر الأحياء، وآذاناً تسمع الغناء والبكاء على السواء، وقلوباً، وأكباداً وكلى وأيدٍ وأرجلاً! أراهنُ أن روحي المفارِقة سترقص حينئذ طرباً لأن الجسد الذي سكنَتْه لن يموت قبل أن يؤدي شيئاً من واجبه مرتين.

إهداء

إلى حرية لم نستطعها شمساً، فابتعثناها في عتمة الزنازين.

منذ لا أدري وذلك الصوت العميق يلّح علي، يلاحقني كظلي، يحشو رأسي بأفكار كأنها قادمة من عالم بعيد سبق لي أن رأيته من قبل. يلاحقني تارة، ويتركني تارة أخرى نهباً لأمواج الرفض والقبول التي تتلاطم فيَّ، وتتصارع في حلبة صدري وعقلي، دون أن أهتدي إلى قرار. وكثيراً ما باغتني ذلك الصوت آمراً بلا هوادة: اكتبْ!

أحاول المناورة بالتردد! يتعالى الصوت، قاطعاً علي الحوار، يشوشني، زاجاً بي في لجة الدهشة والإغواء. أتريث عند خطي الدفاعي الأخير كجندي بينه والاستسلام ضربة يائس. ما الذي يريده ذاك المغوي؟

في غمرة التردد يبرز أمامي من جديد، يتربّص بي كقاصٍ غاشم، وسبابته مصوَّبة إلى وجهي كريشة من نار محمّلة بالأدلة الدامغة: الأوراق والشهادات المكتوبة والاعترافات، الحكايات المتناقلة، الحواس الجريحة، والأجساد المتآكلة.

أصمتُ، أتعثر في متاهتي، أتعرّق خوفاً من الخطوة الأولى، وحياءً من النهايات الزؤام، فكل واحدة أجحف من الأرق. ظهري إلى أربعة جدران ووجهي إليَّ. إنه شرع البدايات.

وابل من الأسئلة المواربة والحِيل ينهال علي: ماذا لو تكتب من وجهة نظر المغلوب؟

تروق لي مرارة الفكرة. تمثُل حقيقة الهزيمة أمامي بكل زؤانها وحنطتها، فتجعلني أرى غير الذي كنت أراه من قبل، وأدرك أن ضريبة إضافية ستفرضها لوثة المكان لدى الخوض في وحل التفاصيل ورمالها المتحركة: الوجوه والأمكنة والجدران والزيارات والأوهام والشباك المعدنية والخذلان والمفاتيح والورد المجفّف والأسلاك الشائكة والكوابيس والقبعة والحذاء والشمس وشحُّ السعادة.

هنا، في هذه اللحظة بالذات، ينفتح سبيلا لاختبار، مُغْوياً، متطلباً، ومحفوفاً بالمكائد المكشوفة بكل ما فيها من حواجز ومتاهات مستغلقة. تخال أحياناً أن زناد العقل ملك يمينك وأحياناً أخرى يخيَّل إليك أن موعدك المأمول مع القلم لم يكن سوى خدعةٍ متقنة، فتطول بك ترددات البداية، يفصلك عنها مشهد أو كلمة أو أداة نداء، أو أيّ مستهلٍ ممتنع. عيناك مغمضتان على الكون وعقارب الذاكرة تدور بجنون يقصُر عنه لهاثك. فجأة يأتي الدفق من مكان مجهول، فتنفتح عيناك من تلقائهما، وترتخي أوتار قوسك تباعاً، ويُطلَق سراحُ العقل، فتعود الأشياء إلى طبيعتها التي كانتها قبل اتخاذ القرار.

تبدو الكتابة كما لو أنها هروب مشروع نحو حرية تعايشها على الورق دون خشية من رقيب. الكتابة عن الألم المُجرّب مغامرة أخرى، قد تظلم مرتين، مرة كونها عاجزة عن إيصال كل ما نبتغي، ومرة لأنها تستعيد الفداحة بطواعية فظّة. وفي الحالين تكف عن أن تكون مجرد صفقة تُعقد مع اللغة أو على حسابها، بل تصبح بديلاً مؤقتاً عن الفعل ونسجاً على نول الحياة، سداته البشر ولحمته النفس والمشاعر والعقل والحواس.

تؤرقني تلك الأفكار والصور والمرارات، أشعر أحياناً كأن كتلة تقف في حلقي، تخنقني. نسق متلاحق من الحكايا المتدافعة عند عتبة الذاكرة؛ تتبادر وتتصادم كما لو أن كلاً منها تبتغي قصب السبق. قصص رعناء كصقيع الوحدة، وأخرى حميمة كالمرض. بُدٌّ من الاحتدام الشديد يرتع في تلافيف الدماغ، يندفع معاً أو ينكفئ معاً، وأنا أحاوله هدنةً ما لعلَّه يسلو قليلاً عن حريقي.

يعتريني فزع داخلي من تلك الأحاسيس والرؤى والهواجس والرغبات وهبّات الظنون وأحلام اليقظة وشكل الغد. لكن هذه الرأس اللعينة تواصل إقحامي في أتون مضطرم من اللغة الصامتة التي لا تولد عبر اللسان، بل تأتي من مطارح لا عهد لي بها. وبين الإقبال والإحجام، تنفطر، تتباطأ، تكبو قليلاً، ثم تستمد زخمها من جديد إحياءً لذكرى أو إمعاناً في قبول الموت أو امتثالاً لمشيئة العذاب.

لهفة قاصرة!

حاولتُ مراراً، واقترفت آثاماً لا تُعدُّ بحق عزيز الورق والأقلام ـ ليست أوراقاً للكتابة في الواقع، وإنما الأغلفة الداخلية والخارجية لعلب السجائر التي احتفظنا بها حتى نهاية العهد التدمري بكل عصوره الخشبية والحجرية والبلاستيكية والحديدية والنايلونية والكرتونية، وليست أقلاماً فعلية بل شرائح مشذبة من عبوات المراهم المعدنية كنا نحز بها أحرف الكلمات ـ وفي كل مرة كنت أسألني: لَمَ الكتابة؟ أهي عزاء مضمَر، أم ابتعاث مقروء لآلام كنت تحسبها في عهدة الماضي؟ تأوُّه خلاياك وأنت تسمع وقع السياط على جسد ليس لك، بل سليل أرومتك الآدمية؛ الصداع وتشنج الأمعاء والنشيج المخنوق لشقيقاتك في الزنازين المجاورة وزغاريدهن المضادة للانهيار. هل يحق لنا أن نكتب، وهل ينبغي؟ ألا يكفي هذا الوجع المورّث خراباً لسلالة أطفال فقدوا زغبهم

الطفولي في أحضان جداتهم وانتُهِبت دُماهم ليصيروا ألعوبة في يد الطغيان، ويافعين تلاشت مراهقتهم وسط الحطام، ويافعات انحلّت ضفائرهن المدرسية على قارعة البغتة؛ فانداحت آمالهم كلها إلى مجرد مواعيد أسبوعية أو شهرية أو سنوية أو عقدية لرؤية أمهاتهم أو آبائهم مقفَّصين، لا يقوون حتى على عناق؟

أكان الأحرى بنا أن نلقي بهذه التركة الباهظة عند أبواب مواطنينا الكتّاب كي نحظى باحتواء لائق ضمن مذكراتهم ودواوينهم ونتاجاتهم على اختلافها؟ ربما يصحُّ ذلك، بل يصحُّ دائماً، فكثر أولئك الذين صوّروا فداحات لم يكابدوا منها سوى مخاض الكتابة والتعاطف وهوى الذات. لكننا هنا، في غيابة هذا الشرق، كلنا في «الهوا شبه سوا»، حيث الخوف من مقصلة العقاب ما يزال جاثماً!! ولا أدري إن كنا سننتظر بعدُ طويلاً كي يتسنى لهم أن يدونوا، كما يشاؤون، ما تحرّقوا يوماً لإشهاره على رؤوس الأشهاد.

حين لا يكون سوى صرير القلم، وتُختزَل الدنيا كلها إلى صفحة بيضاء مترادفة الخطوط، ترغبُ لو يكف كل شيء عن الحركة كي يستقر لهاثك قليلاً وتهتدي إلى رأس الخيط الذي سيصلك بثوب الحكايات الممزّق. فأن تكتب، يعني أن تسلم قيادك إلى قدرٍ مرتعد الفرائص وغاشم في آن، يستنزفك بسخاء، وفي أحسن الأحوال، يطهّرك رويداً، فيهب روحك مذاقاً ما.

أحياناً كنت ألهو على هواي، وأعابث الزمن، فقط كي أدوّن في روزنامتي انتصاراً نفسياً على واقع الحال، بعنوان: «غاب نهار آخر». أعبُّ من تخيلاتي حتى الفرح، وأتمايل على شاطئ الثمل، فيغضُّ العقل رقابته عني، ويرمي بي حبوري وسط أمواج هادئة تحملني إلى شاطئ آخرَ أقلّ جوراً. المفردات هنا لا مجازية وليست ترفاً، فالروح حقاً تبلى وتيبس

وتتقصَّف، فيما الجسد ناءٍ عنها، يؤدي عاداته الفيزيولوجية فيأكل ويشرب ويتغوط ويتعذب وينام ويتعرق ويتجدد.

الكلمة سر عادل. تقترب وتنأى، تجتذبك وتنبذك، تملؤك وتمتصك. تحب وتكره؛ وكسائر خلق الله، تمارس استلاباً حقيقياً، وتحيلك عبداً وسيِّداً على السواء. الكلمة تسحر وتأسر، قد تأتيك طوع الخاطر، وربما تخدعك كما السراب. لها حساسية زئبقية، ومزاج متقلب، تارة على شكل صرح عظيم، وأخرى بهيئة قزم. وقد تكتسي ملامح أنثى تحبها، فتنتشلك من غابِ الأشياء والفراغ، وتغمرك بالسلوى. وفي سائر الأحوال لها مؤهلاتك وسجاياك ومواطن ضعفك وقوتك، إنها أنتَ في متناولك، فإما أن تشبهها كما ينبغي، أو تخذلها فتخرجك من أيقونتها إلى أسرك.

كنت أعتقد أنني سأفرج عن أوراقي السجنية بعد سنتين من إطلاق سراحي، ما ظننته مدة كافية لنقاهة جسدية وروحية وعقلية، لكن ما حدث لاحقاً كان مغايراً لحساب الحقل والعقل! وكل ما فعلتُه على مدى ست سنوات لا يعدو تأجيلاً قسرياً، وحنيناً دائماً إليها: أخرِجها، أفرشها أمامي، وأتداولها معي مراراً ثم أغلِّفها من جديد، إلى أن تيقنت أن الكثير من الخطط السجنية كانت «كلام ليل...» وكان ذلك، بقدر إيلامه، ضرورة إضافية لتعويدنا على الواقع وتحريرنا تدريجياً من بعض أوهام ما مضى.

ما أضعه بين أيديكم، أكنتم شهوداً أم قرّاء حياديين أم ضحايا محتملين، يتخطاني أدبياً، وفي هذا لا يستوي مبدعو الأدب الفذ مع مقترفيه. لم أشأ لسد الفداحات أن ينداح على غواربه المجنونة كي أترك لكم مطلق التأمل في ما شهدناه ومطلق الأمل في ما ينبغي أن يُنسينا جميعاً.

أبي، أيها الشيخ الثمانيني، لقد نأت المسافة بيني وشروق الشمس

الذي تشهده عيناك كل يوم، كما لو أن أغصان الفجر ما عادت تتبرعم، وكأن البنيّات ضيعن الينابيع، فاغفر لي بحة صوتي الذي شجّه الصراخ، أعِنْ كهولة ذاكرتي بصبرك كي أرتق ثوب الأسر وأشد عراه بكل ما أوتيت من خيوط وحيل، كي أخرجه من متحف العاديات. أعرني بأسك وخضرة إرادتك الصوانية كي أنتصر على برودة الشمس ورثائي، كي أقصِّر عمر التفاوض مع هذا الحصار، لعل وطناً، من شمس وندىً، يطلع على جميع أبنائه، ويخضِّب زنابق أطفالنا الذابلة.

في هذا اليوم، الثامن عشر من شهر العروات الخريفية، تشرين الثاني (غربي)، الخامس منه (شرقي) 2007، التاسع من ذي القعدة (هجري) 1428، 1724 قبطي، 5768 عبري... أكملت ست سنوات من طوري العمري الثالث، طور ما بعد الأسر، أو «الحرية» مجازاً. وسواء أكانت هذه طفولةً خريفية أم كهولةً حقيقية، فقد آن لحصاتي الموقوتة أن تكفَّ عن خنقي! سألفظها.

* * *

كثر قضوا دون أن يكون حولهم من يمنحهم النظرة الأخيرة. أغمضوا عيونهم على أسرارهم وقصصهم وانتهوا وحيدين في غياهب الزنازين. بشر من لحم ودم وكرامة، اجتُثوا من المعامل والشوارع والمدارس والثكنات والمشافي والحقول والمراعي ومخادع الزوجية والحدود وأكياس الرمل، انتُزعوا عن وجه الأرض ليخزَّنوا تحتها في علب الطوارئ ومستودعات اللحم الحي. لا فرق كبيراً بينهم، طاعنين في السن أم فتياناً، نساء أم رجالاً، منتمين أم بلا ظهير، مختلفين أو متوافقين، مادامت قصصهم الموجعة تُخجِل وجه الدنيا، وجِهاتُ حضورهم ما تزال شهادة دامغة على عقود من البهتان.

عَدلٌ «بروكوستي» بامتياز: «كان بروكوست، قاطع الطريق في

الميثولوجيا الإغريقية، يدعو الغرباء لزيارته في بيته، ثم يرغمهم على النوم في سريره الوحيد، فإن كانوا أطول، قطع الزيادة؛ وإن كانوا أقصر، شدَّهم حتى الموت، وهو يقضي عليهم في الحالتين لولعه الشديد بالمساواة التامة ـ المساواة من جميع الوجوه».

اعتذرُ منكم جميعاً، لا أستثني أحداً، أخص الموتى الذين قضوا دهساً أو صبراً أو انتحاراً أو بمرض كامن، تاركين لنا ألیافهم الروحية منسوجة بخيوط الضياع والتحمُّل والشجاعة واليأس والتهور والبأس والإحباط، فظلَّت أماكنهم شاغرة في مهاجعنا وعلى موائد أهليهم. أعتذر من الأحياء جميعاً، الذين خرجوا من السجون بلا حريتهم المبتغاة، وتكبّدوا مصائر مختلفة؟ بعضهم واصل حياته، واشتغل وتزوج ورُزق بأطفال جميلين، أو انتصر ليفاعته المهدورة فاستأنف تحصيله العلمي والاجتماعي، وآخرون كثر تقاعدوا عن كل شيء، مجردين، معتوهي الخواطر، خاضعين للرقابة الأمنية والنفسية والاجتماعية والأيديولوجية، والذاتية أيضاً. ومنهم من هاجر كي يُمضي نقاهة عمره على حنين البعاد، أملاً في أن يكون وطن الاغتراب أقلّ فتكاً من غربة في وطن، وثمة من ظلّ لصيقاً بظلّه كما الدرب.

يملؤني عرفان بالجميل حيال الكثيرين ممن سمعت قصصهم دون أن ألتقيهم، وأولئك الذين خوّلوني بمحاكاة لغتهم ومعاناتهم، وتدوينها على ذمة ذاكرتي غُفْلاً من أي اسم أو توقيع، مقابل ألاّ تُنتَهك وألاّ تُنتَحل، وأملاً في أن ترى النور لاحقاً وتصبح ملكاً للجميع. أما أولئك الأسرى والطلقاء، ممن تهيّبوا التصريح بشهاداتهم، فليطمئنوا أنني سأبقيهم في كنف الظل ما دام الويل قادراً بعدُ على التهام براعم قيامتهم الجديدة.

إن أخفقتُ في تمييز بعض علاماتكم الفارقة، فعذري أن ملامحكم متماثلة حدَّ الالتباس، وشفاعتي أن كلاً منكم سيجد من ذاته أثراً ما، سراً،

رمزاً أيديولوجياً أو اعتقاداً، رائحةً، جرحاً، طرفةً، رسالةً، شهادةً، صوتاً، حرفاً، أو دمعة.

أنا الطليق المحتمل حتى إشعار آخر، لم أكسر قوساً، ولم أقتل طريدة. فلو كنت فعلتُ، لكانت أناملي فائضة عن حقي بمقدار ندم. جريرتي أنني كنت ـ كما الكثيرين ـ أستنبت شعاعاً لقوسٍ قزحيٍ فانكسر القوس على رأسي، أجل على رأسي.

أنا السجين تحت الأرض ذو الرقم (6) و(13) و(4) والمزدوجة (2) و(1) فرع فلسطين، والرقم (6) و(17) و(13) و(11) فرع التحقيق العسكري، وفوق الأرض أنا نفسي الرقم (18) جديد و(24) و(صدر جديد) و(2) في سجن تدمر، والرقم (أيمين 4/ و ب يسار 5/ وب يمين 4/ وج يسار 1/ وأيمين 8/ وب يمين 9/ وأيمين 6 / وأيمين 8/ والرقم 36 تحت الأرض في سجن صيدنايا. هذه الأرقام قد لا تعني لكم الكثير، لكنها ليست على سبيل الترف، فكل من هذه الزنازين والمنفردات والغرف تختزن ملامح خاصة من الضوء والعتمة والرائحة واللون والدم والحزن والألم والأبعاد واختلاس النظر والسمع والشم وذكريات من مروا بها: إنها محفورة في أخاديد ذواكرنا وأجسادنا، وهي الأسماء التي ألصِقت بنا منذ أول غِمامة شُدَّت على وجوهنا حتى أول غَمامة هطلت فوق رؤوسنا «أحرارا». قد لا يغير في الأمر كثيراً أن يكون خصمُك حكَمَك، والقضاة الذين رُدُّوا إلى أرذل العمر اتخذوا ضدك قراراً مشفوعاً بضحكاتهم الساخرة دون أن يمنحوك الحق في رد الحَجَر، أو في الطعن. أنت دائن باقتطاع سدسٍ أو خمس أو ربع أو ثلث أو نصف أو مؤبَّدِ عمرك المشرقي على يد محكمة استثنائية طائشة وباطلة. ودائن أيضاً، إن أمدَّ الله شقاءك، بسبع سنوات أُخَر ستكون خلالها كائناً هلامياً، مجرَّداً من حقوقك، ومستبعداً عن لوائح الـ «ضد» والـ «مع» والـ «متحفِّظ» والـ

«مستنكِف» والـ «محتَج»، والمؤمن والكافر والموالي والمعارض والمواطن والرعية... وأنت دائن إلى أن يكف مواطنوك عن «أداء التحية للبزّة العسكرية والمتهم». تلك هي نثرياتك الدائنة كلها.

وأنا، سجيناً أم طليقاً، الطرف الأضعف في دفتر الحساب، مدين، ومغلول إلى إشعار آخر بقيدين، أحدهما أنني ولدتُ في الفجوة الفاصلة ما بين الاستقلال الوطني والاستعباد «الوطني»، وأنني أتذكر الأول حلماً، وأعيش الثاني كابوساً. ألمّت بي بذرة الواجب منذ الغبار الحقلي الأول على أظفاري، وأخذَتْ أغمارُ الواجبات المنزلية والمدرسية والعسكرية والحزبية والقطرية والقومية والأممية تتراكم حتى أطفأت حقوقي عن بكرة أبيها، بما فيها الحق في أداء الواجب بإرادةٍ حرة. ولا أتذكر قط أن أحداً تلاها على مسمعي أو عرّفني بها.

والقيد الآخر، الذي كان وما يزال ظلي ومظلتي منذ بدايات الملاحقة والتخفّي، فهو دَين معنوي، سليل السابق ونقيضه، لكنه ذاتي بامتياز، وأبهظ ما فيه صعوبة سَدادِه. فما الذي يمكن تقديمه لرجلٍ، انتحلتُ ذاتَه كي أتخفّى بها، وتقمّصتُه كي أمارس حقي الممنوع عليّ في النشاط وتجنُّب الاعتقال، سوى التماس المغفرة منه. لقد حملت بطاقته الوطنية لسنوات، وحفظت اسمه ورقمه وطوله ولون بشرته ولا علاماته الفارقة دون أن أتبيّن ما إذا كانت زمرته الدموية مانحة أم مكتفية بذاتها. مدين له بتوتُّره لدى فقدانها، وهدوء أعصابي عند الحواجز الأمنية، بحركتي وسكونه، بنومي وأرقه، بمرضي وصحته، بقلقي وطمأنينته المؤقتة، بمواعيدي النادرة مع زوجتي، بنداءات ابنتي لي «عمو» علناً و«بابا» همساً و «خالو» حيناً آخر، وهي دون الثالثة من العمر. وقد أصابتني بسببه تطيُّرات توأميّة. كنت أتساءل: هل يُعقل أنه مصاب الآن مثلي بحمى أو صداع أو التهاب في مجرى التنفس أو الأفكار؟ هل استُدعي

للتحقيق بسبب فقدان هويته، وهل آذوه؟

أخرجتُ بطاقتنا، ثنائية الوظيفة، من جيبي ورحت أتأملها. في البدء أحسست ببراءتي المنطقية و«القانونية» وأنا أستعرض الظروف التي أجبرتني على ممارسة هذا السلوك، ولكن سرعان ما حلّت بي رعدة ذنب أخلاقية. من يدري، ربما يتعرض الآن للاتهام والإهانة والتعذيب. خُيِّل إلي أنني أسمع صراخات براءته من تهمة دامغة. تقلّصتْ معدتي، ظلّت توبخني بوخز عميق غامض إلى أن استنصرتُه معلناً: أنا، حامل اسمك وإثمك، مدين لك بخضوعي القسري لمبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»! وكفري اللاحق بمبدأ «الضرورات تبيح المحظورات»!

مدين لبنات وأولاد يناجون حريتنا من بعيد، ويكتبون لنا المراثي والدعاءات دون أن يعرفوا أن كل رسالة منهم كانت زاداً إضافياً لرحلتنا مجهولة المصير.

أنا الرقم ـ اللا على التعيين ـ من بين آلاف المدينين لهذه التجربة الإنسانية الجليلة التي لا تُرجى لكائن، يلازمني شعور بالامتنان أولاً لمواطنيّ الأسْرين الذين عرفتهم في السرّاء والضرّاء، في قوة البأس والصبر واليأس والاختلاف، وتنافر الأمزجة والمواقف، والتمترس الأيديولوجي والتعايش الطوعي والقسري، وتقاسم الأمكنة الضيقة والشمس والسجائر، وقصور ذات اليد واجتراح الفرح وتبادل الخبرة والأنخاب والتهم والأتراح والزيارات والشتائم والهدايا المتواضعة. مدين لطفلة أُصيبت في كتفها بطلقة نابية من الطلقات التي رشقوني بها دون أن أُصَب؛ مدين لشجرة لثمتْ أولى جراحاتي وضمدَتها بالسلام والسلوى على مفترق حمص ـ تدمر، صنوبرة شرقية الانحناء وغربية الهواء؛ مدين لامرأة كنجمة الصبح، شايعت غيابي قبل الأسر وخلاله وبعده؛ مدينٌ

لصديقٍ أحبَّني وكره السياسة، فحمل بيتي أمانةً في غيابي، ولم يجرؤ على دخوله؛ مدين لرفيق ظلَّ يغسل لي ثيابي على مدى سنتين من الشلل الذي أصاب يديَّ؛ مدين لكوكبة من المحامين الذين تكبَّدوا الدفاع عنا في زمن تحولت فيه الألسن إلى مجرد كتل لحمية صمَّاء؛ مدين لأطباء مجهولي الأسماء، أرسلوا لنا الأدوية والشوكولا والشموع، وعالجونا بعد خروجنا من الأسر؛ مدين لأناس وعدونا بفرص عمل تناسب كهولتنا وقلة حيلتنا، وتؤمن لنا لقمة عيش كريمة؛ مدين لأهلٍ وأقارب ومتعاطفين ظلوا سنداً لنا على طول الخط؛ لطبيبٍ أو ممرض أو سجان اختلق كذبة بيضاء غطاءً لخدمة يحاسَب عليها في تلك الأقبية؛ لأم تمَّام التي شتمتنا قهراً، حين تسلَّقنا النوافذ لرؤيتها وهي قادمة إلى زيارة ابنها: «الله يلعن أبوكم واحد واحد، دبحتونا!» وهي لا تعرف منا سوى ابنها الذي أُعيد ثانية من محطة الإفراج الأخيرة إلى السجن، وبقيت تزوره لستة أشهر عُرفية أخرى.

ما الذي يفي أباً تصبَّرَه وأطفالاً يُتمَهم وزوجة قدرَها المجهول وأختاً أزرَها وأخاً نشيجَه وأماً أحلامَها الخائبة؟

هذا الرضُّ الوجداني كافٍ لخلخلة توازننا طلقاء ناهيكم بنا سجناء. أجل إنها مستحقات كفيلة بأن تنسُل منك خيوط الفرح واللذة والإبداع. في الأسر استطعنا أن نسرق ضحكة من «شر البلية»، وأن نستحمَّ بماء الوقت على كيفنا، ونختصم بغاية كسر الصمت، ونتحين مناخات «اللجنة المهجعية» ومزاجها لنختلق مناسبات تكفل لنا توزيع سيجارة إضافية، أو سندويشة ما، ونُمسرِح الألم إلى ملهاة كرمى لأرواحنا، ونطلق العنان لعفوية مكبَّلة بآلاف العقد. نتبارى في الشعر والشطرنج والنرد والتمارين الرياضية كي نصنع نِداً. وفي أقبية التحقيق كنا

نعتاش بغناء الصبايا ونغني لهن كي نطغى على ولولات التعذيب في الأعلى وحمحمات أجسادنا الجريحة في الأسفل. نتبادل الليل والويل وشيفرة المورس وروايات الاعتراف والنوايا والورقة والقلم والسُبُّحات والعقود المشغولة من نوى الزيتون دون أن يرى بعضنا الآخر.

دَين بفائدة مركّبة، وخزّ متلاحق في غير مكان من ذاتي السابقة والراهنة والتالية، وأنا، أرجوحة تتناوس بين أسرين!

* * *

الستارة الأولى

سفر الخروج

- «بردتْ قهوتُكَ. غطيتُ فنجانكَ بلقمة الخبز، الخبز الذي اشتريتَه لنا اليوم عصراً، العصر الذي شهد رقاد ابنتنا على صدرك، الصدر الذي كان حلم حياتي، الحياة التي لم نكد نمسك بها حتى أفلتت منا تحت شهادة قهوتكَ التي بردت، واللقمة التي ستصبح تعويذة الانتظار فوق مهد ابنتنا التي بلغ عمرها اليوم، 18 آب 1984، خمسة أقمار حليبية.

في هذا اليوم اللهّاب ألمَّ بي قلق حيال حركاتكَ التي لم أفهمها: أمضيتَ ساعة من التوضيب في السقيفة، حملتَ صغيرتنا ورحتَ تغني لها حتى نامت جائعة في غير موعدها، ولم تدعْ لي فرصة النظر في عينيك كي أقرأ مزاجك. مع ذلك، خمّنته من خلال تهرُّبك المُلح، واستطالة غنائك الحزين، ورأسك الحاني عليها. أنت لاتعرف أن آلة التسجيل كانت تتعقب حركاتك ومزاجك وصوتك، وبكاء الصغيرة. سجّلت كل شيء، وليتني لم أفعل! كنت أبقيت منك ذكرى مغايرة. ولكنْ كيف كان لي أن أستعيد تلك اللحظات الأخيرة التي أمضيتها معنا في بيتنا الصغير؟! تعانقنا عند العتبة كما صديقين يتوادعان قبيل الحرب. فجأة انكفأتْ حاستي الأنثوية إلى أمومة. ظهري إلى الجدار وصدري إليك، والباب مفتوح، وأنت، برائحتك الأولى تلك، تتبخر إلى الداخل، فيما جسدك الذاهل ينسرب مني كالخدر.

مضى حولٌ ونصف على ارتباطنا الحافل بالمواعيد المؤجلة والشوق؛ نهيئ القناديل المضادة للريح، ومزق المناديل لمسح العرق والملوحة والدمع. أجل، ستة فصول فقط عشناها معاً، نسرق لقاءاتنا ووداعاتنا من أوار رغباتنا الجريحة، وحين يعزُّ الوصول نتلامس في الخيال، وننام، كلٌّ على وسادةِ أرقِ الآخر. وفجأة، كأنها القيامة، جيئ بنبأ لم يترك لنا فرصة للكلام، فامتثل كلانا لنداء الخطر وحظر التريُّث. وافترقنا، أنت إلى فلك عائم وسط الظلام، وأنا في منعرج لايصل إليك؛ حتى صرت أرى غيابك بدأً وعودتك لقيا».

ـ «بقي البابُ مفتوحاً، تأيقنَ وجهُكِ هناك، وعند فسحة الدرج التفتُّ نحوكِ دون توقُّف. كان ظلي خلفي يهرم وينحني حتى تلاشى فيَّ تحت القنديل المتدلي من السقف. والرجل الذي كُنْتُه قبل لحظات أخفى خبيئتين في أنسيي عينيه وتخفّى ممتثلاً لاغتراب مجهول الأجل. على بعد مائة خطوة من البيت، وجدت السماء أضيق والأولاد يلعبون. أصغرهم أشار نحوي بسبابته، فأعاد إليَّ ظلي. لم أسمع ما قاله، لكن عيني تلعثمتا بشعره المُخيَّماتي المشاكس، فيما قدماي تسيران عكس الاتجاه المؤدي إلى بيتنا».

ـ «لحظة التفتُّ، اعتراني شعورُ امتلاكِ جهاتِ الدنيا الأربع. لم أغلق الباب، تركتُني أسمع خطواتكَ المبتعدة. كان صداها يرتطم بجدار قلبي. لحظتئذ، فقدت بعضَ الأرض التي أقف عليها. كان الصيف حاراً يا حبيبي، وكنت أحوج إلى دثار وألْف امتدادٍ كي أتبعك في وحشة الليل. فجأة! خواء مجنون ألهمني الغناء».

ـ أسمعكِ تغنين بصوتٍ تصدعه الوحدة: «هجّ الحمامْ بقيتْ لحالي...».

أنفاس ابنتنا على زندي. وأنا شتيت الخاطر، رأسي مملكة نحل هيّجها

المطر. الخسائر تتلاحق، وأنا مثل محارب جريح يبتغي العودة إلى الصفوف، لكن قرار الحيطة كان أقوى: ستغادرون إلى لبنان.

اجتياز الحدود لم يوحِ لي بأي غربة، والبيت البيروتي الذي أشرع لنا جناحيه كان دافئاً كما مضيفتنا المرحِّبة:

ـ «أنا سلوى، أهلاً بكم في لبنانكم»!

ابتسمتُ لهذه التورية. فاستدركتْ:

ـ «لبنان لكل محبّيه. يا سعدو بأهل الشام، كل الشام. رح ناديكم بأسماء أولادي المهاجرين، بتزعلوا؟ مشتاقتلهم».

استضافَتْنا الأم في حجرة الابن الأكبر.

دوَّنتُ أوّل عزاء في سفر الخروج.

ـ «خلاياي تثغو لغيابكَ. ليتكَ كنت أجَّلت ارتحالك عاماً واحداً فقط. حفَّظتُها اسمك، وصارت تلهج به ليل نهار، تناديك بين فواصل الرضاعة، وتستيقظ على صورتك داخل القمر. صار القمر بابا. في عينيها أرى الأشعار القليلة التي قرأتَها لي أواخر التعب. وحين تبكي أسمع بحّتكَ في صوتها.

أنا التي أتحيَّن نومي ويقظتي على وهم قامتك أمامي، أُصبِّحها بالخير وأمسّيها، وأنت، يا نصف فرحي ويا نصف حزني، يشعلني صمتُك المسكِر وتطفئني أحلامك المحظورة. وحين الأرق، أتزوَّد منك بما تبقّى لي: ثمالة نكهة ظلكَ المتلاشي فوق الدرج.

دعني أرسمكَ!

شعركَ الأسود، عيناك المغرورتان تستطلعان مزاجي الليلي، ووجهك الحنطي، حاجباك المتصلان، وقدُّك النحيل. يا ذا القلب المحفوف بنزوات

الطفولة والمتاعب الجميلة، ضحكتك زهرة حناياي، وعبوسك ذبول بنفسجي. دخلتُ حقلكَ برغبةِ عاشقة واحدة، وانتظرت عودتك بصبر مئة.

ـ «وجهكِ الأسمرُ، نجمتا وجهك المنوّرتان أبداً، بريقهما يخترقني حتى النوايا. أتبسَّم عن ثقة باتّة، وتتهدج رغبتي لقول كل ما تنتظرين، فيتمزق الوقت قبل أن يكتمل طقس الاعتراف».

ـ «تؤلمني بناتُ الحرمان هذه، تؤجج اتقادي. أتقوّى باستلاب جديد مغمضةً عينيَّ على أثرٍ يشي بك: كتاب، قميص، قصاصاتك تحت زجاج الطاولة، صوتك يأتيني من غامض علم الله، صورتك على الشاطئ، مواعيد مزدلفة مدونة في مكان ما، صفحة كتاب مطوية زاويتها، غناؤك في آلة التسجيل.

أخذَك البحرُ يا حبيبي. خمس إشارات استغراب تفلت من حواسي لتصطدم بغيبتكَ العارية.

ـ «عندما سألتِني متى سأعود، أحسست أنك لا تنتظرين جواباً. وهذا ما فعلتُ. راوغت، واختصرت، مكتفياً برسالتك الأولى تقول لي: «امضِ إلى آخر الدنيا، وتنبَّه إلى خطوك، ولكن اعلم أن جبلاً وراءك».

يومئذ، لو أنني أذعنت لمشاعري، لكنتُ سبّقت مصيري الأسري ثلاث سنوات، والرَّبَوي ثلاثاً أيضا». الأول من شهر الحصاد: الميلاد الثلاثون لرجل.

ـ «الساعة الثانية عشرة من ليل الرابع والعشرين من تموز: الميلاد السادس والعشرون لامرأة.

اليوم الأول

هو اليوم الأول في روزنامة كل سجين، قد يوافق يوم الميلاد أو الأضحى أو أول نيسان أو يوم الأرض أو النوروز، وقد يصادف يوم الرابع والعشرين من تموز، أو السابع عشر من آذار، وربما في الذكرى السنوية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فدوائر الأمن «الوطني» لا تعطّل ولا تنام ولا تترك أحداً ينام.

في هذا اليوم الأول يُسدل الستار على سنوات من الملاحقة والتخفي والنوم الحذر، سنوات من الأقدار المطرزة بالحر والقر(هل هي الكر والفر) والخوف والأسماء المستعارة والمواعيد المسروقة والاجتماعات. لحظة الاعتقال قطيعة باترة مع كل شيء: رسالة بدأتَها ولم تكتمل، مواعيد رئيسية واحتياطية وازدلافية، موقد غاز مشتعل، خطط وحسابات، وعود قطعتها لأطفالك أو لحبيبتك، مبلغ مالي بسيط فوق الطاولة، صحيفة لم تتصفح عناوينها بعد، علبة سجائر، إشارات أمان، التميمة التي خاطتها لك أمك لتحميك، رفيقك الذي يقاسمك سكناك، جرعة الدواء، نظارة القراءة، الهواء الحُر، وحريتك القليلة.

هنيهات ذلك اليوم تلتصق بك، تحت الجلد، طوال حياتك السجنية التالية، وتنتابك سيناريوهات شتى من الـ «لو» والندم والتقديرات

الأخرى التي لم يعد لها أي قيمة. فقد أزالك الزمن الخارجي من قيده وأسلمك إلى زمن داخلي عاتٍ، متعدد القيود. وهناك، بعد انتهاء التحقيق الأوّلي، تتولّد هدنة مؤقتة تتيح لذاتك الأخرى المترصدة أن تحكي لزنزانتك ما حدث معك مثلاً عند الساعة الرابعة إلا ربعاً من يوم الثلاثاء الرابع عشر من الشهر الرابع 1987:

عصر ذلك اليوم على وجه التحديد، قبل أن ألج المبنى، كنت قد تأكدت أن المكان طبيعي، وإشارة الأمان معلّقة على الشرفة كالعادة. لم يلفت انتباهي شيء خارج المبنى، قرعت الباب، وبحركة غريزية تراجعت إلى رأس الدرج، وانتظرت قبالة الباب لثوان، ثم فُتح وبرز لي شبح لم أميِّز من ملامحه إلا عينين هائجتين ومسدس فاجر مصوّب إلى وجهي.

استدرت بسرعة وهبطت السلالم بالجملة، فيما الرصاصات تتقافز حولي! لم أفكّر قط باحتمال الإصابة، أحسست كأنني مزقة من الزمان لا وزن لها، واستطعت أن أمحو حلزون الدرج قفزاً حتى خرجت من المبنى ولم أصَبْ. لكنني كدت أن أتعثر بأطفال يلهون في المكان عندما طارت النظارات عن عيني، فتابعت شمالاً بقرار لا أدري أي اعتباطيةٍ اتخذته باسمي. اعترضتني سيارة صهريج مركونة عند مخرج الساحة، تمكنت من الالتفاف حولها والاختفاء قليلاً والتخلص من شيء ما كان بحوزتي. هنا سمعت صوت استغاثة طفل: ماما. تلته عدة صراخات مدوية لأطفال آخرين. اعتقدت للحظة أنني دخلت احتمال النجاة. وما إن عدوت لبضعة أمتار حتى طوّقني عدد من العناصر، ناورت قليلاً، ولكن فقط لأسقط في حفرة لورشة بناء، سجّلتْ نهاية المطاف لنيف وثلاث سنوات من الملاحقة. تذكرت المفتاحين اللذين في حوزتي، فسارعت إلى رميهما تحت قدمي، إلا أن ذوي الوجوه المجهولة كانوا أسرع مني. أغاروا علي، انتشلوني من الفخ، وراح طويلهم يضربني على رأسي بأخمص مسدسه

الذي أفرغت محتوياته قبل قليل. تعالى صراخي متشظياً في كل الاتجاهات، منددأ، ساخطاً، وأعلنت، لأول مرة، انتمائي على رؤوس الأشهاد حين بدؤوا يعلنوني لصاً!! لكن نداءاتي لم توهن همجيتهم، ولم تسقِط الاستبداد، ولم تجعلني يسوعاً بين قَتَلة. كان الناس يملأون المكان والشرفات أشبه بشهود من صوّان، تماثيل آدمية من عيون وأفواه مشدوهة. اختلطت عليَّ الوجوه، أنا لم أعرفها من قبل، مع أنني رأيت بعضها سابقاً في الشارع أو عند السمّان أو في مكان ما، لكنها لم تعد توحي لي بأي تمايز. وجوه متماثلة، خائفة، رمادية، شاحبة، وربما بلا لون هكذا قرأتها بكل أحاسيسي المنهوبة.

أشهد أنكم لم تطالبوا بجلدي أو صلبي، ولم تطلبوا «باراباس» بديلاً، ولم تقولوا: «دمه في رقبتنا». ولهذا لم يغسل أيٌّ من الجلادين يديه.

جرُّوني إلى الشقة التي كنت أقرع بابها قبل دقائق. كان الجزء الداخلي من إطار الباب مخلّعاً. انخطف بصري إلى الغرفة اليمنى فلمحت ثلاثة أشكال بشرية، لم أميزها، مطروحة على الأرض ومقيدة إلى أقدام السرير المعدني أدخلوني إلى الغرفة اليسرى. استقبلني خراب وحشي: لوحات بسيطة وجوارب ومشاريع تخرُّج وبدلات جامعية وفناجين قهوة وأحشاء الصندوق الخشبي ـ مكتبة الشباب ـ الذي نُقلت فيه المطبعة ذات يوم من العاصمة. مراسيم احتفاء من الصراخ والشتائم تؤديها فرقة من الثيران الهائجة.

كان الطويل، الذي أطلق عليَّ النار منذ لحظات، قد تلا بعض أسمائي التي انتحلتُها قبل الآن. انتزعوا حذائي ومزّقوا سترتي التي أهداها إليَّ صديق، وسرعان ما بدأوا جولة تحقيق تحملُ سؤالاً واحداً ملحاً: «أين محتويات الصندوق الخشبي». صراخي يتعالى في أنحاء الشقة، يخرج من بين الدرفات والمناور والشقوق. احتشد في رأسي كل شيء معاً، وانتابتني

تعددية ذهنية غريبة راحت تعالج ذلك الكل دفعة واحدة. أحسست أنني انشطرت إلى إرادتين، إحداهما تولّت أمر الجسد والأخرى أمر الروح والعقل، وأنا بينهما أتلوى، تارة يملؤني الألم بكل صحوي، وتارة يبرحني. تفاعلتْ فيّ قوانين الفيزياء والكيمياء لتؤكد لي معادلة شديدة البساطة: أن كينونتي ليست حجراً محضاً ولا طيناً، ليست عاصفة ولا عصفاً؛ أدركتُ أن ما يجري لم يكن سوى «أوّلِ الرقص».

حين أخرجونا من ذلك البيت، كان الناس محتشدين أمام المبنى، لكنهم سرعان ما امتثلوا لنباح صارخ: «ما بدي شوف حدا!» إذ ذاك تأكدت أنني مختطَف في مدينة لا تقوى على شيء سوى أن تغمض عينيها وتبسط ذراعيها ثم تتركني لمصيري.

كانت هواجسي لائبة، موزعةً بين اللحظة وما سيأتي، مفعمة بالتحسبات والأسئلة والأجوبة المعلّقة والروايات المستجدة. والسيارة تركض بي نحو المجهول. فجأة شبه عارٍ في العراء، معصوب العينين مقيّد الأطراف، موثق إلى جذع محني لصنوبرة طليقة. من كان بوسعه أن يتنبأ بحلاج في أواخر القرن العشرين؟ بانتهاك مريع لشريعة الشجر الحي التي لا تجيز الاقتران إلا بغبار الطلع.

فاجأتكِ يومها، ولم يكن ذنبي، فكّوا قيدي ليوثقوني اليكِ. عاندتِ في البدء، تململتْ حناياك رفضاً حين مسّتْكِ تلك الكتلة الآدمية. لو كنت تدرين أن بشراً ستشد أوصاله إليك، لكنتِ توسّفت أكثر، وسهّلت علي العناق؛ ولو كنتُ أدري أيضاً، لكنتُ أنقصت وزني الخمسيني كي لا أثقل كاهلك، لكنك كنت مثلي جاهلة غرابة كهذه. وحين وشمكِ دمي استحلتِ إلى كائن جُويٍّ بامتياز.

كنت أتلوى على صنوبرتي ما تلوى ذلك السوط المذعن على جسدي! ومع كل جلدة كانت ردة فعلي الغريزية تجعلني أنشدّ إليها، بينا

كانت نتوءات جذعها تحزُّني صدراً وبطناً وأذرعاً. وجدتني ألتصق بها أكثر مستمداً منها البأس والحَيْل، ومخففاً آلام الاحتكاك. بلمح البصر استفاقت ذاكرتي الحقلية: أبي يقول لنا: امسكوا عصا المعول أو المجرفة بقوة، ينبغي أن تبقى أيديكم مشدودة عند الوسط والنهاية كي لا تتأذّى من جرّاء الامساك الرخو.

أبي، قبالتي، رأيته رأي العين بلا عكاز، شدّ أزري ويمّم شطر الشمال.

لا أدري من منّا كان يتنفس الآخر عندما استراحت رأسي على خاصرتكِ الجريحة. اخترق نشيجُكِ مسامي، تسرَّب عبر جروحي صاعداً صاعداً حتى الصمت. بحّ صوتكِ وتعالت حمحمتي. السياط تلسع جلدي، لحمي يتقد، وحريقي كلما اتسع، أطفأوه بالماء، ويختلط اللهيب بالصقيع بمالح العرق. وأنا أقضم أنيني فينثال من حنجرتي ويفيض فيَّ ثم يعود إلى جذعك فمملكة جذورك. غدا المكان فراغاً يسوده كائنان أسطوريان جمعتهما دورة صوتية خرساء ولغة كاملة: كفيفان أحدهما يراني، والآخر لا يرى.

أدنيت جبيني من قامتكِ محاولاً إزاحة العصابة عن وجهي، لعلي أرى هذا الجسد الذي اكتمل بروحين. رأيتُنا معاً، جسدٌ بشري مشبوح يتقطر منه حامض العذاب ومرُّه ومالحه ولزوجته الحمراء؛ وآخر شجري ترسم ظلالُه، فوق الأشواك والأوراق الأبرية، خارطةً ملطّخة بالدم والنسغ المسفوحين. تأكدت أنني قتيل مؤجّل وأنكِ أنبل الدائنين.

لم أغب عن الوعي أبداً، كنت كمن بين الحلم واليقظة، حين، على مسافة غير بعيدة، سمعت نداءات أنثوية مفجوعة تنطق باسمي الحقيقي. فجأة تلاشى صراخي بجرعة مسكّنة حملها صوت أعرفه تماماً، ولكن ليحلَّ محله إحساس بالخوف والقلق: لماذا جاؤوا بها إلى هنا؟!

استمر الوقت طويلاً في تلك البقعة، تتناهبني الكابلات والقهقهات

والأحذية والروائح المجهولة والصريخ. أشهد أننا جميعاً، القاتل والمقتول، كنا نصرخ، وكانوا يهدؤون فقط ليسألوني السؤال إياه. وأشهد أن يوم البداية كان هنا، على المفترق المؤدي إلى تدمر، مثلما ستكون تدمر نفسها شاهدة على نهاية البداية لنيف وأربع سنوات تالية

أشهد أنهم جففوا جسدي قبل أن يُلبسوني ثيابي، وكان جلدي ينكشط كلما احتك به شيء، وأشهد أنهم حاولوا جهدهم أن يقحموني في البنطال، لكن جسدي المتورم هو الذي رفض ذلك، وأشهد أنهم لفّوني بحرام صوفي ولفّوا رأسي ووجهي بكوفية عربية مطابقة لتقاليد فرع فلسطين، وقيّدوا أطرافي مرة أخرى ثم رموني في مؤخرة سيارة لاندروفر اندفعت كالسهم على طريق الشام. كانت قطعة معدنية ترتطم بي مع كل حركة غير مستقرة للسيارة أو عند تزايد سرعتها. مع انعدام الرؤية، اتكأتُ على بصيرتي فعرفت أن فتاتين كانتا برفقتي، تجلسان على غطاء العجلات إضافة إلى السيّاط البدين، الذي كانت قدماه ترقدان في خاصرتي. صرت أسمع نحيباً مخنوقاً تشايعه كلمات مهموسة. صوتُها مرة أخرى! لقد سمعتها قبل قليل تنادي باسمي حاولت أن أتحرّك، لم أقوَ. وخلال ذلك تنبّه البدين فسألني عما أريد قلت أريد أن تقلبني على جهتي الأخرى. وفي هذه الأثناء انزاحت الكوفية قليلاً عن عيني بدأ كتفاي يَرتجفان وسرت بي قشعريرة فظيعة برد قارص اخترق عظامي حركني بشكل أصبحت فيه قدماي مجاورتين لقدميها. لكنني لم أستطع مع ذلك حراكاً فقد كانت يداي مكبلتين إلى الخلف. أردت أن أشد أزر سلوى، أو أزري، ولكن كيف لها أن ترى عيني وسط هذا العماء؟ لا بدَّ أن بعضاً من وجهي مكشوف لها. حاولت تحريك قدمي كي ألفت انتباهها، وصوّبت إليها ما اعتقدته ابتسامة مضادة للويل، صنّعتها على عجل وإذ بها تولول مستغيثة بالبدين: «دخيلك شوف شو صار فيه!».

يا إلهي! ماذا فعلتُ؟ سألتُ نفسي.

بعد سنوات من إطلاق سراحي، وكان مضى على ذلك المشهد الإيمائي عشرون عاماً، عثرت على الجواب حين راحت تحدثني، وهي تبكي كما لو أنها تعيش اللحظة ذاتها:

«كنتَ طوال الرحلة تحت بصري، أرصد تنفسك وشلل أطرافك ورأسك المتدلي، فزِعة من النظر إلى وجهك نصف المغطى. فجأة لمحت حركة متماوتة لقدمك اليمنى ما لبثتْ أن همدت. تلا ذلك حركات أخرى غريبة تطاولت على القسم الظاهر من وجهك: كززتَ على أسنانك وتقلصتْ وجنتاك وارتعش أنفك وتلوّى فكك السفلي ببطء، ثم صمت كل شيء بتكشيرة سال معها الدم من شدقيك على صدرك. صرختُ بأقصى اليأس والولاويل».

حاولت إعادة الكرة، لكنني اكتفيت هذه المرة بتحريك أصابع قدمي فاصطدمت بشيء اعتقدته قدمها.

مدّت أصابع السلوى تضمدني، وراحت تمسّد مشط قدمي فيما دمعها يغسل جراحي، قدمي تئن ملحاً وروحي تزغرد.

لدى وصولنا إلى العاصمة، أفرغوا السيارة من حمولتها، أنزلوني رمياً، لكنهم حملوني على بطانية إلى الداخل. تقاسموا جسدي طريدةً وممتلكاتٍ، فقد سال لعابهم على الحذاء والساعة والنظارات والقلم والمحفظة وتركوا لي في الأمانات ما اكتشفتُه لاحقاً: خاتم الزواج والمائتين وأربعين ليرة. كان الداخل أعتى، فقد جعلني أتذكر قول جدتي: «الله يجيرنا من الأعظم»! بعد نقلي إلى المشفى ثم إعادتي بأمر عاجل، ملفوفاً بالأبيض من رأسي حتى قدمي، لم يعد يمكن التعذيب إلا بالكهرباء التي سجلت نهاية الليلة الأولى.

لكنني لم أضطر إلى الأعظم، لم أفعل ما فعله ميتيراس، حين قطع لسانه بأسنانه وحطّم أصابعه بين قضبان زنزانته تحاشياً لاعتراف منطوق أو مكتوب؛ كل ما فعلته أنني أضمرت تعهداً غامضاً أوحته لي حكاية ميتيراس التي كنت ألصقتها ذات يوم على جدار غرفتي السرية.

ميتيراس، أيها المتصوِّف الكوبي الراحل، أشهد أنني لا أستطيعك جنوناً ولا إقداماً. أشهد أنك قرعت بوابات حواسي وتطفلتَ على ذاكرتي ونصَّبت نفسك حارساً على خوفي ونواياي وآنائي. فحمَّلتني، منذ أول أسري وِزراً يفوق طاقتي. فأنا لم أخرج من جلدي البشري بإرادتي كي أضاهيك، هم من سلخوه. ولكن بربك هل يستحق التصوُّف هذا العقاب كله؟

سؤال مماثل يطرحه عليك جسدك مع نهاية كل جولة تعذيب دون أن ينتظر جواباً: من منحكَ الحق بتحميلي ضريبة الصمت هذه؟!

أجل الصمت والسر، إنهما توأمان جائران، يحيلان أتفه التفاصيل إلى أسرار، جاعلَين منك خبيئة بلا مفتاح.

في تلك الأيام من الريبة والاضطراب وتخلخل الأساطير والتشبُّث بأهداب الحياة، ما من عاقل يتنكر لخوفه وضعفه وانتصاب شعر بدنه. وحده المجنون لا يأبه بشيء!

هنا، في هذا الزمن المِرجلي البغيض، إن سألك صديق على سبيل الغِيرة: أيكما المغلوب؟ ستقول: كِلاي مغلوب وغالب، تشهد عليَّ هنيهات الضعف والقوة كما يليق بكل كائن طبيعي.

بعد أشهر جمَّعونا، المهجع 201 والمنفردات، أي القدامى والجدد، ونُقلنا إلى قبوٍ أمني آخر، ولكن فُتحت الزيارات تباعاً، وطبخنا فاصولياء خضراء ببندورة فاخرة لم تشبع عيوننا منها. كنا نهمين إلى كل شيء: نأكل

ببطر وننام كأهل الكهف ونسهر كالسمك ونضحك بلا سبب ونغني بجنون ونسخر من أشكالنا الجديدة التي اكتشفناها بكسرة المرآة المهرَّبة إلينا. تلاشت الكوابيس، وأصبح السجان والجلاد والمحقق وأدوات التعذيب جزءاً من الماضي، وتعافت أحلامنا مكتسيةً حلة الحياة شبه الطبيعية. كانت استراحة أسرية اغتنمناها كما ينبغي دون أن ينبري متطيِّر ما ويقول: «الله يعطينا خير ها الضحك!» لم نتحسَّب لشيء، ممتثلين لنقاهة كنا في أمسّ الحاجة إليها، فاسترخت أجسادنا وأرواحنا وعقولنا.

فجأة هبَّت عاصفة جديدة. حملة اعتقالات نكراء حصدت المئات، رفاقاً وأصدقاء وأقارب، واجتاحتنا معها من جديد، فأعادونا إلى الزنازين القديمة ثم المزدوجات، وانفتحت أبواب الويل والخسائر. كانت الأجساد تصرخ بكل اللغات، وألسنة النار تمتد لتطالنا تباعاً.

دورة آلام جديدة من جولات التحقيق المتواصلة بدأت ولم تنتهِ حتى الثالث والعشرين من شباط 1988. غامض كل شيء، دائرة التحقيق مع الآخرين مغلقة دونك، وأنت، في عالمك التحتاني المظلم، تتحسس ما حولك، وتتشمَّم بيئتك السابقة بأنف كلب، كأنك لم تتعرف هذا المكان من قبل.

كان لتلك العودة الرجيمة، بجولاتها الجهنمية، أن تنسينا كل ما ذقناه قبيل أشهر الهدنة. أنت منتزع هذه المرة من الأسر إلى الأسر، مباغَتٌ بمعركة لم تعد مستعداً إليها كما في أول مرة، ولم يعد عتادك المادي والمعنوي مؤهلاً بالقدر الكافي، فكيف ستوفِّر طوق النجاة لمن حولك ومن في الخارج. ستتوزع ذاتك بين حط وترحال، وتلحف عليك مواثيقك، ويضنيك قلق المجهول، لعلك تقلِّم ما أمكن مخالب الفداحة. يحاول الأسى قصاراه فيدنيك من آلامك الشاسعة، وأحياناً يضيِّقها إلى تخوم الأنا. يحاصرك الإصغاء إلى نزيفك فيكثِّف تاريخك إلى مجرد

زنزانة واحتمال موت، أو يُدنيك من أوجاعك حتى لتكاد تعتقد أنك مفردٌ وسط الظلمة. ولعلَّ الرهان الرهان تفادي الخطأ الأول أو الثاني، وتقليل الخسائر ما أمكن. وقد تُطرح عليك مقايضات شتى، ومساومات مغوية تتداولها خلسة مع نواياك، ولكن ما إن تعضّك الشكوك، حتى تثوب إلى رشدك.

من جديد، يتربّص بك تحدٍ مع الذات والخصم والصديق على حد سواء، مواجهة يسرج فيها العقل والأحاسيس صهوة الجسد. فينبري عقلك خلف دفاعاته، ينصُب متراساً على عجل جاهلاً وجهة الهجوم. أما جسدك فسرعان ما يتخلص من استرخائه العابر، متوفزاً ومستفَزاً إلى أقصى التوتر. تتحالف حواسك دون أن تنتظر أمراً منك. تخوض مغامراتها الخاصة، تناور، تكرٌّ وتفرٌّ، تتخفّى، تتجاهل، تتناوم، تعتم وتُقْمِرُ كما تبتغي. أحياناً كلٌّ منها تعمل على حسابها، تنفرد، تتجسّس لحسابك وعليك، تجمّع لك محصولاً لا تتوقّعه. سمعك يتسلل عبر المسامات المؤدية إلى الأعلى كي يأتيك بنأمة تميِّزها أو نبأ طائش أفلت عرضاً من سجان.

أشباح الخوف تلطأ في كل مكان، في ثنايا درفات الأبواب ونبض الدم، في الأقفال والمعدن ودوش الماء القارس، وفي هنيهات المواجهة الفردية، وأنت وحدك بين أربعة جدران من الجلادين الذين لا تراهم. شريط مرعب تتصوره بصيرتُك وأنت معصوب العينين. وإن واتتك حواسُك الجديدة، المتوالدة كل لحظة، وخمّنتَ مَواطن الضرب وخبايا الاستجواب، يراودك الشعور بالظفر! قد يبدو ظفراً مضحكاً، بيد أنه يخلق شعوراً مذهلاً. الوعي في حراسته المشددة على كل شيء، واللاوعي، هذا الكائن الرائع والداهية، يقلّبك على هواه، يدنيك ويقصيك، يجزيك ويقاصصك بيدين من ثواب وعقاب، أولاهما مغلولة

إلى عنقه وثانيهما مسلولة، يؤلّب عليك ماء الواجب والحياء، ويعمِّد ولاداتك اليومية، ثم يطفئ خوفك على نفسك بجرعة من الخوف على الآخرين.

نعمةً هذا العقل ونقمةً في آن، يعمل بدأب عجيب، ولا يركن على حال. يتألّق حيناً، ويستريح أحياناً، ولكن فقط كي يتجدد كما كائن فصلي. إذ ذاك لا يؤرقّه ثغاء الجسد وتلوّيه. كل منهما يعمل مستقلاً، ممتثلاً لشرائعه وحاجاته، لكنهما يتصلان بخيط من نور لا يُرى، يتبادلان عبره السلام والنسغ.

الضربات تتناهب جسدك فيما عقلك منشغل في مكان آخر، تاركاً لأعضائك الحية خياراتها الدفاعية. بعد حين، وعندما يسعفك الحال ببعض الراحة، ويطمئِن بالك قليلاً، تعتريك طعوم كيميائية عجيبة: الصدأ يتسلل عبر الجلد المسلوخ إلى حليماتك الذوقية، وجسدك المتهالك يضج بألوان مشبوهة: الأصفر، كلي الجبروت والأذى، يتقطَّر من لا حولك ولا قوتك؛ والبنفسجي يتغلغل تحت الأدمة حزيناً غاضباً. وفي اليوم التالي، يطغى الأسود بكل مهابته اللئيمة. خارطة من الكدمات والرضوض ولسعات الكهرباء والجروح المتقرحة وبؤر الكي بالسجائر. أنت المدخن العتيد، تدخّنك سيجارة، متشفيةً برائحة لحمك الحي. في لحظات لئيمة كهذه، ينتابك شعور طاغ بأنك وطن يتلوى تحت أمراس الذل والضحكة الشامتة لجلاديك. تتمنى بكل كرامتك المنهوبة أن يؤدي قاتلُك المروِّض دورَ الخصم، فيتجهّم أو ينفعل أو يغضب لعلك تحظى باعتقاد، مهما ضعيفاً، أنك قد تعني له شيئاً!

أنت هنا تُرى ولا تَرى بفضل اختراع بسيط وخبيث: عصابة الوجه (الطميشة)، سيف ذو حدين، حدٌّ عليك، عماؤك الذي يضيّع عليك قراءة وجه المحقق وردات فعله ومزاجه، ويمنعك من توخي الضربة التالية؛ وحدٌّ

لك، أنك تغمض عينيك بحرية تحت العصابة وتصبح أقدر على التركيز واجتراح الإجابات دون أن تُرى مراوغات قسماتك المخبّأة. وحدها بصيرتك تتلصص عليكما، فتمدك بما تيسر لها. أما أذنك فتعمل بطاقة جسد، تُعيدك إلى نفسك حين يأتيك صوت بشري من أعماق زنزانة أخرى، أو تسمع غناء مواسياً من سجين، فتكاد أوجاعك أن تبرأ، ويعاودك كيانك ومشاعرك المتآكلة.

هذه الحاسة الجميلة تمارس وظيفتها بلا إذن منك، وضدك أحياناً. فقد تسمع كل شيء إلاّ نداءاتك التي تتوسلُها الصمم. فجأة تصبح حاسةً فاجرة! تعمل غصباً عنك بسادية آثمة، تتحالف مع أعتى الخصوم وأشدّها فاعلية: المفاتيح المتدلية من حزام الحارس. تلك الأشكال الشيطانية الصدئة، تتناهى إليك ملعلعة بصقيعية مفزعة. تلك الخشخشة البغيضة، التي تزحف نحوك من بعيد خطوة خطوة فتقلّص كيانك، وتزأبر شعيراتك الدموية، مُحيلةً بدنك إلى قشعريرة واختلاج، حازةً طبلتي أذنيك وبصلتك السيسائية باحتراف ميكانيكي سفيه. ذلك الشيء المعدني التافه يكوي حواسك عن بُعد، ويدولِب روحك، فيجعلك تتكوَّم حول دماغك، مفتّشاً عن ردود افتراضية لتهمٍ جديدة. أجل، يحولّك المفتاح في غضون صلصلة قصيرة إلى مجرّد تلافيف دماغية متكورة، تتّسع دوائرها وتضيق كما حدقة العين في تناوب الظلمة والنور.

يوضع المفتاح في ثقب الجوزة الضئيلة، التي تَحبسُ خلفها كياناً يكبرها بمائتي ضعف، فيخرس العقل والجسد في الداخل، وتمور أمعاؤك حتى يصل زبدُها أنفك وحنجرتك، وتوشك أن تلفظ أحشاءك أو خفقات قلبك الأخيرة. وريثما يُفتح القفل، حيث اللسان المسنّن القارض يجول في حلقك، تكون تلك المسافة الفظيعة قد فتكت بأعصابك وأدنتك إلى جولة جديدة من العماء في الأعلى.

شهادات اليوم الأول

شهادة 1

اليوم الأول معلم لا تمحوه السنوات الطويلة في السجن، يلتصق بك كجلدك، وتدونه في خاطرك أو على الورق، ليس بوصفه بنداً في يوميات سجين، بل لأنه شهادة على عهد من طغيان الروح العقابية والفزع والجهالة وخلق العِبر على مدى عقود:

كنت أعرف بأنني سأتعرّض لكل صنوف التعذيب. وكنت أخشى أن يقابلوني بأيٍ من رفاقي وأنا في حالتي الجسدية المهدومة. يداي مقيدتان إلى الخلف، وقدماي موثّقتان بالحديد، فيما صرخاتي تتعالى تحت الضرب. أوبِرا مجنونة، لنساء ورجال، تجتاح الأروقة والغرف والأقبية والحمامات، الصراخ والتأوهات والرقص على الكهرباء والأنين المخنوق في الدولاب والعويل واللهاث المتلاحق وصرير الكرسي الألماني والسعال والشبح على السلّم والنوبات الربوية. أحسست أن الاستغاثة والتأوه قد يشيان بضعفي، فابتلعت صوتي محتجزاً ما أمكن هذه العدوى. ولكن لا أدري كيف تمرّد عليّ الألم، وأفلتت مني صرخة غائرة: آه يا أمي! وحينئذ نزعوا الغمامة عن وجهي فقط لأرى أحد الرفاق صريعاً أمامي على الأرض. فجأة تملّكني حياء وراثي خانق، أودى بآلامي الجسدية،

وفصلني عن كل شيء. سألته والركلات تنهال عليّ: «هل أنت حي؟!». مدّ يده المتماوتة وقال بهمس: «بل أكثر، شدّ حيلك».

تلاشى المشهد مع هذه الجرعة الملتبسة، ليحلّ محله لقائي الأخير به قبيل الاعتقال بعشرة أيام: كانت حملة الاعتقالات على أشدّها، تطال أوساطنا جميعاً. كنا نشرب القهوة على الشاطئ، وثمة قبالتنا صياد سمك يرمي صنارته في حوض حجري يتصل بالبحر عبر بوابة مائية ضيقة. يلتقط الأسماك تباعاً ويودِعها في سلّة مركونة بجانبه. ابتسم اللهب بمرارة وقال: أخشى يا صديقي أن ينحسر الماء في بحيرتنا الصغيرة فنصبح أكثر عرضة للصيد والعطش. ذكّرته بتفاؤله المعهود، فأجاب: إنه التفاؤل الوجِل!

بعد قليل أدخلوا زوجتي. فانذعرت عليّ كاللبوة، عانقتني وراحت تقبّلني وتمسّد رأسي الذي كان ملفوفاً بخرقة. مهرتُ يدها بقبلة مدماة، وفجأة انتابتني موجة من الشرف الفردي الذي كنت تخليت عنه خلال جولات التعذيب، فرحت أردُّ على شتائمهم بأسوأ منها. وبعد أن انتزعوا رأسي من بين ذراعيها بضربة رعناء، فصلوا جسدينا الواحد، وجردوني منها ثم ألقوا بها خارج الغرفة. صمتٌ خاطف أشعرني بوحدتي وسط مكان متلاشٍ، تلاه ضجيج طاغٍ. تمهيد متقن لمعركة من طرف واحد؛ عرّوني تماماً، وفكّوا عصابة الوجه. رأيت قبالتي وجهاً ذئبياً بأسنان صفراء متراكبة. أبلغني أن الطبيب قادم لعلاجي. طلب مني الوقوف؛ حاولت دون الاتكاء على ساعدي. نصف وقوف، ثم تلاه سقوط مفاجئ. اتكأت على يدي وركبتي وحاولت ثانية، تحاشيت النظر إليه، تقوّس جسدي، مددت يدي إلى الحائط وأنا أتوسّل خلاياي وشراييني وإرادتي. بدأ ظهري ينتصب، مددت يدي الثانية ووضعتها فوق ركبتي اليسرى، مات الزمن. نجحت في ثلاثة أرباع الوقوف، ولكن فقط كي أحظى

بسقوط تام. اختلست نظرة إليه. كان قد تحوّل إلى غربال من العيون، يراقبني. شعرت أنني أرى نفسي على شاشة تصوير متكاسل حدَّ الوجع. خضت الرهان الضمني، وحواسي كلها تؤكد لي أنني سأكسب. لم ينتصب ظهري تماماً، حركة واحدة فقط، لو استطيعها، ستكون كفيلة بتمكيني من النظر إليه من علُ. حاولتها، لم تستجب. كررت المحاولة لكنني سقطت هذه المرة. بكت حناياي عليّ. بادرني قائلاً:

ـ ماتت رجولتك؟ أين حماوة رأسك ، أتحداك أن تقف على قدميك لثوانٍ!!

ـ «....» حمحمتُ في سري، وكنت أسمع صرير صوتي لدى احتكاكه في جدار المعدة والحلق.

ـ احملوا هذه الخرقة وارموها برا!!

حنَت نفسي عليّ وتكوّمنا، ما عدت أرى شيئاً قط. لم أفقد الوعي، لكنني لا أعرف كيف وجدتني في مكان آخر ضيق مظلم، بكامل إهابي المتيبّس. هل يقدّر لعجزي هذا أن يعينني على البقاء واقفاً؟

سنوات مرَّت قبل أن يسألني صديقٌ عن حلم يقظتي السجني. فاجأني سؤاله، لم أجبه مباشرة، بل لم أستطع أن أفعل. فاكتفى مني بوعد الرد كتابةً. شغلني الأمر ستة أشهر أخرى ريثما تجرّأت على أرقي. لم يكن مجرّد حلم يقظة، كان خلاصة القلق الذي ألمّ بي مذ تفتحت عيناي على خيارات متفارقة ومتضافرة في آن. وددت دوماً لو أكون كما أنا، نجحت أحياناً وأخفقت كثيراً، وكانت ذواتي المتعددة أقوى من إرادتي الفردية. في السجن تشكّلت لدي خلاصات عن طينتي البشرية: القوة والضعف، والتناقض الواضح، والانسجام الناقص، والسأم، وقصارى الصبر، والذهول، والسكوت الواخز، والقول حين لا ينبغي، والتواصل الممضّ، والتهرُّب الواجف، والتملص من نظرةٍ ثاقبة لصديق قريب.

لا أستطيع أن أبوح بكل ما قلته لنفسي. أحتفظ بقرارات وهواجس تخصُّني وحدي، مفسحاً المجال لتعديلها مع مرور الوقت. أحمل أسراراً تتآكلني، وأخشى مفاتحة نفسي بها كي لا تفضحني على حين غرة.

لي من يقظتي حلم متكاثر:

أخفي خوفي من لحظة ما قبل إطلاق سراحي، حين سيأتونك بوثيقة التعهُّد. أعاني نقيضين، الرفض المطلق والقبول المشروط، متحسِّباً لوطأة الضغط الوجداني الذي قد يمارَس عليَّ.

الحرية، لا الأسر، هي السؤال الباعث على الأرق. هل سنحظى بها بعد الانعتاق، وإذا ما تأتّى لنا ذلك، هل سنكون كما تبتغينا؟!

أضمر عشرات الأسئلة المعلَّقة:

لحبيبتي، هل يمكنني إعادة صوغي عاشقاً لها كما قبل الأسر، وهل بوسعها؟!

لصغيرتي، هل ستأبه لأبوتي بقدر حساباتي المتخيَّلة؟!

لأمي الكبرى، وأمي الصغرى، هل سأعود إليهما باراً كما كنت؟!

لبلادي، وهل ستبقى عزيزةً وإن جارت!!

أيُّ أنا متعددة ساكونُها كي أفي بهذا كله؟؟

أيُّ أنا متعثرة ستكونُني لدى يقظتي من الحلم؟!

مفترق من جمر يكوي قدميَّ،

شريط شائك بين البر والبحر،

صراط بين السماء والأرض، لا الأولى ترفعني ولا الثانية تبتلعني!

رُحماك قلبي!

هكذا أنا الآن، وذلكم حلمي وأرقي قبل التعهد والحرية وحبيبتي وصغيرتي وأمي الكبرى والصغرى وبلادي، لعل غداً أغدو معه أنا وقد لفظني الأسر والبحر إلى أرض بجمر أقل وخمر أكثر؛ لعلَّ نخباً أستطيعه ككلٍّ تائق للغناء بلا حدود».

* * *

شهادة 2 (أبو سمير)

«أنا المحكوم ميدانياً بسنتين، أمضيت حتى الآن قرابة عقدين عُرفيين إضافيين، دون أن أقتنع بسبب منطقي. خلَّفت ورائي صغاراً ترعرعوا في كنف أقاربي بعد أن أكملت أمهم واجب الانتظار واختارت حقها الطبيعي في الحياة. يفصلني عن يوم اعتقالي اثنان وعشرون عاماً عبرتُ خلالها بوابات الجحيم وأتوناته التي التهم كل منها نصيباً مني. مع ذلك ما يزال ذلك اليوم الأول يثقل عليَّ كما لو أنه دهر من الكوابيس المتصلة ليلاً ونهاراً. يومئذٍ أخضعوني لكل وسائل التعذيب الاستثنائية التي قد تخطر في بال جلاد. تمزَّق جسدي ثلاثين مرة، وثلاثين مرة أُغمي علي. ورأيت جسدي مُسَّجى ثلاثين مرة. كانت تكفي كلمة واحدة مني كي أحكم على نفسي بالموت، وكثيراً ما وصلتْ إلى رأس لساني ثم انطفأت بغريزة الخوف من الإعدام، ما جعلني أبقى مصراً على عدم إدانة نفسي بعمل لم أرتكبه، ودثَّر إرادتي بما لا أدري من طاقة التحمل. كثر ممن مروا من هنا اعترفوا ـ تحت التعذيب ـ بأشياء لم يقترفوها ولم يسمعوا عنها، فكان الموت بانتظارهم. خلال نزال فظيع بين الكهرباء وجسدي، تأكَّد لي أنني سأدوِّن كل ما يريدون وبخط يدي، فقد بدا لي الموت السريع منجىً من برزخ اللاموت واللاحياة هذا.

لم أكن أتوقع قط أنها مسرحية عندما نقلوني إلى غرفة أخرى وشرعوا بإجراءات الإعدام شنقاً. لقد صدَّقت الأمر تماماً: أزاحوا العصابة عن

وجهي، ورأيتهم جميعاً،بمن فيهم رجل الدين الذي وضع يده على كتفي وطلب مني البسملة والحوقلة والشهادة وإملاء وصيتي. كان ثمة طاولة صغيرة يتدلى فوقها حبل وأنشوطة. زاغ بصري، هامت نفسي في الفراغ، وتراءى لي ابني الأكبر فاتكأت عليه وصعدت. لم أقل شيئاً. توقّف الزمن وانعقلت حواسي كلها.

وجدت نفسي بعدئذ في زنزانتي نفسها. قال لي الممرّض: لقد نبت شعرك. لم يعنِ لي الأمر شيئاً، كنت مشغولاً عنه بالضماد. لكنني أحسست بحركة نملية في جمجمتي. مددت يدي غير المشلولة ولمست قمة رأسي: يا إلهي، لقد نبت الزغب في ذلك الحيز الأملس.

بعد اثنين وعشرين عاماً قابلتني اللجنة الأمنية، التي لا يعلم سوى الله كيف قررت هذه المرة أنني لم أعد أصلح لشيء، فأطلقت سراحي مشفوعاً بورقة جاهزة تؤكد تأييدي للسياسة الحكيمة والتعهد بإبلاغ الأجهزة الأمنية بكل جديد في حياتي اللاحقة.

شهادة 3 (حكاية النملة)

حين ألقوني في أحشاء الزنزانة لم أكن أقوى على شيء، كان الزمن شبه معطّل، وكذلك جسدي. ولولا الأفكار والهلوسات التي كانت تمور في رأسي لما كان شيء ليقنعني بأنني قابل للحياة مرة أخرى.

الوقت منتصف آذار، والبرد الذي كان يتسلل إلى أغواري لم يهزمه سوى النعاس الرحيم. النعاس سيّد الرحمة التي حَبَتْها الطبيعة لكائناتها. وقبل أن يغلبني تماماً، كنت أتململ بجراحاتي، وأجمّع خلاياي لعلي أحظى ببعض الدفء. وفي سياق معركتي التي حسبتها دهراً، وجدتُني صريع النوم الذي لم أستيقظ منه إلا في اليوم التالي على ركلة في خاصرتي اليسرى، فأفقت مذعوراً دون أن يستطيع جسدي إبداء ردة فعله الطبيعية. كان موعد الفطور مع جولة كهربائية جديدة.

انتُزعت من تلك القوقعة المكسورة، غبت عنها عدة ساعات فقط لأعود إليها وأنا غير قادر على التحدث هذه المرة. لأنني حين أفقت من إغماءاتي شعرت بأن تلك الكتلة اللحمية التي يسمونها اللسان قد استحالت إلى حجم اسطواني الشكل ينزُّ دماً، ويلوب بطعم الصدأ. وجدتُني منبطحاً، ورأسي فوق الفتحة المرحاضية، ملاصقاً لصنبور الماء الذي يتقطر نقطة نقطة بفاصل زمني قصير. وقع بصري، مذ شققتُ عيني، على كائن صغير يتحرك في ذلك الجزء الرخامي الأملس المنزلق من المرحاض.

فجأة بارحني الإحساس بالعزلة، لكأن تلك النملة أودت بوحشة المكان تماماً، وشعرت بأن مصيري قد ارتبط بمصيرها ما إن رأيتها تتجشّم محاولات الخروج الفاشلة والمتكررة. لم يكن بوسعي أن أمدَّ لها يدي قط، فحاولت أن أقحم رأسي في المكان لعلها تعلق بشعري ثم تنعتق في حال سبيلها، لكنني فشلت. حركت رأسي قليلاً ثم رفعته حتى باتت قطرات الماء تسقط على رأسي كي أساعد في تجفيف المكان الزلق. وبقيت على هذه الحال حتى بعد اكتشافي، متأخراً، بأن النملة قد اختارت بغريزتها المسار الأقصى، الجانبي والجاف. بقيت كما أنا، أرتشف قطرات الماء التي نبَّهتني بالصدفة إلى عطشي الشديد. كانت النملة تناور في تلك المتاهة، تتراجع ثم تندفع بسرعة، وفي كل مرة تصل إلى النقطة ذاتها أو تتعداها قليلاً، ثم تسقط.

مرت ساعة ذهنية كاملة وكل شيء على حاله. صار للماء في فمي طعم الملوحة، اعتقدت لوهلة أنها مياه الآبار المالحة في تلك المنطقة الجغرافية، لكنني اكتشفت أنني أشرب عرقي ممتزجاً بالماء.

ظلت النملة في مرمى بصري إلى أن اختفت في الجزء الأدنى المتقوس، وهناك كنت أتخيل حركتها فقط، ويشرد ذهني، فتعود إليَّ هواجسي

وحساباتي التي رتبتها وأعدت ترتيبها مرات ومرات، وفي كل مرة كانت النملة تعيدني إلى حضورها بعد أن تظهر لي من جديد.

لا بد أن ساعة تقديرية أخرى قد انقضت ونابليون تترسخ فيه فكرة الإصرار والدأب، المستقاة من هذا الكائن العجيب الذي لا يهزم. انهارت هامتي، لم يعد ثمة مجال للشك في أنني أتعرق بالنيابة عنها، وربما بالأصالة عن نفسي.

أصابتني قشعريرة، واخترقت رعشةٌ جسدي، وبدأ العرق يتصبب أكثر فأكثر، ثم بدأ خيط منه ينسرب على حواف الفتحة وفي وسطها، بدأ على شكل حبات متناثرة ثم اتخذ شكل الخيط البطيء. يا للدهشة، تسلقت النملة خيط العرق وراحت تصعد بحمية نحو رأسي، ولم يكن أمامها من بدٍّ في أنها ستصطدم برأسي، ولعلها بالغريزة ذاتها ستتبع رائحة العرق. حين لامسَتْ عنقي ما عدت أدري كيف تملكتني القوة وانقلبت بطناً على ظهر، وبعد لحظات خرجت النملة من زنزانتها دون أن يُسمع صوت مفتاح هذه المرة!

بعد سنوات أسرية قرأت عن النملة التي أجبرها إنسان الغابة على قبول تحديه في أنها لا تستطيع العيش على حبة قمح واحدة لمدة عام كامل. خاض الرجل رهانه وحبسها مع حبتها، ولما عاد في العام التالي وجدها على قيد الحياة، وإلى جانبها نصف حبة القمح!

ـ لماذا لم تأتِ على الحبة كلها؟ سألها.

ـ إن من يراهن على حبسي عاماً كاملاً، يمكن أن ينساني لعامين!

بعد قضاء سبعة عشر عاماً في الأسر أدوِّن قصتي عرفاناً بالجميل لمعشر النمل.

شهادة 4

بفطرة عائلية أو مجتمعية، وربما بخوف مكتسب، كانت أمي تحذرنا دائماً من تفادي السياسة. ولا تكف عن الاستشهاد بجارنا: ما الذي جناه المرحوم أبو علم سوى هذا الحِداد الأبدي لعائلته؟!

ورثتُ جينة الحذر هذه كما ينبغي، وبالفطرة ذاتها علّقتُ وصية أمي قرطاً في أذني؛ مع ذلك أوقعني قلبي، وربما قدري، في حب رجل ليس بينه والسياسة مسافة أمان. أمضيت معه عامين من المواعيد المتباعدة التي يبدو كل منها كما لو أنه الأخير. وكان هاجسي الأوحد أن أحرس ظله ونحن نتنقل بين حواف الخطر، وأراقب إن كان أحد ما يتعقبنا. عامان من التوق إلى لحظة جنون جميلة تجمعنا على طبق الحاجات البسيطة. أحاول غابة خضراء على مدِّ البصر، فتتكاثر الحدقات وسط العتمة، وتطالعني ثياب الحداد وكل وجوه ضمائر الغائب. تتأبى عليَّ اللغة، وتنكفئ أصابع يدي وصحوي وأحصنتي البرية. كأن نبوءة الرحيل كُتبت لي قبل حلول مولدي بطرقات، فجعلتني مسافرة منذ الأزل، وزغرودة أمي تلاحقني وصولاً حتى هذه البئر. أجل أنا الآن في البئر. بوشاية أو بمحض الصدفة، اعتُقلت. لم يشفع لي جهلي الحقيقي بشؤون العامة والخاصة على الرغم من قناعة الجلاد بأنني بلهاء وغرة وبريئة. أنا التي كنت الأبعد عن أي شبهة، اعتُقلت، وليس في جعبتي سوى رواية أمنية واحدة ظلَّ حبيبي يرددها على مسمعي حتى حفظتها عن ظهر قلب، وهي ليست لغزاً: عليَّ أن أصمد حتى اليوم الثالث، وبعدئذ من حقي أن أوقف التعذيب وأشي بالمكان. ولكن إذا كان اليوم الأول مجرد بداية، كما يهددون، فما الذي سيفعلونه بي لاحقاً؟ ولماذا اليوم الثالث ما دام خبر اعتقالي وصل إلى المعنيين مباشرة؟ أصلاً ليس لي علاقة بالسياسة، وسأعترف، وليكن ما يكون، فلن يلومني أحد! ثم إن معظم من يُعتقلون يقولون إنهم صمدوا، وأنا سأقول ذلك. صممت أن أعترف بهذا السر

الذي لا أملك سواه! أنزلوني إلى القبو، وبعد قليل فتح شخص باب زنزانتي وقال: أنا الممرض، أرسلوني من أجلك، لا علاقة لي بما يجري في الأعلى.

كانت حلمتا ثديي تنزفان، واكتشفت أن ثيابي ملتصقة بالجروح التي تغطي جسدي. علا صراخي ما إن بدأ بتعقيمها بالكحول. أحدهم في زنزانة أخرى راح يغني لي ويشدُّ همتي. لا أدري كيف تجرأت وأمسكت بيد الممرض راجية إياه أن يتغاضى عن غناء السجين. نظرت في وجهه، يا إلهي، كان يبكي. لم أتمالك نفسي، انهمرنا معاً، سجينة في يومها الأول تحنو على سجان مسعفٍ ضمَّد كرامتها برباط خفي. استجمعت شجاعتي وقررت أنني لن أبوح بسري حتى في اليوم الثالث. إن صبراً يغسل جسدي على عتبة زنزانتي لأهون من بغتة تتربص بالهواء والناس والنوايا.

لكن البغتة لم تتريث، ففي صبيحة اليوم الثاني أفقت على صراخ حبيبي قبالة زنزانتي ذات الرقم واحد!

أين وجهكِ الآخر أيتها البلاد المرصودة للمواقد؟ أين جمر رمادك؟ امنحيني فرصة كي أرمي حجراً في جوف الماضي، ولترميني بعدئذ كل سهام اللوم بمآسيها وتسوطني بالشرور!

شهادة 5

آفة قبعتْ في رأسي لحظة اعتقالي، كأنها طائر من سراب. مناورة؟ فلتكن، قلت في سري، وقد تحميني من تبعات إضافية. لا أعرف لماذا توقفوا فجأة عن تعذيبي وتغيرت لغتهم وطريقة تعاطيهم معي، ثم ساد صمت مخيف.

مع الكلمة الأولى نزفت دمي وكل ما كنت أعرفه من خبايا. عزلوني

عن الآخرين، في البدء كي يجنبوني التحدث مع أي شخص يمكن أن يغيرني أو يشد همتي. كان الفارق أسطورياً بين وجبة الطعام الأولى التي قدموها لي فور اعتقالي وبين الوجبات التي يأتون بها حالياً. لم يكن يخطر ببالي أن أطلب امتيازات. كان يكفيني ذلك الوعد الذي خدّروني به منذ الساعة الأولى: «قريباً سنطلق سراحك، وتعود إلى بيتك وأولادك كأن شيئاً لم يكن. بعد أسبوع فقط، دخل عليّ أحدهم، وكنت أراه لأول مرة، وقال لي دون مقدمات:

ـ لن تتحقق لك مثل هذه الشروط حتى في بيت أهلك. اليوم أمرتهم أن يحضروا لك تلفزيوناً، وليس لأحدٍ الحق في مساءلتك حول أي شيء. جنة عدن! أليس كذلك؟

ـ شكراً سيدي، قلت.

أشار إلي أن أجلس على مفرشي في زاوية الغرفة؛ وبدأ يحدثني هامساً بأن مهمة تنتظرني قريباً، وكان يلوح بعصا طويلة. فجأة مد عصاه إلى يدي المسترخية على الأرض: «ألا ترى أن أظافرك طويلة؟» وأضاف: «سأبلغهم الآن بأن يأخذوك إلى الحمّام ثم يجلبوا لك مقص أظافر. يجب أن تقلّم أظافرك.» وخرج.

أجل يجب. قلت في سري. وربما ينبغي أشياء أخرى كثيرة، لا أحد يعلم! ماذا يهم لو قلّموا أظافري بعد أن قصوا جناحيّ!

خلتُني أتعاون مع نفسي، لأكتشف أنني تعاونت ضدها. بدأت تصالحي مع نفسي بالسعي إلى إقناعها أن أولئك الذين أشي بهم قد أصبحوا أعداء. حاولت مراراً، وتراجعت مراراً. وانتصرت كفة المصالحة، أو توهمتُ ذلك. لأنني لم أكن أقوى على أية مواجهة، وحتى حين كنت أفكر بذلك، كنت أقضي نهاري نهباً للصراع والتقيؤ والحوارات الداخلية القاتلة.

منذ الأيام الأولى لإيداعي هذا المكان الدميم تقلّصت أحلامي كلها ومشاريعي إلى مجرّد وعدٍ لا أدري إن كانوا سيصدقون في تحقيقه. وكنت أقاوم احتمال العكس بكل ما أوتيت من قوة. أتخيَّل أشباحاً أعرفها، تتردد ما إن يُغلق الباب عليَّ بصورة نهائية. كنت أتصورها في كل مكان، قبالتي عند الباب، على فراشي، تحت فخذي، وبين أصابعي. وكنت أغمض عيني متجنباً رؤيتها لأجدها قابعة في بؤبؤي عيني؛ إنها أشباح أولئك الرجال الذين عملت في صفوفهم لسنوات بكل تفانٍ وإخلاص. أولئك الذين كان وجودهم حولي يجعلني بقوة مارد، يوم كنت أعتبرهم بشراً من طينة خاصة. اليوم انقلبت الأمور عندي، صرت أفسّر كل شيء على نحو مغاير، فأتصيد هناتهم العابرة، وأحيلها إلى كبائر. حتى هؤلاء الذين التقيت بعضهم هنا، والذين هم مثلي، ضحايا الطريق التي سلكناها معاً، هؤلاء الذين تخلّوا طواعية عن امتيازاتهم، ووظفوا كفاءاتهم وقدراتهم في خدمة الأهداف التي يسعون إليها. الأمثلة كثيرة جداً: وليم الذي عالج ابني وزوجتي بكفاءة نادرة، وأنقذ رفيقه من الموت. وليم الذي كان يخصص ثلاثة أيام في الأسبوع من عيادته لمعالجة ذوي الدخل المحدود. ألم ينسلخ عن عائلته لأنها أرادت أن تثنيه عن أعمالٍ كهذه.

كانت أمه تقول له: ماذا ستحقق من وراء ذلك يا وليم. ستصير غيفارا عصرك. ما الذي جناه سواك من وراء الفقراء. والله يا بني ستلحق بهم عاجلاً أم آجلاً.

وليم الجردي، قابلته أول أمس في غرفة التحقيق؛ كان قد اعتقل قبلي بشهرين ولم تثبت عليه أية تهمة. صحيح أن شكوكاً كثيرة حوله، لكنه تملَّص منها كلها. قابلوني به فعرفته على الرغم من العصابة التي تغطي عينيه. حاول وليم تجريدي من أية حجة مسبقة. فحين دخلت نزعوا عن وجهه العصابة، فأشار إليَّ بحاجبيه أنه لا يعرفني. ولكنني كنت قد وجدت طريقي الخاص بي.

ـ «نعم أعرفه». قلت، متجاهلاً إلحاح عينيه.

ـ «أين ومتى». استعجلني أحدهم.

ـ «في عيادته، فقد أخذت له ورقة من أحدهم تتضمن توصية من أجل معالجة زوجتي. كان ذلك في العام الماضي، وغالباً في أوائل تشرين».

ـ ومن هذا ال «أحدهم»؟

ـ جورج. قلت دون تردد.

لم أعد أعرف كيف تخلّقت لدي هذه الذاكرة الصوانية التي راحت تقدح الأسماء والأمكنة والأزمنة والتفاصيل بدقة عجيبة.

كذّبني وليم في البدء. ولكن إزاء إصراري على المتابعة في سرد الحادثة لم يجد مشكلة في تأكيدها، معتبراً أنها لن تؤثر على مجرى التحقيق معه؛ فهو طبيب ويأتي إلى عيادته أي شخص، خاصة أيام المعالجة نصف المجانية. لكنه تجاهل ورود اسم جورج.

بدأوا التحقيق مع وليم متجاهلين وجودي كلياً. انتابني حقد مفاجئ تجاه جورج من جراء تعاطفي الشديد مع وليم. ومع ذلك قلت للمحقق هامساً:

ـ هو يعرف جورج.

أخرجوني من الغرفة. رافقني شخص، كنت قد لمحته مرتين خلال التحقيق، وكنت أتهيّبه وأكرهه. كانت عيناه توحيان لي بازدراء عميق، وكان يتعامل معي بطريقة غريبة وغير مفهومة. أوصلني إلى باب الغرفة، وطعنني بعبارة أصابتني في أم ضميري.

ـ ما شأنك بجورج وسواه يا كلب، ما داموا لم يسألوك عنه. بقي أن تعترف على أولادك وزوجتك. انقلع. سوف تدفع الثمن!

دخلت. أغلق الباب خلفي بقوة. فارتميت فوق مفرشي جثة هامدة. اخترقت عبارته الأخيرة رأسي كسهم من نار، وانتابني ألم معوي قاتل.

ما الذي فعلته بنفسي، يا إلهي! أيمكن لهذا الجلاد التافه أن يوبخني على اعترافي؟ هل يمتحنني يا ترى، أم أنه يقصد إيقافي عند هذه الحد؟ بالتأكيد يريد أن يرصد ردة فعلي، وما إذا كنت مقتنعاً بما أفعله. فهو لم ينتظر ردي عليه أصلاً. لا بد أن سيده قد أوكل إليه هذا الدور.

انبطحت أرضاً، واضعاً رأسي بين يدي وشرعت بالبكاء، محاولاً إقناع نفسي بأن القضية مجرّد خطة مدروسة من قبلهم. بكيت وبكيت، صدرت عني أصوات آنة ناحبة كأنها ليست لي. وعبرها تسلّل إليّ صوت ابني لحظة اعتقالي. بدأت أفقد الإحساس بكل شيء، أيمكن أن يكونوا قد حقنوني بمادة مخدرة؟ وإلا كيف تظهر لي هذه الأشكال المرعبة، وذلك الخليط من الروائح والطعوم؟ قفزت من مكاني على نحو مباغت وبدون تفكير؛ خطوت نحو التلفزيون أريد تشغيله فوجدتني أشعل سيجارة. اكتشفت بعد لحظة أنني نهضت كي أشرب، لأنني كنت أحس بسعير يحرق أحشائي. مددت يدي إلى إبريق الماء الأخضر؛ كان يشبه إبريق الوضوء الذي كان يستخدمه أبي قبل عشر سنوات. عرفت فيما بعد أن سجيناً قبلي كان يبول فيه ليلاً. ارتبك نظام جسدي بكامله، خفقان قلبي، تنفسي، حركاتي. كانت خلاياي تندحر تباعاً، تعسُّ على نحو مخيف. كلب هائج يلاحقني، أجل تلك الكلبة الشرسة التي نتشت لحم فخذي يوم اختطفتُ جرويها من أمامها بينما كانت تأكل على بعد ثلاثة أمتار منهما. آنئذٍ كنت صغيراً. عوت في البدء لإخافتي، وتململتْ متحفّزة، ثم هاجمتني. هُرعت باتجاه البئر المهجورة كي أرميهما فيه. لكنها أدركتني قبل حافته بخطوات. نهشتني في فخذي، وقد صدر عنها نباح فتّاك أودى بقواي. سقطت على الأرض صارخاً، مستسلماً. كان الدم يسيل

من فمها ومن جسدي، وسقط الجروان من يدي. اندغرتْ إليهما، التقطتهما، والتفتت إليّ بازدراء كأنها لم تشفِ غلّها. كان طفلاها يتدليان من فمها، تركتني وطارت.

فُتح الباب على عجل. التفتُّ مذعوراً، دون أن أعرف أين أنا. ظهر أمامي الشخص الذي جاء بي إلى هنا قبل قليل:

- «اسمع، سأحضر الطبيب ليراك. هل أصابتك حالات صرع من قبل؟»

- «لا، لا، أبدا».

استغربت سؤاله، وقد ظننت ذلك إمعاناً في إهانتي. كان ثمة جرح في فخذي. دمي يسيل. أرض الغرفة ملطخة بالدم، بنطالي، يداي. يا أمي! صرخت مهتاجاً. وفي هذه اللحظة دخل الطبيب، مدّدني مباشرة فوق بطانية، ثم نزع ثيابي عني. كان صوته لائماً، وهو يوجه حديثه إلى الشخص. فقد ظن أنني تعرضت لجولة تعذيب. ولكنه لم يلبث أن عرف حقيقة الأمر بعد أن وضّح الآخر ما جرى لي. وعرفت أنا أيضاً ما كنت أجهله. يبدو أنني كنت فاقداً الوعي تماماً، وقد مزّقت فخذي بتلك الملعقة المعدنية التي كانت مرمية بحذاء طاولة التلفزيون.

عالجني الطبيب بطريقة شبه بدائية. كان الجرح عميقاً، وبمساعدة الشخص الذي عرفت أنه ممرّض، خاطا الجرح بإبرة كبيرة إلى حد أنها مزّقت حواف الجرح وفزّرت لحمي في أماكن عديدة. كانت الكدمات والجروح تملأ جسدي.

- «انتبه إلى نفسك جيداً، قد ننقلك اليوم إلى المشفى». ووضع يده على رأسي مشجّعاً مواسياً. ثم ناولني بعض الأدوية شارحاً لي كيفية استخدامها. وقبل أن يغادر، سألته:

ـ «هل يوجد تشويهات في وجهي يا دكتور؟ لقد وُعدِت بزيارة قريبة».

ـ «لا، لا، اطمئن ستزور وأنت مرتاح تماما».

بقي الممرض وحده. هممت عدة مرات بالتحدث إليه، وفي كل مرة كان لساني ينعقل، لقد كان جافاً كخف. خزي فظيع أصابني، إلى أن بادرني قائلاً:

ـ «أقدّر حالتك تماماً. افهمني جيداً، لن يفرجوا عنك أبداً. حاول أن لا تؤذي الآخرين. توقفَ قليلاً ثم أضاف: «أنا المعني الوحيد بمتابعة وضعك الصحي. هل تسمعني؟»».

تركني وخرج مسرعاً؛ تركني حلزوناً ملفوظاً من قوقعته، سريع العطب، ضعيفاً، ناقماً، ساخطاً. كنت كالمنوم مغناطيسياً. ومر الوقت وأنا يتناوبني انهزام معنوي تارة وعودة الروح تارة أخرى. ما الذي فعلتْه بي كلماتُ هذا الرجل. لقد شوّشت عقلي، وأيقظت فيّ أحاسيس أخرى غريبة، قطعتْ عليّ مناوراتي التساومية الفتاكة، ورمتني بداء الأرق. حاولت أن أنبذ كل التصورات المرهقة لنفسي وأنسج بدلاً عنها أخرى مغايرة، لكنها ما لبثت أن تراكبت جميعاً فأحالتني معها إلى كرة متدحرجة نحو المجهول واستلّت إرادتي.

ماذا يهم أن يكون وجهي قد تعرض للتشويه ما دام نزيفي الجوّاني أغزر، وكل إيماءات فقر الدم الخارجية لم تعد تعني شيئاً إزاء قفري الداخلي الذي تتناهبه الوحوش والحشرات والديدان. ياإلهي، أنياب الخيبة تفتك بكياني كله.

* * *

شهادة 6

هل كانت حماقة أم تعقلاً أنني لم أطلب جرعة ماء من جلادي؟ ماذا يعني لو استجاب يومئذٍ، هل كان حقاً سيحاول ابتزازي كما كنت أعتقد؟ ولنفترض أنه سيفعل، هل يعني بالضرورة أنني سأذعن؟ لم أستطع الإجابة عن هذا السؤال طيلة الخمسة عشر عاماً من سجني. ترى هل كنت أتحاشى زج نفسي في اختبارات إضافية؟ ما الذي كان سيحدث لو طلبت الماء ورفضت المقايضة، سوى أنني لن أحظى به؟ ربما كنت سأزداد عطشاً لمجرد أن أتوقع الاحتمال الآخر.

كنت مشبوحاً على سلّم خشبي، رأسي تكاد تنفجر في الأسفل وقدماي بلا دم في الأعلى. ثم فكوا قيودي وعلقوني من معصميَّ، فصرت بين منفصل عن الأرض ومتصل بها. أحسست أنني أتصوّح، أغمضت عينيَّ، وربما عقلي، فوجدتني تحت شجرة الليمون في حوش بيتنا. يا إلهي بدأ فمي يتحلّب، أقسم أنه امتلأ لعاباً. في هذه اللحظة عاودتني آلام التعذيب، ولكن زال العطش. قلت في سري: واحدة بواحدة. إن «سجين هذا الحال» لن يحظى بنعمتين معاً!

شهادة 7

لم أرَ وجه جلادٍ قط على مدى أشهر من التحقيق في فرعين أمنيين. ولم ينزعوا العصابة السوداء عن عيني في الجولات سوى مرة واحدة.

لأول مرة أُطلب إلى التحقيق في وقت مبكر جداً. أدخلوني محمولاً من قدميَّ وذراعيَّ ورموني في إحدى الغرف حيث بقيت وحيداً في فراغها البارد دون أن يوجَّه إلي أي سؤال. بعد قليل سمعت وقع خطوات مسرعة في الممر، وفجأة جاءني صوت هامس مرتعش من خلفي: سيأتون بزوجتك عارية، وستُغتصَب أمام عينيك. غاص قلبي للحظة، ولكنني

فكرت أنها مجرد خدعة جديدة للمزيد من تحطيم روحي.

ـ ماذا تعمل زوجتك؟ سألني أحد المحققين.

ـ معلمة مدرسة. أجبت محاولاً استبعاد الوشاية الهامسة.

سنسمح لها بزيارتك، وأنت تعرف مقابل ماذا!

لم أُجب. لم أصدِّق. ولم أعد أسمع. لكنني والله شممت رائحة بيتي.

أحدهم نزع الطماشة عن عيني، لكنني لم أفتحهما، ولو لم تكن يداي مقيدتين إلى الخلف لما ترددت في تسمير أصابعي على عيني حتى العماء. لا أريد أن أرى. مع ذلك كان ثمة قوة ما تحاول فتح عينيَّ عنوة. معركة دارت رحاها في محجريَّ دون أن أميِّز طرفيها. طرف يمانع وآخر يطاوع، وكلاهما يقتات على بقية قواي العقلية والنفسية. انفتحت أجفاني على صرخة مزَّقت حبالي، كل حبالي تقطَّعت. وانقطعت معها أنفاسي، وتلاشيتُ أمام زوجتي إلى كتلة من المذلة والدمع.

لا أستطيع أن أكمل. ما أريد قوله أنني وقَّعت على اعترافٍ دونوه سلفاً على الورق. أجل وقَّعت على سجني سبعة عشر عاماً، تجنباً لانتحار كنت سأتكبده إن هم نفذوا ما كانوا يهددون به!

شهادة 8

حين سمعت أول مرة، وأنا في أحد أقبية التحقيق: أين المدحلة! ظننت أنها أي شيء ما عدا أن تكون إنساناً من لحم ودم، لولا أنه أكبر مما نتصور. فقد عشنا وأكلنا وشربنا مع الرجل ـ المدحلة لمدة أشهر دون أن نعلم أنه يُستخدم كأي أداة تعذيب. فحين كان يعود من الجولة سرعان ما يأوي إلى زاويته، ويندس تحت حرامه دون أن يكلِّم أحداً، ويأخذ بالنحيب، والصراخ أحياناً، ريثما نتدخل محاولين التخفيف عنه ومواساته، معتقدين

أنه كان في جولة تحقيق قاسية. وبمصادفة غريبة اكتشفنا الأمر، يوم أتونا بمعتقل حطيم، وطلبوا من المسؤول الصحي العناية به. تحلّقنا، كالعادة، حول الضيف الجديد، الذي بدأ يحكي للطبيب ما حدث معه في ثلاثاء المدحلة:

«أمضيت في الأعلى شهراً كاملاً، وقد نقلوني يوم الثلاثاء الماضي إلى المشفى بعد أن أسبل الله عليَّ رحمته فأفقدني الوعي ليومين متتاليين. أتذكر أنهم بطحوني أرضاً وأخذوا ينكّلون بي. ثم نادى أحدهم: هاتوا لي المدحلة! ضحكت في سري وقلت: إنها لعبة أعصاب. هل يُعقل أن يهرسوا جسدي الضئيل على تهمة تافهة ألصقها بي مخبر؟ ولكن أنسيتَ أنهم انتزعوا منك اعترافاً بارتكاب جناية لم تقم بها؟

تشوشت أفكاري كلها حين سمعت وقع خطوات ثقيلة تتقدم نحوي ببطء. من تحت، من هذه الأرضية، كنت أرى قدمين فقط، وأسمع صوتاً آمراً يعطي تعليماته: إلى الأمام قليلاً، إلى الخلف، ضع رجلك على ربلة الساق، على الفخذ، على الظهر، طقطقة عظام قاتلة!

ـ من كان معك؟

لم أُجب، كيف لي أن أُشرك معي أحداً بجرم لم أقترفه أصلاً؟!

إذن اقلبوه على ظهره! تنزل الكتلة الصماء، وجهي إلى الأعلى، لمحت وجهاً لا يضحك ولا يحزن ولا يُبصر ولا يحقد ولا يرحم أيضاً! ثم لم أعد أرى شيئاً. الرجل الآلي ينفّذ. يدوس بطني بقدمه اليمنى، يرفع القدم الأخرى، يتزايد الثقل، صدري يلتصق بظهري، يصغر كياني، حنجرتي تصدر أصواتاً غير مفهومة، صرخات متقطعة لا تشبه شيئاً، ثم شخير صاخب، تتلاحق أنفاسي لبضع ثوان فقط ثم تنقطع. تجحظ عيناي، يا

إلهي! إني أرى ملاك الموت رأي العين. تنشق ثقوب جسدي كلها، فمي وأنفي وأذناي، ويُخرج بدني ريحاً وفضلاتٍ ودماً. اختفت حواسي، وفاضت روحي...».

توقف ضيفنا فجأة عن سرد قصته حين اندفع رجل من الزاوية واتجه نحونا قافزاً فوق الأجساد النائمة. سجد قدّامه، وراح يعانق قدميه ويقبلهما. بكينا جميعاً على مشهد ضحيتين لويل واحد، إحداهما تستجير بعفوٍ، والأخرى تنعتق من آلامها بصمت حليم.

اعتقال في الجامعة
سبع دقائق وسواها

معلمنا المحبوب، وجّه إلينا سؤالاً شفوياً: كم من الوقت وسطياً يستغرق شرب فنجان قهوة؟

لم يكن يخطر في ذهن أي منا أمر كهذا. أفترض أن أقراني فكروا بما فكرت به. كلٌّ تخيَّل أباه أو أمه وهما يشربان القهوة. أمي لم تكن تذوق القهوة، وأبي كان يشربها على عجل دائماً، إذ لا يكاد يستيقظ ويغتسل، حتى تدق الساعة السادسة، موعد مرور الحافلة التي تقله إلى العمل.

تلاميذ المقعد الأمامي معرّضون دائماً قبل سواهم لتلقي الأسئلة. قلت في سري، ربما ثلاث دقائق، خمس، عشر.

ـ وليد، ماذا تقول؟ فاجأني المعلم.

ـ سبع دقائق. لا أدري لماذا اخترت هذا الرقم. كان يمكن أن أتلعثم بأي رقم آخر.

أتذكر هذه القصة دائماً، وقد أوردتها اليوم في سياق مختلف، رداً على سؤال مماثل وجّهه إلي سجين متطفل، عاصر آلاف المحكومين لدى، أو المحالين إلى، محكمة أمن الدولة والمحاكم العسكرية والميدانية ومئات الموقوفين عرفياً، مثلي.

ـ سبع سنوات. قلت ضاحكاً!

اليوم مضى على اعتقالي حوالي سبع سنوات. جرى ذلك في سنة التخرج من الجامعة، حيث كنت أجلس في المقاعد الأخيرة من المدرج، وقبل انتهاء المحاضرة انفتح الباب الخلفي للقاعة، وتقدّم مني رجلان ببزات كاكية:

ـ أنت وليد؟ سألني أحدهما بتهذيب شديد.

ـ نعم، ماذا تريد؟

ـ لو سمحت، نريد أن نتحدث معك على انفراد. قالا ذلك، فيما أبرز أحدهما بطاقته الخاصة، وأشار لي بيده أن أتبعهما.

خرجنا من القاعة دون أن نلفت انتباه أحدٍ سوى زميلٍ لي من بلد شقيق، وقد تبعنا إلى خارج الحرم الجامعي، دون أن نراه.

ـ إلى أين يا وليد؟ لم تنته المحاضرات بعد! سألني مندهشاً.

ـ فنجان قهوة وأعود. كررت العبارة التي قالها لي أحد الرجلين الكاكيين قبل لحظات، عندما سألتهما عن سبب استدعائي.

صعدت إلى السيارة متأبطاً كتبي. لم أكد أستقر في المقعد الخلفي للسيارة حتى أقلعت، ووُجهت إليّ لكمة في جبيني، ثم دفع الشبحان المحيطان بي رأسي إلى الأسفل. احتججت بقوة، فعالجني أحدهما بضربة من عقب مسدسه على فمي، أطاحت بنصف ضواحكي، وبقيت أنزف حتى وصلنا إلى ما عرفت لاحقاً أنه فرع أمن. وقبل أن ينزلوني من السيارة عصبوا عيني. أُدخلت إلى ظلمة مفاجئة، واستمروا في تعذيبي لساعتين دون أن يسألوني عن أي شيء. جاءني صوت آخر مختلف عن كل الأصوات التي سمعتها خلال ذلك الوقت: «انزعوا العصابة عن وجهه!» نزعوها. كانت أمامي شخصية بهيئة ضارية.

ـ أين أبوك يا كلب؟

ـ أبي! أبي مات منذ سنتين. ألهذا جئتم بي إلى هنا؟!

ـ وتكذب أيضاً، والله سألحقك به.

ضحك الكاكيان، ظانين أن سيدهما يقوم بتمهيد تمثيلي كعادته التي يفاخر بها أمام مرؤسيه. لكن الشبح الجديد أصرّ، متابعاً التحقيق معي حول أبي. ويتهمني بأنني الوحيد الذي رتّب أمر إخفائه عن أنظارهم.

فجأة حوّل الضابط أسئلته في اتجاه آخر.

ـ تهزأ بي أيضاً، لماذا لم تقل لي أن أخاك مطلوب يا جرذ الكتب؟! هاتوا لي الملف!

وكالمذعور، انقضّ علي، محوّلاً القضية إلى إهانة شخصية.

ـ أنت سألتني عن أبي، وقد أجبتك بالحقيقة.

في اليوم الثاني أخرجوني من الزنزانة منتوفاً من كل ما يغطي جسدي، ورُميتُ في ركن آخر.

ـ إما أن تأتي بأخيك، أو تبقى هنا حتى يسلّم نفسه.

ظننت ذلك نوعاً من التهديد الذي قد يجدي مع طالب في سنته الجامعية الأخيرة. وبقيت على أمل الخروج حتى بعد مرور سبعة أيام، ثم سبعة أشهر، إلى أن استقرّ بي المقام لمدة سبع سنين متواصلة لم يكن في حوزتي خلالها ما يربطني بحياتي السابقة وبأهلي سوى بعض شعرات من شاربي التقطتها عن الأرض بينما كان الحلاق يجزّني كالخروف، والسياط تلسع ظهري.

سبع سنين، يا إلهي! حتى هذه اللحظة لا أصدق كيف أمضيتها. في الأشهر الأولى كنت أقول: اليوم سيأتون بأخي وأخرج. ولكنني بعد حين

توصلت إلى مصالحة مع نفسي تقضي بأنه لا فرق بين أن أكون أنا السجين أو أخي، ما دام أحدنا سيدفع هذا الثمن؟ صحيح أنني لا أحمل قضية سياسية بعينها، ولم أنتم إلى أي حزب في حياتي، ولكنني أتذكر أنهم قالوا لي في التحقيق إن مجرد عدم الانتماء لحزب البعث يشكّل بحد ذاته تهمة.

ربما كان امتيازاً بالنسبة لي أن أتشرف بمعرفة سجناء الشيخ حسن والمزة وتدمر وصيدنايا وثلاثة فروع أمن. ففي الأماكن المزدحمة بالوافدين، تعلّمت كيف أنام معصوراً وجالساً وواقفاً، وأحياناً على رجل واحدة. وفي تدمر برعتُ في رتق الملابس وتصنيع خيوط النايلون وجوارب القماش والأحذية، وأكلت الطعام بكل درجات الطهي والتلوث، من النيء إلى المعفر بالمازوت والدم. وقبل أن أتعلم فنون الطبخ العربي في صيدنايا، ولعب الورق والشطرنج في المزة، صرت ضليعاً في فهم اللهجات الكردية والعربية كلها. صحيح أن هناك عادات مشتركة بين المساجين، ولكن لكل مكان تقاليده وخصائصه المميزة وتفاصيله. وإلا لما كان ممكناً التمييز بين السجين التدمري والمزاوي مثلاً، من حيث المظهر الخارجي والطباع والمزاج وطريقة المشي والنوم والسهر والتسلية وما إلى ذلك.

العدوى في السجن تسري كالنار في الهشيم، حيث تكاد أن تشعر أن الحياة هنا مواسم. يكفي أن يبدأ أحدهم مشروع أعمال يدوية جديد حتى يقوم العنبر عن آخره بالأعمال ذاتها. وكذلك الحال في قراءة الكتب ولعب الورق والنرد والرياضة، والاحتفاظ باشياء لا قيمة لها، والبحث عن استقرار ظاهري، والسكوت على ضيم، والتشكي من الأمراض.

كان للغرائب الكثيرة، التي سمعتها خلال لقاءاتي مع هذا الكم المتنوع من الناس، أثران في آن معاً، أحدهما محبِط والآخر مواسٍ. ولكن في

الحالين ساعداني على استيعاب وضعي وتحمُّله.

حسن الحموي، العجوز، الذي عجز الناس جميعاً، في السجن أولاً وخارجه ثانياً، عن جعله يرفع رأسه، بعد أن عاش في تدمر عشر سنوات مطأطئاً. قبل إطلاق سراحه بأيام وقف في الممر أمام الناس وقال: «أرجوكم ألاَّ تطالبوني برفع رأسي بعد الآن، والله لا شيء يستحق رفع الرأس!».

* * *

رجل في الثامنة والثلاثين من العمر، أودع تدمر منذ عام 1982، قالت له المحكمة الميدانية إنه محكوم بالإعدام. شهد هنا مئتي ميتة قبل أن يأتي دوره. كنا نتناول وجبات الطعام على سفرة واحدة. وذات يوم، بعد أن أفاق من قيلولته، قال لي بما يشبه الهلوسة: قم واقرع الباب يا وليد. قلت: لماذا؟ قال: سأطلب تنفيذ الحكم بي فوراً، لقد قبَّلت يد أمي في الحلم الآن. حلمت أنني رأيتها في الشارع ونادتني باسمي، ركضت نحوها، لم أكن أرى سوى يديها اللتين رحت أقبلهما باكياً. احتضنتني، دعت لي بموت رحيم، ثم غابت.

* * *

الرجل الذي رأى حلماً بأن السيد الأوحد توفي، ورواه لزملائه في العمل. بعد ثلاثة أيام اقتاده مجهولون إلى مكان ما، وبعد شهر أحيل إلى المحكمة فحكمه القاضي بالحبس مثلي، سبع سنوات على ارتكابه جناية الحلم تلك.

* * *

الشاب الذي اعتقل في الثامنة عشرة من عمره بسبب حضوره درساً واحداً في القرآن، وبقي بالسجن لمدة أربعة وعشرين عاماً، اعتبرها ضباط

اللجنة الأمنية كافية لخراب قواه كلها. وقد وجهوا إليه سؤالاً وحداً: ما رأيك بالرئيس الجديد؟ فأجاب: إن شاء الله خير!

* * *

أحمد الكردي، ستة عشر عاماً. وجه صريح الطفولة، صارم كحدِّ السيف، شعره أغبر، ونبرة صوته خاطفة كما البرق. ولأنه حدث، فقد أجّلت المحكمة قضيته عامين تاليين، فقط لتحكم ببراءته، ولكن بالغاً.

* * *

تركي، عازف الأكورديون الضرير، الذي أودت بصيرته ببصر القاضي حين قدَّم مرافعته الشفهية ضد جهة الادعاء التي طالبت بمحاكمته ككل المبصرين، ولكن بتهمة التحريض على الغناء والعزف.

* * *

تشابه أسماء: مصطفى الأول، في السادسة عشر من عمره، والثاني يبلغ الخامسة والأربعين، وكلاهما محالان إلى محكمة أمن الدولة العليا. وفي جلسة النطق بالحكم مَثُل مصطفى الأول أمام الهيئة التي بدأت تقرأ على مسمعه نص الحكم، وقد اشتمل على بنود الاتهام الثلاثة، بعد أن عرضت نبذة مختصرة عن نشاطاته المناهضة منذ أواخر السبعينات حتى اعتقاله، مع إيراد تواريخ محددة لكل فترة. ولم يلفت انتباه هيئة المحكمة تلك الهيئة الطفولية التي تنظر إليهم بذهول:

ـ ولكن يا سيدي، عفواً يا سيدي، إن اسم أمي توليب.

كان الشيء الوحيد الذي أغاظ مصطفى الأول هو تغيير اسم أمه وليس ما ورد في لائحة الاتهام من مغالطات تتعلّق بعمره وشهادته ووضعيته العائلية التي يشار فيها أن لديه ابنة. انفجر بالبكاء.

ـ أرجو أن تصححوا اسم أمي، ياسيدي. بطاقتي الشخصية موجودة لديكم في إضبارتي، أرجوكم أن تتأكدوا.

انتبه أحد القضاة العسكريين إلى أن ثمة خللاً في القضية برمتها، فهمس في أذن رئيس المحكمة الذي كان إلى يمينه. وبعد أخذ ورد صامت بين القضاة، وتفحص للأوراق التي أمامهم، أرسلوا بطلب إضبارة تحمل رقماً آخر. وحين جيء بها، سحبوا منها وريقة مكتوبة على عجل بخط اليد، وتضمنت:

ـ قضت المحكمة ببراءة المتهم مصطفى ابن توليب مواليد من التهم الموجهة إليه، ويحال إلى محكمة الأحداث بتهمة شتم رئيس بلديته، وتضليل هيئة المحكمة.

* * *

الستارة الثانية

تدمر / حلق الهاوية

مزقة فردوسية تحنو على الرمال، كانت.

ومملكة من نخيلٍ وأمداء تسمو كما العزّ.

قبل ألف وسعمائة وخمسة وعشرين عاماً غزاها أورليانس واقتاد زنوبيا أسيرة.

ثم احتلَّها ابن الوليد بهيكليها، بيل وبعل شمين، وكل القبور.

وذات انتهاكات تالية استحالت إلى سبي وأسوار شائكة.

صارت أمحل من رمل: شوك وقيظ وسراب.

ضجت بأنين الموؤودين، فَصَلمتْ أذنيها عن السمع حتى فاضت بموتاها بمقدار واد.

* * *

ما كان لأحد أن يتنبأ أن تدمر ستكفُّ عن الزرع والضرع والماء، وتشحُّ عيناها، اليمنى بنشيجها المكتوم على ضيوفها الذين حلَّت بهم النوازل، دون أن تقوى على إكرام أرواحهم بفاتحة أو دقيقة صمت، أو حتى زيارة ضريح؛ واليسرى ـ أفْقا الواحة، وهي العين أو النبع بلغة

الأسلاف ـ التي غاصت عميقاً تحت وطأة فندق خماسي النجوم. واستحالت إلى شاهد كليل على عهد من العقاب الأرضي الذي أنزله بنا أشباح على هيئتنا البشرية.

على غرار أقسام الشرطة وفروع الأمن والسجون في سائر البلاد، يستقبلك المعتقل التدمري بآية قرآنية كالتي خُطّت على جداره الخارجي: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون». حيث تُرتكَب أشدُّ الفظاعات باسم الله.

أما المحاكم الاستثنائية الجائرة فليس لأحد أن تثقُل موازينُه فيها، وكل من يخضع لها مُدان إلى إشعار آخر، فمن لم يصبه حكمُ الموت، تنتظره درجات النار التدمرية من باب الهول الأول إلى آخر الجحيم، حيث «لا يَمُوتُ فِيهَا وَلاَيَحْيى».

* * *

في 1988/3/3، وبعد ثلاثة أيام من التكهنات والأخذ والرد حول وجهة ترحيلنا من فرع التحقيق العسكري، قطعنا الشك باليقين حين خرجت الحافلة من العاصمة وكفّت عن الالتفاف يميناً ويساراً. كنا ستة عشر رفيقاً لا نحمل سوى أقلّ القليل مما بخس وزنه وثمنه: 16 قطعة صابون و1600 ليرة سورية وعبوة منظفات و32 علبة سجائر ناعورة، وكيس من الألبسة المستعملة لنا جميعاً، وكذلك أجسادنا التي كانت في أمسّ الحاجة إلى الترميم من جرّاء ما أصابها خلال فترة التحقيق المديدة. رائحة برد صحراوي تتسلل إلى مقاعدنا الخرساء، ثم إلى أنوفنا المنكّسة حتى الرُكب. كلٌّ منا مقيّد إلى يد جاره في المقعد، وأسياخ تنظيف البنادق تقرع رؤوسنا على وقع صوت داشر يخرج من آلة التسجيل، مختتماً مقاطع الغناء بمديح أرباب النقمة.

وصلنا إلى تدمر، معاصمنا وأدمغتنا ومثاناتنا محتقنة. أدخلونا الباب

الأول، وفكوا قيودنا، ثم أمرونا تحت الضرب والشتائم بالاصطفاف ووجوهنا إلى الحائط. بغريزة الخوف الدفاعية أصرّت مثانة أحد الشباب أن تبول على هذا الاستقبال، ولم يعد المسكين قادراً على خذلها. راح يتململ تحت عشرات الأفكار التي داهمته قبل أن يرفع يده مستأذناً قضاء حاجته. أخذه أحدهم إلى الحمام، وترك الباب مفتوحاً للمراقبة والسُّباب. مرّت بضع دقائق وهو يصارع ويتصبب عرقاً، فيما الجندي يستعجله، لكن قطرة بول واحدة لم تخرج. اهتاج العسكر من هذه الفعلة التي عدّوها انتهاكاً مسرحياً للحضرة التدمرية أو محاولة هرب فاشلة، وفي الحالين كبّدته أسوأ العقاب.

البارحة كنا نناقش احتمال نقلنا إلى هنا، وخلصنا إلى رفض التعامل معنا كأسرى حرب، والاحتجاج على التشريفة، أي رفض المبدأ رقم واحد في مراسم الاستقبال. لكن الأمتار الأولى من المدخل فالذاتية وباحة الإدارة والحلاقة والتعرّي الكامل كانت كفيلة بجعل احتجاجاتنا اللاحقة مسخرةً لدى ذوي الوجوه الصنمية التي ستتولى أقدارنا الجديدة؛ وربما جعلت كلاً منا في تلك اللحظة يتوق إلى مجرد التعامل معه بوصفه كائناً بشرياً ليس إلاّ.

تداعيات الذاكرة التدمرية عبء باهظ، وعرة ومحفوفة بالويل والفزع المزمن. وابل من حكايات تقصّر عنها اللغة، تتلاقى وتفترق، دون أن تنتهي، تتسع للآمال والخيبات، للحياة وكل صنوف الموت، حتى لتبدو جولات التحقيق والتعذيب في فروع الأمن إزاءها أشبه بلعبة عض الأصابع. فالطقوس التدمرية لا تترك لك من خيار سوى العضّ على النواجذ؛ وما إن تُدخلك في عدادها حتى تبدأ بتفكيك ذاتك الإنسانية عبر العزلة المطلقة والبطالة وتعطيل الحواس، فقط كي تعيد صياغتك بمقاييس جديدة تليق بكائن تدمري انقطع عن الحياة الخارجية للتو. تجزٌ

كل ما تعتبره فائضاً عن حاجتك: شعرك ومشاعرك، وأواصرك مع الماضي والمستقبل، لتصبح وقوداً لنارها، ملتهماً بأنياب الترقّب المريع والهلع مما سيأتي. الكوابيس تقبع تحت الحذاء الذي تتوسده، ورصيد أحلامك يتجمّد. الأمكنة التي كنت تحبها تنقلب في نومك إلى أخرى مناوئة، فتنهضُ مدحوراً بأخيلة واستغاثات وأوجاع لا تُرى. ويصير قدرك، هذه الهوة السحيقة من الصمت الكثيف التي تتقاسمُها مع أناسٍ كانوا ناطقين، ثم هامسين، فإيمائيين، بكل ما تقتضيه مَلَكات الصم والبكم.

في بؤر العسف هذه يتلو عليك القاضي حكمه وهو أشبه بمومياء ضاحكة، ويجلدك السَّجان مقهقهاً، فارضاً عليك أن تعدَّ العصي، حتى إذا سها عقلك تحت وطأة الألم، يعيدك إلى البداية، منتشياً في جعلِ أقصاك أدناك، حيث تتلاشى فيك تباعاً ملامح النبض والصوت؛ ولا يتبقّى منك سوى خيطٍ واهٍ من حياة موقوتة. يكفي أن يُفتح باب المهجع حتى تنهال العصي والكابلات وركلات الأحذية من كل صوب، وتتحوّل وهلات التفقد أو إدخال الطعام أو قدوم الطبيب أو الخروج إلى باحة «التنفس» إلى تراجيديا من الرقص على الجمر. تموت الفلسفات والتعاويذ والأخلاق كلها تحت وطء الأحذية، ووحدها غريزة البقاء تصبح السيدة العمياء لمصيرك. في لحظات كهذه تتجسّد أمامك نُعرَةُ الخيل، تلك الذبابة الزرقاء الشنيعة التي تعذّب ضحيتها. تناور، تئز، تخاتل، ثم تنسلّ إلى أنف الحصان. يتململ، يراوح، يدور في مكانه، يضرب برأسه صعوداً وهبوطاً، ينخر. تخرج. تعاوده، تداور، تنقض، تلدغ، تفرُّ، تلتصق تحت الذيل. يركل الأرض بقوائمه، يتحرك بهياج، يفتل عنقه، يضرب بذيله، يحمحم ألماً وغيظاً، يحتكّ بجذع شجرة، يسقط، يتقلّب، تفرُّ، تدوِّم، تئزُّ، تنتصر. وما إن يشرع بالوقوف ثانية على قوائمه، حتى تعاوده من جديد.

النُعرة الناطقة أشدّ زرقةً ولؤماً وقتامة.

أنت أسير، إذن ابدأ عدّك التنازلي منذ اليوم الأول، وسِر عكس اتجاه الأسر، ولا تقطع أواصر الأمل. تغلغل في صميم الوقت، واجنح من أمكنة تسحقك إلى أخرى تستحقك. تأهب لمضادات الرتابة والعزلة، وخلخل سلالة عاداتك الغابرة والمستجدة على السواء؛ فالتكيّف الذي يعتريك سيف ذو حدين، أحدهما ضدّك والآخر لك؛ أولهما يودي بك إلى مهاوي كهفك الجوّاني حيث تتآكل ببطء، وتنغلق دونك أبواب، لتنفتح أخرى تفضي إلى أقصى الهلاك. والثاني يشدّ أزرك، ويعلو بك فوق الأسر، فيمنحك القدرة على إيفاء ذاتك حقّها، ويجعلك أكثر اتساعاً للعطاء والتواصل وإنصاف من حولك.

هكذا أوجزتنا بدايات تدمر إلى خيار وحيد هو المحافظة على قوانا الذهنية والنفسية والجسدية بأقل الخسائر! وكان لا بد لنا من القطع المؤقت مع الماضي، وعدم التحسُّر على ما فات، والاحتيال على أشباح الإماتة. كنا نحتمي بالبأس كلما جرَّحتنا حراب الهلاك، وبالصمت وإرجاء الغيظ تفادياً لاستفزاز غرائزهم. لقد نسجنا صراطاً مغايراً، فشققنا الزمن، شطراً لهم وشطراً لنا، كي نتصيّد مساحاتٍ تنأى بنا قليلاً عن المشاهد اليومية العاتية. ولاستعادة بعض توازننا وسط هذا العالم المختل، الذي يحكم عليك بأن تبقى نصف سهران ونصف جائع ونصف حسود ونصف مجنون ونصف شكّاك ونصف ميت ونصف أعمى، حاولنا أن نجمع الأنصاف الأخرى كي نكوّن وشائجنا الجديدة مع الحياة.

لكلٍ منا شرعُه الخاص وحساباتُه ودواماتُ صدره وفوضاه ودفاعاتُه ونتفُ فرحه الصغرى، لكن محصلة قواه كلها تتأتى في النهاية من المجموعة التي يعيش بين ظهرانيها. كنا جميعاً في فوهة الخطر، ما جعل أحدُنا العقل البلسمي للآخر، ومصدر أمانِه. فتألُّم الآخر عليك يتحوّل إلى مصل

يسري في عروقك! تكفي تمريرة يدٍ على كتفك، أوأخرى تمسّد شعرك، كي تُنسيك الدم النازف من هامتك. تكفي بسمة خافقة، أو دمعة وارفة الرحمة، كي تحيل اليأس بأساً. وربما تكفي كلمة حانية تجد طريقها إلى الروح، أو طُرفة على سبيل التأسّي، كي تخلق مهزلة من هذه الدراما الجهنمية كلها! كان الهمس والزفير والغناء ضمادات جراحاتنا النازفة؛ نتوكأ كالناي والشفاه، كالنار والحطب، وكلما يهت نجمٌ توهّج الآخرون بضوء السلوى.

منذ البدايات الأولى تكشّف لنا أي منعرج كافر كانَه معتقل تدمر. الوقت الصواني الشاغر، والمكان المغلق الضيق، وشحّ الموارد المادية والروحية، وقسوة العيش المديد، والتباين بين البشر، كل ذلك كفيل بأن يُخرج ما في الأسير المتبطّل من غثٍ وثمين؛ وفي معظم الأحوال، يؤلّب غريزته، قبل عقله، فتنغلق دونه أضيق منافذ الرجاء لتنفتح قدّامه الأبواب المؤدية إلى أقصى الهلاك. يحيل يومه إلى لعنة من التوجُّع المستديم والتشكي والشرود في لا شيء والريبة حيال كل شيء، وعدّ الخسائر، والاستكانة للألم، والتّصبر على المظالم، مخافة تحريك المياه الآسنة، وأحياناً إثارة أتفه التفاصيل الحياتية. إنه سريع العطب والإدمان؛ لا يؤتمن على عادة، ويمتثل طواعية إلى ما درجت عليه ذاته من مخاوف وحسابات استباقية تتدلى من وحشة لاوعيه. قد يغدو مطيةً لخياله، ويتصوّر أحداثاً وخصومات وساحاً للكرّ والفرّ والمناورة، فيرفع متاريسه النفسية والعصبية وربما السياسية الأيديولوجية وسواها؛ زاجاً نفسه في معركة خاسرة مع مجهول عتيد، قوامها الكزّ على الأسنان وتشنج عضلات الوجه وشد القبضتين والتعرّق والعبوس وتسارع الأنفاس وانفتاح المنخرين على اتساعهما: حصان في سباق بلا نهاية.

والأسر نقيض؛ إن شئت، بوسعك أن تميّز خصومك بلا لبس، بدءاً من

خصالك التي تتحالف طواعية مع الأسر، وصولاً إلى أولئك المجسّدين بشراً من لحم ودم، سجّانة قتلة، أو سجناء تشاركهم في كل شيء. وإن لم تشأ، فإن ما ابتنيته من أوهام لا يعدو اغتراباً داخلياً ترتطم فيه أبعادك المتناقضة والمنسجمة على السواء. ويمكن للأسر أن يبتعث فيك قوى كامنة كنت تجهلها من قبلُ، ويسلمك مفاتيح لحلول قد تعينك على الصراع والألم والضياع، وتمنحك الفرص لاكتشاف ذاتك المتعددة. وأحياناً يمكن للعالم الذي يلهو به خيالك أن يؤتيك بكشف جديد ومخارج حقيقية إن أهملتها انسدّت، وإن ولجتها اتسعت؛ فهي أشبه بالسّفر قبيل الفجر، كلما تقدمت خطوةً اقترب منك الضياء أكثر، حتى إذا انبلج الصبح، هانت عليك بقية الطريق.

للأسير أطوار لا عهد له بها، تتناوبه دون إنذار مسبق، ويمثل لها نقيضُه الداخلي متخذاً تارة دور القاصر، فيصبح قصيماً كطفل، ولوّاماً أكثر من اللازم، وشديد الضعف والتطلُّب والتشكي والحرد والحذر والفضول المَرضي، يشقّ حلق الهاوية بيديه، ويغلقها حين يشاء؛ وتارةً أخرى دور الراشد، بميوله المحقة والباطلة على السواء، ووصائيته ثقيلة الدم غالباً. وتتجلى تلك الأطوار في سلوك الأفراد بأشكال مختلفة وغريبة أحياناً؛ فقد يندفع أحدهم إلى الانتحار، وآخر إلى التشبث بأهداب الحياة، وثالث إلى الصمود حتى الموت، ورابع إلى الانهيار في منتصف الطريق، وخامس إلى الاعتراف بذنب لم يرتكبه؟ في المقابل قد يبرز هذا التناقض لدى الشخص نفسه، ففي بعض الظروف قد يكون مستعداً للتضحية بكل ما لديه من أجل الآخرين، وفي ظروف أخرى تتغلب أنانيته على كل ما عداها إلى حدأنه قد يتورط حتى في سرقة شيء من طعام الجماعة أو حاجاتها الأخرى!

إنه زمن الشحّ والعوز، هو عنوان معيشتهم اليوميّة.

أحياناً يعتقد الآخر أنه غامض، عصيٌّ على التشريح. وأنه محاط بالظلال والعتمة لأنه يمثّل الدور الخفي، دور المتلقي. في هذه الأثناء ينعكس انغلاقه العميق في مسلكيات شديدة الجلاء، في حركات غير مألوفة، وغريبة أحياناً. وإن اضطر إلى التعبير عن نفسه بين الحين والآخر، على سبيل الحاجة الطبيعية، فإنه يقول غير ما يضمر. وإن فاجأتَه بمخبوءاته، يستعديك، وإن كان طيباً، مسالماً، فإنه ينفر منك دون إعلان. وهكذا يبتعد شيئاً فشيئاً، إلى أن يتخذ قراره غير النهائي بالدخول إلى قوقعته الذاتية.

في الأسر، يمكنك قراءة الناس بدلالة الوجه، دون أن تضطر إلى توجيه أي سؤال. فأنت أمام الآخرين كما ولدتك أمك؛ ولا يغير في الأمر شيئاً إن تحاشيت النظر في مرآة سواك، أو واريت نفسك لبعض الوقت، لأنك مرئي دوماً بأبعادك كلها. ومع مرور الزمن، تتهاوى الأقنعة تباعاً، أو على الأقل، يتفكك بعضها، فيزيل غبش الرؤية المزمن، والتصورات المثالية المسبقة، وتصبح أنت والآخر أكثر استنارة وقدرة على الكشف. فإن كانت الطبيعة قد حبتك مَلَكة التمعُّن أوالاستبطان، قد تصبح أسيرَي المكان والفضول معاً، وربما تمتلك من الجرأة ما يكفي لوضع استمارة نفسية وعقلية وجسدية كاملة لأي شخص، بما في ذلك أحلامه وكوابيسه وأوهامه ودوافعه واضطراباته وانفعالاته، وحتى تأملاته. لكنك ستكتشف عاجلاً أم آجلاً، أنك أمام إنسان عادي، بل عادي جداً، بكل تناقضاته، ليس مختلاً ولا مطلق الحكمة، إنسان يأكل ويشرب وينام ويحلم ويُخرج ريحاً ويتغوّط ويتجشّأ وينهَم ويضعف ويتجبر. ليس شيطاناً ولا سليل ملائكة؛ قد يتحين الفرص، ويتقن حياكة المؤامرات الصغيرة، وقد يمارس النميمة والأنانية ويخلق أسباب النكد والنزاع في هذا العالم الصغير. ويمكنه أيضاً تحمُّل الجوع والتعذيب والمواجهة والسهر والعطش والتضحية والإيثار والتواصل الوجداني والبكاء والضحك،

وتذكُّر أولاده الذين استدانت لهم أمهم ثمن قرطاسية العام الدراسي الجديد، والتألّم حدَّ الإغماء لفاجعة ألَمَّت بعزيزٍ عليه.

مع ذلك فإن اختلاف الآراء والطبائع استغرق حوارات مطوَّلة، وتطلَّب الكثير من الجهد والحكمة واتساع الصدر ريثما ارتسمت المسافات والحدود والرؤى. نجحنا تارة، وفشلنا أخرى؛ فالإيقاع البشري لا يمكن أن يبقى متناغماً على طول الخط. وكثيراً ما دخلنا في متاهات من الجدل والنزاع والجكر وعض الأصابع والمناكفات البائخة والحرد، والمقاطعة أحياناً. لكنَّ أحجية التعايش بين البشر تحتِّم الميل الضمني إلى التوافق في الشؤون الحياتية، ولو على مضض أحياناً؛ وتدفعهم طوعاً أو كرهاً إلى محاولة فهم بعضهم بعضاً، مع كل ما يحمله ذلك من فهم غير مستقر. فأنت مضطر لسبر أغوار الآخر، والتقاط مفاتيح العلاقة معه، ومعرفة ميوله العامة وانزياحاته، على الأقل كي تستطيع مخاطبة الحيِّز الإنساني فيه. وبفعل التقادم وتسهيل العيش، والتخلي عن مطلب بسيط هنا ونزوة هناك، تتقلم ذاتُك تدريجياً كرمى لتأقلم يستأهل هذا الثمن، فيصبح التكيُّف مع الآخرين قدراً، والتصالح مع الذات ممراً، ولو موجِعاً في الغالب. وتتولد لديك قناعات وتطبعات جديدة ما كنت لتقبلها في شروط أخرى. هذا المستوى من التفكيك المزاجي يتأتّى من القدرة على التسامح والتصبر والتفلُّت من أنشوطة العادة، ولكن على حساب خصوصيتك في مطلق الأحوال. في المقابل، كان لا بد أيضاً من التحسُّب، والإبقاء على بعض الخطوط الحمراء بغية الحفاظ على نوع من التوازن الاجتماعي، ووضع حدٍ للتمادي، وإعادة الأمور إلى نصابها الطبيعي كلما لزم الأمر.

إنه الأسر؛ محرقةُ الأحلام ومولّدها، حجرة للذاكرة الراعفة وأصداء الأنين، آلةٌ مدجَّجة بالخلوات الرمادية وبلادة النعاس. شرنقة مغلقة، فإمّا

أن تبقى حبيسها وتنكفئ حواسُّك كلها نحو الداخل، وإما أن تعمل كدودة الحرير، فتخترق جدارها الكتيم وتتحول إلى فراشة.

مررنا بمحطات عديدة كانت حاجاتنا وأولوياتنا تتطور خلالها؛ وقد تمثلت في قيام كل منا بعمل ما يُشعره بوجوده الفردي والجمعي معاً. تبادلنا خبراتنا ومعارفنا، وتحاورنا كثيراً، واستعرضنا تجربتنا السياسية بكل محطاتها، وطرحنا آراءنا النقدية حولها. وأقمنا دورات شفهية في العروض والشعر واللغات والاقتصاد والهندسة، وتعلمنا كيفية تحسين الطعام والسلوك؛ وابتكرنا وسائل تسلية (المسرح والمسرح الإيمائي، وتمثيل الأمثال الشعبية، وألعاب الشطرنج، وطاولة الزهر (النرد)، والبرجيس؛ وأطلقنا ألقاباً وصفاتٍ على أنفسنا (حامل السلم بالعرض، رأس الخيط، أبو خيط الكسلانة، لا يعجبه العجب، يجعل من الحبة قبة، الحكواتي، عين المهجع، الساهي، قبعة الإخفاء، المستَغلَق، الحالِم)، وتقاسمنا الاختصاصات (الحلاقة النعمانية والحسنية والمطرزات واللوحات النزارية والراشدية، بما فيها شعار المهجع - حصان بأفق مجهول وشمس مكسوفة في نهاية الأفق - والرفو والخياطة البيسانية والعبيدية للملابس والأحذية والشورتات، وخيوط النايلون الجبورية والبنية، والخمر السليماني الذي يصرع بدل أن يُسكِر، والأقلام الزورباوية والعدنانية المصنَّعة من رقائق الألمنيوم والخشب وشظايا الحديد الصدئة، والحبر البدائي، خليط كيماوي غريب من قشور البصل والرمان وبقايا الشاي، ومن كبسولات الأنتيبيوتيك التي ذوبناها تحت حرارة المصباح الكهربائي المتدلي من السقف). هكذا في أواخر القرن العشرين، شهدنا العصور البدائية للكائن؛ ففي العصر النايلوني، الذي حلّ مع وصول الخبز في أكياس نايلون، اكتشفنا طريقة زوي الخيوط بفضل من سبقونا إلى المكان وتركوا الطريقة مجسَّدة على الحائط، واستخدمناها، كما فعلوا، في صنع رفوف المطبخ والمكتبة، وحبال الغسيل والدراعات والصنادل

والبسط الصغيرة والحقائب الشبكية التي ستستخدمها زوجاتنا للتسوق بعد خمس سنوات؛ والعصر الكرتوني: مفارش، طاولات مع العجين، أغلفة دفاتر مصنوعة من نفايات الورق وأغلفة علب السجائر التي احتفظنا بها، وورق اللعب ولوحات للرسم. وبعد ستة أشهر أحضروا لنا ملاعق خشبية مسطَّحة، فقعَّرناها بكسرات زجاج جمعناها من أرض الباحة التي تتحفر فوقها أقدامنا العارية، وزودونا بأبر للخياطة، أما الإبرة التي كنا وجدناها في المهجع منذ اليوم الأول لوصولنا فقد حُتَّ وسطها وتقوّس من كثرة الاستخدام، فأحلناها إلى التقاعد بكل احترام وعرفان بالجميل، واعدين أن نبني لها صرحاً يليق بخدماتها الجليلة، وقد نقلناها معنا إلى صيدنايا ثم أخرجناها إلى الحرية قبلنا بعشرة أعوام.

كان لقسوة الحياة اليومية أن تعدَّنا نفسياً وعقلياً لرفض بعض الأوامر، العسكرية كما يسمونها. وبدأنا نخرج تدريجياً من وطأة القهر والخوف والإذعان، وارتفعت أصواتنا احتجاجاً على تلك السياسة العقابية المتواصلة، مدركين في الوقت نفسه أن ما نطالب به لا يعدو كونه الحد الأدنى لحقوقنا، من قبيل: وضع حد للضرب العشوائي، وإيقاف الشتائم والإهانات، ورفع الرأس وفتح العينين خلال التنفس. ومع تحسُّن أدائنا في لعبة القط والفأر هذه، قررنا أخيراً اتخاذ موقف أكثر وضوحاً وجرأة. قلنا سنجسُّ ردة فعلهم من خلال القيام بإضراب اختباري عن الطعام، دون أن نعلن أنه ليوم واحد، مترافقاً مع مطالبنا المذكورة، إضافة إلى أخرى مثل تلقِّي المعالجة الطبية، الحصول على كمية كافية من الصابون العسكري، وتوفير الصحافة المحلية، وتحسين الطعام. وعلى الرغم من أنه كان الأقصر من بين الإضرابات الثلاث التي خضناها في تدمر، بيد أنه استغرق تحضيرات عملية ونفسية أطول، وكبَّدنا أعقد الحوارات. وكانت النقطة الأكثر حساسية تتعلق بمدى انعكاس هذا الموقف على جيراننا في المهاجع الأخرى من الباحة الرابعة، فقد يتعرضون لعقاب وقائي تحسُّباً لاحتمال

العدوى. لقد استهلكنا أسبوعاً كاملاً في نقاش التفاصيل وانتظار ذريعة قوية لحسم القرار. وفي 1989/6/6 اتّخذ بإجماع يلفّه القلق والخوف وتوقُّع أحلى الأمرّين. وفعلاً كان لنا هذا الأحلى، وفوجئنا بردة الفعل التي كانت أقل سوءاً مما توقعناه؛ إذ تحققت بعض مطالبنا، ولكن بصورة متقطعة وانتقائية. أما إضرابنا الثاني عن الطعام في 89/10/12، الذي استمر أحد عشر يوماً، فكان مختلفاً من حيث التأهب المعنوي والتحضيرات العملية وسوية المطالب، والمضمون الأقوى لمذكرة الاحتجاج التي رفعناها؛ وكان مطلبنا الأساسي هو نقلنا إلى باحة مستقلة، وتوفير الكتب من مكتبة السجن وانتظام وصول الصحيفة، وشراء سلسلتي تعليم فرنسية وإنكليزية، وقواميس عربي وفرنسي وإنكليزي، وبابور كاز. في غضون ذلك جرت حادثة خارج السياق الطبيعي للتعامل الذي اعتدناه خلال الأشهر الأخيرة. ففي ذلك اليوم أبلغناهم بأننا ممتنعون عن الخروج إلى التنفس، فأدخلوا الطعام وتركوا الباب مفتوحاً. وبعد قليل جاء عدد من الرقباء والجنود وأخرجوا أربعة من الرفاق ثم أغلقوا الباب، وانهالوا عليهم ضرباً. ما شكّل بحد ذاته ذريعة أقوى للإعلان عن الإضراب قبل موعده المحدد، وبزخم أكبر. لم ندرِ كيف انتُزعت صمامات مخزوننا المكبوت من الغبن والقهر، فصببنا جام غضبنا بضربات متواصلة على الباب الحديدي، ورددنا الشتائم من حيث أتت، ودوت هتافاتنا المنادية بإسقاط الديكتاتورية والطغيان والقمع. كانت المرة الأولى التي نشعر فيها بأننا أنداد لهم بكل ما تقتضيه الاستماتة في أعتى معقل للاستبداد. ربما كان ذلك الكأس ضرباً من الجنون، كما وصفه، بكل تقدير، رفاقُنا في صيدنايا بعد سنوات، وربما كان ضربة اليأس الأهم في تلك الحقبة. ولكن في الحالين تجرعناه حتى الثمالة، ونجح الإضراب بامتياز، حيث وافقت الإدارة على مطالبنا المذكورة كلها.

بعد مرور حوالي ثلاث سنوات على وجودنا في تدمر التحق بنا ثلاثة

رفاق، أحدهم كان قد اعتقل مؤخراً، والآخران آثرا الانضمام إلى جحيمنا على البقاء مَزورَين في فرع فلسطين. وقد شهدنا خلال هذه الفترة هدنة نسبية تكللت بزيارة مفاجئة لأحد الرفاق. في الواقع كانت الزيارة لنا جميعاً، كلٌ أصابه غيضٌ من فيضها: الصور والروائح وخصلة الشعر والثياب ومعجون الأسنان والطعام والنقود والدخان والرسالة! أجل الرسالة التي كانت كما الغيث للأرض العطشى. بانوراما من الأخبار العامة والخاصة غيَّرت وجه المهجع وملامح ساكنيه، وأعادتنا صغاراً عشية العيد، وكباراً بمعنويات تضارع السماء!

كان امتيازاً تدمرياً نادراً! لبسنا ثياباً جديدة، وأقمنا معرضاً دائماً لصور بناتنا وأولادنا، ورصدنا مبلغاً لمعالجة أسناننا، وعدنا مدخنين مترفين ـ ثلاث سجائر حصة المدخن في اليوم ـ بعد انقطاع مديد، واستعدنا ذاكرة القهوة وطعم الشاي الحقيقي لبعض الوقت، وألغينا بعض القرارات التقشفية والتعسفية الخاصة باستخدام موقد الكاز، وكففنا لبعض الوقت عن رفو الملابس وتقاسم الرُّقع.

امتدت هذه الهدنة حتى إضرابنا الثالث عن الطعام في 1991/2/16، الذي استمر 16 يوماً. ربما كانت الزيارة، فضلاً عن أسباب أخرى، حافزاً جزئياً للشروع به. لكن الخلافات الحادة التي أثارتها وجهات النظر المتعلقة بالأهداف تكشَّفت عن فجوة عميقة حالت دون الإجماع في اتخاذ قرار الإضراب، خلافاً لسابقَيه، حتى بعد إعادة التصويت على الصيغة الجديدة للهدف: تكريس ما تحقق خلال المرحلة الفائتة، وانتزاع مطالب جديدة كالزيارات والأوراق والأقلام والراديو. وعلى الرغم من الإيقاع غير الموحد والتوترات والتحفظات المرافقة للخطوات التحضيرية، فما إن دخل حيز التنفيذ حتى خاضه الجميع بكل بسالة وتصميم. في البدء أصرت الإدارة على تجاهلنا، ثم خاضت معنا

مفاوضات مكوكية تحمل من جانبهم جواباً وحيداً مفاده أن مطالبنا من اختصاص سلطات أعلى. وفي اليوم الثالث عشر حضر ممثل عن تلك السلطات، فأتحفنا بخطاب واعد، مشفوعاً بضربة على المسمار وضربات على الحافر، وتمخض عن الجواب إياه: الأمر بيد السلطات العليا! ولَّما خابت محاولاته بردود فعلنا، انتقل إلى التهديد والوعيد، وأمر فوراً بتوزيعنا على المنفردات. وبعد مغادرته بدقائق نُقل إلى الزنازين كل من كان قادراً على الوقوف. وانتهى بنا الإضراب إلى ثلاثة أرباع الفشل، حيث بقينا محرومين من تلك الحقوق، ومعزولين عن العالم الخارجي حتى مغادرة تدمر. لكننا تشبثنا بالربع الأخير تحسُّباً لما يمكن أن يحمله لنا الغيب من مفاجآت في بقية الطريق، بعد أن اكتشفنا أن مطالبنا، على بساطتها، كانت من صلاحيات الرئيس وحده!

* * *

أحياناً تتكرر التجربة البشرية ذاتها، بفارق تقادم الخبرات والكفاءة والمصادفات، فأسلافنا في معتقل تدمر أجروا عمليات جراحية بسيطة ومتوسطة بأدوات عظمية وخشبية ورقائق معدنية من عبوات المراهم، وشرائح فولاذية اقتطعوها من أسفل الباب الحديدي المتآكل، فكانوا يصقلونها بالحك، ثم يلصقونها بأخمص قدم أحد المرضى المقعدين، ويضمدون القدم لإخفائها. واستخدموا الخل والملح للتعقيم، وتناولوا مسحوق العظام وقشور البيض تعويضاً عن نقص الكلس. ونظراً لانقطاع الماء بصورة شبه دائمة، صّنعوا خزانات للماء من أكياس النايلون واللصاق، واستحموا بخمسة ليترات من الماء. واستخدموا ألواحاً سحرية للكتابة، وحفظ الكثير منهم القرآن بالتلقين غيباً. وكانت حصة الإفطار للفرد ثُمن بيضة وبضع حبات زيتون ورغيف! وأشعلوا سيجارة مقابل ألف جلدة، سمحت لهم بالتدخين المتواصل لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً.

وكانت طريقة النوم ظهراً لظهر وبطناً لبطن، وحصة الفرد من المكان بعرض 15 سنتمتراً، حيث يضطر منظِّم النوم أن يضغط برجليه على الظهور كي يعتصر الفراغات ليتسع المكان للعدد المطلوب. واستخدموا وسائل تواصل غاية في الدقة والحذر والمخاطرة: بالصوت عبر تمديدات المياه المالحة بين الحمامات المتجاورة، وصنابير المياه حين انقطاع الماء، والمورس عبر الجدران، والرسائل في أواني الطعام، والتواطؤ المبجَّل من قبل بعض السجانين وسجناء السخرة.

ظروف السجون متفاوتة القسوة، وكذلك ظروف السجناء. فتدمر درجات، حتى ضمن الباحة الواحدة التي تحتوي على عدد من العنابر يختلف فيها التعامل بين مجموعة وأخرى وفقاً لتقديرات سياسية وأمنية، وبحسب التوصيات العقابية العليا الخاصة بكل مجموعة على حدة؛ أما التفاصيل فتُترك لإدارة السجن التي تتولّى التنفيذ عبر أداتها المباشرة، السجّان، القادر بكل حرية واحتراف على التحكُّم بكل ما تبقى، فهو المعني بابتداع وسائله الخاصة في التعذيب الجسدي والمعنوي دون أية مساءلة. والسجان في شرع تدمر لا يخطئ!

إن عددنا القليل جنَّبنا الكثير من الآثار المرعبة للازدحام وعدوى الأمراض وشح الطعام. فقد كانت كميات الطعام التي توزَّع على المهاجع شبه متساوية بغض النظر عن عدد نزلائها. وبعد أن شهدنا بالسمع والبصر المسترق ما يحدث لجيراننا في مهاجع الأخوان وبعث العراق بدأنا نكتشف الفرق في التعامل. وأدركنا أن ليس ثمة قرار سياسي بتصفيتنا جسدياً، وكل ماعدا ذلك كان متاحاً إلى ما لا نهاية. هذه المقارنة الرحيمة، «من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته»، سكنت في اللا وعي، فقوّت عزيمتنا وشدّت أزرنا؛ لكنها كانت رجيمة بالقدر نفسه، لمجرد أنها تستمد العزاء من آلام الآخرين!

تجربتنا والاخوان

لم يُتَح لنا التواصل في تدمر، على الرغم من أننا كنا في الساحة نفسها، وكنا نخرج إلى التنفس في توقيت واحد، ونسمع ما يسمعون ونرى ما يرون، وربما بكينا وضحكنا وصرخنا وصمتنا للأسباب نفسها؛ وأغرب ما في الأمر أننا وإياهم أطلقنا ألقاباً متماثلة على الرقباء والجنود وعناصر البلدية ممن يقدمون الخدمات للسجن، وتسميات واحدة على العهود التدمرية كلها. وأخيراً جمعتنا صيدنايا بعدد كبير منهم في جناح واحدكان فيه تواصلنا مقتصراً على تنظيم الأمور المشتركة، كالماء والطعام والرياضة والصحة والنزول إلى باحة التنفس. جناح مؤلف من عشرين غرفه مفتوحة طوال النهار على عالمين مغلقين برتاج الريبة والحذر والجفاء العلني والهواجس والنوايا والاتهامات الخفية وحيرة التردد، والرغبة الضمنية لدى كل طرف في اكتشاف الآخر، وربما الخوف من ذلك.خوف متوهَّم، لكنه مخيِّم، يحفُّ بك مهما حاولت تجنُّبه، فهو لصيق بالنفس والعقل معاً، على غرار الهواجس التي تعتريك وأنت تخوض معركة قاسية مع أفكارك الجديدة ريثما تتقبلها. ما كان يمكن لأحد أن يتصور أن ننتصر على ذواتنا بهذه الدرجة من الإصرار، ونتجاوز الكثير مما يحول بيننا والتواصل الحقيقي. ومع الوقت بدأنا

نتبادل الزيارات والمعايدات والتعازي والهموم العامة والشخصية، والدروس التعليمية، والكتب والقراءات المشتركة. وارتقت حواراتنا الثنائية والجماعية على السواء إلى أن أنشأنا معاً منتدى أسبوعي للحوار الثقافي والسياسي، كان من شأنه أن يقرّب المسافات في ما بيننا. لقد كانت تجربة إنسانية فريدة لتعايش بين اتجاهين أيديولوجيين وسياسيين، مختلفين كما الليل والنهار. وكان جميعنا يدرك أن السجن لم يكن سوى صورة مصغَّرة عن مجتمع الخارج بكل ما فيه من موروثات قديمة، وأخرى مستجدة راكمها الاستبداد عبر العقود الأربعة الأخيرة: التضارب الشديد في المصالح والمواقف، والفساد والمحسوبيات، والبحث عن الحلول الفردية، وغياب الحوار ونقص التعارف بين الناس، والتهيُّب من طرح الأسئلة، والركون إلى الذات، والخوف، والانقسامات الاجتماعية والسياسية العميقة التي فككت النسيج الاجتماعي. هكذا وجدنا أنفسنا جميعاً وجهاً لوجه أمام تحدٍ كبير يقتضي خلخلة تلك البنية، ونسج أخرى سداتها إزاحة الستائر فيما بيننا ومعها حواجز الشك والتطرف والانغلاق، ولحمتها الجرأة والتواصل والانفتاح وإعادة الثقة وتكوين صداقات في الداخل، وأخرى في الخارج بين ذوينا. لقد اكتشفنا، مع تقدم الوقت، أننا لم نكن أكثر منهم حرصاً على ردم الهوة التي كانت قائمة، وتجاوز المعوقات، لنفتتح معاً عهداً جديداً أضاءته إرادة الحياة بحكمة سراجها: «الضدُّ يُظهر حُسنَه الضد».

كثر ممن التقيناهم كانوا ما يزالون مجهولي المصير بالنسبة لأهليهم، ولا يُعرف ما إذا كانوا أحياء أم أموات. وكثر منهم أيضاً لم يستطيعوا التحدث عن شيء، بل لم يريدوا الغوص في الحمأة مرتين؛ لكن الجميع كان لهم الفضل في ترميم رصيدنا المتخم بالقصص والحكايات والآلام والمشاهد التدمرية المصدّعة.

شهادة أخ مسلم 1

ترحيلنا من تدمر إلى صيدنايا كان أشبه بالانتقال من الجحيم إلى الجنة، وبداية الخلاص مما أصابنا من كدمات جسدية ونفسية كادت أن تودي بثمالة قدرتنا على التحمل، لولا ما ابتدعناه من أساليب ووسائل أعانتنا على التفلُّت من مطرقة الوقت الذي كان يسوقنا تحت نيرالتعذيب، فيما الجند يسوطوننا بكل ما أوتوا من عتو وأدوات وأوامر.

«هنا» لا يشبه الـ «هناك» في شيء سوى الاحتجاز؛ فقد تغيَّر المكان، ودخلنا بيئة جديدة ومختلفة، خلقت معها تبدلات كثيرة في نفوسنا وعقولنا على السواء، وكذلك في طبيعة تعاملنا مع الناس والوقت!

التقينا بالسجناء الشيوعيين لأول مرة، وغصَّ بنا الجناح. كانوا فيما سبق بالنسبة لنا مجرَّد لغزٍ مستعصٍ، وكنا نستغرب وجودهم في السجن أصلاً، باعتبارهم والنظام، كما كنا نقدِّر، في خانة واحدة في ما يتعلق بالكثير من القضايا السياسية والأيديولوجية. والحيرة التي أوقعونا بها ظلت كذلك إلى أن التقيناهم واختبرناهم وسمعنا آراءهم ومواقفهم أيضاً. وما خلا ذلك كانت أفكارنا ومعتقداتنا هي المصدر الوحيد لأحكامنا المسبقة، إذ لم يكن يعنينا كثيراً ما يفكرون به قبل أن نختلط بهم. صحيح أننا كنا نلحظ الفارق الجوهري بين طريقتي التعامل معنا ومعهم في

المعتقلات وفروع الأمن، وكنا نتساءل ما الذي حملهم على الصبر ومواجهة المظالم ما داموا لا يؤمنون بالله؛ بيد أن الأسباب لم تكن واضحة تماماً لدينا. ربما لأنهم كوّنوا دفاعاتهم الخاصة، وتحرروا قبلنا مما لحق بهم، وباتت لهم شروط أفضل مما لنا، أو لأسباب أخرى ما نزال نجهلها! لكنني ألمح طمأنينة في وجوههم جميعاً.

في البدء لم يكن يُسمح لأيٍ منا بالاختلاط بهم، وقد حدث ذلك بقرار أو باتفاق ضمني بيننا يستند إلى أن التعامل معهم، بوصفهم مختلفين عنا بمعظم المقاييس، قد ينطوي على ما لا يحمد عقباه، وفي هذه الحال فإن الانكفاء عنهم والحذر منهم مطلوبان، دون مناصبتهم العداء!

ـ لكن المجاملات مطلوبة أيضاً أيها الأخوة. قلت ذات مرة.

ـ كذا هي الأمور، تبدأ بالمجاملة والمداراة ثم التملق، ولا ندري أين تنتهي! ردَّ عليَّ أحد الأخوة المتشددين، رافضاً أي نوعٍ من العلاقة مع الشيوعيين.

بعد عدة أيام كانت مناسبة عيد الأضحى المبارك، وكانت دهشتنا كبيرة حين بادرونا بزيارة جماعية مهنئين. وقد تباينت ردود الفعل حيال الزيارة، حتى أنها خلخلت المزاج العام قليلاً، لكنها اعتُبرت في النهاية، على حد تعبير أحدهم، بادرة نفاق!

تدخلت محتجاً: دعونا نجرّب ثقتنا على الأقل! فهم ليسوا في حاجة إلينا، ولهم حضورهم الخاص في الجناح، وحظهم أوفر في تأمين حاجاتهم لأن زياراتهم مفتوحة، فما شأننا بكل هذه الشكوك النافلة؟

لم يجبني أحد.

ابتلعت استنكاري. لكنني كنت كمن يجلد روحه بقضبانٍ من لهبٍ. أمضيت يومي التالي في الممر، من الصباح حتى المساء؛ أتساءل، وأفتّش

عن أجوبة، لأكتشف في المساء شيئين أكيدين: أولاً أنني قضمت أظافر أصابعي العشر توتراً. وثانياً، أن الآخرين بشر مثلنا.

أقمت رابطة في خيالي مع عددٍ منهم دون أن أكشف هذا السر لأحد. اخترت من بينهم أشخاصاً بالفطرة، بعيداً عن أي فلسفة للأشياء. وبعد حين أطلعت أحد أصدقائي عليها. في البدء لمحت في عينيه رفضاً وشكاً صريحين، ثم بعد يومين فقط، فوجئت بأنه سبقني شوطاً بالمبادرة إليهم، ما جعلني أعتقد أنه كان يبحث عن كبش فداء يُخرِجه من تردده ليس إلاّ. ومع ذلك، لم أكن أقل منه تردداً، فقد بقيت معظم الليل أفكر في موجبات قراري وكيفية اتخاذه. وتخلّق فيَّ شعور الإنسان العادي، الطيب، البسيط، المحبّ، الذي يتعامل مع الحياة كما هي دون حسابات معقدة. وما إن فتح الباب صباحاً حتى سارعت إلى صديقي وقلت له: «بالرغم من استنكارك لمسارتي سابقاً، أعترف لك بأنك تحليت بقدر من الشجاعة يفوق ما لدي». فقال:

«أتدري، أنت من حفزني إلى ذلك، واكتشفت من خلالك أننا نحن الذين نبني جدران الممنوعات بأيدينا. فكلما ضاق انتماؤنا كوّنا أعداء مفترضين، وأقمنا محاكم ورفعنا مقاصل، وتلّبدت أحاسيسنا تجاه الآخر، واختلقنا شقاءات طاعونية تلفح الروح بسموم الكراهية وتتلف تويجات الحياة في براعم حريتنا. الإخلاص لِما تعودنا عليه يمنعنا من اتباع مشاعرنا الحقيقية. ماذا لو فكّرنا بشيء من الجرأة؟ لو نسأل أنفسنا فقط: ما الذي جعلهم يقدّمون لنا بعض الخدمات التي يعتبرونها واجباً، كما يزعمون. هل كانوا ينتظرون هدايتنا سواء سبيلهم، أو يتحينون الفرصة كي يزرعوا فينا بذور الإلحاد، كما يرى بعضنا؟ أو، كما يرى آخرون، بأن الله سخرّهم لنا فحسب؛ أو أنهم جماعة يتحلون بأخلاق جيدة، ولكن ينقصهم الايمان! ألا ينبغي الكف عن الدخول في نوايا الآخر، والتخلي

عن بعض قناعاتنا، أو على الأقل وضعها على المحك، والخروج قليلاً عن سكة المعتاد، كي نتمكن من رؤية الحياة بفضائها الأغنى والأوسع من تصوراتنا المسبقة كلها».

هكذا بدأت العلاقات تتكون تدريجياً فيما بيننا، على نحو فردي أولاً، ثم جماعياً. وفي غضون ذلك كنت أعبر للشيوعيين عما يختلج في داخلي من هواجس، وما يعكس حقيقتي: متديّن إزاء ملحد! مع أنني أتحفظ حتى على كلمة ملحد لأنني لم أناقش أياً منهم بفكرة الإلحاد أصلاً، كما أن أياً منهم لم يطرح معي هذه القضية. الآن صار بوسعي أن أبادلهم مشاعري، وأفكاري، كما أعيشها حقاً، ولم أعد أخشى الأسئلة التي يطرحها بعضهم. أشعر أنني قابل للتصالح مع ذاتي بشيء من التوازن، وما عادت تهمّني تلك الصراعات التي تهدر الوقت والأعصاب معاً.

لقد سجّلت ردود أفعال لثلاثة أشخاص إثر سماعهم عرَضاً صوت الموسيقا من مهجع الشيوعيين. أوّلهم قال دون أن يُسأل: إن سماعها مغوٍ، ويلهي عن ذكر الله، ويجب أن يُفتى بتحريمها، لولا أنه لا شأن لنا بهم. قلت له: وماذا تقول عن القصور والدواوين الإسلامية التي كانت تضج بها؟ أنت تعرف، كما معظم أخواننا هنا، أن الكثير من علمائنا أحب الموسيقا، فكيف يتجرأون على وصفها بالشيطان! أما الثاني فقال: صدّقني يا أخي، ما إن طرقت هذه الموسيقى سمعي حتى انتابتني نشوة غريبة جعلتني أتخيل أهلي لمدة ساعتين، وتذكرت سهراتنا في البيت حين كان خالي يعزف العود في سهرة الخميس من كل أسبوع. أما الثالث فقد لبث أمام الغرفة المجاورة لمهجع العزف، وأطال الوقوف متظاهراً بإصلاح صنبور الماء، ولم يغادر حتى توقف العزف نهائياً!

مراهقو الأسر

الألم دين توحيدي، يؤلِّف ذات البين، لكنه لا يُبتغى، ولا يُنتحل، ولا يبشَّر به. كنت واحداً من مراهقي الأسر، اعتقلنا في أحداث الثمانينيات لأسباب مختلفة، شغب أو رهائن أو عمل مسلَّح، أو في سياق اختلاط الحابل بالنابل، وأمضينا فترات زمنية متفاوتة، كما عشنا مآلات ممن سبقونا أو لحقوا بنا. ولأننا كنا دون الثامنة عشرة من العمر فقد اكتفت المحكمة العسكرية بحكم كل منا سبع سنوات، ولكن اللجان الأمنية التي تولَّت مصيرنا اللاحق مددت إقامتنا السجنية لسبعٍ أو عشرٍ أو خمس عشرة إضافية بحسب استعدادنا لتوقيع تعهدات مقيِّدة لمستقبلنا، وتقديراتها لمدى نضج هلاكنا العقلي والجسدي والمعنوي!

مرَّ وقت طويل مذ نُقلنا إلى سجن صيدنايا، لكننا لم نرتبط بعدُ بالمكان الجديد، ولم نعتده، كأننا في كل لحظة نتوقع إعادتنا إلى هناك بقرار معاكس! ما نزال نجمع أكياساً من الخبز اليابس تحسُّباً للجوع، ونحتفظ بالأسمال التدمرية، ونقسِّم الطعام والماء والمكان بالطريقة نفسها من حسِّ العدالة، المبتذل أحياناً. ونحرص على متابعة التفاصيل التي لم يعد لها أية قيمة عملية هنا. صحيح أنني الآن نصف حر، أسهر على راحتي، وأنام ملء جفوني، وأتشمس، وأتصفح كتاباً، وأستحم، وارتدي ملابس

طبيعية، وأكتب بقلم حقيقي، وأعبّر عن نفسي دون خوف، لكنّ أحاسيسي وخواطري لم تبرح بعدُ جحيم تدمر. أحاول أن أنساه، وأتشاغل عن كل ما يصلني به لعلّ كياني يستقيم قليلاً؛ بيد أن ذاكرتي المثقلة، وأحلامي الواخزة، وكذلك الأسئلة التي يوجهها لنا أصدقاؤنا الجدد، تلحّ عليّ، وتمسك بخناقي كي أطلق لها العنان، وأتحرر من وطأة الحال التي تجعل الشعور واللاشعور متساويين. وجعٌ خاص ينتابك إثر انتهاء المعارك، حين يصبح كل شيء وراءك، فتستعرض غصباً عنك ما دوّنته ذاكرتك على مهل من فواجع تلك الحقبة؛ قد يهدأ أحياناً، لكنه سرعان ما يعود إلى الصدارة كلما عجز عقلك عن استيعاب تلك الوهلات.

منذ حين قرأت كتاباً فرعونياً أعادني إلى البدايات التدمرية اللئيمة، بل إلى السنوات العشر الأولى التي أمضيناها في التيه الصحراوي البغيض. استوقفني هذا المقطع الذي يحكي عن «محاكمة الموتى في الديانة الفرعونية»:

«الويل، الويل، لأني ولدت في هذه الدنيا»، قالت المومياء الفرعونية للكاهن عند محاكمتها. «لِمَ لَمْ تصبح رحم أمي لي قبراً؟ ... لقد ذكروا لي جميع الذنوب التي اقترفتها، وقالوا لي: ليأتِ إلى هنا من يستطيع إنقاذك من العذاب الذي سوف تُلقين فيه. كان في أيديهم سكاكين من حديد ومناخس مدبّبة تشبه أسنّة الرماح، طعنوا بها خاصرتي، وراحوا يصرّون عليّ بأسنانهم. ولما فتحت عيني بعد وقت قصير، رأيت الموت يحوم فوقي في الهواء متخذاً أشكالاً مختلفة، وفي هذه اللحظة جاءني ملائكة شداد غلاظ انتزعوا روحي الشقيّة من جسدي، وبعد أن أوثقوها على هيئة حصان اقتادوني إلى آمنتي (العالم السفلي)... ثم أسلموني إلى عدد كبير من الزبانية الذين لا يعرفون الرحمة، وكان لكل منهم هيئة مختلفة.

أواه، ما أكثر الوحوش التي شاهدتها في الطريق! أواه، ما أكثر القوى التي أنزلت بي أشدّ العقاب! ولقد حدث عندما ألقي بي في الظلمة البرّانية أن شاهدت خندقاً عظيماً يزيد عمقه على مائتي ذراع، وكان يموج بالزواحف، لكل زاحفة سبعة رؤوس، ولكل منها هيكل عقرب. وفي هذا المكان أيضاً تعيش الدودة الكبرى، وكان مجرد النظر إليها يثير فيَّ الرعب. أسنانها مثل خوازيق الحديد. قام أحدهم وقذف بي أمام هذه الدودة التي راحت تنهشني، وسرعان ما تجمعت الوحوش حول الدودة، ولما رأوها قد ملأت فمها من [لحمي]، ملأت الوحوش أفواهها».

عطف الأقواس / التشريفة

وصلنا باحة «التشريفة»، كان البرد قارساً، والأرضية الإسمنتية تحرق أقدامنا الحافية، بينما الريح الصحراوية والكابلات المعدنة تلسع أجسادنا العارية. قادونا عبر ساحة أخرى وثالثة، ثم أدخلونا إلى أحد المهاجع المسكونة. وعندما أغلق الباب اندفع الشباب بحمية لاستقبالنا وإسعافنا. لم نكن وحدنا في المحمية؛ كان ثمة الألوف ممن وقعوا في الأسر، وقد أتيح لي أن ألتقي بالمئات منهم في غرف الحشر والمنفردات في فروع التحقيق. أما الآن فبدت لي وجوههم الصفراء مشوهة وغير قابلة للتمييز.

الزريبة

اتخذتُ لي مكاناً قصياً في تلك الزريبة ذات السبعين متراً مربعاً، متأملاً على رِسلي الانطباعَ الرهيب الذي خلقه المكان لدي. كل شيء يوحي بالهلع: لون الجدران، تصدّع السقف، الأرضية الملطخة، الثقوب الجدارية، حديد الباب المهترئ، المرحاض المفتوح، الشقوق الموزّعة في كل مكان، ألوان الدهان ذي الطبقات المتعددة، الحرامات ذات اللون الواحد والبقع الجافة التي فقدت لزوجتها الحمراء! أغمضت عينيْ وفتحتهما مرات عدة، وصرت أتلمس وجهي وقدمي والأرض كي أتأكد من أنني لست في حلم. هذه أظافري تحزُّ الجدار، وأسناني تعضُّ شفتي، وشهيقي يتصاعد، وهاتان هما قدماي المتورمتان ككفلي حصان. فهل كل ما أراه مجرد وهم؟ ولكن هذا الدم الذي تمتصه ملابسي، أليس دمي؟ أكاد أشك في دمي، في الأصوات المخنوقة لهؤلاء الرجال الذين يئنون حولي، في الصوت الوحشي الذي يهبط من فتحتي السقف ليندلق في آذاننا كقصف الرعد.

مشهد لا لبس فيه: لوحة جدارية بمساحة خمسة أمتار مربعة، مهشّمة من أسفلها وأيسرها. مثقّبة في ثلاثين مطرحاً. الألوان متداخلة وقاتمة، وثمة لون صدئي منتشر على كامل فراغاتها، خطوط طول وعرض

توحي بخارطة تآكلت بفعل الزمن. تتراءى لي ضمن هذه اللوحة وجوهٌ، تارة حيّة وتارةً ميْتة؛ وثمة وجه منقوش على شكل قهقهة شنيعة، بلا شفتين، بلا حواجب، وبلا رموش. وجه من الأسنان الكبيرة تقضم بقايا الأنين المنتشر في جنبات اللوحة كلها، وعينان تتربّصان بالمكان، ترصدانه، متأهبتين للانقضاض.

قبل الآن كنت أقلّب في ذهني القصص الفظيعة التي ترددت على مسمعي عن تلك المرحلة الظلامية معتقداً أن بعضها نسج خيال؛ ولكن محميّة القرّ والحرّ هذه فاقت كل وصف، بعد أن افترعت لحمنا وعظامنا وأرواحنا، وجُعلنا فيها حيوانات مروّضة ومهيضة. كانوا يفتحون لنا الباب فنخرج خلف بعضنا بعضاً، مطأطئي الرؤوس وعيوننا مغمضة كي لا نرى وجه الشمس أو الحارس، ومع الوقت تعلّمنا العماء. رؤوس فُجّت وعيون فُقئت وطبلات آذان انفجرت بصرعات الأكف اللئيمة في جولات الحلاقة الجماعية. وفي طقوس الاستحمام الشتوية المريعة سُلخت جلودنا تحت التناوب المفاجئ لوابل الماء البارد والساخن. خُلّعت أظافر وهُشمت عظام، وشلّت أذرع، وكسرت أسنان، ومع ذلك كان لا بد من تناول الطعام في أواني الطعام والشاي التي يغطيها الشعر! لقد ألِفنا الوجبات معفّرةً بأصداء الشتائم والزعيق الفادح والدم والأنفاس الأخيرة لأخٍ أماتوه للتو بالضربة العاجلة! كنا نتساءل ما دام موتنا لا يعني لهم شيئاً، فلماذا يزورنا الطبيب أو يرسلون لنا أدوية، أو لماذا يأتون لنا بالطعام أصلاً؟ وما الحكمة في أن يسمحوا لنا بشراء المقص وحبل الغسيل، ويمنعوا عنا السكين والأحزمة وأربطة الأحذية ما دام الانتحار ممكناً بأيٍ من هذه الأدوات؟!

في بداية الاعتقال كنا نعدّ الساعات والأيام والأسابيع بطريقة مختلفة، معتقدين أنها فترة عابرة وتمضي، وربما بضعة شهور كحد أقصى. لكن

البيدر التدمري أنهى حسابات الحقل كلها، فاتّخذ العدُّ شكله الطبيعي إلى أن تراجع الإحساس بالزمن تدريجياً؛ وصرنا نحصي أيامنا مشفوعة بعدد الممزقين والجرحى والمصابين بعضال الأمراض والموت اللاطبيعي. لقد جهزنا تقويماً يكفي لعشرين عاماً، تقويماً بفائض مضاعف، حين أدركنا أن الزمن هنا، كما البشر، جثةٌ هامدة. وما خلا توقيت الإعدامات، الذي يحلُّ دائماً مع الفجر، ليس ثمة مواعيد محددة لإدخال الطعام أو التنفس أو مجيء الطبيب؛ ومع ذلك فإن توقنا النفسي لمعرفة الوقت جعلنا نرصده وفقاً لمسار الشمس؛ مثلما مكّنتنا حاسة السمع والفراسة والتلصص من تمييز كل ما يجري في محيطنا الخارجي، بما في ذلك المناسبات والأعياد الوطنية والقومية التي تحييها الإذاعة المحلية وأصوات الجند المدوية التي تقرع رؤوسنا بأغانٍ وأناشيد تمجد القاتل وتعربد فوق النعوش.

مصائر مجهولة، وموت أحبّة، وتقطُّع عرى وأوصال، تشهد على تغييبنا الذي يبدو بلا نهاية! ويشهد عليه عطش خالص جفّف وجه الأرض، وأنّت له أخاديد التربة، حاملة بذوراً مخبأة تتوسل رائحة الخصب. الضحايا يرفعون صلوات الاستسقاء بلا طائل، والأطفال غشي عيونهم المرض والجوع وفقر الدم واليرقان، فأودى ببريقها وبراءتها وسحرها.

في مكان كهذا، حيث الحياة بأسرها قد تحوّلت إلى عالم سفلي مظلم، تلطأ أشباح الموت خلف الباب، في باحة التنفس، فوق السطح، عند العمود، في بيت الخلاء، وفي كل مكان. فجأة تهبُّ عواصف القتل، تصفر الريح، يهتز الشجر، تتخيل أصطفاق أبواب آتٍ من عمق التاريخ، تنفتح أمامك سراديب، وتنخلع جدران، وتنفلش السماء والأرض؛ وأنت مجرّد دريئة تعدُّ الإصابات. كنا نعتقد أننا أُخضعنا لأقصى الاختراعات العقابية ووسائل التعذيب المعنوية والجسدية في أقبية فروع

الأمن: اعتقال ذوينا، من النساء خصوصاً، وتعريتهن أمامنا، والتهديد بالاغتصاب، وجولات الكهرباء، والدولبة، والكرباج، والكرسي الألماني، وبساط الريح، والفسخ، وخلع الأظافر بالبينسة، وإقحام عنق الزجاجة المكسور في دبر الضحية، والشبح على السلم، والتعليق، وتغطيس الرأس في الماء، والكي بالسخّان الكهربائي على الفخذين، وتقطير نقاط الماء فوق الرأس المسمَّر في مكانه على مدى ساعات. لكن ذلك كله لم يكن سوى بروفات لمسرحية تدمرية ستطول. هنا أنت معتقل، لا تعرف واجباتك، وستدفع بنفسك ثمن اكتشافها يوماً بيوم، ناهيك بحقوقك الإنسانية والسياسية. هنا تخال أن نظام الكون قد تغيّر، فتجافيك اللغة والرؤى ووظائف البدن، ويجف اللعاب والدمع والنسغ، فيما يتفصّد عرق العجز والتصبُّر من خلايا الروح والجسد.

«انتهى العالم»، صرخ الجندي حين سقطت قذيفة على مقربة منه، ظاناً نفسه قد مات. بعد ثوانٍ عاد إلى رشده، تلّفت حوله وقال بهدوء: «ما أجمل العالم!» أما نحن فلم نكن نعرف كم سنبقى حبيسي صرخته الأولى! وحدها الطبيعة تتأمل هذه المفارقات المذهلة التي يعيشها أبناؤها، القتلة والمقتولون على السواء، ووحدها تجعلنا نخترع حميمَ أعيادنا وفرحنا المناوئ للشقاء، ولغتنا المبشِّرة أن: سيطلع نهار، وينطلق بصرنا إلى مداه، حراً كالهواء، وأن دورة الحياة لن تتوقف، وأن أطفالاً يولدون في مكان آخر.

المساعد

أجل، في جهنم المصغَّرة هذه، تنتابنا وهلات من الأمل وحب الحياة، لكنها مريرة وخاطفة، فسرعان ما تتلاشى بفعل جولات التعذيب، الأشد فتكاً وضراوة، تلك التي يشرف عليها مساعد الانضباط شخصياً. كان يدخل باحتنا في أوقات التنفس، متثاقلاً باشاً، والسيجارة تتدلى من طرف فمه، حاملاً في يده قضيباً معدنياً مدبّب الرأس. وكان إن أراد التحدث إلى أحد الأسرى، يكتفي بغرز السيخ في جسده، ويطلب من الشخص المجاور له أن ينتزعه، فتنبجس نافورة الدم، ويُجرُّ الطعين إلى المهجع. بعدئذ يسأل المساعد: «ما هذا؟» مشيراً إلى الدم. وينبغي أن يجيبه الأسير: «إنه ماء يا سيدي!» ـ «أحسنت. إذن اشربه»ولا يكاد المسكين ينحني مذعناً، حتى يلقى المصير نفسه، ويُلحق بسابقه.

بعد انتهاء التنفس يأتي شخص آخر ويسأل رئيسَ المهجع: «كم عدد الإصابات لديك؟

ـ عشرين حضرة الرقيب أول!

ـ فقط...!

السؤال نفسه يطرحه طبيب السجن حين يقوم بجولات دورية كي

يحصي عدد المصابين بالجرب، أو السل خصوصاً، فيسأل رئيسَ المهجع أو المسؤولَ الصحي:

ـ ما عدد المصابين في غرفتك؟

ـ ستة سيدي.

في اليوم التالي يبدأون بتخفيض كميات الطعام بشكل ملحوظ. ويستمر ذلك إلى أن يرتفع عدد الإصابات السلبية في المهجع. وحينئذ يُفرز المصابون ويُنقلون إلى ما يُدعى المحجر الخاص بمرضى السل. في البدء لم نكن ندرك معنى ذلك إلى أن اكتشفنا أنهم يريدون عدداً محدداً، أو نسبة ثابتة من الإصابات. وتجنباً لإنقاص الطعام صار المهجع يتفق مسبقاً على تدوين لائحة تضم عدداً من المرضى المحتملين، أو الأصحاء المتطوعين، بمثابة أضاحٍ، كي يُنقلوا إلى جناح السل.

ربما بمحض الصدفة، أو بحكم ترتيباتٍ نجهلها، أتيح لي العيش في ثلاثة مهاجع خلال تلك السنوات العشر، حيث الحياة تكاد أن تكون متماثلة فيها جميعاً، ما خلا بعض التفاصيل. ففي لحظات الشِدّة يتعذّر خرق القوانين الملزِمة التي تضعها المجموعة لنفسها، وتنكفئ الخلافات وبعض الأنانيات والأمزجة الخاصة، وتصبح العلاقات أكثر يسراً وتسامحاً. كانت المهاجع تتحوّل إثر الغارات إلى مشافٍ ميدانية، حيث نتلقّف المصاب ونعالج جروحه، ثم نغمره تحناناً ومزاحاً ودعابات ودمعاً. كان يضحك من أوجاعه ويبكيها في آن، مغتسلاً بالدفق الرحيم الذي يتقطّر من ثنايا المهجع كله، حتى لنبدو كما لو أننا كتلة بشرية موحدة ومنسجمة ومتكافلة إلى أقصى الحدود. في المقابل، ما إن تطفو الخلافات الفكرية والسياسية والشخصية على السطح، حتى تنقلب حياتنا رأساً على عقب، فتتبدّل الأمزجة والمواقف والأفكار والطباع، ويزداد الفرز، وتنشطر الخلايا، الشيطانية والملائكية على السواء، ونُقحم

جميعاً في متاهة من الثنائيات: الشك اللامحدود أو الثقة العمياء الإيثار أو مطلق الأنانية، التحفظ أو العفوية، تأوُّج الحب أو حضيض الكراهية. ويكثر الجلاَّدون، تحت سقف خفيض من الرقابة الداخلية، والضحايا أيضاً، المغلولون بقيود الإيمان التي لا يفلت منها سوى من وجد ضالته في شخص قادر على حمايته، أو الهروب من هذا العالم الضيق الكئيب إلى آخر أقل ضراوة يجنبنا الخصام الحاد مع أناس قد نوثِّق إليهم في اليوم التالي ونلقى معاً طريقة موحدة في العقاب.

كنا نقول إن هذه التجربة، بكل ما فيها، ينبغي أن تصير في متناول الناس جميعاً؛ ولكن، ما الذي سنحمله معنا إلى القادمين وقد أصبحنا أنقاضاً سياسية، وشِيباً على يفاعة؟ حكاياتنا أكثر من أن تُعد، وأثقل من أن تُحمل، وقد يسخر القدر منها حين لا نليق بها، أو نقف حيالها كتلاميذ ينالون عقاباً؛ وربما ينحني لآلامها، كي يصير جسراً نعبُّه إلى موطئ أكثر أماناً!

نحن، معشر المراهقين، نعتقد أننا نختلف عن الكبار من حيث ردود أفعالنا وطرائقنا في التحمل والمجازفة والتعامل مع ما يجري. صحيح أنهم أفادونا بخبراتهم ومعارفهم وتصبرهم، لكننا كنا ننفر من أساليبهم الوصائية التي تكبح مبادراتنا، وتحاول إبقاءنا أغراراً ومتلقين، وتصدِر الفتاوى والآراء حول كل شيء لتثبيتنا إلى ملزمة عقولهم. كنا أحياناً نشكو أمرنا إلى رئيس المهجع أو إلى أشخاص أقل تشدداً كي يتفهموا حاجاتنا. يا أخي، في المدارس يعطون فرصة للتلاميذ بين الحصص الدرسية، فلماذا لا نحظى هنا بأي منها؟ ثمة فراغ قاتل بين حصص الطعام وتلاوة القرآن وحفظ الأحاديث وزوي الخيوط النايلونية والتنظيف والحراسة والنوم. ربما هم لا يحسون به، أما نحن فنحتاج لإشغاله بطريقتنا الخاصة، حتى لمجرد تزجية الوقت باللعب والتنافس، أو أي تسلية عابرة. أليس شغبنا أجمل من نوبات الاغتياب والنميمة

الهامسة والتكهنات المخيفة التي تخسف الروح، وتضيّق موائد الكلمات ومساحة العقل في هذه الأمكنة المغلقة؟ لماذا يُسكتون صوتنا اليافع، ويطفؤون نبرته قبل الأوان؟ ألا تكفي هذه البلايا الجاثمة فوق رؤوسنا؟ يا أخي دعونا نغتسل قليلاً من أوجاعنا كي نستعيد قوانا لمواجهة اليوم التالي! وإن كانت حكاياتنا تغيظكم إلى هذا الحد، فاسمحوا لنا أن نتبادلها فيما بيننا على الأقل!

بقيتُ مثار سخرية على مدى عامين بعد أن قصصت ما جرى معي خلال الأحداث: يومئذ كنا نخوض ما يشبه حرب الشوارع داخل المدينة. فجأة، وعند منعطف حاد، تبرز حربة بندقية ثم رأس جندي. صوّبت نحوه؛ الرأس يتراجع ويتقدم راصداً المكان بحذر. وربما كنت أقوم بالحركات ذاتها حين ميّزني خصمي. فصرخ ملء حنجرته منادياً باسمي. يا إلهي... إنه صديقي الذي لم أره منذ بدايات الجنون والدمار. كلانا جريح، وكلانا رمى بندقيته وسط الشارع، واندغرنا كلٌ باتجاه الآخر في عناقٍ مريرٍ دامٍ. بعد أن أنهيت قصتي هذه، والدمع يملأ عيني، بادرني أحد الأخوان قائلاً: سامحك الله يا بني، الآن فهمت أسباب خيبتك وترددك في بعض المواقف.

كالصاعقة وقعت كلماته على رأسي، وأدركت فداحة العيش في أسرين معاً! لم أعقّب. في الواقع كنت أخشى الصدام معه، لأن ذلك يعني الدخول في معركة خاسرة مع مريدين له في السرّاء والضرّاء. اكتفيت فقط بنظرات التعاطف المنصِفة لبعض الحاضرين، وقلت في سري: إن خيبةً كهذه لأهون ألف مرة من قتل صديق.

إذا كانت حكاية كهذه قد أثارت ما أثارت، فلا بد أن بعض أسراري الحميمة الأخرى ستكون بمثابة الخيانة العظمى لو أفضيت بها! اتخذت قرارين ضمنيين دفعة واحدة: سأُضرب عن الكلام لمدة أسبوع احتجاجاً على كل شيء؛ وسأكتتم أفكاري ومشاعري ونواياي حتى إشعار آخر.

أبو عمار

في المكان ذاته قد تلتقي أشخاصاً يمكنك أن تتنفّسهم كالهواء وترتديهم كدرع. حضورهم يبعث السكينة في القلب، ويخفف وطأة الحال. أبو عمار، جاري في المكان، رجل يكبرني بعشرين عاماً، كان مقتصداً في أداء الطقوس والكلام، يوفق بين واجباته الدينية والاجتماعية، معتبراً أن غاية الإيمان طمأنةُ الروح ونصرة الفضيلة. قبل أن أعرفه، كنت أعتقد أنني أستطيع تغيير العالم بطلقة بندقية، لكنني اكتشفت، على يديه، كم كنت مغفلاً، وكم كنت أحوج إلى طلقات معرفية تودي بأوهامي أولاً، وتستبدلها بشكوك في كل ما كنت أعتبره مسلّمات. أعرف أن الكثيرين لا يحبونه؛ على الأقل لأنه أعلن بوضوح نبذهللعنف. ولكن لم أعرف بالضبط لماذا يتهيّبه الجميع، هل لنظافة سجله قبل الاعتقال وبعده، أم لقوة شكيمته في دفع الظلم، أم لبسالته الفريدة، وتطوّعه منذ البداية، كالفدائيين الشباب، لإدخال الطعام، ورش المياه في باحة التنفس، والسير في مقدمة الطابور عند التوجّه إلى الحمام؟ لقد جعلني أكبُر به، وأصغُر بنفسي، فقلب كياني رأساً على عقب. علّمني أن أؤمن بالله على طريقتي، وأن أفكر بصوت مسموع، وأن أصمت حين يلزم، وأن أكون مريداً لذاتي فقط. وكان يقول لي: إن لمشاعرك عليك حقاً أيضاً، فلا تهملها! لم

أفهم مقصده في البدء، لكنني أدركت ذلك لاحقاً.

ثمة مشهد يتكرر يوم الجمعة من كل أسبوع، حيث يتجمّع الأولاد في مكان ما قريب من السجن، ويبدأون بتطيير طائراتهم الورقية الملّونة التي تبدو لنا صغيرة في الأعالي. وكان أبو عمار يترقبّ هذا الموعد دورياً، وحين يبدأ الاستعراض الجوي يسخّر حواسه لمتابعته بصمت، منفصلاً تماماً عما يدور حوله في المهجع. صحيح أنني صرت أشاركه هذه المناوبة الجوية مستعيداً طفولتي، لكنني لم أستطع يوماً التكهُّن بما يدور في خلده، أو ما إذا كان فرحاً أم حزيناً؛ لولا أنني لمحته يبكي في آخر مرة. لم أصدّق عيني، حاولت ثنيه، لكنني فشلت. راح يحدثني عن ابنه الأصغر الذي صنَّع له طائرة ورقية لأول مرة قبل اعتقاله بأسبوع واحد فقط. وتيمناً بهذا الحدث أمضى ساعات وهو يجهز طائرة من قصاصات ورقية على قطعتين متصالبتين من الخشب، ثم علقها فوق رأسه. كان مليء العقل والوجدان، يحدثني كما لو أنني ندّ له، دون اعتبارٍ لفارق السن، لكنني كنت أخشى من بعض مسارّاته. ذات يوم، حدث شجار بين أحد مريدي «أبو التقى» ورجل من جماعة اليمين، كما يسمونهم، وقد تعرَّض هذا الأخير لمظلمة سافرة. انبرى أبو عمار وحيداً للدفاع عنه وسط دهشة الجميع، وطالب الشيخَ شخصياً بالاعتذار له. لم نصدّق ما حدث. نهض «أبو التقى» من مكانه، وتقدّم من الرجل وقبّل رأسه. ساد لغط جماعي، بين مؤيد لهذه المصالحة ومعارض، لكن إشارة واحدة من الشيخ كانت كافية لإسكات المهجع. بعدئذ دنا العم أبو عمار مني وقال:

«إسمع يا بني، حجة السفيه الترهيب، والصوت الناهي لا تعنيه هداية الناس بل دب الرعب في قلوبهم. واعلم أن التديُّن القائم على الخوف باطل، وسرعان ما ينقلب مع تغير الأحوال. لقد تعرّفت هنا على ملحدين علنيين وسريين، وكلٌ يصنع آلهته الخاصة، فاختلط الكافرون بالمؤمنين، لكن ذلك كله لم يغير شيئاً من وحدانية الجحيم الذي يتقلبون فيه. ليتني

بقيت أمياً يا بني، ولم أنل شهادة، ولم أذهب إلى المدينة وأتوظف وأنخرط في العمل السياسي. كنت حينئذ، كما الكثيرين من أبناء قريتي، سأجلس مع أصدقائي الكهول والشيوخ وأستمع إلى حكاياتهم العفوية الشيقة والشقية التي تفوح منها رائحة التراب والعناء معاً. ولكنتُ الآن بين أهلي وأولادي، أطعمهم من عرقِ جبيني، وننام في حجرتين صغيرتين، وأشكو لهم ويشكون لي. ألعب مع أطفالي، فيتسلقون على كتفي وظهري في آخر النهار، ويصرخون حولي. أداعبهم وأقبلهم وهم يغنون ويلهون، فيما جدتهم ستقول لي، كما كانت تفعل من قبل: «يا بني لا تمازحهم كثيراً، فالمزاح يُفقد الهيبة، ولا يجوز أن تتعلق بهم إلى هذا الحد لا نعرف ماذا يخبئ لنا الغيب»!

كأنها نبوءة؛ حقاً خبّأ لنا الكثير. ومع ذلك، غداً حين أخرج وتسألني أمي عن خبيئة القدر هذه، لن أستطيع أن أعدد لها مراتب الحزن والخوف والجنون والموت. أجل يا أمي للموت هنا مراتب ودرجات عبرناها كلها:

ـ أن تموت وأنت نائم، صحيح البنية والنفس، ويكون الموت امتداداً لنومك.

ـ أن تُقتل وحيداً في عراء زنزانتك، دون أن ترى وجه قاتلك.

ـ أن تُعدم رمياً بالرصاص في غضون رفة جفن.

ـ ان يتنطح أخوك لملاقاة الموت بدلاً منك حين لا بد من ضحيّة.

ـ أن يُداس جبينك كل يوم بحذاء المذلّة، وأنت أعجز من نملة.

ـ أن تطلب الموت الجسدي تيمناً بموتك الروحي، فلا تجده.

ـ أن تنتحر من شدّة تعلقك بالحياة.

ـ أن تموت لسبب عضوي آخر غير مرضك المزمن.

ـ أن تُشنق ميتاً، تنفيذاً للحكم المتّخذ بحقك؛ فيُسجَّل لك امتياز الإعفاء من رؤية الشهود. كما حدث في فجر الإعدام الموافق يوم الاثنين 18 ـ 8 ـ 1990. دخلوا ساحتنا، وكالعادة تلوا بهمس أسماء المحكومين دون أن يفتحوا الأبواب. وما إن ورد اسم أحدهم حتى أغمي عليه. رشننا عليه الماء. أفاق لبضع لحظات. طلبوا إليه أن يردد: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ... وبعد أن انتهى الملقّن وجد أن الرجل قد أغمي عليه ثانية دون أن يكمل. وعندما عادوا ليأخذوا الرجال، اكتشف الطبيب أن الرجل قد مات بالفعل. لكن ذلك لم يغيّر شيئاً في الإجراءات، إذ أوعز للمحكومين الآخرين أن يحملوه معهم إلى حبل المشنقة، مع تعديل طفيف أضافه القاضي: الحكم على الميت فلان بن فلان بالشنق حتى الموت ثانية.

ـ أن تتواطأ بوعي مطلق مع خطأ عابر يضع حداً لحياتك، لكنه سينقذك من العذاب اليومي.

أجل كثر أولئك الذين تُليت أسماؤهم خطأ عند الفجر، نظراً لتشابهها مع أسماء محكومين، وشُدوا إلى حبل المشنقة، وماتوا، أو أُنقذوا في اللحظة الأخيرة عبر تدقيق عرضي يجْرونه للمطابقة مع اسم الأم، ولولا ذلك لكان الآن بيننا أحياء كثر في عداد الموتى. والله يا بني لا أطمع في شيء بعد الآن سوى أن أعود إلى بيتي، فأرى عتبة داري وألامس رأس من أحب، ولو مرة واحدة قبل موتي».

لكن القدر لم يمنح العم أبا عمار أياً من هذه الميتات، ولم يُمهله أيضاً كي يكمل واجبه في اقتطاع حصة من طعامه اليومي وتقديمها لمرضى السل، فأُصيب بالعدوى نتيجة احتكاكه الدائم بهم ورعايته لهم. كان، رحمه الله، قوياً كصخرة، نقياً كدمع العين. لكن الحياة خذلته، وربما رحمته، وارثةً عنه طائرةً ورقية معلّقة فوق مكانه الشاغر.

مربعات

عشر سنوات من الرؤية المقطّعة للمدى والنجوم والقمر عبر مربعات هندسية مشوهة. أجل كانت السماء مقطعة بتلك القضبان المعدنية التي تتوسط الفوهات التي فتحوها في الأسقف لمراقبتنا. كانت الفتحة قبالة فراشي، مؤلفة من اثني عشر مربعاً ليست متساوية. في المربع الأعلى، الأيمن، كانت تبرز أمامي دائماً نهاية سارية بعيدة لعلم لم يبق منه سوى خرقة ممزقة وحبل متدلٍ. وفي المربع الثاني أفقياً ثمة عشب عنكبوتي لصيق بالقضبان، كنت أرى من خلاله نجمة ما مع تباشير المساء. أما المربع الثالث فكان يضمر لي المفاجآت، تارة الشمس، وأخرى خوذة الجندي الحارس، وثالثة عبور طائر دوري، والمربع الرابع شبه المغلق، كانت تظلّله دائماً خلفية اسمنتية.

والمربع الخامس، وهو الأول في المجموعة الثانية، كان مقطّعاً إلى مجموعة أصغر من الأشكال الهندسية غير المنتظمة. والمربع السادس، الثاني في المجموعة، أفقياً، كان أحد الأمكنة المحببة في الربيع لطيرين يتطارحان العشق في موسمه. والمربع السابع كان ضلعه المشترك مع الثامن مخترقاً بطلق ناري أو شظية. هذا الضلع الذي تسبَّب في جرح أحد الشباب حين حاول أن يربط به حبل غسيل مصنّعٍ من خيوط النايلون التي

غزلناها من أكياس الخبز. وأما المربعات الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر فكنت أخترقها بتأملاتي، وأتسلل عبرها إلى الحياة كلما أسعفني الوقت. أما الثاني عشر فكتبتُ عليه في خاطري اسماً على وجه التحديد. الآن تفصلني مئات الكيلو مترات عن ذلك المكان، لكن تلك المربعات انغرست في شبكيتي، وصرت أرى كل شيء مقطَّعاً هندسياً، حتى وجوه البشر.

كابوس جماعي

عدوى الكوابيس تنتشر بيننا، تاركة آثارها حتى اليوم التالي. كنت أحياناً أحرس الليل بطوله، بدلاً من آخرين، لتجنُّب نوم الليل المليء بالمفاجآت المرعبة. فأحياناً لا تكاد أن تغمض عينيك حتى يباغتك صراخ حاد صادر إما عن الحارس الليلي، أو عن أحد الأخوة في المهجع. أذكر ذات ليلة حدث شيء يفوق التصور. كنا نياماً، ما عدا جاري، الذي كان حارساً ليلياً. فجأة أفقت على ما يشبه لسعة عقرب، نظرت حولي فلم أر شيئاً غير عادي، لكنني سمعت صرخات متتالية: كابوس جماعي ضرب ستةً دفعة واحدة، سرعان ما تسرب إلى الآخرين، محولاً المكان إلى هستيريا طالت المهجع بأكمله، وانتقل صداها إلى الغرف الأخرى. الكل أفاقوا، لكن أحداً لم يجرؤ على رفع رأسه، مكتفين بهمسات متبادلة من تحت الأغطية. هكذا غالباً، يطلع النهار مثقلاً بمخلفات الليل الفائت، لتنضاف إليه غارات الصباح الهمجية، المرافقة للتفقد وإدخال الطعام والتنفس، تليها فترة تضميد الإصابات وانعقاد اللسان وعدوى الخرس. هدنة مؤقتة بلا رقابة خارجية، حيث التطيُّر يسود أحاديثنا، ويرغب الجميع في المشاركة، ويصبح الجمع بين التحدث والإصغاء شبه مستحيل.

جنون

ذات يوم جاؤوا بمجموعة صغيرة، وكانوا جميعاً في سن الشباب. أدخلوهم إلى باحتنا، ثم تلوا أسماءهم بشكل هامس، وما إن انتهوا من ترتيباتهم الإدارية حتى راحت السياط والكابلات والقضبان المعدنية تتراقص فوق الأجساد نصف العارية. فجأة خرج أحدهم من الصف وراح يركض داخل الباحة المغلقة. كان كما سمكة اصطيدت حية للتو وألقي بها على اليابسة. راح الجند يلاحقونه ببصرهم ويقهقهون ولم يحركوا ساكناً في البدء. تركوه يركض في محيط الباحة، يتلفت حواليه والهلع يتطاير من جسده، ولم يكف عن الدوران حتى وهنت قواه، فهوى. لحق به أحد الحراس وبدأ يكيل له ضربات قصيرة ومتسارعة. نهض وأخذ يركض من جديد. اللهاث يتسارع والصراخ يخبو إلى استغاثات متقطعة، يفتح عينيه ويغمضهما، ويتصاعد البخار من منخريه، يسقط ثانية قبل نهاية الشوط. جندي آخر يندغر عليه كما قط جائع يعذّب فأراً قبل التهامه. السياط تنهال على جسده النازف، يتمرّغ، يزحف باتجاه زملائه كأنما ليستمد منهم القوة. السمكة تقفز، تتلوى،

يلامس ذيلها الماء، ينتعش فيها بعض أمل، قفزة أخرى، تصير أبعد على اليابسة، تتهاوى؛ حركة رأس، حركة ذيل أخيرة، تموُّجات جسد، ثم سكون مطلق. لم يُمته الجُند تماماً، نشهد أنهم تركوا منه بقية تكفيه للجنون، أجل هذا الذي أُدخل قبل نصف ساعة إلى هنا، دخل قائمة الأسرى في المرتبة القصوى من الجنون دون أن يُحقن بمواد كيميائية تطيِّر العقل.

صمت الكابوس

كان الجميع نياماً. فجأة استيقظوا، لكن أحداً لم يتحرك من مكانه. وحده الرجل ذو الكابوس، والحارس الداخلي أيضاً، كانا يعرفان سبب استيقاظهم في هذا الوقت المحظور.

ـ «من هذا الحيوان الذي صرخ» ؟ سأل الجندي من فتحة السقف.

ـ «لم يصرخ أحد هنا يا سيدي». أجاب الحارس الداخلي.

ـ اسمع. سوف تكتشفه في الحال. امسك تلك المكنسة بالمقلوب، والمس بها أقدام الجميع واحداً واحداً.

باشر الحارس بتنفيذ الأمر. بدا كأن الجميع مستغرقون في نوم عميق، وعندما مس الرقم 30، قفز هذا الأخير من فراشه كالمجنون.

ـ كفى، كفى، إنه هو. أرني وجهك!

كان الذعر بادياً على وجهه. لم يخطئ حدس الجندي. علّمه بوضوح كي يندرج في اليوم التالي في قائمة المرصودين للعقاب.

في اليوم الرابع كان لا بدَّ من استدعاء الطبيب:

ـ «هل لديك مرض مزمن في حنجرتك؟»

- «لا يا سيدي. أجاب بما يشبه الإيماء».

- «ولماذا لا ترفع صوتك؟ ارفعه، أريد أن أسمعك!»

- «أرجوك يا سيدي، صوتي مخنوق منذ أيام».

- «آمرك أن ترفعه. متمارض يا كلب».

أغمض المسكين عينيه، وأخذ شهيقاً ثم زفر، وانتفخت أوداجه، إلا أن شيئاً لم يصدر. التفت الطبيب إلى مرافقيه وأومأ، فقط أومأ.

انقض الجند على المريض. وفي غضون دقائق قليلة بدأ جسده ينطق بكل الدرجات الصوتية. وحين أدخل إلى عنبره محمولاً عادت اللغة البكماء وسيلته الوحيدة.

نحن ومعشر الطير
(العش)

كما دائماً مع بشائر الربيع كانت العصافير تعود إلى مطارحها المعهودة التي غادرتها مع البرد. واليوم في باحة التنفس الإسمنتية،وسمائها المسيجة أكثر من اللازم، وعلى شجرتها الوحيدة التي ستُقطع قريباً، طيور الدوري الذكية الحذرة تملأ المكان، تغرد، تحطّ على فتحات تصلنا مع الحياة، تتداعب، تغرِّد، وتمارس العشق أيضاً؛ وفي أول المغيب تهجع بهدوء إلى سكناها في خبايا الأعمدة والتمديدات والفتحات الدفيئة التي لا تحتاج إلى الكثير من القش لبناء أعشاشها. إلفة اليوم يشوبها فجأة هياج عصافيري محموم. مشهد غريب لطير جارح ينقض على دوري يحرس عشه من بعيد، يلاحقه في الجو ثم يخترق أسلاك الباحة حتى علق فيها للحظة كانت كافية للفرار. لكن الدوري أصر على ملازمة مملكته، وبدل أن يختبئ في مكان آمن لجأ إلى أنثاه داخل العش. كان الجارح بالمرصاد، فانقض على العش، وسقطت البيوض على الأرض الأسمنتية، وسقط الدوري الذكر بين المخالب، ثم طارا حاملاً ومحمولاً. فرت الأنثى مذعورة، قلبها يخفق، انتهى موسم العشق والولادة.

الأنثى هناك، تقف فوق سلك شائك على السور العالي وترقب البلية. تلاشى الدوري الذكر لقمةً واحدة بريشه ولحمه وعظامه.

وقفنا جميعاً مذهولين داخل المهجع، مؤدين معاً دقيقة صمت تلقائية؛ ولم نعد نرى سوى الأم التي طارت وحومت ثم حطت حول شيء رمادي منقّش، وأخذت تفرك منقارها في اللزوجة المهدورة لثمرة عام كامل من الانتظار. هرعت الأخريات، تجمعن حول الثكلى،وفاضت مناحة عصافيرية حول الأجنة المبقورة.

الطائر ذو الحاسة السابعة

كنا في الباحة الرابعة، المهجع 24 ، كما في أول رحيل شتائي قبل عام، ما نزال في دائرة كابوسية مفتوحة على كل شيء. وكانت دقّات القلب تصل إلى سمع الله، حاجبة معها قرع طبول الفجيعة التي تدوي في أنحاء الباحات كلها. والعصافير تهرع إلى لا مكان، فتطير وتحط وتتقافز بجنون. تعكير مطلق لصفو الطبيعة، ضجيج الأحذية المختلط بالصراخ، والعواء، والولولة، والاستغاثة بالله والبشر والحجر.

الوقت في ليل أرض النخيل يمضي سريعاً، نتنفّس دقائقه بعمق، أما في النهار، فنسرقه لهاثاً متقطع الشهقات، باعثاً على الغيبوبة. ذات صباح، مع طلوع الشمس، تسرَّب إلينا شعاع عبر ثقب، بحجم برتقالة، في سور السطح المقابل، اصطحب معه ظلّ غصن سروة عالية. كُرَةُ الضوء والظلُّ يتناوبان في زاوية نصف معتمة لغرفة تفتح رحمها للضوء. أفقنا تباعاً لنرى ذلك المشهد الغريب الذي منح وجوهنا شبه الآدمية بريقاً عذباً تفتّحت له أشياء فينا ما كانت لترى منذ رحلة الشتاء الغاشمة إلى هنا! لاحقْنا منبع الضوء، فاجأتنا الشمس بعُرينا العميق، سافرةً بخفر غير معهود عن أُنسي وجهها. وفي أعلى شجرة السرو، حطّت حمامتان، بيضاء وسوداء، لتكملا لوحة النور التي اغتسلنا بها ذلك الصباح.

كنا نتبادر كي نطعم العصافير بعض الحبوب وفتات الخبز، فتأكل وتتنافس وتتناقر أحياناً. وتشرب من ماء وعائنا، وترفع رؤوسها، وتنتفش، وتزغرد، وتشكرنا، وربما تدعو لنا بمزيد من الضوء والهواء والفرج. هكذا تعلمنا كيف أَلِفَتْنا العصافير.

في الأيام الأولى، كانت متحفِّظة، حذرة، تجفل لدى أدنى حركة تصدر عنا، وكنا أشدّ حرصاً منها على بقائها. نتحرك بهدوء، نحكي بهدوء. شهر، شهران بدأت تتجرّأ علينا، وكذلك اتخذت حياتنا شكلها الاعتيادي. كنا نمشي داخل المكان، نصل حتى الباب، حيث تكون فوق عتبته. أحياناً كانت تشق سماء المهجع كما لو أنها تختبرنا، ثم تعود؛ مرة مرتين ثلاثاً، إلى أن أصبحت تأكل عندنا وجبة الإفطار الصباحية في الداخل، قرب الباب؛ حيث كان أحد شبابنا ينام بصورة دائمة، ويعبِّر عن فرحته لدى استيقاظه كل يوم على شدوها، إذ تذكِّره برحلات الصيد مع أبيه.

ذات يوم تأخَّر صديقنا في النوم. تقدَّم أحدهم لإيقاظه. لم يستجب في البدء. ناداه ثانية، فصدر من فراشه زقزقة أشبه تماماً بصوت عصفور. ابتسمنا معتبرين أنها مجرد محاكاة عصافيرية صباحية جميلة. نهض من فراشه فرحاً كطفل، ثم بشكل مباغت رفع يده عالياً: «لقد التقطته منذ ساعة حيث كان ينقر حبات البرغل بجانبي». وفجأة راح العصفور يزعق ويتوسل، متلفتاً يميناً وشمالاً. وسط هذا المشهد العبثي، وبعض التعليقات المتفرقة والمطالبة الملحة بالإفراج عنه، كدنا أن نعقد جلسة للهيئة العامة لحل المشكلة لولا أن كبرت عقولنا معتبرين أن ما حدث لا يعدو سلوكاً طفولياً بامتياز. استجاب صديقنا، مستغرباً مع ذلك ردود الفعل التي تبدت على وجوهنا، وأطلقنا سراحه بدون أي تعهد ولا كفالة، بل باعتذار صادق. لاحظنا أيضاً غياب العصافير في الخارج، فقدَّرنا أنها

وضعتنا على قائمة المقاطعة حتى إشعار آخر. وهكذا حُرمنا من ذلك الخيط الوحيد الذي يصلنا بالطبيعة الحيّة. بعد قليل كان وقت الإفطار، فأحجم معظمنا عن تناوله حتى حين، من جرّاء القرار الحاسم والمشروع الذي افترضنا أن طائفة العصافير قد اتخذته بحقنا، بعد أن أجرت لقاء بأسيرها المُطلق وسألته:

ـ هل أُسيئَت معاملتُك، أم راعوا قوانين الأسر؟ لم يُجب.

ـ هل نتفوا لك بعض الريش؟ لم يجب أيضاً.

ـ هل أطعموك؟ هل قصّوا لك قنزعتك الصغيرة؟ هل خلعوا مخالبك الصغيرة؟ هل ربطوك أو كمّموك؟

لا، أجاب الدوري. ولكن لو طلبت مني الطبيعة العيش معهم، سأرفض الأمر تماماً، وأختار السماء فضائي، والشجر مسكني، وآكل من كدّ يدي، مع كامل ثقتي بأن ثلثي معشر البشر ما يزالون يحتفظون بماء وجههم، وإلا لما أُفرج عني!

أما نص القرار فيقول:

«نحن الموقعين أدناه ـ معشر الدوري ـ نتعهّد ونحن بكل قوانا الغريزية وبدون أي ضغط أو إكراه بعدم دخول مملكتكم البشرية المأسورة هذه، أو نعكّر صفو آلامها. وإذ نعتقد أن غريزتكم البشرية لا تقبل الآخر بسهولة (إلاّ إذا أثبتم عكس ذلك)، حتى لو كان طيراً، فإننا لا نتحمل أي مسؤولية عما إذا احتشدت الغربان عنوة في سمائكم».

التوقيع: معشر الدوري ـ واحة النخيل الرابعة

ضيف في الزنزانة

لم أعرف أنني أمضيت في الزنزانة رقم 6 خمس سنوات إلا بعد تحويلي إلى عنبر جماعي. كنت كل صباح أختلس حفنة ضياء من أسفل الباب احتفاءً بطلوع النهار. وفي الشتاء، حين تأتي المواد السائلة ساخنةً، كالشاي والحساء، كنت أتدفأ بقصعة الطعام، فأضعها في حجري وأحيطها بيدي. وكانت فصول السنة بالنسبة لي موزعة بحسب المواسم: الجزر شهران، والفول شهر، والبطاطا بعرواتها الثلاث... وهكذا. كانت الخضار تُنقل بعجرها وبجرها من الحقل إلى أوعية الطبخ، فتعرّفك على كل طعوم التربة التي زرعت فيها. أما الكماليات الأخرى، التي رأيتها لاحقاً في الحبس الجماعي، كالملح والملاعق والكؤوس البلاستيكية وإبر الخياطة ومكنة الحلاقة الألمانية، التي تنتش الجلد مع الشعر، ومقص الأظافر، فكانت من مستحيلات الكائن المنفرد. والوسيلة الوحيدة لتقليم أظافري وتجنب العقاب كانت عبر حكها بأرضية الزنزانة الإسمنتية، أو بالجدار، أما لحيتي فكنت أنتفها نتفاً. جُننت خمس مرات وعاد لي رشدي تاماً، حسبما أزعم، مرتين. أما المرات الثلاث الأُخر فكان يعود مجزوءاً، مشوّشاً ولا يُعتد به. أحمد الله أن جنوني لم يكن تدمرياً صاخباً، بل رزيناً صامتاً، جنّبني الكثير من العواقب. جنون مساير، يعطي بلا

مقابل، يُريني أهلي في الليل، فنتحدث ونتسامر حتى وقت متأخر، ولكن حين كنت أدعوهم إلى العشاء لا يستجيبون. وفي النهار كان يريني الأشياء على هواه: العيون في مقدمة الحذاء، والأنف بينهما، والأسنان في العقبين، وكنت أجد ذلك طبيعياً وعادلاً، لأنني لم أكن أرى سوى الأحذية. مرة قال لي: أنتم العقلاء لا تطرحون الأسئلة العادية. هل سألت نفسكَ يوماً يا خريج كلية العلوم عن عناصر الحياة الأربعة؟ أذهلني السؤال، لم أفكر بهذا الأمر طوال فترة حبسي الانفرادي. الماء والهواء متوفران، أجل، ولكن ماذا عن التراب الموجود قبل الخليقة، والنار، هذا العنصر المقدس الذي استخدمته البشرية منذ نصف مليون سنة؟ بإرادة الجنون قفزت ودققت الباب بقوة. وفجأة رأيت الحذاء أمام زنزانتي:

ـ «ستة! ألم تمت بعد، ماذا تريد؟» سألني الجندي.

ـ ناراً سيدي!

قهقه باقتضاب، ثم فتح الباب وقال: الله يعطينا خيرك، ولماذا النار؟

ـ سيدي، يوجد خرّاج في قدمي وأريد أن أكويه.

لم يضربني، ولم يحاول التأكد من شيء. ناولني قداحة وراح يراقبني وأنا أحرق مشط قدمي. لم يتفوه بكلمة، انتظرني حتى انتهيت، وأعدت له القداحة، فأغلق الباب بهدوء وغادر. ثلاثة أرباع العناصر صارت في متناولي، ولكن الألم كاد أن يقتلني. أمسكت برجلي وبصقت عليها ورحت ألوحها في الهواء. وفي اليوم التالي أمضيت معظم ساعات النهار في فتح ثغرة ميتة في زنزانتي، وكانت أداتي الوحيدة أظافر قدميّ، التي أصبحت متقرنة، فاقدة الكلس والحياة. وحين بلغت التراب الرطب انبطحت أرضاً ورحت أتنشمم الرائحة. حينئذ اكتمل نصف حريتي.

منذ جنوني الأول أفلتت الأيام مني، ولم يعد يفيد العد من جديد.

وذات ليلة أوحى لي جنوني أن أعد الأيام عكسياً. راقت لي الفكرة، فقد تجعلني أعرف ما تبقّى لي في كل مرحلة! حززت عمودياً على الجدار خمسين خطاً، وبدأت أشطب من آخر خط تباعاً حتى وصلت إلى اليوم الخامس والأربعين. كان الوقت ليلاً، لا أذكر أنني نمت، لكنني حتماً نمت، لأنني عندما فتحت عيني رأيت جرذاً يأكل من قصعتي. لأول مرة أنتبه لوجود هذا الكائن في مسكني. فجأة عادت لي ذاكرة القرف الطفولية من الجرذان، فاندفعت إلى فوهة المرحاض، المجاورة لقدمي، وتقيأت حتى الصفراء، ثم أغلقت الفتحة كما أفعل عادة. بالطبع كان الجرذ قد اختفى. بعد قليل أدركت مقدار جهلي! كيف أفرّط بهذه المنة التي جاءت من حيث لا أدري! وسرعان ما استدركت أمري وقررت تركها مفتوحة دائماً.

مضى يوم ويومان وأسبوع ولم يعد الجرذ، وكذلك جنوني. وتركزت قواي كلها على كيفية إعادته. كنت أترك له بعض الطعام حول الفتحة ليلاً ونهاراً، حتى نجحت الخطة في النهاية. وبعد عدة وجبات اعتاد حضوري. وأخذ يقترب مني، متردداً في البدء، إلى أن ألِف حركتي وسكوني. اتخذ عاداتي في النوم واليقظة، وكان يختفي كلّما سمع صوتاً في الباحة، وحين يباشر الحراس بفتح الأبواب، كان يهبط إلى قاع المرحاض، ثم يظهر ثانية ما إن تصله إشارة الأمان التي اتفقنا عليها. وكنت أضطر إلى غسله في كل مرة، وأجفف فروه. كنت أحدثه بهمس، وكان يسمع لي ويبرق عينيه ويغمضهما وينعس ويتكاسل ويتدلل علي ويخمشني أحياناً. لقد أنساني العدّ العكسي لما تبقى من حياتي السجنية.

في أحد الأيام حدثت حركة تنقلات في الباحة. وبعد إدخال الغداء بقليل جاء أحدهم وطلب مني أن أوضب أشيائي. ضحكت في سري: وماذا أوضب! ليس في الزنزانة سواي والقصعتين والجرذ، الذي نزل إلى

مخبثه. لم أُمنَح فرصة لوداعه أو الحزن عليه كما ينبغي، فسرعان ما جاؤوا ونقلوني إلى عنبر جماعي في باحة أخرى. قلت في سري متحسراً عليه: سيمضي وقت طويل ريثما يتعرف على نزيل آخر؛ ولكن من يعلم، فقد يقتله!

فُتح الباب ودفعوني إلى الداخل. أحدهم فكّ العصابة عن وجهي فرأيت أمامي مئات العيون المشدوهة. نظرات العجب والخوف والفضول راحت تتناهبني، وسرعان ما هرع رجل إلي وغطّى جسدي بإزار فأدركت أن ثيابي المهترئة تكشف عن بعض عورتي. أجلسني رئيس المهجع بجانبه، وتحلّق حولي عدد من كبار السن، وراحوا يرشقونني بالأسئلة. من الواضح أن معظمهم اقتنع بأجوبتي، لكن ردود الفعل كانت متباينة تجاهي، بعضهم تفهّم حكاياتي وأبدى تعاطفاً شديداً، وآخرون راحوا يضحكون أو يتهامسون، وثمة من أشاح بوجهه عني. وبعد أيام استوعبوا حالتي، وأدرجوني، كلٌ حسب اجتهاده، ضمن إحدى مراتب الجنون. لم يزعجني الأمر، فقد كنت متصالحاً مع جنوني إلى حد كبير، وأعتبره عادياً مثل أي عارض صحي، كالصداع والمغص؛ حتى أنه لا يؤلمني إلا إذا فكرت فيه. ومن محاسنه أيضاً أنه لا يؤذي الآخرين، بل يسلّيهم. كنت أتضايق منه لأنه لا ينذرني بالأفكار التي أعبّر عنها، فتخرج بصورة عفوية، وأحياناً غير مترابطة.

الطبيب في تدمر معني بالتعامل مع شتى الأمراض، بما فيها النفسية؛ والخبرات التي يكتسبها كل يوم تجعله واثقاً من أن جهوده ستؤتي أكلها مع الوقت. أما حالتي فظلت مستعصية عليه، وحين لم تُجدِ معي الجلسات ولا الأدوية، تطوع أحد المشايخ المرموقين لإنقاذي، فأمضى أياماً وأسابيع وهو يقرأ الآيات والتعاويذ على رأسي. كنت متأكداً من أن محاولاتهم كلها ستضيع سدى، على الأقل لأنني لم أكن أريد أن أشفى! أنا أعتقد أن

الناس جميعاً لديهم جينات عاقلة وأخرى مجنونة، وأحمد ربي أنه رجّح لدي هذه الأخيرة، فالجنون في تدمر رحمة لا يدركها العقلاء.

ولماذا أكون عاقلاً وأنا أشهد هذا القدر من الويل والجهالة والعفونة وأبخرة الأفواه والأجساد، وطعوم العذاب، والروائح اللئيمة المنبعثة من كل مكان؟ وما الحجة في أن نكون عقلاء ونحن نأكل حساءً مخلوطاً بالبول، وطعاماً معفراً بأحذية الجند والشحّار والمازوت؟ لماذا يريدونني أن أتخلّص من الجنون وأنا أرى السجان يُطعم السجين فأراً حياً، أو يجبره على تلميع حذائه بلسانه، أو يجعله يقلّد أصوات الحيوانات.

ولولا الجنون كيف كان لي أن أتحمل أيضاً أهوال ما يحدث بيننا في الداخل: الكبائرُ تَتخذ ملامح التقوى، ويُصنع الثواب والعقاب والكفارة والمغفرة بمعايير لا سابق لها. لقد سهّل عليّ جنوني ألاّ أستغرب هذه التناقضات الصارخة في الكائن البشري الذي يكون تارة قوياً كجذع زيتونة، وتارة أخرى هشاً كما برعم. وإلاّ كيف كان لي أيضاً أن أصدّق حكاية الشاب الذي رفض أن يُحني رأسه في تدمر متحملاً ضريبة سنوات من العقاب؛ وأن أتغاضى عما يقترحه البعض بشأن أولئك الوشاة الذين ينقلون الغث والثمين من أحاديثنا إلى جلادينا (هل نضربهم، أم نحرمهم من الدواء، أم نقاطعهم ونعاملهم كالمجذومين داخل هذا المكان الضيق، أم نرحمهم كي لا نعزز انكسارهم وضعفهم)؛ وأن ألتزم الصمت عندما قرر عدد من السجناء في نهاية خط اليأس التدمري، الموافق ليوم الاستفتاء على الرئيس، تدوين وثيقة تأييد ممهورة بالدم، وتسليمها إلى مساعد الانضباط، ليضيفوا دزينة من الأصوات الميتة إلى فوزه المطلق؛ وأن أكتفي بجنوني الحالي فيما أصوات النخبة الموالية تتعالى كلها مرددة دعاء للطاغية:

«طوبى لك يا سيد البلاد، يا من أخضعت الكبير والصغير، وأبطلت

الألقاب كلها إزاء لقبك الأوحد! نعدك بالتخلي حتى عن أسمائنا، وندعوك بكل ما أوتيت أرواحنا من خشوع وتقديس، بأن تعوضنا بها أرقاما تختارها لنا مصلحتك العليا ».

لهذه الأسباب كلها أعتبر جنوني رحمة، وسأتمسك به ما أمكنني على ذلك. ولي بعدُ أن أسألك يا إلهي إن كانت جهنمك، أو جنتك، تشمل جماعات وأفراداً من اليمين والوسط واليسار من كل الأحزاب والأقوام والأديان والملل؟ وهل تشهد وجود أسيرين، أب وابنه، موزعين في مكانين متجاورين، كما هنا في المهجعين (الرقم 24 والرقم 16)، ولم يلتقيا طيلة سنوات العقاب الدنيوي؛ ولمّا توقف صوت الأب عن الصراخ لأيام متتالية فتح الابن مجلس عزاء؟ وهل ضمتا أخوين أحدهما «شيوعي» والآخر «إسلامي» في زنزانتين متجاورتين، دون أن يرى أحدهما الآخر؟ هل يُتاح لَمُّ الشمل في ملكوتك، يا إلهي!

قالوا لنا: سنريكم نجوم الظهر! حقاً رأيناها ويلاً، وقد رأيناها رأي العين أيضاً في الساعة الثانية والربع من بعد ظهر يوم صحراوي.

إلهي، أنا الشعرة ما بين قصارى الكفر والتُّقى،

أنا اللحظة الباترة بين الموت والحياة،

وأنا الخوف مني وعليَّ.

إلهي، إن كانت جنتك ـ التي وعدتَ ـ موجودةً في مكانٍ ما،

فليس الجحيم سوى ما أراه!

وإن كانت رحمتك قد شملت كل شيء،

فإلامَ يبرق هذا السيف بين الرؤوس،

وهؤلاء الأولاد ينفجرون، وما هم ببارود!

إلهي، أوجّه وجهي إليك، وأسئلتي،

كيف خلقتنا ـ قاتلاً ومقتولاً ـ على صورتك!

أنت، سبحانك، ترى وتسمع وتحيط بكل شيء،

فعلامَ تترك حبل العاتي على غاربه، وحبالنا مغلولة إلى أعناقنا؟

اللهم أعِد لي عقلي إن خرجتُ من هنا حياً، واهدر ذاكرة سجني، ولتعوضني عنها يا رب بزاد من النسيان يكفيني كي أُمضي سحابة عمري بالحب لا الحقد، والتسامح لا الانتقام.

من وحي العتمة

في التاسع من شهر تموز 1999، اقتضت عقوبتي الإدارية أن يجري عزلي في المنفردة لمدة أسبوع. حملت أشيائي البسيطة المسموح بها ومضيت خلف الجندي، حيث اجتزنا بضعة ممرات ودهاليز وبهوين وستة أبواب، ثم أربعين درجة نزولاً تحت الأرض. ضوء النهار يتلاشى من حولي، والظلمة تطغى شيئاً فشيئاً، وتبتلعني على مهل، بينما الهواء الكربوني يجتاح أنفاسي، محمّلاً برائحة العفونة والصدأ والرطوبة. مكان مُعادٍ، وأصوات خرافية تنعب دون أن يُعرف مصدرها. هوّة سحيقة تضج بنباح الجند ووقع الأحذية والشتائم والنشيج ولسع السياط.

يدفعك الحارس بقوة وصمت إلى عتمة خمّك، ويغلق خلفك الباب المعدني بعنف. يجتاحك شعورٌ دجاجي خانق لا يني أن يتحول إلى حافزٍ مضاد، فتتحفّز كهرٌ محاصَر. سرعان ما تعتادك الأشياء: الجدران، الصنبور المهترئ الذي يتقطّر ماؤه نقطة نقطة. تقافز الجرذان، وروائح المياه الآسنة، وبعيداً عنك قليلاً، أصوات ارتطام مجهولة، وطريقة كلبية في تناول الطعام، والسعال السلّي المخنوق الذي يصدر من حولك عن بشر لا يُرون، وتحثك كي تستكشف مَن حولك. القاعدة إيّاها: الكلُّ يَحْذَر

القادم الجديد، لا سيما إن استعجل الإفصاح عن فضوله ورغبته في التعارف.

قلت بملامة: لا تحيات، ولا ترحيب، أين تقاليد الضيافة أيها الجار؟!

وصلني منه ضحكة خافتة، ثم لا شيء!

في الليل انطلقت برقيات أثيرية، تبيّن أن القدامى متعارفون؛ تتناهى أصداءٌ لرشقاتٍ صوتية باترة. أحدهم ينبّه: «ألفظ كلمةً كلمةً كي لا يموت الصوت بالصدى»!

يلفحني نسيمٌ إنساني تائه.

كلمات تتحرك ببطء بين حلقي وشفتيّ، أحاول قول شيء ما، لكنني أتلعثم بصمتي كما لو أنني أُصبت بعدوى جاري الذي لم يشارك حتى الآن إلا بحاسّة السمع. وفجأة سألني:

ـ هل ترى أحلاماً في نومك؟

باغتني السؤال، أغمضت عينيّ كي أقوى على جواب؛ لكنني سرعان ما شعرت بأنني غريب كما سؤاله. ما الذي يفكّر به هذا الرجل؟ ومنذ متى يقبع وسط هذه العتمة؟ أضاف جاري دون أن ينتظر جوابي: «أنا لا تزورني الأحلام منذ أشهر». ثم سكت، ولم يكلمني طيلة الليلة الأولى. وفي الليلة التالية أكمل من حيث انتهى: «ولم أكلّم أنسياً منذ أشهر. لقد بدأ صوتي يتخافت تدريجياً حتى اختنق؛ لا أدري، أبسبب الصمت المديد أم الروائح النفّاذة؟ لم أرَ شيئاً خارج زنزانتي منذ ثماني سنين، لا نجماً ولا شمساً ولا قمراً ولا طيراً. كنت أحكي الطرافات لنفسي كي لا يجافيني الضحك. وأستقدم أمامي صديقاً أو أخاً أو عدوّاً، ونبدأ الحوار؛ أطرح حججي وأفنّد حجج الآخر. وفي كل مرة أخرج مهزوماً مع الصديق،

ومنتصراً على الخصم. أول أمس استفزّني محاوري، كان شريراً، سليطَ اللسان؛ وكانت ردوده مفحِمة. عِيْلَ صبري، وفقدت أعصابي، ولم أثُب إلى رشدي إلا بعد أن اصطدمت قبضتي بالجدار. لقد لكمت الخصم بقوة. صرت الغالب والمغلوب، وما تزال يدي معصوبة بقطعة قماش من قميصي الداخلي.

ما يميّز نهاري عن ليلي أنني في النهار ألاحق الظلال المتراقصة قبالة عينيّ، والأصوات المنكرة في أذنيّ. باتت لدي حاسة خِلديَّة للسمع. أما البؤبؤان فأخالهما حبتي حمّص مسلوقتين. كنت أفتح فمي جاهداً كي أمرّن عينيّ على الاتساع، وأصر على أسناني لتدريبهما بقوة. كانت تحدوني رغبة دائمة في أن تتاح لي رؤية ضوء النهار الصريح مقابل أن أقضي حياتي كلّها في الأسر، والاكتفاء بوجبة واحدة لقاء رؤية الشمس ساعة واحدة في اليوم. كنت أعرف أبعادي كلها، وأبعاد مكاني أيضاً: المسافة السنتيمترية بين الباب وعتبة المرحاض، بين الباب والجدار الداخلي، بين الأرض وقبّة الخمّ، عدد البلاطات البيض والسود، عدد الذبابات الشيئية التي تخاتل بصري كل دقيقة، عدد الثواني التي أمضيتها هنا حتى هذه الساعة، كم مرة صعدت العتبة المرحاضية ونزلتها، وعدد الصراصير التي قتلتها باللمس، واللسعات الفعلية والمتخيلة، وعدد السجائر التي ألقيت لي مشتعلة من متفضِّلٍ مجهول ـ هناك دائماً من يورث هذه الفضيلة ـ لكن أمي كفَّت عن زيارتي في الحلم منذ سنتين؛ ربما ماتت، من يدري! كنتُ أستجدي رؤيتها في نومي، أمضي ساعات وأنا استحضرها قبيل شروعي بالنوم، لكنها لم تأتِ سوى مرة واحدة فقط. حين رأتني صرختْ، وصرختُ أنا، فطار الحلم والنوم معاً ليومين تاليين.

كثيراً ما أستعرض في مخيِّلتي وقائع من الطفولة، كسقوطي في البئر، وحادثة اختطاف جارنا الأعرج، وسرقة الخوخ من أرض المختار،

وتفاصيل غرق كلبنا عند بوابة السَّد السطحي المجاور لقريتنا، وفي كل مرة يكتسي خيالي ألواناً أخرى.

ـ «أما تزال تسمعني، أم أنكَ نمتَ؟» سألني بما يوحي بالاعتذار عن الإطالة، والرغبة في مواصلة حديثه».

كنت أتكبد جهداً كبيراً لتتبع كل ما يقول، ومعرفة إن كان محدِّثي بجواري أم قبالتي، فاكتفيت بإجابة تشجِّعه وتغني فضولي في آن.

وتابع: «كنت أصارع أشباح الخوف التي تتناهشني كلَّما مررت بنفق الشرود. كل شيء هنا معروض للبصيرة ومعادٍ للبصر. ولا أستطيع أن أفسِّر كيف تتخلَّق كل تلك التحالفات ضدي، بما في ذلك ذاكرتي التي تنطوي على نزعات غريبة، فهي تنأى عني حين أستدعيها، تعاند، تراوغ، تنسلُّ من أضيق المسام، وتتسلل إليَّ بخفة لصٍ ما إن أخلد إلى الراحة. تباغتني، تقاتل بضراوة، وغالباً ما تغدرُ بي. أوصِدُ دونها الأبواب، فتخلع درفاتها وتفتحها عنوةً ثم تنسلُّ إلى آلتي الدماغية، وتمارس عسفها بلا رحمة. لقد حرصت على أن أصونها بكل ما أمكنني من مكيِّفات ابتدعتها عبر عشرات الوسائل؛ ومع ذلك فوجئت ذات يوم أنها تلاشت إلى صفحة بيضاء تماماً. أجل كانت مهيضة، ولم يبقَ منها سوى فتات من الماضي. في البدء أغمضت عيني متحرياً لعلي أسترجع شيئاً ما، ولكن دون جدوى. استسلمت للدمع، بكيت هذا الفقدان الخانق، واستجمعت أنصار وحدتي وما تبقى لدي من خيوط أمل أنسجها كل يوم، ممسكاً بنصيحة أسداها لي صديق عابر مرَّ من هنا ذات عقاب: «تأبط ذاكرتك!».

رحت أحدِّث نفسي كمن يهذي، وأفلتت مني كلمة واحدة كان من شأنها أن تبلسم وجداني: أمي. أصابتني قشعريرة الخشوع. رحت أصلّي

لها كي تنقذني؟ فاض بي دعاء تلقائي في عتمة الزنزانة: أتضرع إليكِ بيدين أمامي ولا أراهما، أن تعيدي إليّ شقائق ذاكرتي، بكل حمائمها وغربانها. أحلِّفك بالتراب العالق بين ثنايا كفيك أن تنثريه حول رأسي كي أستعيد بعضاً منها! أحلِّفك بفرحك لكل عروس في طريقها إلى عش الزوجية، وبكائك على خروجها من بيت أهلها، أن تعوديني في نومي، وتمسِّدي هذه الرأسَ العصيةَ على التذكُّر، لعلّ تعيدينني سوياً. أنذر لكِ شهرين من المرض في أي مكان من جسدي، عدا رأسي، فقط كي تشفى ذاكرتي وأثوب إلى حلم لم يكتمل!

استجابت أمي لدعواتي؛ صارت تزورني كلما مضَّني الشوق، تحوِّم فوقي، وتهدلُ ما وسعَها الصوت. ثم توالت الأيام دون أن يُصاب جسدي بمرض. أدركت أن أمي، خلافاً لشرع الآلهة والمقامات والأضرحة والأنبياء، لا تبتغي وفاءً لنذر. بدأتُ أضمّد ذاكرتي بالحكايات والأشعار والأغاني».

تلوّن صوت محدثي بمسحة من الشكر على إصغائي الحميم إليه؛ ثم تابع كأنه يريد أن يفيض بكل ما لديه.

- «الفراغ أشدّ ما يفتك بك في هذا المكان، يتسلَّل كما جيش من النمل، فيحيلك إلى فريسة بلا لحاء، ولا نسغ. كل يوم يخامرني إحساس بأنني سأنفق كأي فأر أو جرذ أو عنكبوت دون أن يتمكّن ضجيجي من تسلّق تلك الدرجات الأربعين. قد لا أستطيع أبداً أن أُسمِع صوتي لأحدٍ في طول هذه الدنيا وعرضها. لقد ضاق بي جسدي، وتتالت فرص الموت المأمول، لتنتهي كسواها؛ دون أن أحظى بالأخيرة. أتصارع بين اليأس والصبر، وأنا أعضُّ على بذرة أمل مجهولة تقارع الهلع الذي يغزو خلاياي. وكان ثمة دائماً صوت من أعماقي يطالبني بترك كل البوابات مشرعة لعل بعضهايهبني لحظة من الفرح.

أنهض، أذرع جحري ذهاباً وإياباً؛ ثلاث خطوات بين الباب والجدار المقابل. كان المشي ينفخ فيَّ روح الحياة، ينسيني وجودي الضيّق، ويقذف بي في شوارع المدن، والأزقّة والأرصفة والحارات؛ يعيدني إلى ردهات الجامعة، إلى ملاعب الطفولة، إلى حضن جدّتي الدافئ. وحين يتملكّني التعب، أرتمي فوق دبابيس فراشي الواخزة.

لا أدري أي طاقة كنت أنتزعها من معطف الفداحة! لا بدَّ أن روحي متعددة الحلقات والأدوار، وأنني أحمل اثني عشر برجاً في نفس واحدة، واثني عشر مصيراً بلا مآل ولا أجنحة. كنت أتشبّث بحبال الألم كي لا تتخدَّر حواسّي، وأرتهن للنبوءات التي تشغل خاطري قبيل حدوثها؛ فأكافئ نفسي بابتهاجات فقيرةٍ مضحكة كلّما تكشَّف لي شيء من تنبؤاتي الغامضة، وأعاقبها على تهويماتي الحمقى.

كم من الصور والأيقونات علّقتها في فراغ المكان،فتقمَّصتْ أسماء أشخاص ومدن وأنهار وسفوح وأصائل. وحين كنت أغمض عيني كي أراها وأتملاَّها في العتمة، تصير زنزانتي صالة فسيحة ملأى باللوحات الضاجة بهلوسات اللون؛ صالة بلا روائح كريهة ولا فزع ولا رطوبة ولا خدرٍ أو روماتيزم! تنطلق عصافير النشوة من أقفاصها، تنفض أجنحتها، وتغطُّ مناقيرها في صحن قلبي ثم تحلّق مغرّدة في فضاء كياني.

لم يخطر في بالي من قبل أن أعدّد الفواصل الزمنية، من الصبح حتى الدُّجى، لأنها هنا جميعها متساوية، تائهة، مضيَّعة. إحدى هذه الفواصل كانت شاهدة على ما حدث معنا ذات يوم.فُتحت الأبواب الخارجية خلال زمن قياسي، ووُزّع علينا الطعام، ثم فجأة خرس كل شيء، وتلاشت الأصوات الآدمية في الأعلى ووقع الأقدام،ومعها كل ما يمت إلى الحياة بصلة. صمتٌ يخترقه خليط من أصوات الأشياء. وبعدقرابة الساعة صدر صوت هَلِعٌ مُستغيث من جاري في الزنزانة المقابلة. نظرت

عبر كوة الباب، كانت المياه المالحة تتلوّى في كل الأنحاء، وقد دخلت عبر فتحة في أسفل بابي، وكانت الحرامات تحتي مبلّلة بكاملها.

اتفقنا نحن الثلاثة أن نبدأ الصراخ بصوت واحد، مترافقاً مع ركل الأبواب المعدنيةبأرجلنا ورؤوسنا، فقد يسمعنا أحد ما بمحض الصدفة،مثلما حدث قبل أشهر لثالثنا الذي كاد أن يموت لولا أن جاؤوا يومئذ خارج المواعيد المعروفة، وانتزعوه من رحمة الاحتضار.

منسوب الماء يرتفع داخل أقفاصنا المُصْمتة، والروائح النتنة تدفع بحبالنا الصوتية إلى الداخل، وتكاد أن تخنقنا. الأشياء في زنزانتي تطفو،ولأوّل مرة أكتشف وجود قطعة خشبية فيها. أمسكت بالخشبة وواصلت القرع على الباب. بدأ الصدى يختنق تدريجياً. غُصْتُ في قذارة الماء حتى ركبتي. ناداني النزيل الثاني أن أرتقي عتبة المرحاض. الآن عرفت لماذا كفَّ عن قرع بابه. نبّهته أن يمسك بالكوّة المشبّكة التي تعلو الباب ويسند قدميه على الكوّة السفلية. أما الثالث فطلب إلينا أن نتلثّم بقطعة قماش مبلّلة بماء الشرب. أَذْعنّا، وعُدنا إلى تسلُّق الباب، وصارت رأسي ملاصقةً للسقف. حاولنا اقتلاع أنبوب التمديدات لخلع الباب، وقد تطلب ذلك منا جهوداً مضنية.

تراءى لي شبح الموت شاهراً كلاّبتيه وسط هذا العماء. تملّكني ذعر مرعب، وضاقت أنفاسي، فأدنيت رأسي من الكوة كي أسرق شهيقي. اختلطت أصواتنا بقرقعة الحديدوخرير المياه وصقيع الموت. أصابني غشيان ودُوار، وعمّت الحمّى رأسي، وشعرت أن الدم قد تجمّد في عروقي. وفجأة تعرضنا، نحن الثلاثة، إلى لدغة كهربائية قصيرة وحادة، تلاها صوت انفجار قوي. لا أدري إن كانت هي التي أعادتني إلى رشدي.

كان الملاك الأسود الأعمى قد ولج الداخل، يحوّم في كل مكان، يتربّص بي. أَغلقتُ عليّ شرنقتي، دخلَها، صرنا وجهاً لوجه. تقمَّصني نشيد الموت لقدامى المصريين. ولكن بدل أن أردِّده على شكل مناجاة، رحت أخاطب الموت حضوراً. بتُّ عارياً من أيّ خوف، ولم يكن أمامي سوى التعاويذ والتمائم والغناء لعل الملاك الأسود الأبكم الكفيف الأدرد ينام؛ لكنه لم يفعل.

رحت أفكّر كيف ستفوتني كلمة الوداع الأخيرة، وتموت معي كل أشيائي الجميلة، وكل أسراري وحكاياتي وأحلامي وأشعاري المحفوظة عن ظهر قلب؛ ولن يتبقّى مني بعد حين إلا عظم الجمجمة والمفاصل، والسُلاميات، وأظافري الزرق وأسناني.

فجأة أيقظني من هذياني صوتٌ يُحتضر:

- إني أموت، أموت، أموت!

كانت الأحرف الأخيرة تستطيل بالإقياء. لا بدّ أن الماء قد بلغ فتحات تنفُسه. يا إلهي! إنها سكرات الموت.

صرخ بنا ثالثنا أن نستخدم أنابيب المياه، التي كنا اقتلعناها للقرع على الأبواب، كأجهزة تنفس عبر الفتحات العلوية. وكانت هذه محاولتنا الأخيرة لتجنيبنا الاختناق المحتوم. لكن الورشة التي حضرت لإصلاح العطل الكهربائي هي التي أنقذت حياتنا، نحن السجناء الثلاثة الماثلين أمام عتبة الموت الأخيرة.

نُقلنا إلى حجرة صغيرة ومعزولة في الأعلى، ووجدنا أنفسنا نخضع لعلاج إسعافي، لكن ملامحنا الغريبة ظلت كما هي. أجساد ثلاثة متيبِّسة، فاقدة السوائل؛ والبشرة تحوَّلت إلى مجرَّد جلدٍ جاف متشقِّق، وعيوننا غائرة، والوهن يمنعنا حتى من التلّوي. تلك التجربة جعلت منا أطفالاً

وأمهاتٍ في آن معاً، فكان كل منا يرفق بالآخر، أو يستمد منه الدفء، ونتلامس بغريزة جِراءٍ ولدت للتو.

سامحني أيها الجار الطيب، وادعُ لذاكرتي بطول البقاء، وإذ أثقلتُ عليك بما لدي، أرجوك أن توصل حكايتي إلى حيث ينبغي. وغداً نبدأ حكايتك».

حوارية الليل والنهار

في السابع والعشرين من حزيران 1980 للتقويم التدمري، نذير شؤمٍ قرع سمع النخيل قبيل الفجر، فتوسَّل النهار ليلَه أن يبقي ستائره مسدلة حتى حين، لكن هذا الأخير توجَّس من غرابة كهذه، واكتفى بإحجام صامت.

ـ «أيها الليل، يا قريني الأزلي، أعرني بضع ساعات منك، أو عينيك الكفيفتين». قال النهار هامساً.

ـ «لن يفيدك عماي، ستبهره الشمس». أجاب الليل، منكفئاً عن حواف الكون، تاركاً النهار لقدره.

كان الجندي يصيخ السمع، فبدَّل بنوبته وشاية: «النهار خالف الشرائع»!

تفرَّس النهار في عينيّ الجندي الذي يجهل علم الغيب فعالجه الحارس برشقة غضب!

شهق النهار هواء الخيبة، وأنَّتْ جِراحه، فأسكتها بحفنة من الرمل الحارق، ونكَّس رأسه أمام شمس ستُنتهك حرمتها بجريمة تُسجَّل اليوم ضد قوى خفية. دمعة عجز كاوية أسبلت جفنيه كي لا يرى.

ناشده حارس آخر:

- «لا تطرِق طرفَك العالي يا سيدي، أتضرّع إليك ألاّ تفعل، فأنت الشاهد الوحيد!».

ارتعد النهار، تملّكه فزعٌ مُهْلِك، واتسعت عيناه، فرأى وسمع وشهد:

فُتحت الأبواب فرادى على جحيم عاتٍ يلفُّه الوجوم، ثم انفجارات متتالية وعيارات نارية وألسنة لهب تلتهم معها النداءات الأخيرة والاستغاثات والابتهالات الخاطفة لمئات الرجال المحشورين في عنابر الموت الموقوت.

تطاير عقل النهار لدى تنقله بين الباحات والمهاجع الأخرى، يحرّك القتلى بضوئه ويعدّهم واحداً واحداً. اكتشف أن بينهم من لم يموتوا بعد: جسدان في ركن، وثلاثة في آخر، وواحداً في ثالث، واثنين في ثامن وثلاثة في الثامن والثلاثين و.. وحين عاد إلى رشده، كان العدد سبعة عشر؛ وُجدوا هناك ولحمهم الحي يئن. توسل لهم موتاً عاجلاً، فكان. عدّ الأصداء ولم يخطئ: سبع عشرة شرارة بارود كسفت نور الشمس. لزوجة حمراء تنداح وسط الباحات، مختلطة بالتراب والحصى والماء الذي أسالوه لإخفاءالآثار الخارجية، فتلاشى كل شيء. وفي مكان آخر من هذه البادية كان الوادي الأحمر فاغراً فاه، فاتحاً أحشاءه لخبيئة ستنهش صدره حتى أبد الآبدين! في ذلك اليوم خرجت الجوارح عن معهودها؛ انقضّتْ كلها، ولكن لا لتتناهب القتلى بل لتسجّيهم، وتسفُّ عليهم التراب بمخالبها.

اكتمل المشهد، ولم ينتهِ النهار، وقبل أن ينطفئ أدلى بشهادته:

«أشهد أن الموت كان أسرع عذاب تدمري لعدد من الرجال، المجهول ينحني حين، ممن قُتلوا في عزِّ الضحى، وقطعوا على ذويهم فجأة مبرر الانتظار!

أشهد أن الطعام كان فائضاً عن حاجة النفوس الناجية كما السم؛ وأن الأحياء أوشكوا على الموت فزعاً؛ وأن الليل تأخَّر عن موعده بمقدار خذلان؛ وأن الجندي، طاهرَ الذيل، بكى على السطح.

مدين لك يا حارس السطح بشهادة أمضى من بصرك وأعمق من بصيرتي. مدين لك أبداً؛ وأشهد أن الله، في الأعالي، كان واحداً من النظّارة، وأراني عن كثب إحدى تراجيدياته الفذّةالتي سجّلتها نبوءة أحد الباقين على قيد الحياة في الداخل:

«وقع سياطٍ يحزُّ بصلتي السيسائية، لم يتناهَ إليَّ أبداً عبر السمع، ولا البصر. فكّرت، لعله كابوس اعتيادي، أو تشوشٌ عابر في دماغي. فجر ذلك اليوم كنت قد استيقظت، وصلّيت في سرّي، وكان إيماني خالصاً لم يخالطه خوف هذه المرة. لا صوت يُسمع في الخارج سوى زقزقة العصافير. مهابة الصمت مرعبة في مثل هذا الوقت السابق لطلوع الشمس. بدا الكون كما لو أنه بلا أوصال، مخدَّر وبليد.

لكزتُ جاري، وقلت له: الصلاة خير من النوم.

شقّ أجفانه وقال مبتسماً: لقد استيقظت عند الفجر على حلم جميل رأيت فيه أولادي، ولم أشأ أن أتحرَّك كي أتنعم بغبطة هذه الحجّة المباركة. والله رأيتهم جميعاً يا أخي!

كدت أن أكفِّره في سري؛ كيف يسمِّي رؤيتهم في الحلم حجة! استدركت عجالتي في هواي. كيف لي أن أقدِّر الأمر حق قدره أنا الذي لم أرَ أيّاً من أفراد عائلتي في المنام منذ ثلاث سنوات؟ ثلاث سنوات لم أشمَّ خلالها سوى رائحة عرق العجز، ولم أحتذِ شيئاً في قدمي، ولم أشتمل بعمامة، ولم أر من الشمس إلا نورها المنعكس على بقعة ضيقة حصوية مبقَّعة بدمائنا، لم أر ثياباً بلون الحياة، لم أستحم إلا بالماء الذي سلخ جلودنا في الحمام الجماعي، والفاتر الذي سخَّنه القيظ في الأنابيب، ولم أستخدم

قلماً أو كتاباً أو جريدة أو أي قصاصة تُقرأ، لم أرفع صوتي إلاّ ليسمعه أقرب جارٍ إليّ، لم أنم إلاّ وعيناي معصوبتان، ولم أجلس يوماً ووجهي إلى القبلة مخافة أن يعتقدوا أنني أصلي، ولم أرفع بصري إلا خلسةً، ولم أفعل شيئاً بإرادتي.

الآن كان الجميع قد أفاقوا. نظرت حولي، العيون متشابهة، متكورة، تجوس المكان بدهشة وحذر. انصبغت ملامح الرجال بشحوب طاغٍ، وتماهت لغتهم مع المحيط الأخرس. اغتُصبت شرائع الصباح التي كانت دائماً تؤهلنا للاغتسال قليلاً من صديد الأمس كي تعيد الدم إلى عروقنا.

لا بدّ أن الشمس تطلع الآن، كان من الطبيعي أن يبادرنا حرّاس الأسطح بالسباب والأصوات المنكرة، وأن يُفتح الباب الخارجي استعداداً لإدخال الطعام على أيدي فدائيي العنبر. لم يأتِ الحذاء، العريف الأشقر، مؤشرات لا مرئية تنذر بشيء ما! مع ذلك بقيت محتفظاً بهدوئي، حتى سمعت جاري يتلو آية الكرسي بصوت نصف مسموع. قلت له: أرجوك رددها في سرّك. بدا له طلبي غير مستحب:

- «لا أستطيع» قال.

- «لكنكَ أخفتني والله يا أخي؛ دائماً تذكرني هذه الاستغاثة بأن كارثة ستحل!».

- «أما أنا فتجعلني مطمئناً».

- «قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم. هذه تكفي يا أخي». قلت له.

لأول مرة يفتح الباب الخارجي بهدوء. نسمع وقع أحذية على السطح، تراكض سريع. ليس هناك أية أوامر. في باحتنا حركة وهمس، ينقل لنا استطلاعنا أن الآمر الأكبر غائب، بينما يظهر معاونه محاطاً ببعض

الجند. فُتحت بعض الأبواب، حركة تنقلات وعمليات فرز سريعة بين المهاجع. دخلوا مهجعنا، لا أحد يدري بالضبط كيف تمّ فرزنا، وعلى أية قاعدة. استطعنا الإمساك بحقيقة واحدة، وهي أن الأسرى الأحداث، وأولئك الذين لم يستخدموا سلاحاً، تم عزلهم عن الآخرين. ثم انتهى كل شيء وخرج الجميع بلا ضجيج، وقد ترك الباب الخارجي مفتوحاً.

نصف ساعة من الإجراءات ذاتها في الباحات الأخرى، الهدوء نفسه، الترقب المجهول نفسه، صرير الأعصاب، ارتعاش الخلايا الدماغية.

بصوت خفيض لم نعهده، نودي بأسمائنا. كنا عشرة من أصل 120 ساكناً: جهّزوا أنفسكم!

تلاوة الأسماء تكاد ألاّ تسمع. لا مصير محدداً. خلال دقيقتين كنا نقف رتلاً خلف الباب، وكان وداعنا موتاً. دون كلام رفعنا أيدينا، استدرنا إلى الخلف، ولوحنا. اقترب مني جاري قائلاً: «سنصلي لغيابكم». قالها والهلع يتدفق من عينيه. لامس يدي في البدء، ثم قبّلها. كدت أنهار فوقه. فُتح الباب. كانت العيون معصوبة. خرجنا من الباب يقودنا سجين السخرة (البلدية) كما العادة، وجمّعونا في الباحة نفسها. أدخلونا عنبراً آخر. كنا أوّل الواصلين إليه. بعد دقائق جيء بآخرين، خمسة، ثم ثلاثة، ثم اثنين، ثم سبعة. سبعة وعشرون تائهاً لم يجرؤوا على التعارف فيما بينهم. من كان يدري أننا سنقضي عشرين عاماً تالية دون أن ينفصل أحدنا عن الآخر. ثلاث حالات صحية كانت تعاني هذيانات عاقلة. قد يبدو هذا التعبير غريباً، ولكن لو لم تكن كذلك لما أمكن إبقاؤها تحت السيطرة. مضى وقت خلته دهراً،ثم اقترب أحد الجنود من شراقة (كوة) الباب وطلب إلينا أن نعيد ترتيب أشيائنا. فجأة ملأنا شعورٌ مغاير، معتبرين أن كل ما جرى ليس سوى إجراء عادي لترتيبات إدارية صرفة. ولكن لماذا لم يجلبوا الطعام، ولم يأخذوا التفقد الصباحي، ولم يخرجونا

إلى التنفس؟ كلها أسئلة أثارت شكوكي؛ بيد أنني لم أفصح عنها لأحد لأن عدوى الارتياب تعمي، والفزع القطيعي يسري عادة كالنار في الهشيم. بدت الدنيا كما لو أنها شغرت من كل ما هو حي. وكل منا يشغل نفسه بعملٍ ما: رتق جورب أو سروال، حياكة قبعة من خيوط النايلون، صنع إبرة خشبية أو عظمية. كنا نحاول عبثاً دفن ملامح الهلع في ثنايا هذه الانشغالات الاحتيالية التي لم تحُل دون حدوث الفاجعة.

ضجيج هائل ملأ سماء المكان، أصوات محركات لطائرات، وربما لدبابات. هدير غير مألوف، انفتاح عشرات الأبواب الحديدية دفعة واحدة، تلا ذلك وابل من الصراخ والأوامر المقتضبة الحاسمة. دوي قنابل وانفجارات، ثم زخّات هوجاء متلاحقة تخترق وتحرق وتنفجر، خليط من الأصوات والأصداء غير المفهومة امتزجت بالصلوات والهمس والوصايا الأخيرة والتهويمات. ما عدت أعرف إن كنت في عداد الأحياء أم الموتى.

ليس غير الموت، ثم الموت. كل ما خلقته الآلهة والأمهات والطبيعة عبر عشرات السنين يخمد في طرفة عين وأدنى. إنه مهرجان صامت من القرابين المثقوبة، والنجيع يتأكسد في الساحات وعلى العتبات والجدران والأسقف.

انفصلت عن حقيقتي البشرية، تلاشى جسدي، وعظامي. صرت روحاً محضة. نفذتُ من ثقبٍ في الباب، ثم حلّقت في أجواء المكان. الأبواب الأخرى مشرعة تولول، وطائر صغير يزقو مستغيثاً، يفتّش عن ملاذ. غادر القتلة الحجرات تباعاً، دخلتُ إحداها، فانصدعت روحي بمشايعة النزع الأخير لعشرات الأجساد، وتناهى إليها صوت عميق من بين الجثث:

«وجوهكم إلى الحائط!» أمرونا. قنابل وزخات رصاص وصراخ

انهالت علينا قبل أن يُفتح الباب. تمرّدنا على الأوامر، ولكن بإرادة السقوط التلقائي للأجساد. لم يعد مهماً أن نرى وجه الجن الذي يصوِّب، ويصيب، ويقتل. فقط كان على عيوننا أن تنغلق على صورةٍ واضحةٍ لقاتلٍ جاهلٍ لم يجمعنا به صراع من قبل، وقتيل مجهول إلى إشعار آخر.

روحي المفارقة لجسدي دخلت جسداً بلا روح، كان مجندلاً تحت صدى من الولاويل التي اختنقت خذلاناً وخيبة وعجزاً. بعد قليل مرّت بنا الأشباح واحداً واحداً، إكمالاً لـ «واجب» رصاصة الرحمة، لم يخدعهم همود الأجساد، فاختبروها بالركل والمهاميز والعصي. جمَّعوا أنصاف الناجين، وحشروهم في ركن خارجي، ثم أُميتوا جميعاً.

في غضون لحظات انتهى الخوف مرة وإلى الأبد. انطفأت العيون المشدوهة بعد أن أطبقت على ذعر لن يتكرر. وانهدرت آلاف الأشعار والآيات، فرّت البسملة والحمدلة والعوذلة والحوقلة والتكبير والتوحيد والسبحلة من بين شفاه الرجال وسط بحيرة من الدم لم تلبث أن فاضت عن مثابتها نهراً جرف في طريقه كل آثار عذاباتنا الغابرة مشفوعة بالحصى وبقايا التراب والأنين الأخير لثمالة الحياة.

العصافير هاجت هلعاً. بقينا وحدنا، قلوبنا في حلوقنا، منطوين على أنفسنا كأجِنَّة. صليت أن تأتي الطيور أسراباً كي تشهد ما لم نستطع رؤيته بالعين. انكسفت الشمس، وانطفأ وجه النهار.

مرة أخرى رشحت روحي من تطفُّلها، عادت إلى حيث كنت، هابطة من فتحة السقف. كانت وجوه الجميع، بمن فيهم أنا، مقتبلة الجدار الجنوبي، ترفع صلاة الغائب. سبعة وعشرون ممرغاً بالدمع والتعرُّق والهذيان يسدلون الستار على أفظع ضحى حزيراني في التقويم التدمري.

عصراً جاءنا معاون المدير، محاطاً بحاشية من الوجوه الصفراء.

- «هل أكلتم يا بني؟».

- «نعم يا سيدي.» فاتنا أن الطعام لم يأتنا اليوم. لكن السؤال كان مفاجئاً ولم نسمعه من قبل. أوعز لهم أن يحضروا لنا الطعام. وطلب من أحد الجنود أن يراقبنا للتأكد من تناول الوجبة. وبدأنا نأكل، تواطأت مِعانا مع إكراهنا على التحمُّل ريثما اقتنع الجندي أن شهيتنا على ما يرام. ولكن ما إن أغلق باب الباحة ومضى حتى أخرجت أمعاؤنا عصارتها. كما لو بقرار أيضاً. تقيأنا بالجملة فوق الحرامات والممرات الفاصلة بين الفرش وعلى المصطبة السفلية وعند باب الحمام.

في الساعات القليلة المنصرمة سجَّل الكون في لائحته المغفلة مئات النساء الأرامل والثكالى. آلاف الأطفال فاجأهم اليتم في الشوارع والحدائق والحقول والمزارع والأقبية والمراجيح والحافلات والقطارات والبيوت والملاعب والساحات ودور السينما ورياض الأطفال والمشافي وبرك الماء والمسابح، وعلى الأسرَّة وصدور أمهاتهم وأكتاف خالاتهم وأعمامهم وأخوالهم ومقاعد الامتحان، وعند صناديق مسح الأحذية، وأمام شاشات التلفزيون، وفوق الأشجار، وفي الظل والشمس والوديان والتلال؛ يتامى منذ ساعات إلى آخر العمر.

إلهي أين أبابيلك التي وعدت، وحجارتك السجيل! هل أخطأتنا يا إلهي لتجعلنا، نحن، لا هم، كالعصف المأكول!

إن الحرب لأعدل، تمنحك نقائض الشجاعة والجبن والإقدام والإحجام؛ والحرب أفصح، نزاعٌ صريح بين طرفين متقابلين؛ والحرب أعطف؛ فثمة من يقف دقيقة صمت، أو يقرأ الفاتحة على روحك، أو يحنو عليك بكلمة، أو يلفك بعلم يتغمدك برحمة نسيجه الهادئ الملوَّن.

تذكرت جاري الذي ودعته قبل قليل بعينيَّ.

أين أنتَ من أحلامك التي شغلتك عن ذكر الله، أيّها الذي كنت ألومك قبل ساعات! يا له من تفسير خائب لحلمك الأخير هذا!

أخذت عهداً على نفسي أنني سأستحضر أولاده كلما تذكرت أولادي.

عشرون عاماً من التذكر والغربة والحرمان. كنت أصيِّرهم أكبرَ في ذهني، أرصد ملامحهم في خيالي. أترقب نتائجهم المدرسية كما أفعل إزاء أبنائي، جعلت لكل من هؤلاء نظيراً له من أولئك. لم أخطئ مرة واحدة: داؤود مقابل أسامة، ليلى مقابل سهاد، وابنتي الأصغر ولاء مقابل ابنته الصغرى فاطمة.

كبروا معاً؛ وحين زارني أهلي وأبنائي أول مرة، اندفع لا وعيي أمام مساعد الانضباط وسألتهم عن أبنائي الثلاثة الآخرين. قرأت في عيون زوجتي ظلال الشك، وكل ملامح يقينها بأنني جننت. قابلت يقينها بفرح عظيم، لكنني أحسست بأن وفائي بعهدي جعلني إنساناً صحيحاً.

لا أدري إن كان أياً منكم قد تساوى لديه الكفر والإيمان في وقت واحد. لقد جرّبنا الإيمان في لحظات الخوف، هذا الشعور الفطري الذي يدفع المرء للاستغاثة بمن لا تدركه العقول والأبصار. أنا عايشت شيئاً آخر لحظة خوفي القصوى. تحولت من مؤمن بلا خوف إلى كافر في هيئة مؤمن. فأسماؤه الحسنى، سبحانه؛ الملك، المهيمن، الجبار، المتكبر، القهار، السميع، البصير، العدل، العظيم، الحفيظ، الرقيب، الكريم، القوي، المتين، الولي، القادر، المقتدر، المتعالي، المنتقم، الرؤوف، المانع، تبدَّت لي على غيرها، وفي الضد معها، صارت في عقلي؛ الضار، المميت، المحصي، الرقيب، الخافض، المُذِل، القابض، القهّار، ولا أجرؤ أن أضيف العاجز.

حاولت أن أستدرك، لعله لغوٌ. ترددت، نظرت حولي مخافة أن يتجلّى

كفري في عيني، ويشهد عليّ بصري وفؤادي. لكنني اكتشفت أن الله أوسع من أن يؤاخذني على ضعف!

انتابني هوس محض يومئذٍ؛ حلّ بي أبنائي كالعاصفة، وكذلك أمي. حدث ذلك كله فيما كنت منطوياً على ذاتي نصفين، أحدهما يهدّئ الآخر.

لا أدري بماذا تفكر أمي الآن. لا أدري إن كانت قد ماتت كمداً. أم أنها عاندت الموت فقط كي تصلي من أجل بقائي. أمي، تلك الريفية التي فتحت أراضينا الوعرة كلها بعد وفاة أبي المبكرة؛ أمي بأصابعها الخشنة كحجارة مقالعنا، والحنونة كالنسيم؛ أتراها ماتت؟

ربما لم يعد مهماً الآن أي موت آخر بعد أن سمعت ما لم أره ورأيت ما يهول سماعه! ولكنني والله أحب أمي، وأريدها أن تكون على قيد الحياة، تصدُّ أحابيل الموت الغاشمة. أريدها أن تتلهّى بأولادي ريثما أعود أنا، أو تعود أمهم من العمل في حقلنا البعيد.

قلت في سري: أومن بك يا أمي، وأكفر بكل وسائل القتل. أحبك يا واهبة الحياة، فاسلمي. اسلمي كي تبعثيني من جديد، فأنا الآن مسجّى بين أحياء نحسبهم موتى، طريح الأرض بلا حراك. انفخي فيّ من روحك كي أقوى على التوبة عمّا لم تقترفه يداي. وأثوب إلى رشدي فأدعوه، أدعو ربي، بكل أسمائه الحسنى من أولها إلى تاسع وتسعينها، دون أن أطمع بشيء سوى أن ألقاكم جميعاً حين ترسو بي سفينتي على شاطئكم ولو شبه حطام.

أنواع السجانة

إن كان سَدَنة تدمر وسجّانوها لم يتثقفوا بآلام الأنبياء في الكتب المقدسة، ولا بصنوف العقاب الفرعوني والكنسي والعباسي وسواها، فكيف تأتّى لهم كل هذا الفقه الغريزي في ابتداع وسائل لها جبروت الإركاع والإذلال والإماتة والتشويه الخارجي والداخلي لأجمل الكائنات الحية؟

هنا، كما في أقبية فروع الأمن وغرف التحقيق والسجون الأخرى كلها، لا تكفي الامتيازات ودروس التربية العقابية والعقائد والانضباط كي تجعل من هؤلاء الولاة على مصائرنا أدواتٍ خرساء صمّاء عمياء، فثمة ما هو أجدى، إنه الخوف من الرقابة المتربصة دوماً في عيني كل منهم في الآخر، فيجعلهم يتنافسون لإظهار الولاء والكفاءة والخصومة.

لم نكن نسمع الأسماء الحقيقية، ولا نرى الوجوه إلا من ثقوب الأبواب الحديدية، لكننا بالتأكيد كنا نميز أصواتهم وطرائقهم، وقد أطلقنا على تلك الأشباح أسماء، بحسب كل حالة، وبما يتيسر لنا من خيال أو مزاج ساخر: أبو الكاراتيه، الجرو، أبو الملاحظات،الأسمر، جاط المرقة، الجني،وأحياناً نلقبهم كما هم يفعلون: الصرصور، الفأر...إلخ)؛ وعلى أنواع الابتسامة: حجرية، غادرة، ذئبية، قططية، كهربائية، متذاكية،

غبية، شامتة؛ وعلى أشكال الرؤوس: مربع ومكعب ومستطيل ومدوّر ومعين وشبه منحرف ومنحرف. وكنا نترصد التحولات السريعة للسجانين الجدد، كما في حالة العريف شميدت، الأشقر الضخم، ذو الوجه البارد والملامح الخرساء، الذي شهدنا تقلبات سلوكه ونزعاته الغريبة المستجدة. في بداية تعيينه هنا لم يكن يستطيع، ولم يشأ، أن يشتم أحداً، وقد شوهد مراراً يتقيأ لدى حضوره جولات التعذيب الجماعية في الباحة، ورأوه يبكي في حفلات الإعدام التي تنفَّذ عند الفجر. لكن الأشقر تغير بفعل الزمن والرقابة واختبار الولاء والتعود وموت الحواس، كل ما فيه يؤكد أنه أصبح سفاحاً بامتياز. لا يركن على حال، ولا يكرر العقوبة ذاتها، ويفاخر بامتياز الضربة القاضية التي يرفقها بعواء تقشعرّ له الأبدان. يتقدم من ضحيته وشبح القتل يرتسم على ابتسامته، وما هي إلا رفة جفن حتى يكون الأسير قد فارق الحياة. على يد هذا العريف ليس ثمة آلام احتضار، أو سكرات موت متطاولة، ما جعل الكثيرين يتمنون أن تكون ميتتهم على يديه. لا يسمح بميتتين معاً، فليس ثمة ما يكفي من الجنود للاحتفال بقتيلين معاً أو حملهما إلى مآلهما الرحيم. حين يتكلم، يلفظ رذاذاً وتعليقات ساخرة وشتائم مقززة، وأحياناً يأتي محمولاً على أيدٍ متشابكة على شكل محمل بشري، رجلاه متدليتان وسيجارته في فمه، وفي يده عصا جنرالية. لا يسمح أيضاً للوشاة بأن ينقلوا له شيئاً إلاّ وهم راكعون، فلا يرون منه سوى حذائه القاتل. وقد تحدّث أحد الذين التقيتهم في صيدنايا أنه لم يقضِ ليلة في تدمر إلاّ ونام عطشاناً، مخافة أن تضغط عليه مثانته فيضطر لتفريغها في الحمام ويلمحه الحارس، فيصل أمره إلى الأشقر البدين. ومن أجل ذلك كله دبّجنا له هذه النعوة:

بمزيد من الأسى واللوعة وضع شميدت حداً لطبيعته البشرية، من كائن بمعالم طفلٍ غرير مهذبٍ، مشدوه مما يجري حوله، إلى كائن آخر يشتم بخجل، ويفتعل الغيظ والحماقة، متجرداً باطراد من جبلته الآدمية،

إلى أن صار في النهاية عضواً كامل الشروط: يعذِّب ويقتل ويضحك، ولا نعلم إن كان ينام قرير العين ليلاً!

مع ذلك، كان هنالك دائماً رجال استطاعوا إخفاء تعاطفهم خلف ملامح خصامية متجهِّمة، فجنبونا عواقب لم تكن في الحسبان؛ وغامروا بالكثير من أجلنا، فهرَّبوا لنا الدواء والعزاء والرسائل الشفهية والمكتوبة والدخان والطعام والصور والأسرار من الداخل والخارج على السواء. إننا مدينون لبكائهم على الأرحام التي جاءت بهم إلى الحياة؛ ممتنون ومدينون لكل دمعة وبسمة ولمسة ونظرة وكلمة سرَّبتها لنا مخاطراتهم الباسلة.

ـ الرقيب، العِبرة، الذي حكم عليه مديرُ السجن بالضرب حتى الموت على أيدي زملائه في سرية السجن، بعد أن وشى به أحد الحراس، بارتكاب «جريمة» تسريب صفحة جريدة محلية لإحدى الغرف.

ـ الطبيب الذي عالجنا بروحه ودوائه تحت مجازفة امتدت عدة أشهر.

ـ جمو، الحارس التدمري، الذي حمى سهرتنا طيلة ساعتي نوبته تحت طائلة العقاب. وهو الحارس الذي كانت عصافير الدوري تواكبه كظله، ولولا غريزة الحذر لآختته إلى آخر الدهر.

ـ المساعد الذي كُلِّف بنقلي إلى مشفى حرستا من أجل العلاج الفيزيائي لذراعي اللذين أصابهما الشلل. جلسنا في الحديقة بانتظار الدور، وكانت يدي مقيدة إلى يده. وفجأة سألني: «لو فككت قيدك الآن، هل تفكر بالهروب؟ قلت: وهل تعتقد أن سجيناً لا يفعل ذلك؟ فأردف دون أن ينظر إلي وقال: والله لولا خوفي من أن يضعوني مكانك لتركتك الآن في حال سبيلك!

ـ حارس تنفس الباحة التدمرية الرابعة، الذي همس لنا خلال مرورنا

به تباعاً: «ارفعوا راسكم». وكانت نصيحته واضحة، ولكن مخنوقة. ولكي يؤكد نواياه الطيبة، ويقطع الطريق على تكهناتنا الغريبة، وجدالاتنا التحليلية المتطاولة لتلك العبارة، رمى لنا سيجارة من كوة الباب بعد إغلاقه. وقد دخنها أحد عشر وامتنع مدخن واحد، وكان مضى عام كامل على انقطاعنا القسري عن التدخين.

ـ السجان الممرض الذي رافق أحد المعتقلين إلى المشفى وأسرَّ له حكايته معه:

«ليتني كنت مكانكَ عندما أمروني بتعذيبك... شعرتُ أن قلبي يبكي عليَّ، ولكي لا يشتبه بي أحد، لمست بؤبؤي عينيَّ بيدي ورحت أفركهما. كان زميلي بجانبي، وكنت أخشاه دائماً. ولا أدري لماذا كان يغار مني، ربما لأن الإدارة غالباً ما كانت تختارني لمعالجة إصابات النساء، أو لأنني أَقدم منه رتبةً. مع ذلك دخل أحد الضباط بعد قليل وقال لي متهماً: «سمعت أنك بكيت على هذا الكلب»!

ـ أنا يا سيدي. معاذ الله.

ـ ولماذا عيناك حمراوان؟

لا أدري أي غباء انتابني حين أجبت:

ـ أنظر سيدي، لقد ركلني برجله على وجهي.

ـ وماذا تنتظر، لَمِ لم تقضِ عليه يا حمار؟ هيا أريده جثة هامدة.

قالها وانصرف.

تَثَعلبتْ روحي، ونسيت نفسي، ورحت أسدِّد إليك الضربات من كل جانب، كما لو أنني صدَّقت كذبتي. وفجأة أفقت من جنوني وبدأت

أصرخ. كنت أشتم نفسي في سري، وزميلي يقهقه. إلى أن صاح بي هو الآخر: قتلتَه...قتلتَه!

ـ الطبيب الذي واكب إضرابنا الثاني عن الطعام في تدمر، بعد تكليفه بمتابعة الحالات الصحية المتردية لبعض الرفاق. حيث كان يجلس على الأرض، ويلمس جسد المريض، ويقدّم نصائحه لنا أمام الرقيب المرافق، وهي سابقة تدمرية بامتياز، كان من شأنها أن تمنحنا المزيد من الإصرار والقوة والتمسك بمطالبنا.

تدمر وحماة

بين تدمر «المعجزة» وحماة «شوكة في الحلق» قيظ الصحارى والعذاب والتجبُّر على الفواجع. وبينهما حبلُ سرَّة موصول كنبعٍ يعاند المسافات والجفاف.

حماة ـ ما قبل الميلاد ـ دمَّرها الهكسوس عام 1750 ، واحتلّها الميتانيون 1550، ثم الآراميون نحو 1100، وهدمَّها الحثيون، والآشوريون عام 720، ثم ازدهرت في عهد السلوقيين ودعيت «إبيفانيا». واحتلها الرومان عام 64، ثم البيزنطيون. وحماة ـ ما بعد الميلاد ـ فتحها أبو عبيد 636، ثم احتلها الأتابك زنكي ثم صلاح الدين 1178.

وحماة إياها، في النصف الثاني من القرن العشرين، وفي ربعه الأخير على وجه التحديد، استفاقت على وجع، تأملت في مرآتها السماوية، ولم تهتدِ إلى وجهها. أغمضت عينيها وفتحتهما على غيوم يقتاتها الرماد والدخان؛ فاتكأت على غروب أصهب، ليس دماً صرفاً ولا ناراً، ونامت قبل أن يكتمل الخراب!

حماة، أيتها الثكلى المسبية أبداً، لمن تطرزين هذا الوشاح المعمَّد

بأقاصيص بنيكِ الذين فتك بهم العجم والعرب على السواء؟ لمن تورثين قصائد نهرك التي تختلط فيها الصلبان بالأهلّة؟ كيف لم تقنطي من هبوطكِ الدائم إلى العالم السفلي لاستعادة تموزك الذي مزّقته أنياب الوحوش؟ عهدكِ أنك موقوتةُ الغياب والحضور، هدنتُك ضيم، ومهرجانات حكامكِ بلاهة، ولمّا يزل لديك مغامرون ومَرَدَة ومتمردون، ومتسلّقون وموتورون وأوغاد، ومنكسرون وحالمون وبواسل. ولا زلتِ تتّسعين للأعراس والأغراس وباعةِ الأكفان والآس والنبيذ والبخور والحنّاء والأجبان والخيام والعطور.

أبوابك مغلقة على ويل واحد، ووجوه أبنائك، رجالاً ونساء، مصوبة بأوامر نحو الحائط، بعضها كي لا يَرى، وبعضها كي يموت في غضون زخة من الرصاص! وحدهم الأطفال الصغار تُركوالمصير أخرس، كي يشهدوا على عِبرة تأسرهم طوال حياتهم، وتقطع حبل الخصب فيهم لأجيال قادمة. ونسوتك، اللاتي كنَّ يتهامسن فزعاًعلى أرحامهن المثقلة بالحمل، أنجبن في الخفاء، ومُتن وهنَّ يلقمن الرضّع أثداء الحياة.

* * *

أخوتي الصغار يطلبون خبزاً بعد أن نفد اليابس المعفّن. خرجتُ بالبيجاما متخفياً بعباءة سوداء ونقاب، وسلكت الأزقة الضيقة إلى أن بلغت المخبز، مقابل النهر من الجانب الغربي. كان مغلقاً. تجاوزته منعطفاً إلى اليمين فلمحت دورية في نهاية الشارع. أومأوا لي أن أتقدم، لكنني تراجعت بسرعة إلى الخلف ووجهي إليهم، وإذ بي أسقط في النهر. سبحت عكس اتجاه الماء بمحازاة الضفة الغربية المحجوبة بالقصب، تارة تحت الماء وتارة طافياً، لأجد نفسي مدفوعاً باتجاه الناعورة، ثم انعطفت إلى أن أمسكت بأحد أدراجها وتسلقت معه حتى رماني في ساقية الماء المعلقة في الأعلى. اختبأت بين شجيرات الدفلى، والمدينة حولي تتوجع تحت القصف وتئن. البيوت تتهاوى فوق ساكنيها، والشوارع قفراء إلا

من أجساد القتلى والأشباح المرصودين للغة النار والدمار. أحرك رأسي باتجاهات مختلفة فيتسع المشهد أمامي ويضيق.

ويلي عليك يا حماة، كيف ستقاوم عيناك المخرز، بعد أن أشهر الحكام سيفهم معلنين أنهم سيقتلعون أظافرك، ويجردونك من قواك، وإن اقتضى الأمر يمسحونك عن الوجود! يومان هناك في الأعلى، القصف في كل مكان، والدخان يتصاعد من المساجد والكنائس والمدارس والمتاجر والمؤسسات والمدافن والساعة الأثرية. الساحات والشوارع ملأى بالركام والجثث المنتفخة، ولعلعة الرصاص وصوت الأذان والولاويل أسكتت صرير الخشب وهدير النهر خلفي. لا أدري كيف نمت، وكم من الساعات مضت وبرد شباط يفلُّ عظامي. فجأة أفقت على أوامر باترة تنبح تحتي قرب جدار الساقية المعلَّقة. من بين أغصان الأشجار الكثيفة رحت أراقب ما يجري، كانوا يطلبون ممن سيُعدمون بعد لحظات أن يصرخوا بشعارات التأييد للقاتل. لقد رأيت الفتيات والفتيان الصغار والشيوخ العجزة وهم يتلوون ويسقطون صرعى، قتلى أو جرحى، لتأتي الجرافات وتضعهم في شاحنات كبيرة، ثم ينقلون إلى مكان ما كي يوضعوا في مقابر جماعية.

ما الذي يحدث في حي الدباغة وسوق الشجرة وحي الزكار ومنطقة الملعب البلدي وسريحين والحاضر والبارودية وباب طرابلس وأماكن أخرى؟ لم أعد أقوى على متابعة المشهد بعد أن تقيأت مرتين، وكادت رأسي أن تنفجر من هول ما أرى. تساوت لدي احتمالات الفرار، فاخترت العودة إلى النهر. لم أجرؤ على الغطس من ذلك العلو، فتسلقت أدراج الناعورة نزولاً حتى الماء، وسبحت على ظهري مع التيار غصباً عني. وفجأة رأيت جارنا جورج على الضفة فوقي. صرخت بأعلى صوتي: عيسى! لم أتذكر اسمه في تلك اللحظة. سرعان ما اختفى، فاعتقدت أنني أتوهم، ولكنه ظهر قبالتي من جديد ورمى لي حبلاً، وراح يسحبني. ارتميت عند قدميه، فاقداً الوعي، لأجد نفسي بعد حين،

وجورج إلى يميني، داخل شاحنة عسكرية متجهة إلى جنوب المدينة، وقبل أن نصل إلى ما عرفنا لاحقاً أنه مركز المحكمة الميدانية كان الجند قد سلخوا جلودنا.

- «قل لهم إنك سقطت في النهر، وإنك أخي. لقد طوّحت بالعباءة السوداء والنقاب، وألبستكَ قلادتي ذات الصليب». همس جورج في أذني.

هززت رأسي فاهماً. أنزلونا من الشاحنة، ووقفنا بالدور. وبعد قليل صاروا يدخلوننا فرداً فرداً. دخلت وجورج معاً وتناوبَنا ثلاثة أشخاص بلهجات مختلفة، مخوّلين بالحكم على الشخص إن كان بريئاً أو مداناً في غضون دقائق. الكل سيعبر هذا المجاز، حيث تكفي كلمة واحدة في النهاية كي تضعك في خانة الأحياء أو الموتى. ظلّ جورج ممسكاً بيدي مخافة أن أسقط، وكنت أستمد القوة من يده المرتجفة. لا أدري كيف خرجنا بريئين، على الرغم من التناقضات التي ارتكبها جورج خلال الاستجواب. ولكن الرواية التي أصرّ عليها، مشفوعة بقلادة الذهب التي صادرها الشخص الثالث من عنقي، نجحت أخيراً: «أخي عيسى أخرس، وقد سقط في النهر، وبينما كنا نخرجه من الماء أمسكت بنا الدورية».

أطلقوا سراحنا. أخذني جورج إلى بيته، واستقبلتنا أمه وزوجته بالبكاء والزغاريد كما لو أننا مبتعثين من الموت. وهرع أخوه عيسى فأتى ببعض ملابسه كي أرتديها. قلت: يا خالتي أم جورج، أهلي ما عندهم خبز منذ ثلاثة أيام، وبعدئذ اختنق صوتي.

يا ويلي يا ابني، قلبنا إلكم!

أرسلت كنّتها وابنتها إلى بيتنا محمّلتين بالطعام، وأخبرتا أهلي أنني سأعود مع حلول الظلام. أمضيت بقية النهار في بيت جورج دون أن أتلفظ بكلمة واحدة. لقد مات صوتي. أجل مات صوتي لثلاثة أيام متتالية.

في الشارع الخلفي والأمامي والأزقة الفرعية تنتصب الحواجز وتصطفُّ أكياس الرمل. ملامح النصر يخترقها فزع صميمي يتقطّر من عيون الجند، وهم يتبادلون المسارّات: غنائم من أكداس ورقية وأساور، وأصابع مقطوعة بخواتمها، ومصاحف مذهّبة وصلبان وكل شيء.

ـ لم أنم منذ ثلاثة أيام، قال الجندي؛ أنظر إلى يديَّ كيف ترتعشان. أرجوك اعفني من نوبة الحراسة هذه. أشعر أن النوم سيصرعني في أي لحظة.

ـ خمسمائة قطعةعداً ونقداً!

ـ ولكنني ناوبت بدلاً عنك الشهر الماضي مقابل مئة!

ـ مائة في السلم تساوي عشرة أضعافها في الحرب.

تمَّت الصفقة. ابتلع الأضعفُ خذلانه بصمت. ونام الجميع في خيمة المتراس متوسّدين غنائمهم وأسرارهم.

* * *

أيتها المدينة الغاصّة بالثكالى والأيامى واليتامى، صرتِ كما السماء، شاهدة، بلا خمار ولا وشاح، على مصير مضى وآخر في ظهر الغيب! تخضبت عناوين أحيائك وأزقتك بكل ألوان الموت، وتخلّعت عتباتُ أبوابكِ ونوافذكِ ومفاصل كنائسك ومساجدك، وعلى أنقاضها انبنت شوارع وساحات وصروح مزخرفة بخطوط وأرقام وأسماء ليست لكِ. رائحة البارود والدمار والوجع ما زالت ترخم كيانك الحموي النازف، لكنها عجزت عن محو عناصرك الخالدة: نكهة المشمش وعناد العاصي وصرير النواعير.

الستارة الثالثة

سفر المرأة
ألف وجه لهذا الحصار
والمعدن واحد

ندبات وقروح خفيّة، متدثّرة خلف ملامح بشرية جميلة، تبدو مفعمة بالحياة. آلاف الوجوه الضاحكة، والخارطة الوجهية العامة للبلاد تتلّوى، تنقص عن منسوبها الطبيعي بثلاثة عقود من الفداحة.

لا اندحار للحياء والحياة أوضح مما يُرى! لا شيء بلغ نهايته الطبيعية بعدُ، بما في ذلك الهزيمة. أقدارٌ من صنع النقمة وسلالم الذلّ صعوداً حتى الموت.

سادتنا الميامين على الصهوات، نقبّل أيديهم وننفض غبار الفَرّ عن أهدابهم، ونتوسلهم ألاّ يترجّلوا كي لا يجرحوا شعورنا بالاندحار والخيبة. كلهم متشابهون في البدايات، ولكلٍ بِدعتُه في صنع نهاياتنا. وكي يهدونا سواءَ سبيلهم، رأفةً بجهالتنا، يسلخون جلودنا تاركين لنا العظم. وكي يقطعوا الشك بترف اليقين يقيمون الحد على حبل الخصب فينا، فيُعمِلون مهاميزهم في نخاعنا الشوكي إلى أن تتثلّم. يشتملون ببطانة من فكر وسياط وثقافة وأصفاد وأديان وسياسة وتاريخ، تتكئ كلها على أرائك القناعة والوهم والتعصّب والحظوة والمصلحة والخوف، لتزيّن

تقلُّدهم، فتُلبِس أفكارَنا بِغيِّهم وأحلامَنا بشعاراتهم ورفضَنا بقبولهم. بطانة تقيهم شرَّ فقرنا وبؤسنا وأمراضنا وتمردنا، وتنشر عدوى الثقافة القطيعية كي تسوقنا تحت النير، رافعة باسمنا جميعاً دعاءاتٍ وأناشيدَ تحيل الدم ماءً، وتصنع جيلاً وافتراءاتٍ، جاعلةً صلفَ سادتها تواضعاً، وطغيانَهم مِنعةً، وقتامتَهم قناديلَ حياة. وتترك «حماوة» الرأس للصبيان والصعاليك والمرتدّين والعاقين والجاحدين، أمثالنا، الذين سيعقلون لاحقاً، بعد أن يَشبعوا حماساً ويُشبَعوا تنكيلاً وتكسير رأس.

لكل عهدٍ عرّابوه وسفهاؤه وشعراء ولائمِه وكَتَبَته ومروجو جهالته ممن يهيؤون الأدمغة لكذبة تسود كالعتمة، وهم يقبعون في الدرك الأخير من الموائد الباذخة، غاضّين الحياء عن لحم أجسادنا الموزع على أطباق سادتهم.

رجالات الصف الأول والثاني ينزلون إلى الشارع، ويسبقون العامة إلى الاحتفالات، يردُّون التحيات بأحسنها، ويتسوقون الأزهار، ويعقدون حلقات الدبكة والرقص فـ «ينخّون» كما ينبغي، ويشتاقون لمواطنيهم جداً، ويتخفون بهيئات عادية على غرار الخلفاء والأمراء والقادة!

عجلاتُ العسف تأتي على أخضر الرغبات ويابسها، وشوقُ المتخفّين والمخفيين يتأجّج، والزنازين تتوجّع، تَني ساكنيها عن مذكّرات الاسترحام، وتحثهم على التجبُّر، وتوصي وارثيهم، المشاركين على كره في المهرجانات، أن ينفضوا عن كاهلهم تهمة التهرُّب من إلقاء التحية أو التصفيق. الساحات العامة تفرغ من المتسكعين والعشاق؛ فيما خفراء الجهالة يزرعون الشوارعِ العريضة باللافتات والصور، ويروعون الحارات والأزقة بمنع التجول والتفتيش والاختطاف والدعارة، ثم يختتمون نوباتهم بالتراويح والدعاء لربِّ النعمة.

أكفانٌ مهيّأة لموتى قادمين، ولا أجداث. مدنٌ تدبّج المراثي، وترتق أثوابها بزغاريد الأسى. المطر يعاند الهطل، كأنه مغلول إلى غَيٍّ السحاب، والينابيع تنكفئ إلى الأعماق كما لو أن الله كافأها بغمام عقيم عكَّر مزاج الشمس، وأخجل السماء، فانداح حزن النخيل والزيزفون العاقر، وتسمّم غبار الطلع.

حبٌّ ناقصُ البهجة، وعرائسُ جدد استبقوا ولادة نسلهم بأسماءٍ مستعارةٍ، ولقاحاتٍ مضادة لعدوى الوباء.

والنساء، اللاتي فقدنَ النظام الطبيعي للحياة، يحاولن الغناء والعتابا فيُصبن بأسئلة العتب والدمع.

أمهاتٌ وزوجات وبناتٌ تسّاقطُ أوراقهن انتظاراً وعطشاً ويتماً. ووحدهنّ، وجهاً لوجه مع مستحيلات عاتية، وقد أتلف العَدُّ أصابعَهن:

أم غياث بدأت العدّ العكسي منذ اليوم الأول لاعتقال ابنها، اليوم الذي عُلّق فيه أخوه الأكبر وأربعة آخرون على سارية العِبْرة.

خمسةُ حبالٍ متدلية نحو السماء كادت أن تودي بغددها الدمعية ولوحِ الحساب وبعضِ أركان البيت.

في تلك السنة، دوّنت الأم الثكلى في مفكرتها كلمة واحدة: معراج!

وشايةٌ بلغت سمعَ الله، فأصعَدَ إليه تباعاً ركنين آخرين، أخاً أصغر وربَّ البيت.

«ثلاثون عاماً من الجزية المدوّنة على وريقات قلبي»، تقول أم غياث، «وأغنية لرأس السنة الأسرية ـ الواحد والعشرين من حزيران. مئات روائح الخذلان، وعظامي تصطك على عتبة المكاتب طلباً لزيارةٍ تقيتُ أمومتي. المزة وتدمر وعدرا وصيدنايا يعرفن الطريق إلى مواجعي كلها. وأنتم أيها الأولاد، كُفّوا عن البكاء على أمهاتكم، فقبل أن يرحلنَ

أودعتَني أسراركم كلها:

جميلة تحب الألعاب الولاّدية والخضار والوجبات الروائية الساخنة؛ وهيثم، ياروحي، تقتله لمسة الحنان، ويحب الانفراد بثلاثة أشياء: ذاته والمذياع والدخان؛ وهشام لا يكره شيئاً في الدنيا سوى السجن وغياب الخلاّن؛ وفارس، «مُسَبِّع الكارات»، يستهوي الدَّسم في الكلام والطعام والأدب؛ وعماد يحب ملاكه الحارس، وينبري لردِّ الصاع صاعين.

إن وعدتموني أنكم لن تفتحوا الباب للذئب، فكلكم أولادي».

لكن الذئب كان في الداخل، وقد ابتلع المفتاح!

وأم عيسى، التي تَرى «باللمس»، كانت كل يوم تطلب من كنّتها خيطاً بلونِ ما يتيسر لها من إحساس: فتعقده حول عكازها. ويوم خرج إليها عيسى شائباً، طلبت من حفيدها أن يرمي العكاز في البحر.

وأم كنّان، التي بلغتها إشاعة موته بعد عدة سنوات من غيابه، جمعت أولادها وبناتها وأقرباء العائلة، وقالت وهي تحتجب عن أبصارهم بحجاب أسود يغطي وجهها ورأسها: «لقد مات أخوكم الأصغر علي، واشتريت له قبراً بمهر زواجي الذي كنت أخبئه لعروسه. سأدفن فيه خصلة شعر ومنديلاً، وأحتفظ بحزامه الذي سأتزنر به حتى أموت». ومنذئذ لم تكف عن زيارة ضريحه الرمزي كل خميس، محمّلة بريحان العاصي. تذهب إليه وتحدِّثه على رائحة البخور في صحنه الفخاري المفضّل.

كثر ممن خرجوا مؤخراً من السجن أكدوا لها أنه ما يزال حياً في سجن صيدنايا. لكنها لم تصدق حتى رأته رأي العين في زيارةٍ يتيمة بعد عقدين وأضحيين.

أريد أن أراه لمرة واحدة قبل أن أموت. لا بد من زيارته حتى لو دفعنا كل ما نملك. أحضرت معها صحن البخور الفخاري وجاءت لزيارته مع

أبيه وأخته وأولاد أخيه الذين فقدوا أباهم في تدمر. لم يتّعرف أي منهم على الآخر. خذلتها دموع الفرح، فأشعلت البخور خفية وسقطت فوق الرائحة.

وأم مروان كان لها شرعٌ آخر في عدّ سنوات الأسر لابنها وحفيديها، معادلٌ زمني من نوع مغاير: حبة العدس لليوم وحبة الحمص للشهر وحبة الفول للسنة؛ فكانت كلما جمّعت ثلاثين حبة عدس تستبدلها مع اكتمال الشهر بحبة حمص، وحين تصبح حبات الحُمص اثنتي عشرة حبة تستبدلها بحبة فول ولم تخطئ العدّ حتى مات كريم، ابن شقيقتها في المصير، قبيل إطلاقه بيوم واحد من رأس السنة!! يومئذ اختل الكون بكسوفين وصمت.

وأم كريم، كُتب على شاهدة قبرها: قتَلَها الصبر؟ ماتت انتظاراً قبل الإفراج عن ابنها، ميتاً، بحبتي حمّص. كان الطبيب قد شخّص الحالة على أنها نمطية لدى مرضى الحنين، ومن أعراضها:

ارتفاع في ضغط الغياب؛ جفاف في مآقي الدمع؛ كوابيس نهارية وذهول وابتهالات مجهولة ووصايا، غالباً ما تنتهي بنقاهة أبدية!

وأم رامي ظلّت تكتب الحكايات والوعود، وما تيسّر من قصائد لطفلها، حتى ألهمته أعذب الشعر.

وأم عمّار، وأم سيف وأم فادي، وسواهن كثيرات، انفتح أمامهن باب، من غامض علم الله، لمراسلتهم كل أسبوع عبر الأثير، ولم يغلقنه حتى أفرِج عنهم.

وأم مضر، لا تشي بقيامته لأحد، وتنشغل عن موته بالغناء إليه. تبتهج لنا جميعاً وتخبئ حزنها في خوابي النهر.

وأم مستو، اعترفت لابنها أنها وأباه وشيا به في اعتقاله الثاني كي

يجنباه الموت المحتّم في مناطق القتال.

وأم عادل وأم نواف وأم معتصم نسجن بيوت الشَّعر والشِّعر على غيابهم وتركنها مشرعة للشمس وأمل العودة.

وأخت فتحي، التي ليس لها سواه في هذه الدنيا، وعدته، حين عرفت أنه ما يزال حياً، أن تكون له زرقاء اليمامة بعد أن أفقده جزّاز الشعر في تدمر إحدى عينيه. وأنها ستختار له امرأة تجعله يرى بعينيها وقلبه. وكتبت له مواسية: والله يا أخي لو لم نفقد نصف حواسنا لما استطعنا العيش في غيابك!

وأم عبد المجيد، تآكلت سُبَّحتها بالصلاة والعَدِّ لنيِّفٍ وثلاثة عقود، ولم يُفرج عن ابنها، وأمهلها الموت مراتٍ ولم يعد ابنها. لكن الله، رفقاً بشيخوختها، نقلها إلى جواره، فجنّبها زغرودة استقباله طليقاً ميتاً، لتتكبّد أخته وحدها مرارة القيام بمراسم الدفن والعزاء.

وأم منيف وأم يوحنا وأم هشام وأم فاروق وأم عدي وأم حسو وأم ضحى يُسألنَ تباعاً: «من أحبُّ أولادك إليك؟» يُجِبنَ جميعاً: «الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والغائب حتى يعود. نسأل الله أن يمدَّ بأعمارنا حتى يعودوا جميعا». أجل، لقد كبُر الصغير، وربما شفي المريض أو مات، لكن مصير غُيَّابهن الستة والخمسة والأربعة والثلاثة والاثنين والواحد بقي في عهدة الظلام.

أيها الحكام بسيوفكم العمياء، نحن الرعية، نريد أن نعلن شقاءنا، ونصرخ في وجهكم بما تبقى لنا من «حلاوة الروح»! نريد أن نكفر بالانقلابات والطواويس؛ أن نلعن النكبة والنكسة والتضرر بالنصر؛ أن نحيي يوم الأرض وعيد الجلاء والشهداء والنوروز وشم النسيم؛ أن نمسرح مهازل استفتائكم! وأن نفرح حين ينبغي، ونحزن كما نشاء على الجولان وجنوب لبنان والقدس وسلة أفريقيا المنهوبة والهنود الحمر وآبائنا وأجدادنا وأحفادنا؛ عندئذٍ حاكمونا على اقترافنا جناية الصراخ!

وشوشات دوما

لعالم «الزهرة» حكاياته الأخرى: عالم من أصائل وأصايل، صبايا تجمّلن بالحلم والبريد السري، واصطكت عظامهن في الطرقات الوعرة وعند حواجز التفتيش. حاولن زرع أنجم في حالك الفجيعة فاحترقت أصابعهن. خرجن بجدائلهن البرية الجميلة كي يعشّبن الحقول، ويهيئن الزنابق لأعراس قادمة، فعدن مكبلات بالأعشاب الضارة والأشواك التي انتزعنها. أحببن الرقص تحت السماء، فتلوّت أجسادهن تحت الأرض ووقع السياط.

أذرع معلّقة بالمسامير!!

نساء من اغتراب وهواجس ولهفات منطفئة وغرابات، عرفن الإنجاب والتخفي وجفاف الحليب في الأثداء والإجهاض ولسع الكهرباء ولدغات العتمة والتنكر للحبيب في التحقيق. تقاسمن البؤس والخرجية وأجور الطريق والثياب والأمل والنوم والهواء والملل والماء وصرير الذكريات والأرض الباردة والفراغ والصمت والمغامرات والسجائر والأنفاس والغناء والمناكفات والدعاء والنبض.

هنّ، في قطنا ودوما وفروع الأمن ينسجن لنا الكنزات والشوق،

ويأتزرن بالحكايات المضادة للصقيع؛ونحن، في تدمر وصيدنايا والمزة وعدرا وحلب، وكل السجون، نمتثل لدفء الصوف والتواصل البعيد وروائح الذاكرة.

صبايا قارعن الأسى بالتأسّي، لعل توازناً رحيماً يضارع هذا الجنون. استجرن من الأمراض العضال بأعراض أدرجنها في لائحة التوهُّم، رقَّدنها عميقاً في أغوار النسيان مخافة انهيار مسرّاتهن القليلة أو إثقالنا في الغياب، وقد فاتهنَّ، وهُنَّ الأمهات، أن الترقيد يصنع فِراخاً. وقد فعل:

اعتلالات مِرار وأكباد ومعيً وأثداء ورئات، ومواجع أخرى خفيَّة، تكشَّفت عنها أجسادهن لاحقاً لقاء حرية ناقصة.

* * *

اليوم بشارة الربيع في التقويم السومري. واليوم، قبيل الفجر، ثلاث نساء نهضن تباعاً: الكنعانية السمراء عن أرق، والدمشقية على حركة جارتها النائمة، وذات الخال على حلم ناقص. جلسنَ على عتبة الشفق، ورحن يرتشفن القهوة، ويثرثرن همساً على نكهة الهيل والشقاء. وحين بان الخيط الأبيض من الخيط الأسود، باشرت الكنعانية أول الغزْل على نول المواجع:

ـ ماذا نختار للنشر في الأعداد القادمة لمجلتنا الحائطية؟ «الجرح المكابر» مثلاً!

ابتسمت ذات الخال عن مكر وأجابت على الفور: «عندما أسمع كلمة عاصي، أحسُّ أنني أنثى»! هذا هو عنوان مقالتي الأولى.

ـ هذه عبارتي يا محتالة!أم أنك تتفقَّدين ذاكرتي؟

يوم سمعتْ ذاتُ الخال هذه الومضة السوريالية من الكنعانية أُعجبت بها، وتمنت في سرِّها لو أنها لها. غالباً ما كانت تصغي باهتمام إلى

هلوسات صديقتها التي توحي لها بأفكار وخواطر غير مسبوقة. في الشهر الماضي، ودون مقدمات، نصحتها الكنعانية بقراءة كتاب «قصة الديانات» الذي استعارته من مكتبة السجن.

ـ الله يهديكِ، كأنك بدأت تؤمنين! قالت ذات الخال معاتبة.

ـ أنا مؤمنة يا صديقتي، ولكن على طريقتي. لكل منا إيمانه الذي يمنحه الطمأنينة. وفي هذا يستوي الوثني والموحِّد والصوفي والملحد! ثم هل تظنين أن الكلمة تصنع هداية؟

ـ بالطبع، خصوصاً المُنزلة؟

ـ الإيمان حاجتنا الطبيعية، كيفما تجلَّى! لقد عاشت البشرية حضارات امتدت لآلاف السنين قبل نزول الكتب السماوية؟

ـ لكنها اندثرت.

ـ ومن قال لكِ إن حضارتنا الراهنة تحمل صكَّ الخلود؟

ـ أنت حليفة الشك.

ـ أحسنتِ! سبحان الشك!

استحضرت ذات الخال هذا الحوار قبل أن تستجيب لفضول الكنعانية:

أعترفُ أولاً بأن ما كتبته مؤخراً مستوحى كله من الكتاب الذي نصحتِني بقراءته. في البدء أوشكتُ أن أتخطَّى فصول الديانات الأرضية بعد أن تصفحتها على عَجَل، لأنني أعتبرها وثنية، ولم أستسغها. لكن فضولي كان أقوى من إيماني فجازفت بقراءتها على مهل. واكتشفت حقاً أن «الله يهدي من يشاء». لقد علَّمني هذا الكتاب بقدر ما أشعرني بوحشتي. أرشدني إلى يقين خالٍ من الخصومة، بل ألهمني إجابات كثيرة

عن تساؤلات طالما عادتني وشغلت عقلي.

السجن سليل مخلَّفات الزمن المخزي، يحوك دسائسه بأناة، ويرتقها بكفاءة قاتل، ثم يخصف نعليه من جِلد تجلُّدنا. لا يليق بكائن، وحين يحل، تكون الوحشة فسيفساءه الخالصة، من قصارى الصبر إلى نضوب حلاوة الروح، وتزلزل الأرض تحت الأقدام. إنه توأم الاغتراب وحليف النزوات المنفلتة، سلَّة من الفزع وأسمال البدن والانتهاكات. يسعفك في الجلوس على عرش الوهم كي يتشفّى بسقوطك المريع. إذ ذاك يبدأ هسيس الصوت والنسغ الواجفين، تتهاوى خلايا، وتنبت أُخَر، حتى لتكاد زنازين العيش والمقابر أن تتساوى. إذ ذاك أيضاً يصبح كهفك الداخلي غرفة للعناية الفائقة.

تحاول خططاً مناوئة، فيشحذ ضدك مخالب الضلال وينبحك ككلب ضارٍ؛ وإن أوصدتَ سمعَك دونه، ينتحل صوتك الداخلي. في الأسر، تفتش عن انسجام، غير مدركٍ أن الأنماط البشرية الطبيعية غالباً ما تسير على هواها بعيداً عن التأطيرات المرسومة هندسياً. ولأنك أنت في مرايا الكل، والكل في مرآتك، فلا بد أن تنتابك طفولتك الأولى أحياناً، ولكن بفارق غياب الأم والأمداء وأسباب الدلال.

أنا التي دخلتُ عقدي الثالث عبر كل السلالم المفضية إلى الأقبية والسراديب والمَهانة، كيف لي ألاَّ أكون زمهريراً؟ لقد أُوصِدت الأبواب خلفي، ستة وعشرون باباً معدنياً ظلت تحفُّ بجسدي حتى أفقدته نكهته الآدمية. أعرف أن جاذبيتي صدأت، ولوني نصل؛ ومن شدّة الفزع، نبت لي شعر كما الرجال. كانت لي ضحكة مدرسية ترفع السماءَ قامةً، وتعجز الأرض عن حَملها. فجأة خَلَتْ مني الحياة وأمي وزوجي وشجرة التوت في دارنا وثوب العرس. أصبحتُ أنثى من حجر وصبر وبغتات، لا من طين!

أنا الآن وحدي، لا يشاطرني أحد في خلوتي هذه. ومعظم من حولي في المهجع نائمات، مسالمات، حالمات، وضحايا. الصغائر كلها نائمة، ومعها تفاصيل النهار التافهة ونظرات الشك والنميمة والظنون الآثمة والمهاترات والخلافات، المنطقية واللامنطقية. الألم وحده هويتنا الليلية، يقلّم زوائد التحيُّز والغبن والمحاباة وضيق الانتماء. أحسُّ أنني أكثر تسامحاً وسعة صدر من أي وقت آخر. قفز ذهني إلى صغيرتَي الأسر وتساءلت:

ما الذي يجعلني أنحاز لسمية أكثر من ماريا، وكلتاهما وليدتا الأسر، أغَضُّ من سوسنة، وأبهى من ملاك؛ كلتاهما تعيش بعيداً عن خططنا وحساباتنا المعقدة وانتماءاتنا الحزبية والسياسية والأيديولوجية والطائفية؟ لعله التعايش الذي صار مع الوقت إلى تعوُّدٍ وإلفة، وربما لأن سمية رافقتنا في أحلك الظروف وكانت لنا أملاً ومؤانسة، وربما.. وربما!! قد يصح ذلك كله، لكنه ليس كافياً. أشعر أن هناك دوافع أخرى، وهي بعض تناقضاتي المُدركة واللامدركة. لقد أدرجتُ سمية في عالمي الموروث عقلياً وروحياً، وهو ما لم أستطع فعله حيال صديقة من اتجاه سياسي آخر لمجرد أنني أختلف معها في بعض الرؤى؟

تُرى هل كنتُ أضمر لها هدايةً وتضمرُ لي غواية؟ كيف تصالحتُ مع نفسي وتجرّأتُ على الدخولَ إلى عالمها من بوابة الوجدان لا العقل دون أن يعترضني هذه المرة مبدأ الحكم المسبق والتكفير؟ ما الذي جعلها تشعر حيالي بالأمان وتقابلني بالأحسن؟ كان الأمر، ببساطة، استجابة لحاجة نفسية لدى كل منا. حاجتي إلى الراحة، إلى صدر أغرقه دمعاً فيحررني من اختناقاتي، وأبوح له دون أن أتصبب حياءً أو أتحسَّب لثمن. صحيح أن ترددي استطال، لكنني نجحت أحياناً في تجاهل رقيبيَ العقلي وعيون الريبة المتربِّصة بي. أحسست أن إيماني أوسعني برحمته ووسَّع لي فسحة في نفسي».

توقفت ذات الخال مستدركة جرأتها.

ـ ما تبقى أعتبره أفكاراً غير مكتملة أصلاً.

عانقتها الكنعانية ثم التفتت إلى سيدة الياسمين. كانت الدمشقية ذاهلة، وفي يديها قصاصات ورقية مختلفة الحجوم، كل منها كُتبت بخط يد مغاير. ناولتها إلى الكنعانية ثم طلبت منها أن تقرأ محتوياتها.

الورقة الأولى

شفق العلي، اسم حقيقي لامرأة ظلت طبيعية حتى العام 1987، حيث فجعتها أجهزة الأمن «الوطنية» بنصف دزينة من الخسائر الإنسانية المتلاحقة. اعتقِلت وأخوتُها الثلاثة وزوجها وزوجة أخيها، كل على حدة. ولأنها مولعة بالتملُّك ولمّ الشمل، فقد دوَّنت في اعترافاتها أن ابنتها الوحيدة سومر تحضر معها الاجتماعات، وظلت توزع البيانات والملصقات في عربتها حتى الثالثة من عمرها. لكن السلطات اعتبرت التقرير كاذباً ورفضت الادعاء، ما أبقى الطفلة خارج الأسر، مفصولة عن أمها وأبيها.

الوريقة الثانية
من علبة شفق الكرتونية

لم أفقد وخزاتي العقلية بعد. يفصلني عن الجنون ضحكةٌ وبعضُ الظنون الرحيمة وعينُ الحسد. أعرف أن شياطين الشعر ستخونني، لكنها ستؤاخي زوجي، وتوافي أمي على عجل، تاركة لها أبيات العتابا والكوابيس: سرِّحي لي شَعري يمًّا!

الورقة الثالثة
(وجه آخر للتعوُّد)

استيقظنا يوم الجمعة. الوجه الذي كان البارحة جميلاً، رائقاً، عاقلاً، بدا هذه الصبيحة كئيباً، مجعّداً، أرِقاً، وأكبر من حجمه الطبيعي. لقد أفاق على مسّ.

لم يكن ذلك بمحض الصدفة، ولا كان ادعاءً. كان حدثاً حقيقياً، لا مفتعلاً كالذي يفعله أمروءٌ عاقلٌ قرَّر الجنون بمحض إرادته طمعاً في تقرير طبي يساعده في إطلاق سراحه من السجن أو من خدمة العلم! وكالعادة، انتشر الخبر سريعاً.

في اليوم الأول شوهدت نكبة المكان: حداد ونظرات مذعورة وتهرُّب من لقائها.

في اليوم الثاني سُمِعَ صوتُ مذياع في أحد العنابر وبعض شجار.

في اليوم الثالث خرج الخبر من تحت السيطرة إلى حيز التداول والتقوُّلات، وتسرَّبت ضحكات ملوَّنة.

في اليوم العاشر بدأت الحياة تعود إلى طبيعتها.

في نهاية الشهر الأول اكتمل التحليل المخبري والنفسي.

مع اكتمال القمر التالي قالت شفق: أطعِموا المحقق شهادتي، لقد جاع! وقبل مغيب ذلك اليوم، صَوَّبت عدائية غامضة لِلاأحد، ثم لصديقة ما.

لم تكتمل دورة الفصام، لكن الناس عادوا إلى سابق عهدهم.

اختلّ ميزان السجن النسائي، والكل عاجز عن فعل أي شيء!

الورقة الرابعة
(زيارة)

سومر، بتنورتها المكشكشة وجدُّولتيها، تتراقص راكضة نحونا عبر الممر الضيق ثم الباب الحديدي، تتعثر بلهفتها وسنواتها الخمس لعناق الماما شفق، تاركة وراءها جدتها وأمها المؤقتة، أم خالد.

يُفتح الباب، وتدخل الصغيرة. تعدو مغمضة نحو شفق، فتهرب الأم نحو الداخل مذعورة وتلوذ بفراشها. تتساقط آلهة الأسر عبر شلال من الوجع والذهول وهطول الدمع، فيما نداء الشرطية ما يزال يتصاعد بين الشبكين: شفق العلي، شفق العلي، زيارة!

الورقة الخامسة
الأسيرات الأجنة؟

سميّة

كما لتدمرَ ودوما وفرع فلسطين القدرة على الإماتة، لها مَلَكَةُ الإحياء أيضاً!

سبع سنوات طباقاً وسُمَيّة، ابنة السبيَّة سلوى، لا تعرف من العالم كله سوى تلك الكوكبة الأنثوية (سلوى وشفاء وأم خالد ويسرى وأم صلاح ورجاء وهبة وعزيزة وغزوة) اللاتي شهدن الهنيهات المديدة المرافقة لأعياد تكوُّنها وولادتها وبكائها ومناغاتها وحبوها وبلوغها الفطام ونطقها وحنجلتها و... حريتها. أجل شهدن أول الرقص وقصارى الألم منذ حركاتها الجنينية حتى ندائها المباغت العجيب: بابا!

وبابا، هذا المنادَى غريزياً، لا يدري سوى الله أين هو، وكيف يعيش، أو إن كان حياً أصلاً. أتراه تلقّى النداء عبر غريزته أيضاً؟ ربما. لعلّه يقبع هو الآخر في باحة مجاورة، في المهجع الخلفي، في جلسة تحقيق عاجلة، وربما لاقى وجه ربه؛ الاحتمالات كلها متساوية الأرجحية!

وسمية، وهي بعدُ رهينة الرحم، شغلت الدنيا، وظلّت حديث الجدات إلى ما بعد خروجها من «عافية» الأسر؛ أما هنا فكانت حديث

النسوة اللاتي كنَّ يقضين ساعات يتكهَّنَّ بنوع الجنين ولون عينيه وشعره، ووزنه، وهل سيكون شبيهاً بأبيه أم بأمه. أما سلوى فتكتفي غالباً بعبارة: العلم عند الله. واقترحن قائمتين من الأسماء واحدة للأنثى وأخرى للذكر، ثم أضفنَ أسماء أخرى حديثة للتنويع. قبل الولادة، كانت سمية مشروع عزاء لهنَّ، وبعدها صارت عروتهن الوثقى مع الحياة في كل السجون والأقبية التي قرضت أعمارهن. وحدها غزوة كانت تفكر بالأداة التي ستستخدمها في قطع حبل السُّرة. تذكرت سؤال أستاذها: افترضي نفسك في العراء؟ استعرضت العصور التي شهدتها حتى الآن في تدمر، ونجحت بعد أيام في شحذ ملعقة خشبية وبعض العظام على العتبة الإسمنتية. لكن ساعة الولادة حملت معها معجزة خاطفة أغنتها عن عدتها البدائية كلها!

أفاقت زنوبيا على صراخ وليدٍ، وبحدسها الصحراوي أوحت لجبريل أرضي أن يطلّ من فتحة المهجع السماوية.

ـ ماهذا الصوت؟ سأل الحارس باقتضاب.

ـ صوت المولودة، حضرة الرقيب.

نظر، فرأى. انتابته جرأة مجنونة. مسح الأسطح بنظرة خاطفة يائس، ورمى إليهن ثلاثة أعواد ثقاب وعلبة سردين مفتوحة.

وانتصر! لولا أن وشاية خذلته في اليوم التالي، وقد شهدت عليه قطعة معدنية وثلاثة أعواد ثقاب محترقة، عُثر عليها بين قطع القماش التي تلفُّ جسد سميَّة.

«إلهي، أنت الواهب، ولا اعتراض على حكمك». راحت سلوى تتوسل. «ولكن ياإلهي، كيف ستحيا ابنتي وسط هذا الدمار، وكيف لبُكمِنا أن يعلِّمها النطق، ولأغلالنا أن تطلق حبوها؟! كيف سترى نفسها

في مرايانا المحطَّمة؟ لو عنقاء تحملها على جناحيها، وتضعها في كهف أو على قمة جبل أو فوق تاج عمود، لعلّ عابراً يرجئ موتها، ويودعها بين أطفاله! لو نهر يُرجى في هذي البيداء، لأرضعتُها وألقيتُها فيه! آهٍ على مستحيل يطَمْئِن سهادي».

وأبواها، ككل خلق الله، كان يمكن لهما أن يتصورا أي شيء عن طالعها ما خلا أن تولد في تيه تدمر، فتكسر صمته المطبق، وتتمرد على أسر الرحم دون أن تُرى حلقاتُ قيدِها. فالحصرم الذي وَحِمَتْ به أمها في جولات التعذيب، تمخّض عن كائن فوق العادة، استطاع خرق محرّمات القانون التدمري: كانت تبكي وتضحك وتصرخ متى تشاء، وترضع عن جوع وعن ترف، وتقضي حاجاتها الحيوية، وتنام مطمئنة، وتفتح عينيها وترفع رأسها، وتنظر عبر الفتحة السماوية للمهجع غير مكترثة بالحارس أو الرقيب، ولا حتى بجبروت المساعد الرجيم. وكان خرق أي من هذه المحرمات، بالنسبة لنزلاء المكان الآخرين، يعني المجازفة بالجسد أو العقل أو الحياة.

سمية درّبت السبايا من العازبات والأمهات على أمومة ستأتي وأخرى خالدة. حباها الله وجهاً طافحاً بنعمة الحليب، فانداحت تخوّفات الجدة، التي أسرّت يوماً لإحداهن: «يا خوفي على سلوى ألاّ يدر حليبُها»!

ـ الفضل لوصايتكِ ياخالة، البيض والخضرة واللحم القليل المقدَّد بالملح والشمس، وبعض الأشياء المخبّأة، كله لسلوى المدلّلة! جسمها، ما شاء الله، بلا حسد، يفيض بالفيتامينات والبروتين والكلس.

تبحث عن قطعة خشب لتدق عليها درءاً لعين الحسد. فتكتشف أن هوية المكان حديد وإسمنت.

ـ أنتِ غيورة يا هبة! هذه على أبواب أمومة يا بنتي. الحمد لله وجهك «متل البردقانة».

ـ تقصدين ليمونة بالتأكيد يا خالة. الله وكيلك وجوهنا كلها نشويات وسكر.

يضحكن جميعاً. تُخرج هبة كسرة الزجاج من المخبأ وتمرِّرها على النسوة متجاوزة سلوى، بشيء من المناكدة الحميمة.

ـ وأنا يا جاحدة! من التي وجدَتْها في الباحة وجازفتْ باختطافها، ثم طلتها بدمها كي تصبح مرآة؟

انهارت روح الدعابة لدى هبة. فجأة تذكرت الخميس الدامي، حين أعادوا إليهن سلوى محمولةً كما جثة هامدة. عاودها ذلك الإحساس الفظيع بالذنب، فقد كانت هي المقصودة بجولة التحقيق تلك، واستدعوا سلوى بدلاً منها، لكنها رفضت تصحيح الخطأ فافتدتها. استدركت هبة نشيجَها بابتسامة جريحة:

ـ زعلتِ يا حبيبتي؟ والله أنتِ «مرايتنا» كلنا! وغمرتها بذراعيها.

أدركت سلوى أنها نكأت جرحاً عن غير قصد، فراحت توسعها تقبيلاً وضماً وهمساً، حريصة على تطييب خاطرها.

مع انكفاء المشهد، انكفأت آلاف خلايا التهلُّل. حاولت الطبيبة إسعافاً على طريقتها:

ـ الحمد لله يا بنات أن مولودنا أنثى، وأننا لسنا عمياوات! ثم لو كان ذكراً، لما استطاع تحمُّل اقتسامه بين سبع أمهات غيورات، ولَطالبَ بنقله إلى مهاجع الرجال.

سايَرتْها النسوة بضحكة باهتة!

هو شرع الأسر، مسافة حرجة بين نقائض الغبن والانشراح، الفرح والحزن، الثواب والعقاب، الجنون والتعقُّل. هو الحيِّز اللدود لتقلُّبات

النوايا والوجع والأحاسيس المبهمة، وهو الومضة الصقيعية بين حرارة الدمع وجفافه.إنه القابلة الشرعية للرغبات المجهَضة، وفاتحة التداعي، وهو التوق القاصر عن مرماه. محصِّل ضرائب جشع، يدخل إليك من أضيق المسام كي ينفرد بك وأنت خلف القفل البارد.

ماريا/اختصار

حدس ما كان ينبؤني بمصير أرعن طيلة الفترة التي مضت على تواري زوجي، فآثرت التواري أيضاً على أن أصبح رهينة لديهم. لكنني وقعت أخيراً في فخهم، ليس بوصفي رهينة فحسب، بل متهمة، فأخضعت للتحقيق والتعذيب كالكثيرات سواي ممن التقيتهن في المعتقل.

ـ ولكنك كنت تعيشين في الخفاء ككل جرذ منهم، فمن يصدق أنك لا ترين زوجك!

ـ لقد تواريت خوفاً، وليست لي أية علاقة بالتنظيم، ثم إني لا أراه أبداً.

بهذا الاقتضاب الشديد أنهى المحقق أسئلته، وأسلمني إلى مجموعة من الجلادين لم يتركوا في جسدي موضعاً إلا وألهبوه بالضرب والكهرباء والحرق بالسجائر. وخلال جولات التحقيق المتتالية أدركت أن المستهدف كان زوجي بالدرجة الأولى، ولما فقدوا الأمل من إمكانية الوصول إليه عبري ألقوني في إحدى غرف القبو حيث وجدت العشرات من النساء اللاتي اهتممن بي وضمدن جراحاتي. واستمر الحال هكذا أشهراً أخرى. ولمّا عرفن أنني حامل، وهو الشيء الذي بقي سراً على المحققين، رحن يوفرن لي شروطاً خاصة ويجنبنني القيام بأعمال مجهدة. وذات يوم طُلبت إلى غرفة التحقيق. ولما كان حملي ظاهراً تماماً فقد بدأت النسوة يفكرن بطريقة تساعد في إخفاء حملي، فألبسنني فستاناً فضفاضاً للأسيرة اللبنانية الأكبر سناً التي كن ينادينها الخالة.

ـ «رنا، بسرعة إلى المحقق». صاح الجندي.

ـ «إنها مريضة، ولا تستطيع أن تخرج بمفردها»، أجابت إحدى البنات.

ـ «تستطيع»، جأر بها، قاطعاً الطريق على أي أخذ ورد. ثم ركل الباب بحذائه، وأمهلها دقيقة كي تكون جاهزة.

في الطريق إلى غرفة التحقيق، رحت أحدث نفسي. كيف بوسعي أن أحمي هذا الجنين إذا تعرّضتُ الآن للتعذيب؟ لماذا لم أخبرهم بوجوده ما داموا سيكشفون السرّ عاجلاً أم آجلاً؟ ولكن إن فعلتُ، سيعرفون أنني كنت ألتقي بزوجي، الأمر الذي أخفيته طيلة هذا الزمن. وإن أنكرتُ، فكأنني أجلب فضيحة لنفسي: من أين أتى الحمل إذن؟ ما إن دخلت غرفة التحقيق حتى فاجأني المحقق بسؤاله:

ـ هل تريدين قابلة، أم ننقلك إلى المشفى أيتها الخبيثة؟

كأن صاعقة ضربتني. تُرى هل يمكن أن يكونوا قد ألقوا القبض عليه حقاً؟ أو أن تكون إحدى زميلاتي قد نقلت الخبر ظناً منها أنها تريد حمايتي؟ أم لعلّها وشاية؟

اجتاحني خرس بهيمي! رحت أتصبب عرقاً، وعيناي معصوبتان بالقطعة المطاطية السوداء الكريهة، اتكأت على الجدار فخارت قواي، وتهالكت على الأرض.

ـ أعتقد أنكِ ستسمينه باسم أبيه الذي لن يراه أبداً. على كلٍ، اعترف زوجك بكل شيء، ولم يعد مهماً إن كان هو أبو الولد أم سواه! ألا تودين رؤيته؟

اعتبرتها جزءاً من ألاعيبهم. إن كان معتقلاً فعليه تدبُّر أمره، وإن كان حراً فليس أمامي سوى الاهتمام بهذا الكائن الداخلي الذي ما يزال

يتحرك في أحشائي. وجدتني أقف على قدمي كما لو أن قوى خفية استجمعت قواي.

باغتني الصوت الذئبي ثانية:

ـ لفُّوها في بطانية. والله سأجعلك تلدين خديجاً، أو قرداً. إذن كل هذا الزمن وأنتِ تخفين لقاءاتك به أيتها الفاجرة. اعتبري أنك معتقلة للتو. أريدكم أن تكسروا عظام هذه الكلبة.

عشر دقائق فقط كانت كافية لتُحيلني إلى كتلة مهدومة في ركن معتمٍ بارد. أحسست أنني في أعماق البحار، داخل قوقعة بلا حول ولا قوة. وحين أفقت، وجدت نفسي في القبو. أردت الاقتناع مراراً بأنني كنت أعاني كابوساً ثقيلاً، ولكن الجروح والكدمات والانتفاخات التي كانت تغطي جسدي جعلتني أهذي من شدة الحمى والألم:

«خصمان يتناوشان في صدري: إقدام الشجاعة وإحجام الخوف على الجنين، يكرّان ويفرّان، يتعاركان، يهشّم أحدهما وجه الآخر، ويتبادلان، بلا رحمة، اللكمات والنهش والعض، فيسقط الأول وينهار الآخر، وأنا بينهما أتوسّل قراراً».

تقدمت مني إحداهن ومدّت يدها إلى صدري وبطني، وراحت تحرّك يدها عشوائياً إلى أن استقّرت عند الخاصرة، أحسّت بحركة الجنين. ارتسمت على وجهها ملامح الفرح والدهشة. عانقتني وصاحت: «عمر الشقي بقي».

ـ أعرف أنه لا يزال حياً.

في المساء، حيث لم يعد ممكناً فتح الباب إلا لطارئ. انزوت إحدى الصبايا وفتحت الصحيفة المحلية التي رماها رسول الأدوية والأسرار وأنصاف البسمة الخائفة، وراحت تقرأ لهن بصوت هامس:

ـ تزايد عدد الجنود الفارين من الخدمة في الباكستان احتجاجاً على العمليات في كشمير.

ـ إجهاض امرأة فلسطينية على معبر رفح.

ـ منظمات عربية ودولية تندد باعتقال ثلاث نساء في تركيا وتعرضهن للتعذيب.

ـ حالة هروب جماعية من أحد السجون العسكرية في سانتياغو.

ـ دعوى تثبيت زواج: السيدة إنصاف... السيد نعمان حبيب، مجهول الإقامة.

ـ الأبراج: الحمل... الثور، فرصة ذهبية للمصالحة مع من تحب، لا تدقق في الأمور الصغيرة. السرطان، متاعب في العمل تعكر صفو علاقاتك، يفضل أن تقضي بعض الوقت بعيداً عن العمل والاختلاط.

ضحكت النسوة ما عدا أم خالد، ظلّت صامتة، شبه ذاهلة، وبصرها متجه إلى رنا التي بدا عليها الإنهاك والشحوب.

ـ ينبغي أن ترتاحي يا ابنتي، جولة التعذيب كانت شديدة. نامي يا ابنتي نامي. من يدري، قد يطلبونك إلى التحقيق في أية لحظة.

ـ لا أعتقد أنني سأتعرّض لأي جلسة تحقيق بعد الآن، أشعر بأن موعد الولادة قد اقترب.

ـ مخاض كاذب، أمامك وقت.

ـ تصوري يا خالة أنني، يوم اعتقلوني، حاولت أن أجهض بكل الوسائل لكنني فشلت. كنت أقفز وأنط خلال النهار، مع ذلك ظل ابن الكلب متشبثاً بي كالعلقة، رافضاً أن ينزل. هل تصدقين أنني الآن مستعدة للموت مقابل أن يرى الحياة!

نُقلت رنا ورفيقاتها إلى سجن دوما؛ ووَهبت الحياةَ كائناً جديراً بمقارعة الشقاء: ماريا، التي تصغُر سميَّة بخمس سنين، وتمتاز عنها بولادةٍ في مشفى؛ لكنها تجايلها فِطرةً ولغة حلبية. تعددت أمهات ماريا، وابتدع خيالهن من الأفكار والخطط حول تنشئتها ما يكفي جيلاً بكامله. لكن الصغيرة اختارت أمها في أول امتحان. طغت رائحة الحليب على حواسها كلها، ولولا ذلك لربما ظلَّت إلى الأبد تنادي كل أنثى يقع بصرها عليها: ماما.

ديانا

«لستُ متزوجة ولستُ حاملاً، فأنَّى لكَ أن ترى الحياة!؟» همست ضحى لجنينها، متكتمة على كنزها الغالي الذي أخفته عن المحققين والشرطيات تفادياً لما قد ينجم عن ذلك من تبعات خطرة.

«لا أستطيع أن أشرك وِحامي وأحلامي ولحظاتي الخاصة مع أحد؛، مخافة أن تشي بي لهفتي إلى الأمومة. فدعني أستعيضها بقطف غمامة من الذكريات تظلل وحدتي، وتكشف النقاب، لي وحدي، عما يحيط بأسراركَ الخبيئة في دمي: أمي، رفاقي، إبراهيم، لقاءاتنا الشحيحة، الإجهاض أو الاحتفاظ بك. فجأة تصدرتَ أسراري كلها، وحيداً، محوِّماً حولي وفي داخلي كأنك لتبقيني رهن خياري كتمانك، أو تحمُّل وزر الكشف عنك. أجمل ما فيك أنك علَّمني متى ينبغي الصمت، ومتى يمكن النطق؛ فقد أنسيتَني أسماء كثيرة لأناس مقربين، وأشياء عزيزة على قلبي، بما فيها خانة بيتي، وبقيتَ معانداً، جميلاً، وموهناً لأعصابي في آن واحد. بكل الحذر والحب والحرص سوف أبقيك طي الكتمان ريثما أتخطى مجازة التحقيق العصيبة، وينجلي ما ينتظرني.

وانتهت فترة التحقيق، ومعها التواصل السحري، بحلوه ومره، الذي شغلني مع خبيئتي. وكان ثمة حدس ينبؤني دوماً بأن رحمي سيتمخض

عن أنثى! وقد صدق. أجل صدق، فأنجبتُ ديانا، لا في جزيرة ديلوس بل في سجن دوما، وبلا توأم ولا قوسٍ ولا سهام».

وحدهن سُميّة وماريا وديانا، بنيات تخلّقن في ظلمة رحْمين، أولهما يعطف فيُحيي، وثانيهما يقسو حتى يميت، خرجن عنوةً من غامض الأسر، وانفردن بالجنوسة ووحدة المصير. أميرات في جمهورية تورث الحكم لا الحليب، واللحد لا المهد. شهبٌ نزلن على الأرض كي يبتعثن ضوءاً في نفق هذا العهد، أو ناراً تأتي على مخلفاته العالقة فينا.

لا شمس تفي وجوههن ولا قمر. ومهرهن، الذي أودى بكل الأوسمة، مشغول من نوى الزيتون والبلح وخيوط النايلون والأسمال والعظم والخشب والتراب والدمع. ثلاثة صناديق من خشب الأرز، عقود وخواتم ومطرزات وأقراط وشرائط ملونة وقلادات وخلاخيل ومشابك ومكاحل وجوارب وقفازات وأساور ومرايا وأمشاط وكحل وتعاويذ.

كلُّ قصة تظلّلها أنثى من النور منذ بدء التكوين حتى ولادة سميّة وماريا وديانا، إلى آخر الزمن. نساء، لآلئ إلهية ينجبن الفصول جميعاً، ويكتنفن بذرة الحياة حيثما حللن.

ثلاث خرزات زرق لنساء دوما، نعلّقها ضدّ عين الحسد وسوء الطالع!

وغمامات فرح لأهدابهن المسبلة على الدمع والضيم والذكريات.

وأضمومات وردٍ لحريتهن المبتغاة.

الورقة السادسة

أنا الموقوفة عرفياً منذ ثلاث سنوات، وإلى أجل غير مسمّى، لم أحمل في حياتي أداة حادة إلا في مطبخ بيتنا، ولم أضمر عداوة إلا للظلام، ولم أتجسس إلا على حبيبي، وكانت البسمة تلازم وجهي حتى في نومي. وأشهد أن أمي، المشرفة الاجتماعية في إحدى مدارس الأونروا، قالت لي ذات يوم: «لو أن الضحك يجلب ثروة، لكان بيتنا من أغنى بيوت المخيم!» وأشهد أنني مررت بثلاثة فروع أمنية وسجني قطنا ودوما، واجتمعتُ خلالها بأكثر من مئتي سجينة عربية وأجنبية كان لهن الفضل في تعديل حواسي وأفكاري ومزاجي. واكتشفت الطعوم الغامضة للفستق الحلبي والموز الصيداوي والصومالي والبندورة الأردنية والمشمش الحموي والمنغا المصرية والتفاح الشامي والفول السوداني والزيتون التونسي والبلح العراقي والخليجي. هنا، في هذا المكان، شكّلنا منظمة مدنية، فيدرالية، مستقلة عن الجامعة العربية، وتسعى إلى العالمية، وقد أسميناها «منظمة دوما العربية»، بفروعها (المسلمية (حلب)، عدرا، صيدنايا، الشيخ حسن (دمشق)، تدمر، البولوني (حمص). ولأسباب تتعلق بأمنها وسلامتها، فقد سُجّلت لدى الدوائر الأمنية كلها بلا رقم ولا تاريخ، بوصفها سابقة وحدوية فريدة تمخضت عنها أفكار صديقتي السجينة ليلى الفينيقية.

وليلى تلك أرزة لبنانية دائمة الخضرة، طالعة من عناد صخرة، وعاشقة كما يليق بتنهيدتها الجبلية التي تبلغ البحر.

مع بلوغها العشرين اقتُلعتْ من سفح ضيعتها لتُزرع في بقعة إسمنتية قبيل البحر بوهدة، حيث يتناهى إليها هديره وصفارات مراكبه وسفنه لا غير، لكنها لا تستطيع أن ترى زرقته وامتداده. بعد حين، أشفقت ليلى على ذاكرتها، فسجّلت أولى وقائع الرحيل، كي يكون لآخرها نكهة مغايرة:

«أمي، التي جعلها عشق أبي تشفُّ كالحرير، مدّت يدها اليوم إلى شعري فأيقظت حلمي بغمام طهّر وجهي. كانت عيناي مَجْمرتين، ووسادتي شاهدَ احتراق. لا أدري كيف نهضتُ من فراشي على عجل، قبّلت يدها المعروقة، وحملني وميض الحلم إلى الشرفة كي أطل على البحر، وقبل أن أنظر إلى جهته، أدركتُ أنني ما عدت هناك، بين صخرتين في الجبل، فانكفأتُ على خيبة».

ليلى نهِمة إلى كل شيء. فحين كانت تتبارى في الشّعر مع أختها الوحيدة أو مع أبيها، كانت تختار وقت ما بعد العشاء، فتحشد طاقاتها الذهنية، وتتحفّز لديها روح الإدهاش والقوافي المعاندة. وكان الأب يطلق أبياته على رِسله، يستفزها بقوافٍ عصية ويضحك، وكلما وقعت بحبائل قافية، يرفع كأسه ويسمّي نخباً، فيشتت ذاكرتها. لكنها في الوقت المستقطع، كانت تنجح فتردّ بصاعين.

على شرف ثلاثينها دخل العسكر مدينتها التي خرّبها المتخاصمون، فاختلطت القبعات بالأحذية في الشوارع ونوادي القمار والمطاعم والبيوت. وهناك، في الجبهة الخلفية، حيكت تصفيات الحساب على أبرد العقول.

قبل حين كان الأَرُز يُرشق من الشرفات والأرصفة على ملاّلات

«الحُماة» الجدد وعرباتهم، فيما أزقة الفقر والمخيمات تغص بالجوع! وليلى توشوش في أذن أبيها: «أخشى يا أبي أن يصير هذا »الردع العربي«جائراً كمن هجَّرونا! فالأفق لم يعد لنا، والبغاثُ الأغبر ملأ السماءَ والحارات وعتبات البيوت والعرائش».

- «من يدري»! غصَّ الأب بابتسامة صفراء خاطفة.

غيَّرت ليلى سكة الحديث:

- «عندي مفاجأة لكم. أريد أن أعرّفكم على سارق ناري»!

- تقصدين من «سيشعل البيت ناراً؟ لن ندعه يأخذك منا، ولن نتخلى عنك. إذا قبل العيش معنا، فأهلاً وسهلاً، وإلاّ سنفكر». يسايرها الأب غير مصدّق.

- «ليلى، لا تلعبي بأعصابنا يا ابنتي. ومن مجنونك الجميل هذا»؟ سألت الأم.

- «البارحة همس في أذني، مستعجلاً زواجنا، وطرح علي أمر الهجرة، لكنني رفضت بشكل قاطع: لا أستطيع التخلي عن رائحة بيتي»، قلت له.

كنا واقفين قبالة الحاجز العسكري المجاور حين أخذ يحاورني بصوت خفيض، وانفعال لم أعهده فيه. أحسست أن همسنا قد أثار مسؤول الحاجز، فقد نقل لي الأثير رائحة تربُّص! في الأسبوع التالي كنت في طريق العودة إلى البيت من المعهد الذي أدرّس فيه، وكان الضابط المسؤول جالساً أمام خيمته، وما إن رآني حتى أمرني بالتوقف. وسرعان ما تقدَّم مني أحد الجنود وطلب بطاقتي الشخصية، وراح يقلّبها بين يديه، ثم قال: «أجل، أنتِ! إن سيدي يريد أن يراك في مكتبه. ومع يقيني بأنني لست محطَّ اتهام، بيد أن الخطر والرعب تملكاني.

هددته وسيده بشكوى إلى السلطات الأعلى؛ فأدرك أنني لا أفقه شيئاً من حقيقة الأمور. أمسك بيدي ثم أومأ لجندي آخر، فاقتاداني إلى مبنى محجوز لصالح الموقع. وأدخلاني قسراً إلى إحدى الشقق، لأجد نفسي قبالة رجل بملامح سرابية. وما إن وقعت عيناي عليه حتى شعرت بالغثيان. لقد حدست أي مصير ينتظرني. كان وجهه ينضح بسادية احترافية وهو يستجوبني عما سماه تحركاتي «المشبوهة». فكرت وأنا أسأل نفسي: لو كنت جميلة لكان ذلك مفهوماً، لو كنت عشرينية لما عجزت عن تفهُّم نواياه، أما وأنني أخلو من هذه الإغراءات كلها، فقد كان طبيعياً أن يتزايد خوفي وقلقي مما سيأتي.

تقدَّم الضابط نحوي وفي يده عصا قصيرة. أقحمها في صدري دون أن يتأكد من هويتي:

ـ إننا نعلم ما في الصدور. هيّا قولي لنا كيف حصلتِ على خارطة مواقعنا في هذه المدينة، ومن هي الجهة التي تسلَّمتْها منك، يا مدرّسة الجغرافيا.

حين دقَّقت في كلماته أيقنت أن جمجمته القردية ليست شاغرة. لم يكن سؤاله، بكلماته المختارة بعناية ودقة، ينم عن بلاهة. مع ذلك تجاهلت نقطتي الخطر في السؤال وأجبته عن الزائدة الأخيرة:

ـ «إنني مدرسة لغة عربية، وإن لم تصدّق فهذه بعض الوثائق التي تثبت أنني أحضّر للدكتوراه في فقه اللغة».

ـ «وتقولين ـ فقه ـ أيتها العاهرة...».

شعرت مرة أخرى أنني أمام شخصٍ جاهل وعارف في آن واحد. فقد لفت انتباهي توقفه عند كلمة «فقه» متجاهلة الشتيمة القذرة التي رشقني بها. كما تحاشيت استفزازه كي لا يتمادى أكثر فتطال شتائمه أمي وأبي

وفقه اللغة والشريعة والله. كنت حريصة على ألاّ أخاطب فيه تلك الهمجية البادية في عينيه والضراوة المستقلة التي كانت لبعض جنوده.

ركلة مفاجئة على ظهري أسقطتني أرضاً، ثم بلمح البصر مزّق أحدهم قميصي وقيّد يديّ إلى الخلف. لم ألبث أن اكتشفت أن ما أتعرّض له كان عقاباً لي بسبب تلك النظرة الخاطفة التي رشقتُه بها حين رأيته أمام الحاجز، وربما مشيتي المغرورة، أو وقفتنا قبل أسبوع قرب الحاجز.

واحد من بين الجنود الخمسة أبدى تعاطفه باحتراس. حاول أن يستر صدري وسرّتي بمزقة من ردائي، فمدَّ سيّده عصاه وأزاحها ثم زجر جنديه باحتقار، وراحت نظراته تغتصب تفاصيل جسدي المكشوفة بينما كلماته تعدّد قبائحها بسفهٍ وتشفٍّ لئيمين.

لا أدري كيف استبدّ بي ذلك الإرث السلمي الذي اكتسبته من والديّ، والذي جعلني كتلة صمّاء، بلا حركة ولا صوت. هل كنت أكتفي بعيني ذلك الجندي اللتين كانتا تدافعان عني سراً وتمنعاني حتى من البكاء؟ لأول مرة في حياتي أحس بعقم التربية الأحادية، وينتابني الحقد على فكرة السلم هذه، التي لا تعني في مثل هذه اللحظات سوى الرضوخ الواعي لليد التي لا تستطيع كسرها!

هذه الحادثة وضعتْ حداً لروحي تجاه العشق والزواج مرةً وإلى الأبد، مثلما جعلتني أكتشف غريزياً أن رجال وطني قاطبة يتحولون إلى خصيان في ظل هذه الظلامية العسكرية التي ابتلينا فيها على حين ردع.

أنا، ليلى الفينيقية، ذات الثلاثين عاماً وأكثر، أعلن، وأنا بكامل شهاداتي العلمية والتقديرية أنني من مدينة افترعتْها يدُ الجهالة على رؤوس الأشهاد، وأن مشهدي الجسدي البدني استُبيح على قارعة الاغتصاب، وما عاد جديراً بمجنوني الذي أحببت.

أنا، ليلى الفينيقية، أريد أن أعود إلى بريّتي الأولى، أرقب البحر من بعيد، وتحيط بي صخرتان عنيدتان، ويؤبدني الزمن هناك ريثما يعود لمدينتي قدرها الذي كان.

أنا ليلى الفينيقية، سجينة البوريفاج وعنجر وفرعين آخرين وسجنين، أترك لكم خصلة من شِعري، مجدولة بخيوط فجيعتكم الجغرافية والسياسية والاجتماعية والطائفية والحزبية والميليشياتية، فلتعلقوها قرطاً في ذاكرتكم:

«لم يغتصب ملامح جسدي جنٌ ولا أجنبي

لم ينتهك صباي وحشٌ بريّ أعزل

بل قابيل بقسمات بشرية من هلال شامنا الشريف،

قتلكم مرتين، ثم جمّع أشلاءكم وأودعها في كهف جماعي، وأنتم بكل خشوع، علّقتم النياشين على صدره، ورفعتم النُّصب التذكارية لمجده، ثم غضضتم الطرف عن قتلاكم في العراء.

أوصيكم بحفر هذه الأرض الفينيقية كلها حتى يعود لها خصبها التموزي الذي كان».

روزنامة (1)

امرأة محمومة الأنوثة، أحبت أكثر مما ينبغي، وانتظرت أبعد مما يمكن، تذهب كل شهر لزيارة زوجها محمَّلةً بقناديل الأمل، وتعود مطفأة حتى الرمق الأخير. امرأة تكتب على سبيل الكفر بهذا التدويم العدمي اللامحدود، ثم تقرأ بصوت متهدِّج:

«ماذا ستصنع بي وحدتي، مناجاتي المعذِّبة، ومجاملاتي الضرورية. أرهقتني رقابتي الذاتية، نظرات الناس، الركض وراء اللقمة، وانتظار زوج ربما لم يعد قادراً على حب امرأة. فجأة، بعد خمس سنين من التعوُّد على وحدتي القارسة، انتابني ما يشبه الرهان مع نفسي. قلت إنني سأعمل على نسيانكَ، أختبر تحمُّلي لبعض الوقت، وأرى إن كنت قادرة على خيار جديد.

توجهت إلى المرآة، انتزعت صورتك من زاويتها العليا، وأنا مغمضة العينين. وحين لم يسقط قلبي، أدركت أن قراراً كان يتفاعل عميقاً في لا وعيي، وربما في أحلامي غير المدركة. استلقيت على الأريكة، وأزحت بصري عمَّا يصلني بك. ورحت أرفع جدار نسيانك لبنة فوق أخرى، وأرسخها بملاط أعصابي. كنت أتحاشى التراجع كي أقطع أنفاس التردد الخانقة.

بهتت البهجة في وجهي، واتشحت ملامح دربي بألوان الشؤم فأفقدتني الإحساس بالضوء، وألقت بي على قارعة اليأس. ذهني سارح على غاربه، وعيناي تلوبان على سطح ذلك المستطيل الخشبي الذي هو باب غرفتي، إلى أن استقرتا على آخر إشارة استفهام خطَّها قلمُك الرصاص قبل أكثر من نصف عقد. الإشارة قبالتي تتضخم تلقائياً، ثم تتطاول، وقد خرجت منها خيوط أفعوانية طوقتني من قدمي حتى رأسي.

من قبلُ، كنت أغالب احتضارك في يمِّ وجداني، لكنني الآن أتوخاه كي أخرجك من ضفافي، وأعود امرأةً بنكهة أنثى. أحسست كما لو أن بهجةً طفت على سطح بالي، وراحت ترمم الخدوش وبقايا الصدأ العالق عليه. تململتْ ذكراك قليلاً في دمي، فاستلهمت طريقاً مواربة كي أفلت من شُواظِّها. قلّبت دفاترنا العتيقة كلها، متوقفة فقط عند ما من شأنه أن يغيظني منك. جردتك في ذهني من أقوى أسلحتك وأوهاها، وصغت لك دفاعات يسهل علي مقارعتها، ورميتك بكل دواعي القلق كي أشغلك عن نفسك، وحاولت حصارك لعلك تسارع إلى إنهاء علاقتنا بقرار حاسم لم أكن أجروءُ عليه. اختلقتُ غيرةً وخَّازة من امرأة لا أحبها، وكسوتها بصفات تثير أقصى حنق لدي؛ وجعلتها تنافسني عليك، مفترضة أن مجرد لفت انتباهك إليها يضعفك حيالها ويقويك ضدي! كأنني كنت أعيد صياغتك كائناً مرهقاً، سلبياً؛ كي أحيل سطوة عشقك، بكل جبروتها، إلى كيان خريفي أجرد. رحت أقوّض كل ما يمكن أن يعيدني إلى جادتك.

مضى أسبوع على بداية الحادي بك، وأعوام خمسة على خوائي. اتصلت بي إحدى الصديقات المقرّبات لي ولك. كانت أمينة لصداقتك، وتثير فيَّ كل ما يدفعني إلى التمسك بك، وإن اقتضى الأمر، تغضبني؛ لذلك كنت أقتصد في الإفصاح عن نواياي ورهاني حيالك، وألوذ

بالصمت. كنت أريد أن أعتاد على نمط مختلف من الحياة، وأن أخوض معركتي الجديدة مع العزلة، مع علمي الأكيد أن حاجتي الفعلية تكمن في مطرح آخر.

رحت أتساءل: أهو الخوف من مصير برسم الغيب؛ أم أن القنوط من الانتظار العبثي قد أتعبني، وأكرهني على تغيير بعض قناعاتي السابقة؛ أم تراني أحتاج إلى بديل عنك؟ إن مجرد التفكير بفقدانك جعل جسدي كله يجهش بالبكاء، وتملّكني إحساس بالضياع، حتى عاداتي التي كانت لي من قبل أخذت تتلاشى واحدة تلو الأخرى. جلجل فيَّ عويل رجيم، رافعاً في وجه وجداني لائحة الاتهام. وخامرني شعور الموت تحت حد المقصلة. صرت أرى مصيري منشطراً بين ضريحين انشقا ليلتهماني. ارتخت مفاصلي، وانهارت أناي الأولى تحت ضربات مطرقة قاض صارم، واستحالت معدتي إلى مرجل ملتهب. فجأة صرختْ بي أناي الأخرى: اغتسلي من هذا السراب.

اغتسلتُ، توسلتُ غفوةً مسروقة من عيون الأرق، لكنه كان ما يزال يتربص بي، ويحول دوني والرقاد. لجأت إلى حل يطاوعني قليلاً. نهضت على هلعٍ، فتحت عينيَّ، وأعدت صورتك إلى حيث كانت. أمسكت بتلك الورود الجافة، كأنني أراها لأول مرة، فتحسست في أشواكها هشيمي الجوّاني، وبقايا رمادي ورمادك.

وقفت عند حافة النافذة، طائر أبيض يسرق بصري، أتتبّعه، يختفي وراء برج كهربائي عالٍ، وينتهي المشهد. أتلفت إلى الخلف، فتصعقني دقات الثواني لساعة الحائط المعلقة فوق صورتك. أستلقي على ظلال مأساتي، وأتصفّح تقويمي الذهني ومواعيدي؛ صفحات متتالية تخلو منك، وتدوّن ساعات عمري دون نقصان.

فجأة تجتاحني هبة من العرق والخيبات. تهاجمني غريزة الدفاع عن

النفس، دون أن يتبدّى لي خطر على وجه التحديد. ينتفض غضبي، دافعاً بي إلى المتراس. وعلى أهبة الخوف، أباشر لعبة الإنذار الأخير. أسمع صمتاً متهكماً؛ إنه الغدر. لمن أسدّد هذا الخزي؟ تتأهب نفسي، وأتفحّص قواي وعدتي لخوض معركة مع المجهول، فأجد الخصوم هنا في الداخل.

- «لكنكِ لا ترينهم! وما تزال دُنياكِ فسيحة يا امرأة!» تُهدهدني أنوثتي.

أجل، لن أسلّط حريقي على أحد؛ وسأبقى صالحةً للحب، مادامت شرائعي سلالة من الطين والنار، وقلبي يافعاً، وذاكرة القبلة الأولى ريانةً تلهب شفتيّ.

- «والغياب؟» تقاطعني نفسي.

صلاةٌ متّصلة عند مذبح الوقت الطائر.

- «والوقت؟».

مستفزٌ دؤوب، متقاعسٌ معي، ومخلصٌ لنفسه، ينطوي على أحابيل وشِراك ليست من صنعه. إنه نسغُ أنوثةٍ ينساب عبر أطياف الوهم.

- «بدأتِ تئوبين إلى جلالة عذاباتك، ولستِ وحدك في هذا الدرب المليء بحكايات انقطعت خيوطها، فافتحي ذراعيك يا امرأة، افتحيهما للشمس.»

تتلاشى تكات الساعة، وأوراق التقويم تتساقط، فأجمّعها متوقفة عن قراءة الطالع، ثم أرميها جميعاً في سلة الزيارة السابقة.

أتحسس عروق حياتي فأراك في المسافة بين أناي واغترابي. أحنو عليّ، فأجد نفسي. أجل فجأة صرت امرأة بخلجات ونوايا مغايرة؛ امرأة استعادتْ من جديد حرية التعود على وحدة توهمت فقدانها خلال هذا الشهر الفاصل بين زيارتين.

حكايتي واللهب (2)

أنوثة مطفأة!

أحبك أو لا أحبك، لا يغيِّر في الأمر شيئاً.

أشهد أنني صرت على يديكَ تارتين: قلباً وعقلاً!

أشهد أنكَ ملأتَ هامتي بوعود الشعر، تاركاً فراشة وجدي تلتاع على أوارِكَ أيها اللهب العذب.

أشهد أنكَ سرقت مني يقظتي ورقادي، وقصَّرت المسافة بين غرارة عشقي وكهولته، فأصبتني بفصام آثم.

من أرجأني ريثما ائتلقتَ، من أطلق عليَّ وردة القَدر كي تتراءى لي قامتُكَ النحيلة من بعيد فأتبعها؟ أجل تبعتُها، كان ظهرك إليَّ ووجهي إليك، ومضيتُ خلفك، وكانت نواياي عذراء كزنبقة في وحشة غابة.

حين رأيت وجهكَ، بدأ نهاري، أطلقتُ الرحمة على أشيائي المألوفة، واحتفيت باندهاش غامض؛ أما أنت فلبستَ «قبعة الإخفاء»، وعجزت منذئذ عن اختطافي حتى النهاية.

أعرفكَ، كنت أقول لنفسي. إيابك ذهاب، وذهابي إليك إياب،

أتفقدك كلما سمعتُ حركة غير اعتيادية في أي مكان، حتى في الغرفة المجاورة. أتلصص عليك بسمعي خشية أن تشتلق أمك على خوفي فتطالها العدوى. لم أكن أعرف أن في روحها بأساً لعشر أمهات، وفي قلبها مثيله من الحب والنبض.

* * *

قُلْ لي أيها اللهب، من غرسكَ بنفسجاً في خاصرة قوسي؟ من غرزك فيَّ كي تلازم النقطة الأنبل في خضرتي؟ ومن صيَّرك خبيئةً في دمي؟

تلك بعض كذباتي، بيضاء أم سوداء لا فرق، لكنك نجحتَ في قطع طريقي بلا سلاح. من منّا كان البادئ في سرقة نار الآخر؟ ومن أسلم قيادي للريح أولاً، أنت أم ذاك النهار، لكن لا فرق، كلاكما سرقني إلفتي.

* * *

ـ كفى! خوفي عليكِ يا امرأة مني، وخوفي عليَّ.

جاءني صوت من مجاهل وعيي!

قلت: دعيني أرى، جهلي يؤلمني، ولم ينضج شقائي بعد!

تمنيتُني غجرية بلا مأوى، حاملة رضيعها على ظهرها تبيع الخرز والحرز وقرون الماعز والغرابيل وقبضات السكاكين، راغبة في أن يحظى بها مشرد له من مشاعات الدنيا خيمة سوداء، فيدعوني إليها ونتماهى مع الليل والريح وأصوات الجداجد.

لم تمهلني هلوستي. فجأة وجدتُني في عرائي، مقيدة إليكَ بأصفاد الهوى والبعاد. يومئذ قلتَ لي ما يشبه الشعر حبّاً:

«أسميكِ هوىً وأميل ما مال الهوى».

طارت روحي وحطت مائة مرة قبل أن أهتدي إليك. ضحكتُ لكَ وبكيتُ عليَّ. ألَمَّ بي خدر مباغت، لم أصدق، ارتميت على يسراك، سمعته يدق. اختلجتُ ببسملة لم أجرؤ على نطقها مخافة اختفاء شيطانك الشعري. ورحتُ أتأمل حبي؛ رأيته على وجهك، يرتعش في عينيك، وفي ثنايا شعرك القليل، وعلى يديك اللتين كانتا تطوقاني، فنمت كالبلهاء! كان مرّ علينا شهر كامل دون أن نتبادل شيئاً خاصاً سوى قبلات «صباح الخير» و «تصبحين على خير»!

بكت ابنتنا. قلت في سري: غيرةُ اللاشعور!

حملتُها إلى جدتها في الغرفة الأخرى. لما رأتني أمكَ ابتسمتْ، وصلتني رسالتها كما البرق. قرأتْ خَفَري ببالغ الأسى، وتمنَّت لنا، بإغماضة عينيها، ليلةً هانئة.

* * *

أيتها الأجنحة التي حملتني ذات حين، لقد مضى على قطراته الشِعرية اليتيمة سنوات، وأنا أقلب فيها كما لو كانت أبحراً بلا نهاية.

غفرانكَ قلبي، أيكون قد حدث له مكروه؟ ألا ليت خيراً! وليسرق العمر مني سواد شعري وبريق عيني!

غفرانكِ روحي على خوفي.

لماذا اللهب وحده لم يشِ بمصيره أحد؟

نوبة ربوية حادة!

ضربة قاتلة؟

صدمة كهربائية جاهلة؟

آهٍ على احتمال آخر!

ربما عزلوه انفرادياً لسبب ما، قالت أناي الأخرى مشفقةً.

تركتُها تحكي على هواها ولذت بالسراب.

سنوات مرت وأنا أتقوت بزبد أوهامي وظنوني. سنوات أمضيتها في الأسر، وأخرى في سجن الحياة، ولم يبلغني أحد بخبر فقدانك. هكذا، متأرجحة بين الشك واليقين، رحت ألملم شتاتي وأنا معلّقة في الفراغ. لم يبق بيني وقصارى اليأس سوى كذبةٍ صحراوية بيضاء قد تتسرب من داخل الشاحنة المقفصة التي ستقِلُّ شباب تدمر إلى المحكمة في السابع من أيار 1992. مرّت بي وجوهُهم خلف النوافذ الشبكية، قلَّبتها وجهاً وجهاً لعلّي أرى فيها طيف يقين: عيون مسبلة على حقيقة واحدة: موتك. اتكأت عليّ، لم أقوَ على الوقوف. أحطتُ شجيرة الرصيف المزنرة بالحديد وألصقت رأسي بها. تناهى إلى أذني صوت عزاء. جفلتُ. رفعت رأسي. كانت السيارة ـ القفص قد أقلعت.

موتك الاحتمالي جاءني تباعاً، وتجرعت كأسه على مهل، فأفقدني حزن البغتة. وحين صار حقيقة ساطعة، كنت قد تعودتكَ شهيداً، كسواك الكثر، ترقد في مكان ما من مقبرة بوسع وطن! كان ذلك أشبه بنُذُر الموت التي يضمرها المرض قبل الموعد المحتوم بزمن طويل.

* * *

سأحكي لك عند قبر بلا شاهدة، قصة ابنتنا، في يوم «سورة الضحى»:

تجلس سنا تحت شجرة زيتون في باحة المدرسة تراقب أترابها، وتستعيد الخواطر التي زارتها بالأمس. تغمض عينيها قليلاً في محاولة للتذكر، فتغفو.

تجد نفسها في أرجوحة خشبية صغيرة، وفي يديها صورة، الأرجوحة

تتناوس، والرجل الواقف إلى يسارها يهزّها بلا توقف. هو الآخر شارد الذهن. خيط يعلو ويهبط، خيط من نور بعيد يتراءى لناظري حلمها.

يقرع الجرس: «حان الدرس». يقترب منها موّجه المدرسة:

ـ لماذا أنت هنا يا ابنتي؟

يضيق الفضاء قليلاً، تشق أجفانها الناعسة. تمدُّ يدها إلى الرجل الواقف بجوار حلمها فتعود خائبة. تركض إلى الصف معتذرة عن التأخر.

ـ اجلسي، تقول لها المعلمة، هل حفظت سورة الضحى يا ابنتي؟

ـ أجل يا آنسة. تستظهرها: «... فأما اليتيم فلا تقهر...»..

تتوقف المعلمة عن إكمال الدرس، وتوعز للتلاميذ بالتزام الصمت، ثم تضع رأسها على الطاولة مستسلمة لنحيب اليتم.

* * *

التباس (3)

فور عودتي من الزيارة فتحت حقيبتي، وأخرجت منها الأشياء المهرّبة، وهي حسب تعبيرك، بعض مخزونك الأسري: دفتر صغير مصنّع يدوياً، قلم وخاتم من عظم، أوراق، بعض النثريات العزيزة على قلبك، حافظة جلديةصغيرة ذات ثلاث طبقات. فتحتُها؛ في الجيب الداخلي الأول ظهرت بطانة كرتونية رقيقة مرسوم عليها خطوط شبه ممحية لخارطة تسللت إليها خيوط حمراء داكنة غطت الكثير من نقاطها المعلّمة بالأسود. سحبتها، أمعنت النظر فيها، حاولت مسحها بإصبعي، كانت متشربة، جافة. عرفت فيها دماً آدمياً. ضممتها إلى صدري، ثم أخفيتها داخل منهدتي. وجدت أيضاً وريقة رقيقة تحتوي على روزنامة عقدية على وجهيها، منقطة بألوان مختلفة عند بعض التواريخ، بالأسود والأحمر والأخضر والأصفر قرأت فيها محطات غيابك واهتمامك بالتفاصيل.

في الزاوية السفلى للجيب الثالث لمحت شيئاً مثلثي الشكل، حاولت سحبه بهدوء، ونجحت في إخراجه بعد أن نُتشت منه قطعة صغيرة جداً. فتحت هذا الشيء المطوي، كان ورقة مخطوفة اللون، مكتوبة بخط ناعم أنيق يكاد أن يطفو فوق الصفحة دون أن يلامسها. كانت النظارة ماتزال على عيني. أحسست أنني لن أتمكن من قراءتها. في هذه اللحظة قرع

باب غرفتي. خبأت الورقة تحت الوسادة. نهضت. فتحت الباب. كانت أختي.

اعتذرتُ، ودخلت إلى غرفة النوم. أخرجت الورقة، وشرعت أقرأ:

«إلى غزالة وعري وظلِ مهجتي... حاولت كثيراً ان أرجئ مسارتي هذه أو أتغاضى عنها كلياً، لولا أنها ظلت تلح عليّ بشدة، وتراودني على مدى السنوات الخمس التي سبقت أول زيارة، وما تزال حتى الآن. إنها إثم قابع في ضميري لم أتمكن من التكفير عنه ونحن بعيدان، كل منا عن الآخر، كأننا نرقّد أمنية النحل في قحط خريف. وربما ساعدتني رسالتكِ الأخيرة، التي أوحت أكثر مما أفصحت، كي أحسم أمري وأطرح قدامكِ أوراقي ونواياي وتخيلاتي ونزواتي وظنوني وهواجسي. مذ قرأتها وجدتك تنأين عن نفسك كحمامة يترصّد فراخها صقر، فيما أغصان قلبك تنكمش على نسغها كي لا يتقطر فوق التراب. فإن ذبلت الورود في صباحات حوشك، سأدعو للسنابل القادمة بطول البقاء.

افتتحتِ الرسالة: زهر الدفلى اسودَّ، والأقحوان تاه عن فتنة النهار، والطير يهاجر بلا عودة، والفراشات تستغيث! الأغاني فزِعة،والنعاس قفّصه الليل بدائه وانسلّ، والشهوات ضاعت في دروب الغربة والانتظار. وأنا ألوب في طرقات مغلقة، واحتكاكات حذائي تقدح شرراً لحريق بلا نهاية!

منذ أول بارقة انجذاب وجداني بيننا كاشفتك بكل ما يتربص بي من مخاطر، ولكنني تكتمت على الصراع بين الارتباط بك والخوف عليك، وانتصرتُ لأنانيتي بدل الامتثال لأوامري الأخلاقية. كان حرياً بنا أن نفترق، ولو أنني تحليت بقدر أقل من نكران الذات لتجرأت على نفسي وأظهرت تجاهك خلافاً لما أضمر، وكنت غضضت قلبي، وحاجتي إليكِ منذ الملمح الأول لمشاعري. ربما كان كل منا سيتألم على فقدان البدايات،

ولكن الزمن كان سيتكفل بإسدال الستار على بقية الحكاية.

لا أدري إن كان خاطراً كهذا قد اعتراكِ، أو أثاره آخرون، فأوصدتِ دونه الأبواب، وتركته لكِ وحدكِ.

ألم ترددي في لياليكِ ولحظات تأملك: لماذا لم تترك فرصة لوليد محتمل؟ لماذا وافقتكَ على التخلص من جنين لو كتبت له الحياة كان سيملأ علي حياتي كلها، أو نصفها أو ثلثها. ولكنت أمضيت السنوات الخمس الأولى مشغولة به معظم وقتي: أرضعه وأغسله وأبدل ثيابه وألهو معه وأتحدث إليه وأحمله إلى الروضة وأرتب سريره وأناغيه وأبكي معه ومنه وعليه. كان سيحيلني أماً ويبعث فيّ أضعاف قدرتي على الانتظار، وأضعاف قدرتك على التحمل.

حين تبكين يقول من حولك إنها في ريعان صباها تنتظر السراب، المسكينة تبكي نفسها، ولم تعد تتحمل غياب زوجها الذي لا يدري أحد متى سيعود. وحين تضحكين ينتشر لغط من نوعٍ آخر. الجميع يحصي عليك أوقاتك وحركاتك وملابسك وتسريحةشعرك ومشاويرك، وكلها مسلسل من التُّهم المضمرة. لقد انتهى موسم الحزن، هي الحياة مواسم. غداً ربما تذهب إلى الرحلات والمسرح والسينما!

والمتعاطفون يقولون أشياء أخرى.

لو لم نقع يوماً في الحب كنا تفادينا الكثير مما نعيش! أجل أحببتكِ، وأعترف بأنني لم أكتشف من كنوزك سوى بعض لقىً، ومن فيضك سوى الغيض، فقد خلت منا الدرب ونحن في بداية حياتنا المشتركة. أقبّل أناملك المتعبة وأنت تحوكين حصيرة منفاك الطوعي بحراشف القصب وشظايا الشفق المكسور، وبكل الأسماء الممنوعة وزغاريد الوجع والعوز والصقيع.

كم تمنيت لو أنك ترسلين لي بلاغاً مقتضباً تقولين فيه: «لقد انتهى كل شيء بيننا، ليس ذنبك، وليس ذنبي. أرجو ألا يضنيكَ هذا النبأ أكثر مما أضناني قرار إعلانه». لمَ لمْ تفعلي! ما الذي جعلك تصرين على تطويقي، بلا هوادة، بقيود من تبكيت الضمير؟

ألا تشتاقين إلى حريتك، ألم يرهقكِ ظمأ الجسد؟ أتضرّع إليكِ أن تجازفي بخيار يحرر روحك مني ويرفعها إلى مقامات الفرح. أمنحك من داخل أسري جواز الخلاص من ربق انتظاري، وإن عزّ عليك الأمر، كوني غيرَك مرةً، واخرجي من تحت هذا النصل، وليقل الآخرون ما شاؤوا. سأدافع عن خيارك الجديد، إن استطعتِ الوصول إليه، وقولي باسمي على الملأ: إنها إرادته وقراره. أتوسل إليكِ أن تنزاحي عن كاهلي، وتجنبيني مغبة هذا الاختبار العاتي؟ لن يكبدني ذلك الكثير، سأدفن رأسي في وسادتي لبضعة أيام أو أسابيع إلى أن تنبت لدي أجنحة التعوّد من جديد على فقدانِك، وأبدأ اقتراف الشعر إلى مجهولة، قد تكون أنتِ أو سواك. لكنني أعدك عندئذ بالكف عن اغتياب ملامح جسدك وعاداتك وأطوارك بتخيلات تشيدها رغبة آثمة.»

الرسالة لم تنتهِ، وأنا ما عدت قادرة على الاستمرار، فقد غصصت بها كلمة كلمة. كنت أعتقد أن من شرب ماء البحر - مثلي - لن يغص بساقية، لكن الصداعات التي سببتها لي رسالتك هذه كانت غير مألوفة. كنت أخالُني قادرة على إكساء حروفك بالنقاط الملائمة حيثما وقع بصري عليها؛ وإذ بي أتعثر بلغة مثيرة للضياع والشبهة، فنصائحك «النبيلة» لا تليق بي، بل هي فائضة عن حاجتي حتى لأكاد أن أجزم بأنك تخاطب امرأة أخرى سواي.

لماذا لم تقل لي هذا من قبل؟ هل كنت تريد أن ألقي أسلحتي وأعلن عجزي، رافعة راية الاستسلام، وآتيك مكسورة القلب والإرادة؟ أتريدني

أن أنعتك بإنصاف فات أوانه، أم أنك تبتغي الثواب! لعلك لا تدري ما الذي اقترفته يداك وأفكارك الحارقة؟ لعلك جاهل أن ما يمكن أن يسميه الآخرون عرفاناً بالجميل ليس سوى نكرانٍ، عن غير عمد، لكل ما استطعت التمسك به خلال غيابك من أجل أن أقوى على العيش كما ينبغي.

من حقك أن تعتبر نفسك قوياً في مواجهة مصيرك، وحرياً بتحمله، حتى لو لم يكن لديك خيار آخر! ولكن لا يحق لكَ أن تختزلني إلى مجرد امرأة متضامنة معك، أو محبة فقط، فلو كنتُ كذلك لتلاشى موقفي مع مرور الوقت. كيف طاوعتك ذاتك على مظلمة كهذه، فأنا امرأة لي طريقي الخاصة وثوابتي، وحقائقي ربما المتخالفة مع حقائقك؛ أما خياراتي التي تعتقدها متعددة، ككثير سواك، فأنا من يحدد أيها المغلق وأيها المفتوح!

في غيابك تعرضت إلى مستلطفين، حتى من معارفنا، وصيادي فرص ومعجبين ومستبدين، وكلما تربصت بي فداحة ما، كنت أستظهر تعاويذك عن ظهر قلب، وأكتشف من الرقى ما يُبعِد عن درج البيت عواء الذئاب؛ وكدتُ أن أتعلم السحر لولا أنني خشيت من انقلابه عليَّ! انتظرتك، وزرعت لك عند مفترقات الطرق كل ما يخطر في بالك من رياحين، وبقيت أعدّ الثواني، متجاهلة حشرجاتي، غاضةً بصيرتي عن المسافة بين الصدى والصراخ.

في المساءات كنت أعدُّ السرير لأحلامنا، كما لو أنك موجود دوماً. أجلس لأتأملك، لا، لم أكن أمالك نفسي، كنت أمشي جيئة وذهاباً، أضفّر، بخيوط قصائدك، شعري الذي كان أسود فاحماً. أعشّب حديقة روحي من كل مشاعر القنوط، وأسقي وسادتي كل ليلة بخلاصة الصبر والحنين، والبكاء أيضاً. لقد كوَّنتُ لي فلسفة جديدة مع البكاء؛ ليست

عجزاً، بل لهفة إليك، ليست ضياعاً، بل افتقاداً لأصابعك تمشط شعري، لأنفاسك تطوف حول عنقي، لعينيك تزغردان فرحاً ونحن نتراشق بماء سعادتنا الشحيحة.

لستُ محقة بمنّة،ولستَ مطوّقاً بقيد، ولم أكن أرجو يوماً مطافاً كهذا، حتى لو جاءني على شكل رثاءخجِل أو عزاء. وتذكر ما قلته لك يوماً: «مهما غالبني اليأس، سأبقى واقفة في باب الزمن أناديك حتى غاية الرحلة. سوف أحاول تجميد عمري، ولا أريد شهوداً على شتاتي في مداك؛ وإن تعبتَ، أو تعثرتْ خطواتك، أو كلّت لديك الرؤيا، فاعلم أن لي ظلاً سيوافيك حيث أنت، سينحني فوقك عالياً كقامة صفصاف، حاراً كالحنين، منعشاً كبرودة نبع، حارساً كيانك الأسري، وسيملؤك بالندى والهديل. واعلم أنني لن أكف عن ترميم ما هدّم الأسر ليلاً، ولن أدع قطعان الرغبات ترعى جسدي وخيالي.

كنتُ أدرك أن بيننا والمطاف الأخير بوناً، وأن البلاد التي عاشت فينا تحاصِر لهفة العيش، وتخنق الصراخ في حلقي. أخالك جرّبت آلام التجريد من حرية الصراخ!

إذن دع لي شيئاً من حريتي كي أحتفظ ببعضي الأنثوي: عذوبة الرائحة والدفء والخيال؛ لعل كينونتي تسترد ملامح تناسقها الربيعي. دعني أصنع قدري وفق قدرتي، فلقد مرت علي أوقات كان فيها الضوء والعتمة الحالكة سيّان، مع ذلك كنت أتحسس دربي؛ على غرار كل السوريات اللاتي ما زلن يتحملن وطأوة الانتظار. ولو أن الليالي، التي علّمتني كيفيئن النبض، قد حررتني منك، لكنت فعلتُ ما تهذي به.

سوف أترامى إلى آخري، ولكن ليس في المآل الذي اخترتَه أنت، بل في المدى الذي اخترتُه أنافي مهب اختلال الجهات.

أسرار امرأة (4)

من يحرّك الأقدار يا إلهي، أنت أم ظلالك على الأرض؟ ربما تنطوي بعضُ أسراري على إجابة ما، دون أن تكون موجهة إلى أحد سواك. أعترف أنني اقترنت بك مهابة لا حباً، ولكن بعد أن اختطفتك الأيدي الخفية من حياتنا، مات خوفي منك، وتولّد خوفي عليك؛ فأحببتك من كل قلبي، وبكيت عليك عند كل مطرح من عِلّيتنا الصغيرة الفقيرة، وصارت الحمامات يحوّمن حولي كلما رأينني. حافظت عليهن برمش العين كرمى لعينيك، لا حباً بتربية الحمام. وبقيت أشتري لهن الزاد وأرعاهن حتى ازددن ضعفين ثم ثلاثة، ولم يأتِنا خبر عنك. منذ العام الأول قيل ماتوا تحت التعذيب، وقيل قُتلوا في الصحراء، ولم يقل أحد أنهم ما زالوا أحياء يُرزقون. خرج المئات، ووصلت أخبار للمنتظرين، بعضها أنعش الآمال، وبعضها الآخر أماتها، فخلخل ميزان العقل. لقد أتعبني أهلي وأهلك والأقارب والجيران، دون قصد، وهم يوحون إلي معتقدين أنك قد متّ. يلاحقونني ليل نهار كي أختار على مسؤوليتي بديلاً عنك دون أن يساعدوني في شيء. واكتشفت أنهم كانوا يروضونني وأخاك على تغيير مجرى حياتنا؛ فجعلوا كل من حولنا يستسيغ هذا الخيار المرّ؛وحدث ما لم يكن في الحسبان. حينئذ فقط خُيّل إلي أنك ستعود يوماً.

لا أدري كيف تشكّل لدي هذا الحدس؛ أهو بسبب خوفي القديم منك، أم لرفضي العميق لما اقترفتُه، أم لأن الأقدار نفسها شاءت أن تظلمنا جميعاً مرتين؟

سامحني يا رب، وسامحني يا من كنت رب بيتي، يا من أحببتك حتى عدتَ، وبعدئذ كففت عن حب

أي شيء.

* * *

الستارة الرابعة

أطفال «الحليب المر» 1

هل كانت نعمة لنا حقاً أن نتزوج ونُنجبَ أطفالاً في زمن عبثي عاقر امتد لعقود ولَّما ينتهِ بعد؟ أليست أمومتنا وأبوتنا مشطورتين بالعجز عمَّا تكتنفه عقول صغارنا ومخيلاتهم، وما يفكر به أولئك الذين ينتظروننا في الجانب الآخر من المَظلمة، أمهات وجدات وأهل وأصدقاء، فأصابهم ما أصابنا، وصرنا وإياهم سواء في هذه التغريبة المديدة؟

أطفال «الحليب المر»، إناثاً وذكوراً، إما حَبُوا أو فُطموا أو دخلوا المدارس أو راهقوا أو ذهبوا إلى الجامعات، أو اجتازوا تلك المراحل كلها، في غياب أمهاتهم وغالباً آبائهم. لم نكن نعلم كيف يفكرون وبماذا يحلمون، وما الذي يعنيه لهم غيابنا؟ كلٌّ له مناغاته وحبوه وخطواته الأولى ولثغته وأبجديته وأحلامه وصوته. ولكلٍ عالمه، وقسمات يُتمه الحقيقي والقسري، وطباعه وكدماته النفسية. رصيد من الأوجاع السارية لعهدٍ جنوني يدوِّنه أطفال كبروا في كنف أمهات اكتهلن انتظاراً، وحملن على عاتقهن عهد العيش كما يليق، وذقن ويلات السلطات العليا والدنيا على السواء. كنَّ لأطفالهن آباء وأمهات، ولنا أرامل إلا موتاً، أنداداً في الشقاء واللوعة والحرمان.

ربما كان وجودنا، نحن أطفالكم، عزاءً لكم، ولكنّ وجودكم، المهور بالغيابِ، كان نقمة علينا! ليته «حليبٌ مر» كما تسمونه. لعلكم نسيتم أن أمهاتنا جفت أثداؤهن بحثاً عنكم! لقد أكلتم الحصرم، وضرسنا جميعاً. وأنجبتمونا وما كنا فِتنة لكم. فمعذرة على هذا الانزياح النصي الذي فرضته سنوات القهر والقحط التي رافقتنا على معراج الألفية الثالثة!

أولوياتكم ليست هي نفسها بالنسبة لنا، واللامرئي بالنسبة لكم مرئي لدينا. اقرأونا على هامش حكاياتكم، اقرؤوا ما كتبناه خلال نأيكم عنا، مثلما قرأنا مادوَّنتموه لنا،بالحبر السري والعلني والحفر على نوى التمر واللوز والخشب والعظم، والنحت والتطريز والألوان المائية والزيتية،وعلى النوتات الموسيقية والتراجم والأشعار.

نحن الأطفال الذين كبروا، لنا رصيد مغاير من القصص والهموم والآلام. تلصّصنا على نواياكم بغاية الكشف عما تُسِرُّون أو تتهيبون قوله، ورصدنا، عرضاً أو خِلسة، الأطوار المختلفة للمحيطين بنا، وسرقنا الكثير من أوراقكم المهرّبة في الزيارات، فكنا، «كالوارث عن أبيه»! ورحمة بنا جميعاً سنسعى إلى رد الاعتبار لكم وإعادتكم إلى رحم الحياة كما يليق بخلقكم من جديد، وتأهيلكم للعيش بعيداً عن مخلّفات الأسر وأوهامه وأمراضه، لعلكم تنتزعون براثنه بأيديكم، وتستحمون بماء الواقع الذي غُرِّبتم عنه أبعد مما تتصورون.

* * *

ليس سذاجة ولا جنوناً، ليس محض خيال أو اختلاق، وليس حلماً أيضاً ما سوف تجدونه من اختلاطات ذهنية تتصارع، وأحياناً تتآلف، في معركة أرضها العقل والذاكرة والحواس المتعبة لمخلوقٍ نمت بنيته النفسية قبل الأوان، دون أن يتميَّز هويته الفعلية. كائن ضيَّع فصول الزمان والمكان فانفتح صراطه على الدنيا، واختلطت عليه الجهات،فامَّحت

المسافة بين ماضيه والحاضر، ووجد أمامه لغزاً مشوَّشاً صِيغ على مهل، وفُرَضت عليه تبعات حلّه.

لست أنا التي رتَّبت هذه الأوراق، هي رتَّبتني، وشردتني، ثم هي التي عرَّفتني بيتم انتمائي، ودقت طبول الاغتراب. فلتسامحني أمي وكل الأمهات، أنني سأقرأ للأطفال حكايات لا تشبه تلك التي يقصها الكبار للصغار قبل الرقاد. سأحكي لهم قصصاً أخرى، لعلهم يحظون بأحلام تخصهم، ويحتفظون بذاكرة عقودٍ تُخجِل الكون بأسره.

أقول لهم: لا تصدّقوا معلّم المسرح، فكل ما قاله كان على سبيل التمثيل. لا تصدقوا أستاذ التاريخ، فليس ذنبه أنه يحكي لنا ما تقوله الكتب!لا تصدقوا الأناشيد التي نرفعها كل صباح تحت السارية المعدنية التي تأكّلها الصدأ وتمزقت خرقتُها الملونة، وهي تجرح الهواء. وأقول للكبار أن يعلنوا الحِداد جهاراً على أرواحهم، ويكفوا عن المشاركة في جنازات الينابيع ورفع القبعات احتفاء بقاتليهم.

سأسرُّ لهم بعضاً من أحلام يقظتي التي طالما بكيتُها. سأحكي لهم كم كان مطلبي بسيطاً أن أعود ذات يوم من مدرستي فأجد أبي جالساً ينتظر مفاجأة وصولي، أو أنتظر مكافأة على دفاتري المثقلة بالعلامات. يتناولها مني أو يحملنا معاً، أمسك بعنقه وأصرخ ملء صوتي، معلنةً فرحي الطفولي. ثم أروي له حكاية قرأتُها أو نسجتُها عفو الخاطر، ويداي تعبثان في شعره الذي كان كستنائياً ذات طفولة، وقبل أن أنام أقبّله على أمل صباحٍ أبويّ جديد!

زيارة سرية

تحت ضغط شوق أبي إلي، أرسلتني أمي برسم الأمانة إلى محافظة أخرى كي يراني. وأبي، الذي كان يحمل اسماً مستعاراً وله مهنة مستعارة، ليس متزوجاً، ويتقاسم السكن مع أخت ليست أخته، وزوجها الحقيقي. وأنا ابنته ولست ابنته، ويجب أن أناديه عمو، وبالتالي سأنادي أخته عمتو، ولم يعرفوا لماذا كنت أنادي زوجها خالي! أما أبي ذاك فيعمل في بلد آخر. ولأنني كنت دون الثالثة، فقد اضطروا أن يكرروا على مسمعي قصتنا الجماعية كي أحفظها، وإلا فسيكتشف الجيران حالتنا المزيفة من أولها إلى آخرها، ونصبح في دائرة الخطر.

وأبي الحقيقي، وكذلك أمي، لم يكتفيا بتحميلي وزرهما صغيرة، بل يصران بعد أن كبرت على سرد الحكاية للأصدقاء، مع البهارات اللازمة في كل مرة، كي أبدو للآخرين فلتة زماني في الذكاء والنباهة وتحمّل المسؤولية منذ نعومة أظفاري.

أمي تقول إنني أقرب شبهاً بأبي، وآخرون يقولون إنني أشبه بجدتي؛ وأقراني في المدرسة كانوا يقولون: «أنتِ لا تشبهين أحداً». كنت أحب هذا النفي الأخير. ولأنني لم أولد في الشتاء ولا في الصيف ولا في الخريف، فأنا أحبّ اسمي. وحين أنادى به أستجيب بصوت يخرج من

قاع روحي، كأنني أخشى أن أنساه. ولكن حين تلفظه جدتي، جدّتي على وجه التحديد، تبرأ حواسي من أوجاعها، وأشعر كما لو أن مطراً يهطل، وأرضاً تخضرُّ بقيامة ربيعية.

أمي وأبي صارا متعاقبين كما الليل والنهار، ومعاقبين بتهمة اللقاءات الخاطفة عند بعض الأصدقاء. وفي البيت تنام أمي على سريرعودته، متكتمة على خوفها مما سيأتي. إنهما الفقدان الذي أفتّح عينيّ عليه صبحاً، وأغمضهما عليه مساءً. كنت أقف طويلاً أمام المرآة، ألصق عليها تلك الصور التي يشبّهونني بأصحابها، فتتمخض تأملاتي عن فشل ذريع في كل مرة. ألملم الصور، ثم أعود إلى طاولتي التي كان زجاجها يغطي صوراً أخرى وزّعتها عشوائياً. على هذه الطاولة كنت أشكل ملامحي: بعضاً من أبي وبعضاً من أمي وبعضاً من جدتي وبعضاً من قسماتِ جيلي. وبعد أن ألملم شكلي أجدني في هيئة أخرى مغايرة لتلك التي كنتُها من قبل.

لم أكن أعرف لماذا هذا الإصرار على تشبيهي مادامت الطبيعة منحتني كياني دون اكتراث لحساباتهم الآدمية المعقدة. فماذا يضير السماء لو شابهت الأرض أو خالفتها؟ وما حيلة البنفسج إن كانت زرقته أوسع من حزنه أو أضيق؟

- 2 -

حاولت أن أمشط لكَ شعرك فشعثتَ لي أحلامي

أنا ابنة تكترث لنبوءات جدتها الطاعنة في الغيب، أتنفس ذكريات قليلة، أطفو عن سوء الطالع كي أستطيع إغفاءة. أكبرُ، تارة وحيدة في الظلال، وأخرى مع أمي والقصص. ففي إجازة البحر أحاول أن أطفوا بعيداً عن زبد الشاطئ، وأتّخذ من صخرة صغيرة مكاناً هادئاً لغزل الخيال. وفي الجبل والسهل أصعد إلى السطح كي أتمتع بمشهد النجوم. قد

لا يصدِّقني سوى الأسرى أنني بلغت من العمر نصف عقد لم أر خلاله النجوم. إنها بعض التفاصيل.

اليوم بدت لي السماء في فوضاها الجميلة أشبه بالنمش المنثور في وجه صديقتي سارة نصف السويدية ونصف المتوسطية. أغمضت عيني كي أمسح وجه السماء وأعيد ترتيب أنجمها، وحين أنهيتُ تشكيلي اللوني، فتحتهما، كانت لوحتي قد اتسعت قمراً طالعاً للتو.

كثيراً ما كنت ألهو مع تخيلاتي وأخلطها بالأحلام، فأقص على أمي رؤيا لم أرها. تضحك بفرح، ثم تروي عليّ حكايةً استوحتها من خليط ثرثراتي. أشعر أن أمي تستطيع أن تجايلني متى شاءت، أو حتى تصغرني، فأسرِّح لها شعرها، كما لعبتي، ثم أضفّره وأربط نهايات جدائلها بخيوط صوفية نسلتها من شالكَ. يصبح وجهها صغيراً، وتزغرد عيناها لأناشيدي واستظهاراتي المدرسية التي أحفظها.

- 3 -

أسألكَ يا أبي: هل قرأت ملامحَ الطقس حقاً حين شرعت في رحلتك الطويلة؟! أم أن ذاكرتك الحقلية خذلتك، فكان ما لم تكن تتوقعه، كطائرٍ فاجأته الغربان في الأعالي! أستحلفك بغيابكَ، بمشيب جدتي، ولهفة أمي، هل فكرتَ بنا كما ينبغي حين استدرجتْكَ السياسة إلى آخرك؛ حين اتخذت قراراً مصيرياً في غضون دقائق، وخرجت تاركاً خلفك كل ما جنَته عقودُ عمركَ الثلاثة. ألم تنكمش شرايينُك وأنت تخفي مشاعرك لحظة ودّعتنا أمام الباب؟

أحتفظ لك بيومٍ متخيَّل من روزنامتي الطفولية، الثامن عشر من آب 1984، وكنتُ في الشهر الخامس من عمري. في الساعة السابعة مساء من هذا اليوم، كانت أمي قد أدت لي فروض ما قبل النوم كلها: بياضاتي ناصعة، وطعم الحليب ما يزال طازجاً في فمي، والنوم ينتظرني عند حاجز

مهدي. حملتني أمي، وناغت لي كما العادة، لكن شيئاً ما في عالمي الصغير كان يتغير! أتخيَّل أن بكائي يومئذٍ لم يكن ترفاً، بل أوحته ملائكتي على شكل نبوءة أو تهويم قبيل الحدث بقليل. بعدئذٍ حملتَني أنتَ بين ذراعيك، كانت أذني متكئة على قلبك. وفجأة انتقل خوفي إليك، أحسسته في صوتك، ونبضك، في حركاتك المضطربة، ثم في غنائك لي.

أنتَ لم تنتبه إلى نذيري المسبق، ولم تستشرني في ما فعلت ذلك اليوم، حين، في الثامنة والنصف، قُرِع الباب ثم فُتح، لتنفتح معه متاهة ستدوم ثماني عشرة سنة تالية. بل انغلق علينا باب لن يُتاح لك الدخول منه حتى الثالث والعشرين من تشرين الثاني 2001.

- 4 -

أبي، لعلّك، هناك، تفرقع أصابعَ القلق وأنت توضِّب أوراقك الغاليةَ في صندوق غيابك، أو تفتش عن عذرٍ لذنب ارتكبته غصباً عنك. أنت لا تعرف أنني أتفحص المرئي والغامض من كيانك، أعاينهما في بصري وكاميرا ضميري. دعني أقرأ ما أراه فيك على طريقتي، فإن صحَّ ظني، وبدوتَ لي على غير ما تتوقع، اعلم أنك ستكون مديناً لي بأبوة ناقصة. وإن أخطأت، فأجري أن تعود إلينا بعد سنتين، ثلاث، أولن أضيف يوماً آخر.

نقّبتُ عنكَ في كل ضروب الألم، لم أجدكَ؛ وفي فتوحات عقلي الذي ما يزال صغيراً بسيطاً، طبيعياً، ولم أجدك؛ فتّشتُ عينيَّ، ضفائري الابتدائية ومريلتي ورسائلك، وكل ما تحبُّ فيَّ، ولمأجدك. فجأةً، وأنا أفتح حقيبتي المدرسية، سقطت من عيني دمعة. عثرتُ عليكَ؛ كنتَ تحفُّ بدفاتري ووظيفة العلوم، بكتبي والأقلام، بالمسطرة وعروسة الجبنة التي نسيتُ بالأمس أن آكلها. قلَّبتُ زوايا الحقيبة، كانت الممحاةُ ضائعةً، ووجهكَ، مكتملاً، فَرِحاً كبرتقالة، يلقي عليَّ تحيةَ الصبحِ.

ـ ألف أُسعدتَ صباحاً يا أبي» قلتُ.

ابتسمتَ، منحتْني قسماتُكَ صباحاً رحباً، وأعادت صياغة ملائكتي بلا أجنحة هذه المرة، مُكتسية وجوهاً بشرية عادية.

ثمة غرابات تحدث معي كل يوم دون أن تَلفت انتباه أحد. أحياناً أستيقظ فجراً، يملؤني صحو عجيب. أنهض بهدوء كي لا أعكّر نوم أمي. ولشدّة حرصي أتعثّر بشيء ما، ألتفتُ نحو السرير. أمي ما تزال مستسلمةً لهدأتها الوادعة.

أخرجُ إلى الصالون، أشعل النور. تطالعني صورتك المؤطرة، التي رسمها خالي في السجن، حرقاً على الخشب. تعلوها غصينات صغيرةٌ جافة لورودٍ كانت يافعةً ذات يوم «صباح الخير بابا!» تضحكُ لي عيناكَ، فتقوّضان ممالكَ الحزنِ والوحشة لديَّ. أجلس قبالتك، المسافةُ تمّحي بيننا، قَبَسٌ من نور يصلني بك.«صح النوم!» تقول لي صورتُك الصمّاء. أغسلُ وجهي وأعود.

ماذا لو تطلب مني فنجان قهوة؟! ألا تشتهي أن أصنع لك قهوة الصباح يا أبي! منذ متى لم تشربها من يدِ أنثى؟ لا تزعل يا أبي؛ لم أقصد إيقاظ شجونك. أردت فقط أن أبلغكَ بأنني مدينةٌ لك بالكثير من فناجين القهوة، ومثلها من الشاي وسواها. لعلك مدين لي بكأس الحياة! هذه دعابة، لا تصدقني يا أبي!

أحسُّ أن صورتك المعلّقة تنتظرني بذهول. ولكن سرعان ما تستجيبُ لهلوساتي الصباحية، أراها ترف جفنيها لي وأنا أحكي، وتومئ أحياناً. أبتلع ريقي مستجمعة شجاعتي: ماذا لو تحكي! أليس من حقي أن تحدّثني صورتُك!

أُنزِلُها، أتملاّها عن قرب، أحاورها، أتوسّلُها كلمةً. لو كلمة واحدة يا

أبي. لا ترد. أعاند، وتعاند، وينتصر صمتُها على نطقي، فأثوب إلى عجزي عن إحراجها أكثر. كل يوم ألمح في عينيها خوفاً عليّ حين أغادر إلى مدرستي.

ـ «أرجوكِ سامحيني، ربما تأخرت!» أعتذر منها، أغمر وجهي بها، فتنغرز فيَّ شوكة من أغصان الورد الجاف. تأتيني ذريعة البكاء طوعاً. أفرح.

- 5 -

ربما لا يدرك أبي حقيقة مشاعري تجاهه، غائباً في يقظتي، أم نادر الحضور في أحلامي. إنني أشبه بكائن وجد نفسه فجأة خالي الذاكرة، مشوَّشَها. أسعى أن أجمِّع قسماتِه، حركات يديه، وحكاياته القليلة كي أكوِّن له صورة حقيقية. تفلت مني الدقائق، أنصاف ساعات الزيارة الشهرية، وتضيق بي الدروب إليه. صحيح أن قلبي يطرب حين أرى بهجةً في عينيه، وتتصاعد تقاسيم روحي، ويتلاشى من أمامي ذلك الشبك المعدني الذي يفصل بيننا. ولكنني كثيراً ما أقع فريسة لأسئلة لا تنتهي: هل أحبُّه أم أكرهه، هل أنا عاتبة عليه أم غاضبة منه؟ أيحق لي أن أسامحه حتى النهاية دون كلمة ملامة؟ أم من حقي عليه أن أقول له كل شيء بلا حرج؟ هو أبي، أجل، ولكن لماذا لا يرتعش قلبي حين أذكره؟ هل أشغل باله؟ وهل تورِق سعادته، وتتراقص خلاياه حقاً، كما يقول، حين يراني؟

- 6 -

أحياناً ينتابني شعورٌ بالعَرَج، على الرغم من المظهرِ الطبيعي لمشيتي. وقد يحدث ذلك ببساطة في مشاهد عادية من حياتي اليومية، في الشارع والحافلة والمدرسة وعند أقاربي. كثر من كانوا يثقِلون عليّ، دون قصد، يتحدثون عن حرماني من حضورك، ملقين باللائمة عليك. كنت ألجأ إلى

الدمع أو حضن أمي كلما سمعت كلاماً كهذا، وكنت ألوذ بالهرب من عيون هؤلاء، بدلاً من رد الصاع، لكن ذاكرتي الأبويّة لم تكن تسعفني في الرد عليهم. كان رصيدي منها بسيطاً ومتواضعاً، لا يتعدّى بضع عناقاتٍ وحكايات ضبابية وابتسامات. ولولا الوعود التي كنت أتلقاها من أمي لتحطّم لدي آخر خط دفاعي في تلك السن.

يحدث أن أزور صديقة ما. أقرع الجرس، فأجدني وجهاً لوجه أمام أبيها: تفضّلي يا ابنتي.

تتعثّر قدماي عند العتبة. تشّوشني كلمة «يا ابنتي»، الصاعدة من حنجرة رجلٍ ليس أبي. هذا النداءُ الذي لم أسمعه في بيتنا من أبي مذ خُلِقتُ.

أدخلُ. يتغيّر في عيني سكانُ البيت، ومحتوياتُه أيضاً. تحاصرني غربةٌ ظالمة يا أبي. أقابلهم كما لا يليق بحرارة استقبالهم لي. وتهمس صديقتي في أذني متظارفةً، مستقصيةً كعادتها، إن أحد اعترضني في الطريق. أبتسمُ لها، أغيّر الحديث متجنبةً ما أمكن ذلك الشعور بالعَرَج الذي يفقدني صبر الحوار.

- 7 -

أبي، إذا أتيح لك أن تقرأني في ضوء النهار، ستجد فيَّ ميراثين متناقضين لا يكفّان عن الصراع وأنا بينهما قصبة فارغة تصفر فيها الريح: ميراث فردي، متنافر وثقيل، وآخر مشترك يشمل كل المصابين بالفقر واليأس والتحسُّب لما سيأتي.

لا أقوى يا أبي على التنصُّل حتى الآن من هذه التركة المزدوجة التي تتناهبني لحظة بلحظة. فهل ستقوى أنت على تحمُّل المشهد الممتد لعقود؛ بعد أن تكون قد اتشحتَ برداء «الحرية» القادمة! هل أحكي للصغار الذين سيُكتب لهم العيش على هذه الخارطة الناصلة، أم للكبار الذين

ساهموا في صياغتها خوفاً أو إذعاناً أو ممالأة أو قناعة، أم لأبناء جيلي ممن يعيشون في وطن كفٌ عن أن يكون لهم مذ سُلبوا البسمة وحُمّلوا أسماء ليست لهم. لو كنتَ قربي يا أبي لكنتُ استعنت بك، أما وأنك في أسرك المزمن فسأسرج ظهر مجازفاتي بنفسي وأتوكّل. وغداً حين يلفظك الحوت، أو يخرجك «بعض السّيارة من الجب»، سيكون لك، كما لكل من أبحروا ضد التيار، أن ترى كيف تعلمنا في غيابكم السباحة في كل الظروف، والسير في شتى الطرقات.

فوق يابسة لا ترحم كان لهاثي حاراً متلاحقاً يلفح أنفي وحلقي، وأنا محمومة شريدة!! رأسي تَمور وتمور، باحثة عن فيء يؤويني، فتتلاشى الظلال. أحاول بحراً يحميني من القيظ فتتقاذفني أمواجه بين مدٌ وملح، ولكن بلا مرسى؛ إلى بقية جزيرة غمرت أطرافها العصور! كم تمنّيت يا أبي لو صحَّت هذياناتي البحرية مرةً واحدة لتوسلتُك قطعةَ خشب أطفو معها فوق وجه الغمر، علّني أتقيأ بعض الملوحة التي ملأت أحشائي وتراكمت على جدران حواسي. لكن صوتي لا يصل إليك، والأمواج تتأبى لفظي، ممسكةً بتلابيبي. فمن يغسل عني لظى الحرّ والملح؟ من يقرضني حفنةً من الماء العذب كي تبترد حواسي. أكاد أن أختنق، تارة بأنفاسي المحمومة، وأخرى ببنات أفكاري. يا لجنون الكون يا أبي حين نستجير من أبناء جلدتنا بعزاء الأشياء!

اسمح لي أن أخلع عليك عباءةً منسوجةً من هذه المشاعر كلها، فقد توشّحني راحة البال لأن أقول ما أشعر به. ولكَ أن تدّخر حزنك أو تشعل قناديل فرحك، وتذكّر أن ثمة شمعةً تضيء غَدك مهما كان وجه الكون أغبر.

* * *

أسرارنا الصغرى

الساعة السادسة والنصف صباحاً. بعد نصف ساعة سأذهب إلى مدرستي التي تبعد عن البيت دقيقة ونصف. جهّزتْ أمي الإفطار، وتركتني أتناوله وحدي. كانت تشرب القهوة في الغرفة الأخرى وهي ما تزال مرتدية منامتها. ناديتها، ثم دعوتها لتشاركني الطعام. اعتذرت. نظرت في عينيها، كانتا متعبتين، قلقتين.

ـ كيف ستذهبين إلى العمل اليوم؟

ـ ككل يوم، بالحافلة، أجابت باقتضاب.

عرفت أنها ليست راغبة بثرثرة أسئلتي. فهي تلجأ إلى هذه الطريقة حين تريد قطع الطريق عليّ. في هذا اليوم كانت أمي في الطور الثالث للحيرة. فقد بدّلت ملابسها مرتين قبل أن ترتدي قميصاً قطنياً داخلياً كانت قد قصّت كميه عند الكتفين؛ وهو قميص يعود لأبي. لا أدري بالضبط ما الذي دفعها إلى ذلك. قدّرت أنها مجرد جرعة لإطفاء شوق مباغت، هذا كل ما في الأمر. وليست المرة الأولى التي أشهد فيها هذه الأطوار التي كنت، فيما سبق، أعتبرها غير مفهومة، لكنني الآن أجدها طبيعية جداً.

ذات مرة طلب أبي منها أن تحضر له في الزيارة اللاحقة حذاء وجوربين لي وكان عمري ست سنوات؟! ومرة طلب منها أن ترفع شعرها إلى الوراء كما أول موعد عشقي بينهما.

الساعة السابعة إلا خمس دقائق. قبّلت الماما، وكانت تستعد للذهاب إلى عملها. ضمتني اليوم إلى صدرها بشدّة أكثر من المعتاد. فتحت الباب، وقبل أن أخرج قالت لي: «سأعود باكراً اليوم».

عدت وعانقتها ثانية، وكدت أتورّط بحديث سريع لولا أنها عالجتني بعبارة وداعية. في الصف اكتشفت أنني لا أزال شاردة الذهن، وقد نبّهتني المعلمة إلى ذلك مرتين خلال الحصّة الأولى. وعندما وجدت أنها لم تنجح في ثنيي عن أفكاري المشتتة، سألتْني إن كنت أعاني من مشكلة ما. أجبت بالنفي. كانت المعلمة تعرف وضعي عن قرب وتتعاطف معي. وهي التي تطلب لي الإذن من مديرة المدرسة من أجل زيارة أبي الشهرية. بادرتني مرة أخرى:

ـ يا ابنتي، إن كنت متعبة، يمكنك الذهاب إلى البيت، في الحال.

راقت لي الفكرة. وفعلاً بدأت أشعر بالتعب. ولكن ما الفائدة ما دامت أمي في عملها. تخلّيت عن الاقتراح.

ـ شكراً لكِ يا آنسة. إنني بخير. أعدكِ أنني سأنتبه إلى الدرس.

حديث المعلمة لفت انتباه زميلاتي، فبدأن يشغّلن وسائل الاتصال من كل صوب. إحداهن، وكانت تجلس خلفي مباشرة، درجت دفترها على شكل أنبوب وراحت تهمس أسئلتها في أذني. ابتسمت للوسيلة، وكدت أن أنفجر بضحكة رنّانة، لكن وجه المعلمة المتعاطف السمح منعني، فكتمت ضحكتي وحزني معاً إكراماً لها.

كان صبري حليماً معي، وكان حليماً جداً. فأمضيت تلك الساعات

الخمس بين التحايل على نفسي والتواصل الظاهري مع قريناتي.

عدت إلى البيت في الظهيرة.

كانت أمي في المطبخ. وما إن وقعت عيناي عليها حتى أدركت أنها لم تذهب إلى العمل، مع أنها كانت ما تزال ترتدي ثياب الخروج.

ـ طلبتِ إجازة، أليس كذلك؟ سألتها دون مقدمات.

ـ كيف عرفتِ؟

ـ لا يبدو عليك التعب اليوم!

ضحكنا.

لم أكن مضطرة إلى جواب توكيدي. تجاهلت ذلك الإلحاح الفظيع الذي يواصله ذهني. بدّلت ملابسي وجلسنا لتناول الغداء.

بتُّ أحفظ نوبات الحنين تلك عن ظهر قلب. ولم أكن أجرؤ دوماً على مفاتحة أمي إلا إذا بادرت هي وأشركتني، لا سيما في الفترات الأخيرة، حيث ارتفعت الوتيرة والحدّة. انتظرت وانتظرت، ولم تأبه أمي لانتظاري. لفتَ انتباهي أيضاً أنها تحاشت التحدث عن أبي طوال فترة ما بعد الظهيرة. انزعجت. وانزعجت أكثر لأنها نأت بنفسها عني؛ ففي الظروف العادية لا تكلُّ من ذكر اسمه أو سرد حادثة تخصُّه. كما أنها تبادر فوراً لسؤالي عن يومي المدرسي. عجباً!

حلَّ وقت النوم، كان دماغي ولساني يرعياني بنهم شديد، ودون توقف. خطر في ذهني ذلك الطفل؟ الجاسوس– الذي كان يشدّني إلى مخططاته وحيله الناجحة في مسلسل تلفزيوني للأطفال. ولذلك لم أتردّد لحظة واحدة حين نبّهتني أمي إلى موعد نومي.

استقبلني السرير بارتياح شديد، كانت رائحة الأرق معشّشة في

الشراشف والغطاء والوسادة. تلك هي الجرعة التي أنتظرها في هذه الليلة.

ارتعش قلبي الصغير. أتجسّس؟! على مَنْ؟ على تلك التي كانت ستذهب بالحافلة إلى العمل. جمّعت رأسي وأجهزة التنصُّت والمراقبة، وتركت حيزاً مفتوحاً بما يكفي لاستطلاع موفّق.

تعرّقتُ بتخوفاتي وحساباتي. كانت أمي جالسة على الأرض قرب المدفأة. كان الكتاب ما يزال مفتوحاً في يدها، على الرغم من أنها كفّت عن القراءة منذ قليل. عيناها تطوفان في المدى الواسع لما وراء الغرفة الضيقة. وكانتا تمران بي بين لحظة وأخرى. لعلّها تريد التأكد من أنني استسلمت للنوم. وكنت بدوري أبثّ على الموجة ذاتها. دوزنتُ إيقاع تنفُّسي، صار رتيباً، هادئاً، ومقنعاً. كانت عيناي نصف المغمضتين تجوسان المكان لتستقرا على ذلك الجسد الرصين المسكين الغافل عمّا يجري حوله.

صدر عني شخير محتال متوسط المدى، كان كفيلاً بإيصال رسالة اطمئنان. نهضت أمي محدِثةً بعض الحركات غير المرئية. مرّ وقت كانت فيه بعيدة عن مرمى بصري، وسرعان ما اكتشفت أنني لا أصلح لتقليد معلّمي، طفل المسلسل، فاضطربت.

تلعثَم تنفُّسي، وتصاعد بدلاً عنه خفقانُ قلبي. ضبطتُه مرة أخرى مصحوباً بحركة تململ لنائم حقيقي. انقشع كل ما كان يحجب المشهد عني. ظهرتْ أمي مجدداً داخل عدستي، وحولها ظهرتْ كل التجلّيات الحارة لنوبة الحنين: مجموعة صور، أوراق بيض، قلم الرصاص الذي تفضّل أمي الكتابة به، فنجان قهوة كبير، علبة السجائر التي يحظّر وجودها أصلاً في غرفة النوم، حسب اتفاق مسبق بيننا، آخر بطاقة وردٍ جاف أهداها لها أبي، ورقات سجائر رقيقة مكتوبة بخط دقيق يكاد لا

يُرى، علبة محارم. وعلى مسافة أبعد، باب خزانة الثياب مفتوح، تظهر منها ملابس أبي، معطفه الأسود الذي ألبسه بين وقت وآخر حين أكون وحدي في المنزل، صورة أبي على طاولة الدراسة، عدساته القديمة، التقويم الذي يعود إلى ما قبل اثنتي عشرة سنة، موسيقا كلاسيكية تلت أغنية هادئة على آلة التسجيل.

بدأ المشهد يتّسع ويتعمَّق في آن، كان شعائرياً بامتياز، بدا لي كما لو أنني قرأته في مكانٍ ما، في كتاب أو في عرض تلفزيوني.لا، إنه المقطع الذي قَرَأْتُه أمي ذات مساء، وكان في بيتنا صديقة ستنام عندنا. لم أعد أدري إن كان متخيَّلاً أم حقيقياً.

هذه أمي، بفائض حزنها المجبول من صلصال الحرمان والصبر. فَرَدت شعرها، كان ما يزال رطباً، متبخراً، سماويَ الفراغات، متقصِّفاً عند نهاياته كما شبابها يا حزني عليكِ!

ابتسمتْ أمي عن دمعتين، وابتسمتُ عن غرابة. حركة غريبة، مدهشة، قامت بها أمي. تركت خصلتين من شعرها تنسدلان على كتفيها ثم صدرها، وراحت تمسّدهما مسهّلة مرورهما بين القميص الداخلي الذي بلا أكمام وبشرتها. أسندت ظهرها إلى باب الخزانة، ثم انكمشت على نفسها كمحارة. تلفّتتْ حولها بغريزة نحلة تريد أن تستأثر بجني زهرة. بضع حركات غير مفهومة ندّت عنها، كان آخرها إغماضة عينين ناعستين، مشفوعة بصدى شفيف لتأوهات جُوّانية.

لم أعد أستطيع تحمُّل اقترافي الجائر لخصوصيتها. صرخت بصوت مستجير: بابا.

باغتَها صوتي وبكائي، تخلخلَتْ خلوتها المرصودة للروح والجسد. قفزتْ أمي، انحنت فوقي، كانت قد غطّت نفسها على عَجَلٍ، بقميص نومها.

بالقبل والهدهدة غمرتني، وراحت تمسح دمعي الذي استسلمت له دون أن أقوى على كلمة. اسعفتني كلماتها: «حلم وانتهى، نامي يا حبيبتي، نامي».

لم أستطع أن أنظر في عينيها، وكلّما حاولَتْ رؤية وجهي كنتُ أدسّه في وسادتي. كانت كل منا تعالج نفسها بطريقتها. شعور ضمني بالذنب جعل يديها ترتجفان، وأنا ينتابني حرج مرير سرعان ما تحوّل إلى تأنيب جارح.

عقدتُ محكمتي الخاصة. من منّا انتهك حرمة الزمن؟ أنا أم أبي أم أمي؟ ومَنْ منا لم ينتهكه الزمن؟ للحظة أشركت أبي في إثم لم يقترفه، ثم ما لبثت أن استعدتُ حلم يقظتي والشفاعة لأكتشف أن ندائي الغريزي لم يكن إلاّ نداء استغاثة مشفوعة بالملامة. كنت أصلي استسقاءك يا أبي.

لا أعرف متى غلبني النوم. ما أعرفه أنني حين استيقظت صباحاً كانت أمي تتوسد قلماً وبضعة أوراق، ووجنتاها طافحتان بفرحة.

من ديمة

في قفصٍ من جماد
يعيش طائر غريد
يظلّ ساكناً صامتاً   في القفص الحديد
هو حزين لا يغرّد
وصوته رائع فريد
يريد حرية   لينطلق من جديد
وأُطلِق الطائر
وراح يملأ الكون بالأغاني والأناشيد.
ما أجمل الحريَّة في وطن حبيب، ما أجمل الحرية، ما أجملها!!
أتيت
أتيت أبحث عنك يا أبتي هنا وهناك
عند ذوبان قلوبنا بنيران حنينك
عندما انسدل ستار الليل فوق ضوء النهار

عندما ارتفعت أمواج البحر لتزيل تلك السنين الطويلة

عندما اقترب النحل من الزهر الجميل

عندما اقترب الطير من اللوز والنخيل

عندما تفتّح الزهر في روابي هذه الحياة

مع طيور السنونو أرسل دعوة إلى السماء

راجية بها أن تعود

المحبة D

96-11-10

العنوان: الصف السادس

الشعبة الأولى

المقعد الثاني في الوسط

الستارة الخامسة

الترحيل من تدمر

مساء الإثنين 1992/5/4، وعلى غير المألوف، فُتح باب الباحة. وسرعان ما عُلِّقت عيوننا على باب المهجع، وبرز أمامنا مساعد الانضباط لثوانٍ، ثم أطلق عبارة واحدة: «ضبوا غراضكم». وانصرف دون أن يلقي بالاً لأسئلتنا التي لاحقته بشكل ملح. لم ندرِ إن كنا سنُرحَّل إلى باحة أخرى أم إلى سجن آخر. ولكن في الحالين كان لعبارته تلك أن تقلب كياننا كله؛ ومعها انقلبت أجواء المهجع عما كانت عليه طوال فترة إقامتنا في تدمر. وفجأة صار ذلك الركام الرهيب من المرارة والوهن الجسدي والروحي جزءاً من الماضي، وتحولت صدورنا الضيقة وعقولنا المترعة بالهواجس والغصات والحزن والمشاكسات إلى مراحات محبة. كانت عيوننا تتضاحك بشكل مذهل، حتى بدا لنا جميعاً أننا تصافينا بصمت. وكالعادة، إزاء أي حدث جديد، بدأت تنبؤاتنا وتكهناتنا ولم تنته؛ كل شيء متوقع ومستبعد بالقدر نفسه. وكلنا منشغل بأفكاره وتهويماته الخاصة، منتظراً اللحظة التي سيُفتح فيها باب باحتنا ثانية.

كان ثمة شيء ما يؤكد لنا بأننا لن نرقد ليلة أخرى تحت تلك الأسلاك السماوية الشائكة، وأننا سنودِّع أسوار تدمر ونخيلها وقمرها وعتمتها. لعل التغير الطارئ على سحنة المساعد هو ما أوحى لنا بذلك! وأخيراً

استطعنا توضيب أمتعتنا الفقيرة ومنتجاتنا التدمرية البدائية: أقلام تنك، وحبر مصنوع من قشور البصل والرمان ورواسب الشاي، مطافئ سجائر، ملاعق خشبية قعرناها بقطع الزجاج، سكاكين من عظم، حقائب مصنوعة من خيوط النايلون ونوى الزيتون، شطرنج مصنوع من خبز معجون بالشاي، طاولة نرد من خرقة قماش وقطع من عجين، رسوم سريالية، منحوتات وليدة الصدفة، أوراق دخان، هوامش صحافة للكتابة، بذور زيتون ودراق وخوخ وكرز ومشمش.

اكتشفنا أن لدينا متحفاً من المقتنيات. لا أحد كان يتخيل أن باحة كالرابعة مثلاً يمكن أن نعثر فيها على أشياء بهذه الدرجة من الأهمية بالنسبة لسجين، من قطع معدنية صغيرة وأزرار ومسامير وكسرات زجاجية ووصفات أدوية وأكياس خبز نايلونية، وأخيراً كيس الإسمنت الفارغ الذي وهبته لنا الريح فقصصناه ووزعنا قطعه بالتساوي للكتابة عليها.

لقد عزّ علينا النوم بعد أن تبدى لنا حلم الخروج من مستودع العاديات هذا قاب قوسين أو أدنى من التحقق! في اليوم التالي، وكان أيارياً حاراً، كنا جهزنا الرحيل لثمانية عشر رفيقاً، ولم يكن أيٌّ منا يعرف أننا قد فقدنا وإلى الأبد رفيقنا التاسع عشر ـ عماد أبو الفخر، الذي كان قد طلب نقله قبل فترة إلى مكان آخر، واستُجيب طلبه؛ ولما سألنا المساعد عنه لم نتلقَّ منه أية إجابة واضحة. بعد قليل جاء أحدهم واستدعى من له أمانات في الذاتية كي يسترجعها، وكنت واحداً من اثنين، فلقد مضى على محبس الزواج هناك أربع سنوات وشهرين ونيف. وبعد أن سلمونا المحبسين تبيّن أن لنا أيضاً مبلغ 4000 ل.س. من كان يدري بأننا كنا «ننعم» بذلك الرصيد المخبوء، نحن الذين كنا بحاجة إلى بضع مئات لتغطية بعض الاحتياجات الضرورية، حيث لم نكن نستطيع حتى شراء الملح أو معجون أو فرشاة الأسنان أو الدواء؛ ناهيكم بتلك اللعنة ـ

السيجارة التي حُرمنا منها آخر مرة لمدة سنة وشهرين.

عدنا بعدئذٍ من الذاتية لنحمل إلى الرفاق خبر الرحيل الأكيد؛ فإعادة الأمانات لم تكن تعني شيئاً سوى الخروج من تدمر. بعد قليل فتح الباب الخارجي ثم باب المهجع، وأبلغنا أن نُخرج أغراضنا.

قبل أربع سنوات وشهرين ويومين، يوم الخميس 88/3/3 كانت تلك رحلة الشتاء، حين وطئنا أرض النخيل، فوطئنا الجُند بأحذيتهم، وجردونا من كل شيء. واليوم، الخميس أيضاً، الخامس من أيار كانت رحلة الصيف التي سجلت خاتمة الإقامة الثكلى وبداية الخروج. فأي مقام جميل كانه خبر الرحيل! لقد عاد أيار أغنية للحصاد والعشق والفرح؛ بل إلهاً متوَّجاً منذ آلاف السنين. ولكن تدمر، التي كانت مملكة الصحراء البهية، صيروها إلى اثنتين، وسوروا قلبها، فجعلوها جافةً كتمثال، وسلَّطوها سيفاً بمئات النصال على رقاب سجنائها.

أيتها الراقدة في أتون النار ولا تحترق، لقد صرت موحشة كالخراب، مفجوعة بقوسك النصر ونخيلك ومائك ورمانك وضيوفك وحُدائك. نغادرك اليوم ممتنين لأصوات أطفالك التي كانت تصلنا من مدارسهم، وأذان الأوقات الخمسة، وأصوات الباعة، والراعي وأجراس أكباشك، وثغاء خرافك، ونباح كلابك، ونهيق حميرك؛ ومعتذرين أيضاً لأبنائك الذين أقاموا صلوات الغائب، وغشتهم صراخاتنا واستغاثاتنا وويلاتنا على مدى سنين، آملين فقط أن ترفعي ذراعك لنا بإيماءة وداع عاجلة.

دخل المساعد بعد قليل، تلا الأسماء، لم يُخطئ أياً منا، ولم يسقط أي اسم سهواً. قبل لحظات قال لي أحدهم والتوجس يتبخر من فمه: أقسم أنني أشعر أن اسمي لن يكون بين الأسماء، ولم يكد يكمل تطيُّره حتى نودي باسمه.

الجدران العالية للباحة، والأسلاك الشائكة، وحبل الغسيل الذي ظلّ

معلّقاً، كأنها تلاشت جميعاً. ألقينا تحية الوداع على كل التفاصيل في الداخل، وعلى حوشنا الخارجي الفقير: نبتات الحمص والبصل التي زرعناها من قبل، والحصى وعتبة الباب، وكل «جماليات» المكان الخاصة التي يألفها المرء حيث كان.

لما غادرنا الباحة ومضينا لم نعد ننظر خلفنا؛ كنا في حاجة للنظر إلى الأمام والقطع مع ذلك الماضي الفظيع. وصلنا إلى الباب الخارجي، ووقفنا قرب الجدار متخوفين من أن تصادَر منا تلك الأشياء السخيفة، بنظرهم، والغالية بالنسبة لنا لمجرد أنها تشكل ذكرى لمرحلة. ولكن بعد أن فتشونا فوجئنا أنهم لم يقيموا لها وزناً، فأعدنا توضيب أغراضنا. قاموا بإجراءات روتينية، ومرة أخرى تليت أسماؤنا وطلب إلينا أن كل من يرد اسمه يجب أن يرفع يده ويبادر إلى ذكر اسم أمه. كان أحد الرفاق شارد الذهن، ربما، حين سمع اسمه، فرفع يده ولم يقل شيئاً، وظلّ واجماً مكبلاً بصمته. وبعد أن سأله المساعد مرات عدة عن اسم أمه أجاب ببساطة تبعث على الجنون: نسيت أجل لقد نسيته؛ وراح يتأملنا واحداً واحداً مستجدياً اسم أمه. نَجمٌ بأسماء متشابهة الوزن والقافية التمع في ذهن أحدنا فذكّره بها، وعندئذ خفق اسمها كما البرق. تبسّم بعضنا قهراً، وآخرون كتموا ذهولهم. تحولتُ إلى الرفيق، وربت على كتفه ومسحت رأسه والغصة تكاد أن تخنقني، حينئذ فاض دمعه.

أخذوا يعدوننا من جديد إلى أن تطابقنا مع أرقامنا، وكنا ثلاثين، ثم قُيّد كلٌ إلى قرين. أصعدونا إلى السيارة ـ الصندوق، وحُشرنا وأشياءنا حشراً. أما حارسنا الداخلي فكان هادئاً ومتعاطفاً، لكنه حريص على الالتزام بالتعليمات، ولم يكف عن التفرس في وجوهنا بفضول طفل.

انطلقت الشاحنة، وراحت عيوننا تودع كل ما يظهر لها من معالم تدمر عبر النوافذ الشبكية: السوق وعيادات الأطباء والشجر والآثار التاريخية والقلعة والنخيل البعيد والبشر. وما إن صرنا خارج المدينة حتى بدأنا نتعارف على المجموعة الجديدة المرافقة لنا داخل القفص. كانت

ثيابهم بالية ومرتوقة، ووجوههم شمعية مغبرة، كما لو أنهم أشباح. ثمة رجل يتجاوز الخمسين، بعض أسنانه مخلعة وأخرى نخرها السوس، راح يحكي دون توقف، يبتسم، ويضحك، ويتلفت إلى الجميع. بعد قليل طلب إن كان في حوزتنا مرآة كي يرى وجهه. أعطيناها له، فأمسكها بحذر ورفق في البدء، ثم قلبها بالهدوء نفسه، وراح يسترق ملامحه ملمحاً ملمحاً دون أن يجرؤ على رؤية كامل وجهه دفعة واحدة. وفجأة تسمَّرت عيناه على إغماضة تشق القلب.

«لست أنا، لقد مرت إحدى عشرة سنة لم أر وجهي خلالها في مرآة:«، قال منتحباً. «وما كنت أراه في أوعية الشاي والماء والمرق لم يكن وجهي أيضا»! وهنا تدخل الحارس محذراً الرجل، فأوجز الخمسيني قائلاً: «أشعر أن مصائرنا وشعائرنا والكثير من قسماتنا التدمرية متشابهة، فدعوني أتملّى وجوهكم حتى نبلغ نهاية الرحلة».

وبلغناها. تلقفتنا في البدء مجموعة من عناصر السجن، وأثرنا معهم مشكلة جراء إساءة تعاملهم مع أحد الرفاق، ما استدعى قدوم مدير السجن، متأبطاً عصاه، ليتحفنا بالتهديد والوعيد، وبعض التوجيهات الصارمة. وحين تفحَّص بعصاه الأشياء التي بحوزتنا أمر برميها في النفايات؛ ومع ذلك وافق على طلبنا بالاحتفاظ ببعضها. عزلونا في جناح مستقل، وجلبوا لنا مياهاً ساخنة للاستحمام. وبعد ساعات قليلة بدأ الرفاق يرسلون إلينا مع سجانة مجهولين بعض الحاجيات الضرورية، التي كانت مستحيلة، بل ترفاً محضاً في تدمر، من طعام وملابس ونقود وأوراق وأقلام وصور. ومع حلول المساء تمكنوا من فتح ثغرة في الجدار:

ثقب العجائب

هو ليس كوة ولا نافذة صغيرة؛ إنه ثقب صغير ضيق بطول ثلاثين سنتيمتراً لا غير، حفره الرفاق، من الجانب الآخر، بسيخ فولاذي، ليصل بين زاويتي مهجعينا، وقد استغرق العمل فيه معظم النهار. وكان أول وسيلة لتواصلنا الإنساني في صيدنايا، حيث تعارفنا على وجوه بعضنا بعضاً بالوقوف تباعاً على مسافة من الثقب. وعبر تمرير أنبوب سيروم رفيع تمكنّا من شرب القهوة والنبيذ والعصائر، وتبادل الرسائل، وسماع أخبار الإذاعات طوال الأشهر التي سبقت فتح الزيارات والتحاقنا بهم.

بعد يومين فقط من وصولنا إلى صيدنايا، أي يوم الخميس 1992/5/7، أُحلنا إلى محكمة أمن الدولة العليا، وكان قد مضى على توقيفنا عرفياً أكثر من خمس سنوات، لتليها أربع سنوات أخر من التسويف والتأجيل انتهت في 1995/6/27، يوم أصدرت هذه المحكمة الاستثنائية أحكامَها بحق مجموعتنا.

المسافة بين معتقل تدمر وسجن صيدنايا بضع مئات من الكيلومترات، وبون خرافي في طرائق التعامل مع السجين؛ لكنهما على مسافة واحدة من متناول الحرية.

أنا، أحد الرعايا الآسيويين، متزوج من امرأة أحب، ولدي عدد من

التواصل في أقبية الفروع
ثقب المعدني

الأخوة والأخوات يملأون البيت؛ لهذا كان غيابي أخفَّ وطأة على أمي وأبي مما يعانيه آخرون ممن ليست لديهم هذه الميزة.

ولأنني محظوظ قياساً بأقراني في السجن، فقد أُودِعتُ وزوجتي القبو نفسه، ولكن في حجرتين متقابلتين، مراعاة لقانون تحديد النسل، وتمييزاً جزئياً للنساء عنا نحن معشر الرجال. ولمّا اكتشفوا أننا نتواصل عبر فتحة صغيرة فوق الباب، فقد أغلقوها، وسدّوا حتى الثقوب الصغيرة التي كان الصدأ قد نخرها في الباب المعدني. أما المسافة التي تفصل ما بين البابين فلا تتجاوز الثلاثة أمتار.

لم يعد بوسعنا أن نراهُنَّ. أما هن فكن يرصدننا كلما فتح بابنا أو أُخرج أحدنا لمواجهة قدره هناك في الأعلى، ثم إعادته بعد حين محمولاً بين أربع أذرع أو مهدوماً على نفسه وهو يتكئ على الجدران، إلى أن يُرمى ثانية في الحجرة ذات الباب الحديدي الصدِئ.

أن نُحدِث ثقباً في الباب أصبح بالنسبة لي غاية الغايات. ولكن كيف، وبأية وسائل؟ وقفت خلف الباب وتفحصته بشكل دقيق إلى أن اكتشفت في وسطه، فوق الفاصل، نقطة ضعف صدئة. لجأت إلى أحد النزلاء القدامى وطلبت منه حمض ليمون وأبرة. وعلى الرغم من بساطة هذا الرجل فقد خمّن السبب فوراً. لم يتبّرم أو يتلكأ. فقط حذّرني من نتائج انكشاف الأمر: «ألا يكفي ما تتعرض له من تعذيب يا رجل! انظر إلى قدميك المتقيّحتين وجسدك المكدوم». طمأنته أن ذلك سيبقى طيَّ الكتمان، وفي حال اكتشافه سأتدبر أمري، ولن أتسبّب في تعريض أي أحد إلى سوء. ولعله استاء قليلاً من ردي؛ فهو الذي تحمّل من أجلنا

الكثير، وضمَّد جراحاتنا بعد الجولات، وسرَّب لنا غير قليل من المعلومات بحكم قِدم وجوده في المكان وصِلاته التي وفرّها بطرائق مختلفة مع السجانة.

كانت المسافة الخربة لا تتعدى مساحتها 22 م. ملأتها بحمض الليمون الممدد قليلاً بالماء. وانتظرت حتى اليوم التالي. وفي المساء، حين بدأت الحركة تتوقف في الممر، رحت أحفر بواسطة إبرة، في غفلة أيضاً عن بعض الموجودين معنا في الداخل. واستمر العمل على هذه الشاكلة لمدة عشرين يوماً. نجحت في فتح الثقب. وأعلنت لصديقي بانني لم أكن أحارب بسيفٍ من خشب، كما كان يكرر ذلك على مسمعي كل مساء.

في الساعة الحادية عشرة نقرتُ على الباب بأصابعي؛ وهو موعدنا الليلي مع الباب المقابل دون أن يرى أي منا الآخر. كانت الخالة رابضة خلفه، واكتشفتْ مباشرة أن ثمة ثقباً في بابنا. كانت عيناها تضحكان حين التفتت إلى النسوة المحتشدات خلفها. وراحت تحدثهن بصوت خافت. وبدأن، كل على حدة، بالمرور من أمام كوة الباب المفتوحة لهن دائماً، حيث تتوقف الواحدة منهن قليلاً فترشق تحياتها وقبلاتها إلى كائن لا تراه ولا تعرف من هو. إلى أن جاء دور زوجتي، وكانت في آخر الرتل، كما لو أنها خمَّنت أنني أنا الواقف على الجانب الآخر. بدأت تتحدث، لم أسمعها. لأول مرة يخطر في ذهني أمنية غريبة كالتي خالجتني: تمنيت لو كانت أذناي طويلتين بما يكفي كي ألصقهما على الباب دون أن أحيد بصري عن الثقب.

بعد انتهاء الموعد الليلي كنت أسد الثقب بنتفة صابون، وما كنا لننزعها إلا إذا وصلتنا عبر الباب الآخر إشارة الأمان المتفق عليها.

مشهد ميلمتري شاسع، مسروق من كل هذا الكون الضيق، يفتح عليك أقصى بوابات التواصل والأمل والعشق. ينسرب منه صوت الحياة لعاشقةٍ تتولى رعاية روحك، وجسدك المستباح ليل نهار. تلملم ما تناثر من ريش جناحيك لتنام كلّ منتصف ليل على وسادةٍ ندَّاها الدمع، فيغدو اسمك على شفتيها كما آية، وتغدو جدائلها حبل أمان، ووجهها ضوء.

الترحيل من تدمر

حلم يقظة أم حلم حقيقي، ما عدت أدري. كان وعيي ملتبساً إلى حد بعيد، مثيلا للأشكال التي ظهرت أمامي.كانت الرؤيا مكسّرة ولم أستطع أن أميز ما إذا كانت أشجاراً عتيقة تعلو جذوعها الطحالب أم أنها مجرد أعمدة مطلية بالقطران.

وجدتني في ممر ضيق تكسوه أعشاب يابسة، فيما تسبقني ظلال شبحية متلاحقة تنسكب تباعاً من الجهة اليسرى للممر. حثثت الخطى حتى بداية السلم الخشبي الذي كان ينتصب في نهاية الممر. صرت أرى وجوهاً أعرفها، لولا أنها تعلو قامات ليست لها. إذ ذاك توقفت عند الدرجة الأولى محاولاً تبيُّن المشهد. كان الفطر طالعاً في زوايا الدرجات الخشبية، الأولى والثانية والثالثة. جثوت لأتفحص طبيعته. إنه تماماً كتلك الأكواب الفطرية التي تنبت عند أصول أشجار الحور والصفصاف. شققت أحدها بإظفري، كان أبيض ناصعاً. فتحته،فوجدت مفتاحاً نحاسياً أصفر في داخله.

فتحت عينيَّ وأغمضتهما مراراً. إنه مفتاح حقيقي. تلفَّتُ حولي، لم أرَ شيئاً. سمعت ضحكة خافتة أتتني من فوق. رفعت بصري، لم يكن سوى دالية عنب متطاولة، تغطي الممر، ما عدا بعض الفجوات التي أمكنني رؤية نتف سماوية من خلالها. تبسمت بخوف. أخذت المفتاح وبدأت أتسلق الدرج ببطء شديد. كانت الدالية صاعدة أيضاً، متكئة على أعمدة متوازية عن يمين السلم ويساره. فجأة شعرت كأنني أراوح في مكاني. أصابتني غمامة رقيقة من الدوار فجلست ووجهي إلى الشمال. لامس رأسي عنقودٌ أسود كانت العناكب غلَّفت معظمه بنسيجها. رحت أفتح ثغوراً داخل النسيج بواسطة المفتاح. حركة عنيفة مني أدت إلى سقوط بضع حبات دفعة واحدة. سقطت في حجري إلاَّ واحدة بدأت تتدحرج إلى أن وصلت نهاية الممر، وما إن استقرت حتى دغر عليها دبور وراح يمتص رحيقها الراعف!

تناولت واحدة من الحبات، فركتها بثيابي قليلاً ورميتها في فمي. منحتني طعماً نبيذياً. لم أتردد في مضغها ثم ازدرادها. تلاشى الدوار. نهضت. تابعت تسلُّقي. أربع عشرة درجة، ولا يزال الدرج الخشبي يتطاول دون التواء. لم تكن الدرجة الأخيرة سوى عتبة باب لا يظهر خلفه شيء. باب في فراغ لا يؤدي إلى شيء. اقتعدت تلك العتبة وأسندت ظهري. كأنني غفوت لبعض الوقت. وحين أفقت كنت أتأرجح يمنة ويسرة. أمرني صوت أن أضع المفتاح في القفل وأمسك به.

بدا لي الأمر جنونياً: الباب بلا قبضة، والمفتاح الذي أقحمته فيه كان ضئيلاً.

«أمسك به»! كرر المنادي.

كان الصوت عذباً، بدا طفولياً، وما لبث أن تكشّف شيئاً فشيئاً عن

صوت امرأة أليف، لكنني لم أميزه. ودون أن ألتفت إلى الوراء، أمسكت بحلقة المفتاح،فانتابني شعور أقل أماناً.الدرج يهتز، وفروع الدالية تترنح فوق أعمدتها، والممر البعيد المعشب يموج أمامي وعناقيد العنب المتدلية تتلاطم. أغمضت عيني التماساً للتوازن، ورحت أفكر في الفراغ المحجوب وراء الباب الذي أستند إليه. بدأت أسمع ضجيجاً ميزت فيه صريراً متقطعاً، وأنّات مفاصل خشبية. وقفت محاولاً فتح الباب،ثم رفعت يدي عن الحلقة، لكن المفتاح لم يتوقف عن الدوران من تلقائه في فراغ القفل.

الزيارة الأولى/صيدنايا

الزيارة الأولى بغتةٌ من دوارٍ رحيم، لا موعد محدداً لها؛ تعيد إليك أجنحةً وملامحَ ومفرداتٍ وروائح منكّهة بحضور زوّارك.

مثول (1)

منذ اللحظة التي أُنادى بها إلى الزيارة يتبدّل كياني، ينزاح نظامي الفيزيولوجي والنفسي ليحل محله شيء آخر لا يشبهني سجيناً.

أحسّ أن ذاتي، التي فقدت وزنها، ستخرج من النافذة سابحة لعناقهم عند الباب الأسود الخارجي الكبير. تتطهر روحي من كل بذور الكراهية، تتناوبني مناعات شتىً مناوئة للتفكير المستقر والشرود المتواصل، فأعثر على كل ما كنت أفتقر إليه في هذا العالم الذي أصبح كوني المستقل، وأحتاذه بأنانية مفرطة، وقد أصير إلى وهلتين معاً: داخل القيد، وخارجه! ذلكم أنا يوم الزيارة.

إلى بافل (2)

«أيْ بني: أيُّ برزخ انتصب وأضاء هشيم المكان، أيُّ إمام تجلت حلقات اتصاله مع المطلق هكذا أمامي. أيُّ حنان صَهَر الشِباك، أي صوفي انبثقتَ من سلالته، أيُّ برهة تكوّمت فيها وهي تجدل ماضياً

ومستقبلاً وحاضراً في مسبحة عُمر، وُلد وازدهر في هنيهته!!

«أيُّ قوس قزح ترنح وتهاوى ونصب قطبيه بين أعيننا. كيف ومتى تلاشى فيَّ نسغ قامتك. كل شيء حضر، كل شيء تجلّى. كل حاسة تملّكت المكنون، كيف سرى الوجد ونصب خيامه بين الأصابع وتدفقت ينابيع النبض. كيف تحوّل الدمع إلى رحيق، قطرة نبيذ، وارتجع عبر مجرى الدمع إلى الحلق وانزلق إلى العروق والشرايين، إلى أبواب الحواس، إلى الذاكرة، إلى الوعي ـ اللاوعي، إلى الـ نحن العليا والسفلى!

«كيف امّحى الفرق بينهما إلى هناك، رائحة العشب الندية، واندلعت براكين الرعشات الصاخبة الهادئة المسترسلة بالشفق الوليد.

وقرفةُ ضحكاتك، لحنُ الفصول العريقة العتيقة، تلثمُ رخام قصور الحكايات والملوك من قصر آمون إلى قصر قيصر، من قصر سليمان إلى أضخم القصور

«أبجديتك انسكاب خمرة عتقتها أربعة عشر عاماً، قرناً، كأس صقلته يداه وعيناه، أنثى العصور، ربما عشتار الحلم القديم الآتي كانتقال صوت الترنيمة الوثنية إلى العين.

«أيُّ صدر استنشق المشهد، وأمكنة متناثرة في الذاكرة والكيان هرعت إلى شعيرات الشهقة، شهقة كانت كنداء الآلهة السري، لتنهمر وتحط وتخلع أثوابها الأثيرية؛ تعرّت كالروح من كل أرديتها، وأودعتها على مقربة من الشغاف لتأكل القلب (كعصفور التوت).

«أيُّ بحر يهدر في أعماقنا ويرسل أمواجه المحملة المجللة بالأساطير، بأطيابها وعذاباتها إلى الشفاه المفعمة بالهمس المبهم.

«وانتهت الزيارة، وانسحبت القارة السادسة، وتسللت معها الحاسة السادسة.

«يا إلهي لك الهراء والرجاء، نحن بيضتان لأصغر طائر، ننفطر وننمو ونكبر ونقدّم وجبة طازجة مختلفة لهذا القدر الجاثم الراسخ المتمدد على خلايا الوقت.

«يا إلهي: كنا موجتي بحر، تتمازجان لتشكلا جناحي نورس يعانق الأصيل.

«يا إلهي: لك الرجاء والهراء، نحن جناحان أردنا الطيران، أردنا الارتفاع، السمو، الانعتاق منك لنراك، وإذ بك أشد عنفاً ومفارقة مأساوية، يسيل منها دم الشرايين والأعضاء، بل ملحمة يسيل منها نسغ الروح بعد الطفل والنحر والسفح والسهل».

«يا إلهي: عذراً وطاعة، خطوة إلى الوراء، خطوتان، ثلاث، ركعة، ركعتان... ثلاث وأكياس نايلون سوداء مملوءة غذاء الشهر الفاصل بين زيارتين، أكثر أو أقل لا فرق، غذاء للمعدة والروح فلماذا؟».

وأعود كنطفة يرفضها رحم الواقع

وأعلق روحي وأبجديتي في مكان قصي أبعد من نجم هناك، حيث غياهب الإبهام والغموض، حيث أنت، لأحاورك وأخرش جديلتي معك بصمت ونشيج أخرس.

ولكن أين أعلق ميلادي يا أمي!!

مدّي لي كلمتك الأولى!

حسان (3)

على غرار الاثني عشر ألف مضيّع خلف روزنامة الزمن كنت أنتظر زيارتي الأولى. ولعلّ ما كان يميزّني عن سبعين بالمئة من هؤلاء أنني كنت مقتصداً في رومانسيتي، أتحاشاها مع بعض التواطؤ، محافظاً على مسافة أمان لروحي، ومتكئاً على سجيّتي كي لا أقع فريسة العقل البارد.

صحيح أنني نزّاع إلى التكيُّف، حتى مع فقدان الخيارات والبدائل. لكن بواعث التمرُّد لم تنضب في عروقي بعد، ولم تنطفئ فيَّ جمرة التعبير عن ذاتي كلما تطلَّب الأمر؛ وفي الوقت ذاته لا يروقني الضجيج، خصوصاً بعد أن تأكّد لي بتحفظ كيف أن أكثر الأصوات إسرافاً في الصراخ هي أقلّها حضوراً وتحملاً لوطأة الواقع.

هل يعني ذلك أنني لم أعش رومانسيتي الخاصة وأحلام يقظتي وشجوني وتصوراتي؟ لقد اجترّت نفسي سيناريوهات شتى كنت أتشارك في معظمها مع أقراني، أبناء هذا المصير اللئيم.

كانت حنان وشغف غذاء لخاطري على طول غياب، كيف سيقع بصري عليهما ويتلقّفهما جنوني، وتضيع شغف بيناتنا. هل ستطفح عيناي بهما كما أرغب وأخطط في سري؟ هل سيتاح لنا، في تلك الدقائق القليلة، الإفصاح عمّا فينا؟ هل سيتدخّل أحدهم، بكل حيادية المراقب الصقيعية، فيضع حدّاً لكل شيء، ويتلاشى الحلم دفعة واحدة!

عمر شغف الآن خمس سنين. كيف ستتذكر وجهي، نداءاتي الأخيرة لها وهي في سن الفطام. ما الذي تبقّى من ملامحي تلك. فشعري قصير الآن، وشارباي طارا مع أول جولة تحقيق، وعيناي غائرتان شاحبتان. عزائي أن حنان قد تعيدني طفل ذاكرتها، ترمّمني، تزيل خثارة الزمن والتعذيب عن قسماتي شبه المشوّهة. وقد تتغافل عن تشوّهاتي وندوبي الجوّانية التي لن تكفيها الإسعافات الأوليّة حين يصبح المُتَخَيَّلُ حقيقةً جاثمةً بكل أعِنّتها وحرّاسها وأنشوطاتها.

طقوس البطلان والجحود واليأس تستميت في محونا دفاعاً عن وجودها. تلتهم صورنا الجميلة، وملامحنا الصغرى، وخيوط الرجاء؛ تتطفل على أحلامنا، تقرضها، ثم تقبع في العتمة تراقب تقوّضها. إنها وابل من نبال الشماتة والشؤم. اندحار يئدُ معه وجوه البسالة مثلما يئد النصرُ كل جهالات القتل.

حسان! زيارة. أحدهم ينادي عند باب الجناح.

يختنق الزمن، تنغمد سيوفُه المشرعة من تلقائها؛ يصيبني الخدر والذهول، وتنهار أرصدتي الذهنية مع أوّل نداء منْسي: زيارة. كنت أحوج إلى ملايين عيونكم ومخيلاتكم وأحاسيسكم كي أتلمّس ذاتي وأتعرّفها. اختلطت لدي الرؤية بالرؤيا، وتسربلت خلاياي بلبوس الحنين والترقُّب حتى كادت تلك المساحة الزمنية الضئيلة، التي تفصلني عن لقائهم، أن تشرّد انتباهي على نحوٍ اعتباطي جائر. زاغ بصري، جرحت وجهي ثلاث مرات أثناء حلاقة ذقني، ورحت أتعثَّر بمن حولي، وأخطأت عروات قميصي، لولا أن الشباب تدخلوا ضاحكين ففكوا أزراري وعبأوها، وأنا كتلميذ قبيل يومه المدرسي الأول. كان النداء يخصنا جميعاً ـ كنا ما نزال عائلة سياسية واحدة بأطياف متداخلة الألوان، مترافدة الجرح.

عشرات الوصايا الواضحة دوّنوها لي على ورقة صغيرة كي لا أنسى منها شيئاً. فهم يعرفون علّتي ـ النسيان. ويداعبونني بلقب «النسّاء»!! يخيل إليّ أن هذا اللقب سيرافقني ـ عن جدارة ـ إلى أبد الآبدين. كنت وشيت بنفسي من قبل: كانت حنان تعيّرني به أو تناكفني، وغالباً ما تلومني.

كم نسيت مواعيدكِ من قبل يا حنان! كم نسيت مواعيد مدوّنة أصلاً في جيب سترتي، وقدكلفني بعضها غالياً أحياناً.

نزلتُ، لا أعرف إن كان الجندي يسير أمامي أم خلفي. رحت أقفز الدرج ثلاثاً ثلاثاً. ولم أتنبّه إليه إلا حين صرخ بي أن أتوقف. وقفت. ورحت أضحك. بدا ممتعضاً، لكنه لم يضِف أية كلمة لاحقاً. قرأت في عينيه توعّداً لم يعنِ لي شيئاً. بيد أن قراءاتي تلك هي التي كانت بلا معنى.

مررنا بمحاذاة باب الغرفة التي ستشهد لقاءنا. كان ينبغي انتظار قيامهم

بعض الإجراءات التي أجهلها تماماً، لكنني مذ لمحت وجه حنان وشغف وأمي عبر الباب المشقوق صار البرق جوادي. تركت الجندي يمضي وعدت مسرعاً باتجاه الباب، دفعته ودخلت. لا رادّ لمشيئة الشوق.

تعثرتُ بحصى الذهول، تباطأتْ خطواتي، ثم بوثبة واحدة، كانت يداي مصطدمتين بصدّ القضبان. وقفتُ. سرب من الطيور الجارحة حطّ فوق رأسي، على كتفيّ. متراسان من القضبان المشبّكة يفصل بينهما فراغ كوني شاسع.

ناداني الجندي. كان وجهه قد فقد ملامحه الحيّة التي كانتها قبل لحظات. أشار إليّ أن أرجع وكانت عيناه توحيان بحلول كارثة. لم ينبس بكلمة. خرجت معه من الغرفة ووجهي إلى الوراء كمن يخرج من مزار مقدس. أبقيت بصري هناك وتبعته، لا أراه، لا أرى شيئاً. ظلّ صامتاً. رفع سبابته في وجهي، ثلاث دقائق خلتها السنين الثلاث التي أمضيتها حتى الآن. سأكتشف في نهاية الزيارة أنني مدين للجندي بدقائق الانتظار الثلاث تلك التي أنقذتني من سكتة ذهنية أكيدة، على الرغم من تضليلي بتعابيره المحنطة التي قابلني بها أمام أهلي.

عدنا إلى الغرفة يصحبنا جندي آخر يقضم تفاحته بحبور ونهم. عاد إليّ توازني قليلاً وانبعثت أنفاسي من جديد، وفرّت الطيور.

لا بد أنني بدوت لهم كائناً عاقلاً هذه المرة. تلقّفتْني عيونهم، واجتذبهم بصري دفعة واحدة. كانوا سبعة. شغف خارج العدّ، كانت في كل مكان وفي لا مكان.

مددت يدي عبر الفراغ المتري الفاصل. لم أعد أعرف أي يدٍ لامستها وصافحتها أولاً، وبارتعاشة واحدة اغتسلت من أدران البرد المعشش في أنحائي. عادت كهرباء جسدي لتعمل كما لو أنها لم تتعطل كل هذا الزمن. الحواس بلا علامات فارقة، سوى أن حاسة الشم ـ هذه الهبة

الرائعة ـ تضاعفت. رائحة كيانٍ من عالم آخر، طازجة ومفعمة بالهواء والحرية والشوق، عبَقت من حضوراتهم. سبعُ روائح حقلية ملأنَ رأسي.

ناديت ابنتي: بابا شغف.

لم ترد. ولم تلتفت. فقط تشبَّثت بصدر أمها، ولاذت به كطريدة.

ماذا يعني لها ندائي، لهفتي الأبوية، أو حيرتي ودهشتي؟! ما الذي كان يميزني في نظرها عن أولئك الواقفين حولي، مَزْوْرِين أو جنود؟! رفعتْها حنان، علّقتها على الشباك وأمسكتها من الخلف ثم أشارت بيدها تعرفها بي: البابا. زعَقتْ. كان صوتها متشنجاً، رافضاً. أشاحت بوجهها عني. رشوتُها بقطعة شوكولا ودمية صنعتها ليوم الحساب هذا. ولم أعد أطمح بأكثر من نظراتها الجانبية التي ترمقني بها. ظلت معاندة، حذرة، خائفة ومترصدة. حمامة برية بامتياز.

إحباط آخر دخل روزنامتي

جاء من يبلغني أنه باستطاعتي الدخول إلى ذلك الفاصل المتري الذي يحول عادة دون حدوث الزلازل الوجدانية بين الزائر والمزور. كان لا بد لنا من نفح العازل الشبكي حرارة قبلاتنا قبل أن نتبادلها. أعطيت ابنتي لعبة خشبية صغيرة كنت صنعتها لها بدأب تحت الرقابة. وهي عبارة عن قطعتي خشب متوازيتين يربط فيما بينهما ثلاثة خيوط، وفي ثلثي المسافة ثمة حيوان خشبي جميل وملوّن يقوم بحركات بهلوانية راقصة، خلت أنه قادر على اجتذاب شغف إليّ كما أبتغي. لكنه خذلني. كان حزنها البدائي عصياً على الترويض، لم تبدِ حراكاً، كانت عيناها معلقتين بذلك الشيء المتحرك الذي شغلها عن البكاء فقط.

خيبة في المرصاد

عانقت حنان من ثغرة عند نهاية الشبك، كان الحارس ذو التفاحة قد أرشدنا إليها، فيما يداي تلامس وجه شغف وشعرها وقدميها الصغيرتين. لم يفاجئني حريقي. كنت أتحسَّب لذاك السعير الأرضي الذي سيبتعث من تماس وجهينا وأيدينا. لم يكن تماساً، ولا عناقاً، كان شيئاً آخر.

«كم تغيّرتَ يا حبيبي!» لم تقوَ حنان على قول المزيد. تقلّصتْ إلى خمسي حواسها: اللمس والشم. أما أنا فأدركتني سهامُ الصمت. تلاشى الكون من حولي، ولم يبق لي سوى هذه الجنَّة الصغيرة. في غضون تلك الهنيهات كانت أمي تعاني من نوبة حنينها المزمن. همستْ حنان في أذني: نسّاء. انشقّت شجرة عناقنا إلى نصفين. خطوتُ نحو أمي، تعرّشتُ على نحرها. كان عقلها مؤجلاً حتى إشعار آخر. همستُ ببضع كلمات مهدّئة، فاستحالت إلى نشيج يُصدِئ الروح وربما يرفعها إلى ملكوتها السماوي. أنْتشت في عينيّ بذور الاعتذار ولم أستطع أن أعتذر بكلمة واحدة. يمكنك الاعتذار من كل البشر إلاّ من أمك. هي هي منذ طفولتي، تكفيها كلمة واحدة حتى يتلاشى عتبها وملاماتها وغضبها. كانت رأسي ما تزال مدفونة في صدرها، من بين القضبان، حين سمعت صوت الجندي الأول. التفتُّ، فرجاني أن أنهي المشهد. لم يعد يحتمل ما يراه. يا

إلهي كيف تلاشى تجهمه فجأة واستعاد هيئته الطبيعية ومشاعره وفطرته الآدمية.. تلاشت تدريجياً تنبيهات الممنوع والمسموح، ومعها اختفى احتراسه وتحفزه وفضوله. ارتقى، مع مرور الوقت، هذا الوقت القصير، من متطفّل مقيت، إلى طفل مشدوه. نظرت إليه، كان يخفي وجهه بذراعه، مخفضاً رأسه، مستديراً إلى الاتجاه الآخر. بعد شهر على هذه الحادثة ـ الزيارة ـ صنعتُ له هدية: ميدالية تتدلى منها منحوتتان خشبيتان على شكل دمعتين منهمرتين.

انتهى الوقت! جاءني صوت من الخلف.

لم أصدق. تململت قليلاً قبل أن أتراجع، مشيت مرة أخرى إلى الخلف وعيوني تودّعهم، وخرجت ملوّحاً بيدي. كان بوسعي أن أفتدي تلويحةً خاطفة من شغف بسنتين كاملتين تنضافان إلى عمر أسري. لكنها لم تشأ.

عدت كليلاً، مزعزع الخطو حيال ذلك الحلم الصريع. فكرت في أن أخفي ما آلمني في الزيارة، وأفصح عن القليل مما أفرحني، وأسبل رغباتي ستاراً على الوجه المأساوي للمشاهد. لكنني سرعان ما تخلّيت عن ذلك راضخاً لسجيتي في سرد ما حدث دون تغيير. بعد لحظات سأكون أمامهم، في تلك الفسحة الضيقة التي ستتسع لثلثي عددنا البالغ نيف ومئتين. وهي الطريقة التي اعتدناها مذ فُتحت زياراتنا.

كنا كما لو أننا في حفلة عرس حقيقية لحظة دخولي المكان الذي بدأ يغصّ بالهرج والمرج والنكات والتعليقات المتنوعة، شديدة الغنى، تلميحات من هنا وهناك، مناسبة وغير مناسبة. لكنني كنت في وادٍ غير واديهم، رغم إصراري على أن أبدو طبيعياً.

جلست قبالتهم كأنني في حضرة هيئة محلّفين محنكّة. بدأت حديث الزيارة من لحظة استعدادي الأولى، بما في ذلك التشريح الدقيق لحالتي النفسية والذهنية. بدأ الوجوم يخيّم على الحشد. أجزم أن الكثيرين كانوا

مقطوعي الأنفاس حين رحت أتحدث عن شغف. وتمنّى آخرون علي ألاّ أكمل:

ـ لقد حولتها إلى مجلس عزاء يا رجل. قال صديقي الضخم. إحك لنا عن حنان، عن عقد الياسمين الذي في عنقك. عن أمك وأبيك وأخواتك. من الطبيعي ألا يعرفنا أطفالنا.

ـ أبي لم يأت معهم، إنه مريض.

ـ بقي لك فقط أن تعدد لنا المرضى والعجزة والموتى والمطلقين وأبناء السبيل.

اعتذرت لهم بصدق. وحكيت كل ما تذكرته عن الدقائق الثلاث الدهرية التي سبقت الزيارة وعن نصف الساعة والتي حفت بي كالنسمة. بعدئذ استأذنتهم كي أستحم، فقد كنت مبلّلاً بالعرق من رأسي حتى أخمص قدمي.

دخلت الحمام. خلعت ملابسي. ووقفت أفكر: أليس جحوداً فظيعاً أن أغتسل الآن؟ سأتركهم عالقين على ثيابي وقبلاتي وملامساتي ويدي وحبالي الصوتية وجسدي.

لم أغتسل، لكنني استغرقت من الوقت ما يسمح لاستحمام خمسة أشخاص، لم أشعر بالزمن. نادى أحدهم من الغرفة:

ـ هل نسيت منشفتك يا رامي؟

إنه صوت وريد، الوصي على حاستي السادسة. عرفت مقصده. خرجت عاري الصدر متدثراً بالمنشفة. وحين لمح عينّي، بادر قائلاً بصوت مسموع: «كعادته، دائماً يدخل الصابون في عينيه».

ثم التفت إليّ مضيفاً:

ـ هكذا أنت دائماً تميل إلى الكفة الراجحة.

أنقذني وريد من مماحكات الأخذ والرد. ولولاه لكنت سأجدني مضطراً لسماع بعض المحاضرات حول البكاء ومعناه وخلفياته. وسينخرط رهط كبير في النقاش، نفر مع البكاء في أي زمان ومكان، وآخرون ضده أياً كانت الأسباب. وسيغرقون في أعماق نفسي فيحلّلون ويشرّحون، ويخرجون باستنتاجات فرويدية وباكوية ويونغية، علقت بأدمغتهم عشوائياً من مطالعة كتب علم النفس التي تضمها مكتبتنا السجنية، إلى أن أصبح كائناً غيري!! مع أن القضية ببساطة تامة أنني أحسست بالحاجة إلى البكاء فبكيت. يا أخي غددي الدمعية حبلى، وتمخضت عن دمع، فما الغريب في الأمر؟

أنا لا يخجلني دمعي إلا إذا حبسته، ولأنني حاقد على الحبس، أطلقته. وسراحه يخفف عن روحي وعقلي وجسدي اضطراباتها فأعود بشراً سوياً.

مع حلول المساء كنت قد استعدت بعض كياني. ولم يكن ثمة بدٌّ من أن أفعل ذلك. لأن الغرفة ستعج بالضيوف، إضافة إلى ساكنيها، وسنسهر، حسب التقليد، حتى الصباح. سنغني ونتنادم، ويستعيد بعضنا حكاياته كما العادة، وسأخضع للاستنطاق مجدّداً، حتى ليبدو كأن لقائي بأهلي دام ساعات طويلة، وليس مجرّد نصف ساعة كأقصى حد.

رسالة أخت 4/ الزيارة

أكاد أكذّب عينيّ كلما رأيتك، يكاد يكذبني هذا المتر الفاصل بين يدي ووجهك. إذن لقلبك الندى.

يلومني زوجي والأصدقاء كلما انتزعت خلوةً لنفسي، ويعلق بعضهم: كفى شيئاً. فهل يفي يا أخيّاه أنني شبت على غيابك. إذن لك أن

تعيد السواد لشَعري، وأعيد لكراريسك الشعر.

أبي يوم موته، ترك لك أمانة، أودع لك قبلة في آخر يوم من مفكرته، أوصاني أن تفتح التقويم على يومه الأخير كي يكون يومك الأول الجديد.

طلقة وقت واحدة وستعود، ستجد نفسك منيعاً ضد الماضي المبكي، فقد سددتُ عنك أضعاف دَينك. غنيت من الحزن ما يكفي لسبعين جنازة قادمة، ومثيلها من الذكريات!

هل يعنيك الورد؟ إذن خضِّب شعر حبيبتك بالحنّاء، ونهارها بنكهة الريحان؛ وإن راودك خواء، فانزع عنك أشواكه واغمدها في ثنايا الريح. لا ذنب للريح، ستقول: أعرف، فأنت من اقتحمها. ولكن لأنني لا أستطيع ملامتك، فتشت عن خصم يزجني دوماً في صفّك، في السراء والضراء. أشعر أحياناً أن حبيبي يغار منك، وهو يعرف أن لكل مطرحه في قلبي. هي غيرة من نوع طريف، أتفهمها وأنظر إليها بحب وبعض الإشفاق. فغيابك يجعلني أستحضرك دوماً، وحضوره الدائم لا يخلق حاجة كهذه. يضحك مني أحياناً فأرتاح لشعوري أنه يألف الحالة كما ينبغي.

مؤخراً ارتكبت حماقة حين قلت له: ما رأيك في أن يسكن هنا معنا؟ رحَّب بالفكرة قبل أن أكمل خطتي التي أعددتها وحدي خلال ساعتَي تحضير الغداء. أضفت: بعد خروجه ودائماً. قال: لم أفهم هذه الـ(دائماً). ألا تعتقدين أنه سيتزوج؟ قلت: بالتأكيد، أقصد أن يسكن هنا هو وزوجته. قال: تريدين أن تحتلّي دور أم الزوج؟ ألم يعلمه السجن كيف يقف على قدميه؟! قلت: ربما لا! قال: إذن فليؤجل الزواج حتى ينضج، وعندئذ يمكنه السكن مستقلاً.

نسيت أنك ازددتَ عشر سنين الآن، وصارت لك أناك المستقلة الخاصة.

زيارة/ عباس 5

حين سألتُ أختي عن داليتنا قالت: «ماتت! لكنكَ صرتَ خالاً. جاءتني طفلة، وأسميتها لا ككل الأسماء!

والطائر الذي تركتَه لنا ظلّ ينقر المزلاج الخشبي لقفصه حتى انفتح، فبنى عشّه فوق القفص؟».

أشتهي دون كلل، وأنتظر بنفاذ صبر، ولادتي من جديد. فقد تمرّنت لخمس سنوات في السجن، وثلاثٍ في التخفي، على لقائكم. وحين دنا موعد الزيارة الأولى أصابتني خفة عجيبة، وتكثّفتم فيّ كما الرحيق في جني نحلة؛ فمنحتم كياني ما تبعثه الزغاريد في أرواح الجند. هكذا، مع كل زيارة، تأتون مكلّلين بالسحر، فتجردونني من وحشتي، وتضمّدونَ أسري بتمائم أشعاركم!

على مدى سنواتي الثمانية كنت أستحم في ماء حريتي المؤجلة وأحلامي الخائبة، فيما التيار يسوقني على رسله؛ الماء دوني، وحلقي يابس كالقمح قبيل الحصاد، يلتمس رشفات الشوق من نضرة عيونكم، وقناديلكم المشعلة. وجئتم بأجنحة أطفالكم المطلَقة التي بشّت لها شقائق النعمان، وبُعثت معها الفراشات فأودت بأوهامي، وصبغت دنياي بفرحٍ جريح. وأنتم ترقصون فوق الجمر.

كنت أزيح عني كل أنواع الجحود حين زغردت كلماتكم في فضاء عزلتي. لبثت كالكفيف الذي سقط وسط متاهة من العلّيق. توسّلت ربّات الغاب أن يمنحنني فرصة أخيرة كي أدوّن عرفاني بالجميل، وأعلن شيئاً ما.

عباس في ازدلاف القرن / أهلي

في اليوم الأخير من قرن نغيّبه لحظة غياب شمسه هذه، يكون عشرات الملايين من البشر قد غيبوا.

شمسه الآن قد تلاشت عند أفق تقبع خلفه نوافذ مقضبة ما نزال نعرش عليها كالأطفال.

كل الأشياء ترتعش مع هذا الغروب.

من منكم، أيها الغافلون، أغرقه بدمعي؟

من منكم يغمرني عناقاً؟

أيُنا يتغرَّب عن الآخر أنتم أم نحن؟ من تطحنه عجلات السأم أكثر، نحن أم أنتم؟

كان ينبغي أن يكون اليوم شتائياً وماطراً، ولأن المناخ نزق ومزاجي، فالشجر يرفع أذان الاستسقاء كي يتخلق النسغ في العشب.

أمي، أبي، أيها السامقان في دمي، اشربا عني آخر جرعة من خابية القرن التي ستنتهي بعد قليل؛ أريد أن أعيش ما بعد المائة!

إذن لي بعدُ سبعة عقود أخرى كي تكتمل رواية العطش التي تتلوني فوق سطح البيد، والماء صديد.

في هذه السنة الأخيرة أعدت ساعتي إلى معصمي. كنت أتركها معلقة قبالتي دائماً، وأحملها مرة واحدة في الشهر، يوم الزيارة.

كلما أتت أمي لزيارتي كانت تحمل لي بعضاً من أكاليل ذاكرتي البعيدة.

ـ لا أريد آساً يا أمي، بل غاراً! قلت ذات مرة.

ـ هل تنتظر مجداً؟

ـ بل أبتغي رائحة صبرك في ماء اغتسالي الطفولي!

هذه المرة لم يكِ الجندي المراقب! وأمي لم تعد قادرة الآن على تقصّي الآثار العالقة عليّ كما كانت تفعل قبل ثلاثين عاماً، حين كانت خارطة الولدنات الصغيرة المنتشرة على جسدي تخضع لفحص أسبوعي: وحدة قياس الزمن الاستحمامي.

في هذه الزيارة، راحت تتلمسني، فاعتقد الرقيب أنها خبأت شيئاً ما في ثيابي، وأوصل القضية إلى الإدارة.

أهلي في الزيارة

لم أترقّب منهن أشياء مغايرة لطبيعتهن، فهنّ كذلك، وما حدث كان التعبير الأصدق عن حالتيْ الشعور واللاشعور. وإن كنت قد اتخذت قراري قبل بلوغ هذه المحطة، فإنني كنت أحتاج إلى تفهمهنّ وإحاطتهنّ بخياري مادام مصيري ليس فردياً صرفاً، بل يرتبط بهنّ في النهاية.

في أحوال كهذه على وجه الخصوص تتملكني الرغبة في أن أكون مقطوعاً من شجرة، كي لا أتسبّب بأذية أحد، أو إيلامه.

سؤال أخلاقي ملحّ يطرح نفسه: مادام تحديد المسار ومن ثم الهدف يرتبط بآخرين، أو ليس تفرُّدك باتخاذه مصادرة لمشاركيك بالمصير.

أعترف أنني مارست ذاتيتي بإجحاف من أجل حل هذه الإشكالية، وفرضت قناعتي أحياناً معوّلاً على الوشائج التي تربط بيننا. وفي غير ذلك كانت ستلاحقنا جميعاً خيبة مزمنة، وستنسدُّ دوننا منافذُ خلقِ التوازن، وستصبح الحياة بيننا مصالحة كاذبة.

في ظروف كهذه قد تطغى المشاعر وتطفو العاطفة، ولكن لا بد من حلول الوقت الذي سيتدبر فيه العقل دوره، وإذ ذاك لم يعد يفيد ندم. لأن الماضي يكون قد استحال إلى أشواك مغروزة في الصميم، وقد نعيش بقية

العمر حياءً من أبنائنا ورضىً عن الذات.

لي صخرة هناك كالأصيل، تغتسل بالندى، متشحةً غيابي شالاً من الوجع والدعاء والخواطر التي لا تصل. ينضح نسغها كجرار القيظ، وتمسح عني عرقَ الرحيل والحيرة ورائحة الوقت الموجِعة. هي غمامة تورِقني كطفل حديث الولادة، وتملأ أوردتي بخفقات السكينة والفجر.

حبيبة:

لحبيبةٍ من سماءٍ وصبر وناي.

تبكي على فرح، وتطلع حين تكفُّ النجوم.

تضحك حين يعزُّ الدمع، وترتاح على صراط التعب.

توجدُ حيثُ الماء سراب، فتهطل بلسماً.

أخت:

لي أمٌ صغرى، لم أعتد بكاءها.

كانت أقوى من نهر، وأعذب من غدير.

أشدَّ من مرِّ الدفلى

كانت شهاباً في ليل، وخبيئة في حوش.

وأخ:

لي صديقٌ يكبرني بأمل، ويصغرني بهزيمة.

أفترق عنه على مضض والتقيه.

وأخت:

لي صديقة لدود، أقرب إليَّ من حزني.

تخبِّئ لي عنواناً لحكاية لم تُكتب بعدُ، وشهيقاً يحول دوني والغرق.

صديقةٌ بينها والموج هبّتان، كافأها الموت بالعوم تحت الماء ومضى.

هي أجمل من نهاية حداد، وأعمق من سماء ازرقّت ذات خريف.

وأم:

لي مغفرةٌ، تركتْ لي عرشاً من العتابا وحقلاً من شقائق الصبح. وعينين شهلاوين.

هي واسعة كشجرة العمر، وصاحية كما قمر الصيف.

وأب:

لي تجاعيد وجه من الماء، مقدسة الابتهالات والعشب.

لون البحر هو، وظل النجوم،

عتيقُ تمرّدي هو، واحمرار الشفق،

شرعُ الغيب في وصاياه، وشِعْر الشيخوخة.

سألته: كيف تأتّى لك أن زرتني مع أول فرصة.

قال: كاد الشوق أن يقتلني.

سألته: ولِمَ لم تزر أختي الأسيرة الأثيرة لديك؟ قال: خبّأت لها شوقي.

لي بعدُ طائر ينبت ريشه بين قمر وآخر،

تناهز السلام والذهول.

تزيد عن غفلتها مملكة، وتقصّر بمقدار سؤال.

هي الطيب والوجد الصامت والسلام.

لي هناك، ضوء طافح بالجنون وأشعار الوله.

يصغرني حيرة، ويكبرني حزناً.

زيارة اسماعيل/ تدمر (1)

في اليوم التالي ظلَّ شبح الليل الفائت يلاحقني ما خلا اللحظات التي كان خيال أمي يحضر أمامي، أتذكر أنني صرت أتلو دعاءً كنت حفظته من صغري:

«أماه، تبارك اسمك الذي يطرد الأباليس من أركان هذا الخراب! ألا فأسعفيني، أنا ابنك الصغير الذي تطارده أشباح الليل الهائجة. أنقذي طفلك الضعيف قبل أن تلتهمه أدران روحه. أماه، أيتها المقدسة، لم أكن أعرف معنى الإيمان قبل خوفي، فاهرعي إليَّ قبل أن ينهشني الكفر بكل شيء.

الآن عرفت يا أمي أن الطقوس التي تعلمتها على يدك مقبولة عند الله ككل صلوات الأتقياء».

بعد عدة أيام وكان ذلك في 11 حزيران، بعد ثلاث سنوات على اعتقالي، جاءت أمي لزيارتي بكل جلالتها ومهابتها.

حوالي الظهر نوديت وجاري الصديق: «ارتدوا ثيابكم!» ولكن ماذا لدينا كي نلبسه! بقينا في الثياب ذاتها، وهي التي كنا نرتديها ليل نهار. لم يخبرونا إلى أين ولا عن سبب استدعائنا. خرجنا من المكان والتساؤلات تملأ عيون من حولنا؛ وبدأت الأسئلة تطرق أذهاننا نحن. خرجنا من باحة إلى أخرى، مارّين قرب الغرف الأخرى التي كنا نسمع منها أصوات السعال السلي المصحوب بأنين شبه مخنوق وعميق، ولولا هذا ما كنا لندرك أن فيها بشراً، كانت تلك الأصوات توحي لنا بأن سكان تلك الأمكنة مصابون بهدأة الموت.

إلى أين؟ صرت اسأل نفسي، حريصاً في الوقت ذاته ألاَّ يتسلل قلقي إلى صديقي. لا أعرف بالطبع. كل ما أعرفه أنني كنت في حالة ترقب ودهشة وخوف. فقد تحدّث أمامي أحدهم أن مصير البشر ها هنا مجهول

تماماً، فلا يدري الذي يخرج إن كان سيرى من ودعوه بعيونهم أم لا.

رحت أتفحص الطريق، لم يبد علي أنني رأيته أو مررت به قبل ثلاثة أعوام. كأن كل شيء قد امّحى من ذاكرتي ما خلا ذلك الحذاء الطويل الذي داسني، وتلك الآلة الألمانية الكريهة التي نالت من فروة رأسي قبل أن تقص شعرة واحدة من رأسي، حين جزوا لنا شعورنا كالماعز. حدقت في الممرات الجانبية. التقينا حراساً كثيرين، وربما سجناء مثلنا. في كل مرة كنت أظن أننا أوشكنا على النهاية. لم يضربنا أحد طوال تلك الرحلة التي حسبتها دهراً، وهذا ما أثار دهشتي. كانت المسافة التي اجتزناها لا تتعدى الـ 200 متراً لكنني خلتها تمتد من قريتنا الصغيرة حتى العين التي كنا نذهب إليها لسقي الماشية. كنا أيامها ننطلق من القرية في السادسة صباحاً ونصل بعد الثامنة، وكنت أرافق أخي الذي كان يساعد أبي في الأرض وتربية الماشية. كان الناس، والصبايا على وجه التحديد يخرجن قبل الغروب بساعة إلى هناك ويتراشقن بالماء، وكنت قد تجاوزت عقدي الأول بعامين حين عثرت على ضالة عشقي وباكورته عند تلك العين الرائعة.

حين وصلنا إلى عتبة إحدى الغرف خرج منها شخص أبدته بزته العسكرية وقبعته وعصاه المارشالية ونياشينه أنه توأم النصر. لم تكن نظرته شرسة كما العادة، كانت حيادية إلى حد ما. كان قصير القامة، قزمي الملامح، وشفته السفلى مشقوقة في الوسط. وقد سألت نفسي بعد سنين على الحادثة كيف تجرأت على النظر إليه بهذا القدر من التمعُّن؟ فُتح الباب الخارجي الخامس (كلما فتح أمامنا باب - خارج باب مهجعنا كنت أظنه الباب الخارجي!) على مصراعيه لنجد أنفسنا على قارعة طريق إسفلتي عريض. على الطرف المقابل كان ثمة عدد من الغرف المتلاصقة، سقفها سنامي الشكل، قرميدي. أسكرتني رائحة القرميد تحت المطر! وما

هي إلا لحظات وإذ بباب يفتح، ويخرج منه نداء، صراخ متقطع ينطق باسمي، ولكن حرفاً حرفاً إ س م ا ع ي ل، ولأن اسمي طويل ويتشكل من هذه الأحرف السبعة فقد بدا لي النداء بطول الطريق الذي قطعناه. نسيت أن أقول بأن الجنود الذين رافقونا طوال الطريق كانوا يؤكدون على ضرورة الانضباط وعدم الالتفات أو إصدار أي صوت إلا وفقاً لأوامرهم. الآن نحن على قارعة الطريق تماماً، ما إن جاءني الصوت، ذلك الصوت الفجائعي، الذي رضعته مع حليبي، حتى طاش سمعي وبصري وفؤادي، ما عدت أعرف ماذا حل بجاري وصديقي اللذين أتذكر أنهما رافقاني حتى ما قبل الصرخة. لا بد أنه صوت أمي. نظرت قبالتي. كأنها أمي تلك الباسقة هناك. كانت تقف أمام غرفة بتنورتها وشالها الأبيض الذي يغطي رأسها. بكل بهائها راحت تلوح بيدها إلى قلبي، وأنا ألوح بقلبي. يا إلهي إنها أمي ... تحركت بانفعال وعفوية راكضاً باتجاهها دون أن ألقي بالاً إلى الجندي الذي راح يصرخ هو الآخر محاولاً كبحي. أمي تناديني! وصلتُ إلى حيث يصطف أناس آخرون، لكنني لم أميز أحداً سواها. تمسكت بها، وضمتني، وراحت تتشممني حتى كدنا أن نختنق معاً. حاول «جاري» - والذي كدت استغرب وجوده - حاول تخليصي منها ومنحي الفرصة كي ألتقط أنفاسي، لكنني كنت أعجز من أن ألتقط شيئاً. تدخل أخي الذي كان قادماً معهم، مكتشفاً الحالة التي وصلت إليها، ومحاولاً تجاوز المشهد الدرامي ببعض فكاهة وإعادتي إلى رشدي. كانت معه ابنته التي لم تتجاوز العام والنصف من عمرها. قال هذه «نارة». كانت أشبه بـ «روبوت» ملائكي.

جحيم الزيارة الأولى / تدمر 2

والزيارة الأولى إياها، بغتة قاتلة، تودي بمألوف تكيفك، ترفعك إلى حيد صخري شاهق فقط كي ترمي بك من أعاليه إلى قاع الجحيم الذي كنت فيه قبل قليل.

لم أُبلّغ وجاهياً أنني محكوم بالإعدام، لكنني أُودِعت في مكان نزلاؤه جميعاً من أصحاب «التهم الخطيرة». كان السؤال الذي يتردد على لسان كل منا: متى سينادونني ويقتادونني إلى المقصلة؟ رحت أدعو الله ان يعجّل في ذلك، لأنني أكون قد تخلصت من عذاب الحلاقة. هناك في تلك الباحة المفتوحة على الويل واللهاث المحموم والموت اليومي الذي لا ينتهي، شاهدنا بأطراف أعيننا كيف يدخل مساعد الموت، محاطاً برهط من الجند المدججين بكل وسائل القتل. خاضعين، التي تنتظر الإشارة، فتعيث فينا دماراً، تمزقنا دون أن تميت... يا إلهي كيف تعلموا إبقاءنا على الشفير الفاصل بين الموت والحياة.

بعد حين استجاب الله لدعائي، جاء أحد الجنود وهمس من خلف الباب باسمي، ثم طلب إليّ أن أعصب رأسي وأجهّز نفسي بسرعة. وبأقصى ما يمكن غسلت وجهي ولبست أفضل ما لدي من أسمال ثم ذهبت إلى المرحاض، لأن جسدي أوشك أن يلفظ أحشاءه. بدت

حركاتي في أشدها جنونية وطبيعية في آن. ركعت على الأرض مستغفراً ربي، ولكن قبل أن أكمل صلاتي الخاطفة التفتُ إلى من حولي طالباً منهم المغفرة والدعاء.

حين سمعت اسمي ثانية قفزت واقفاً. فُتح الباب وصرخ بي الرقيب فخرجت بسرعة، وخرقة كبيرة تغطي رأسي بكامله، فسقطت عند العتبة. أمسكني شخص ما بيدي، وراح يركض بي، وبدأت أركض خلفه على غير هدىً. صرت متأكداً الآن أنني ماضٍ إلى حتفي المأمول بعد أن عالجني أحدهم بضربة على أم رأسي، سقطت أرضاً، مددت يدي كي أصحّح وضع العصابة التي على رأسي فعادت إليّ مبللة بلزوجة لم أرها. فكرة واحدة صعدت إلى دماغي: أن أفعل شيئاً ما، أضرب، أصرخ، أفعل أي شيء من شأنه أن يبديني رجلاً أمام نفسي . ولكن من سأضرب، ومن هو خصمي؟ لقد تجسد في وجه هذا الشبح الذي ميَّزت صوته. يا إلهي، اصفرت الدنيا في وجهي واسودت واحمرت، فشعرت بوهن فظيع يتسلل إلى خلاياي كلها. نهضت فور سقوطي وقمت بحركة تقصدتها عادية كي لا ألفت انتباه أحد. بعد لحظات توقفوا وأجلسوني في مكان لم أسمع فيه إلا صوت عاهل الموت. إنها باحة الإعدام حتماً! سمعته يقول للشخص الذي يقودني: اعطه خرقة كي يمسح هذه القذارة عن عنقه. ولماذا يريدونني أن أنظف الدم ما دمت في طريقي إلى المقصلة. إنها ميتة واحدة، فلتكن مشرفة! استجمعت ذاكرة العذاب كلها وحقدي الدفين وبقية قواي وهممت بنزع العُصابة عن رأسي كي أرى مرة واحدة وأخيرة وجه هذا المساعد الرجيم ثم أمزقه، لعلي أكون قد فعلت شيئاً قبيل موتي.

ـ لكنهم في هذه الحال لن يميتوك كمن سبقوك، قالت رأسي، ولن تتاح لك ميتة عاجلة، بل ستموت مئة مرة تعذيباً وقتلاً وجلداً أو حرقاً

تخلَّ عن فكرتك الخرقاء ينبغي أن تموت الآن.

خارت أعصابي مرة أخرى وأفكاري وتجمد الدم في عروقي. رحت أصلّي إلى الرب القدير أن يسرّع أجَلي ويلهمهم قراراً سريعاً وتنفيذاً أسرع، ورحت أتمتم: «إلهي إن كنت تريد أن ترأف بي، أنا عبدك ومُعْلِي كلمتك، وفّر علي هذا المعترك، جنبّني أن يختلط عظمي بدمي بفضلاتي بصراخي بصلاتي، بعويلي

ـ هل أنت الشماس؟ سألني المساعد.

ـ لا يا سيدي.

ـ أبقِ وجهك إلى الحائط. ما اسمك.

أجبته

خذوه.

أعادوني إلى المكان الذي جئت منه، وهم يوسعوني ركلاً وجلداً، وحين وصلت فتحوا الباب وأخرجوا رئيس الغرفة:

ـ لماذا لم تقل لنا اسم أمه وأبيه يا حيوان؟ انتظر، ستلحق به!!

اقتادوني ثانية. فكرت في سري لماذا يدقّقون في الاسم مادام لا يعني لهم شيئاً أن يُنفَّذ الحكم بشخص بدل الآخر. وماذا يفيد لو كان اسم أبي أحمد أو بطرس أو درياوش أو أي شيء ما دمت سأموت هنا ولن ترسل جثتي إلى أهلي. ومرة أخرى وجدت نفسي بالباحة ذاتها. كان هنالك عدد كبير من البشر، وكان ثمة من يوعز لهم أن يصطفوا بالدور.

ـ هل تحققوا من اسم أمك؟

ـ نعم سيدي.

- انزع العصابة عن وجهك!!

ما عادوا يخشون أن أراهم ما دمت سأقتل. خلعتها ونظرت فوراً إلى وجه هذا الـ «سيدي»، فقد كانت بي لهفة دفينة كي أراه لعلي أشهد عليه في الآخرة. وجه بأنياب صفر.

- هل سبق لك أن زرت؟

لا أدري إن كنت أجبته أم لا، ما أذكره فقط أنني سمعت السؤال، وسقطت مغشياً عليَّ.

استعدت وعيي بالماء والصفع ورائحة الكحول.

- هل زارك أحد هنا قبل الآن؟

- لا يا سيدي.

- إذن أدخل، ستجد أهلك أمامك. لستَ في حاجة إلى توصية، اسألهم عن صحتهم فقط!!!

أهلي بعد عشر سنين! يا إلهي أزيارة هذه أم قصاص آخر؟!

قدماي متورمتان، ورأسي مدمّى، وعنقي دخلت متقوساً، وجهي إلى الأرض، وعيناي مغمضتان، ويداي خلف ظهري، كما نفعل في باحة التنفس. وجدت نفسي أمام أهلي، أبي أمي وزوجتي وإخوتي، وأولادي، كما أعتقد.

- ارفع رأسك يا بني وسلّم عليهم. جاءني صوت المساعد هادئاً دمثاً. كان قد أبلغني أن مدة الزيارة عشر دقائق. ليتهم يخرجوني في الحال. ثم ماذا يعني الزمن الآن بالنسبة لي سوى التمرغ في هذه الفظاعة تحت بصر أهلي ماذا سأحكي، ماذا أجيب دقيقة، اثنتان.. خمسة.. سبعة.. ثمانية، تسعة انقضت الدقائق العشر ولم ينطق أي منا ببنت شفة نظرتُ إلى أبي

أمي دفنت رأسها بين ذراعيها ومنديلها.. أخي وضع يده فوق كتفي زوجتي أولادي الكبار يا إلهي الحمد لله أنهم لم يحضِروا ابني الأصغر إلى الزيارة وإلا من كان سيمنعه من الاندفاع نحوي والتعلق بعنقي وكتفي وتوجيه عشرات الأسئلة المحرّمة.

أمي غادرتني ولم أر عينيها لم ترفع بصرها نحوي رحت أجدف في سري: هل كفّت قدرتك يا إلهي عن إماتتي قبل أن تزجني في هذا اللقاء الجنائزي لماذا لم تنخسف الأرض دوني فتمحقني قبل أن ألتقيهم بادرني صوت التبس علي:

ـ هيا يا بني انتهت الزيارة. قال المساعد.

خرجت مثلما دخلت، وجهت وجهي إليهم، محني الظهر، وعيناي مغمضتان، ويداي مسبلتان، لم أودّع أحداً، لم أصافح أحداً، وحده أبي مسح على رأسي بيده وتمتم شيئاً غامضاً أوحى لي بأنني سألتقيه ذات يوم.

ذلكم هو الأسر، شِعب جبلي مخبوء الآفاق، يتربص بك، فيما أنشوطة الويل على يمناه. حتى إن عجز سيفك الذهني عن قتل الأشباح المحيطة بمدى عينيك، يصير تحوُّلك إلى دون كيشوت محض ضرورة. وإن عزّت عليكَ عدة الفارس، فثمة ما يمكنك فعله تفادياً للمآل الأخير. حينئذ تستجمع ثمالتك الدفاعية وتجعل تميمتك الانفلات من المكان، والإمساك بالزمن، وتفكيك مقومات العزلة، كي تجد ضالتك فيك وفي آخرين من جبلتك ومصيرك.

* * *

زيارة من بعيد/3

كنت مستعداً أن أعيش على الحصير طيلة عمري مقابل التأكد من أن ابني ما يزال على قيد الحياة. وقد ذهبت في اليوم المحدد، والساعة المحددة،

متقيداً بالشروط المحددة كلها: سيارة جديدة فاخرة للمدير، وهدايا من الذهب لزوجته وأمه. وقفت بباب السجن، ولم أرَ أحداً. جاء شرطي خمسيني وقادني عشرين خطوة إلى الأمام ولم ينطق بشيء؛ فقط قَولبني بوضعية وثنية يبّست مفاصلي. وقف أمامي ووضع سبابته على شفتيه. أومأت له برأسي مغمضاً عينيّ أنني فهمت، ثم فتحتهما، لأرى ابني من تلك المسافة. انخطف قلبي وزاغ بصري ومتُّ ريثما تأكدت أنه هو: كان محجوب العينين، حليق الرأس، محني الظهر، ينقص عن وزنه ثلاثين كيلوغراماً، ويربو على عمره بثلاثين عاماً. انتهت الزيارة! أشار إلي الخمسيني بيده. مشيت بضع خطوات إلى الوراء وبصري معلق بانحناءة ظهره. ياويلي، قلت في سري، ومضيت لا ألوي على شيء. اتكأت لحظة على الجدار ثم سقطت. تخدرت أوصالي، وبجماع كفيّ رحت أضرب رأسي كأنني جننت. قلت: «...البنون زينة الحياة الدنيا». لم أعد تلك الليلة إلى مدينتي وأهلي، اكتفيت باتصال مطمئِن، وقضيت الليل في أقرب فندق صحراوي إلى السجن لعلّي أتيمم برائحته مع أذان الفجر.

الستارة السادسة

ألوان الموت

أنت على عتبة الخروج من الأسر إلى الحياة. ولكن قبل إطلاق قدميك، سيقابلك آخر المخوّلين بإعادتك عرفياً إلى السجن، مدججين بابتسامة شامتة، وتعهدٍ «متواضع»، دوّنوه باسمك، تقرُّ فيه وأنت بكامل قواك العقلية والجسدية، أنك ضربتَ صفحاً عن الماضي، وعدتَ إلى رشدك، ومسحتَ ذاكرتك بأسيد النسيان، وصرت موالياً لـ «السياسات الحكيمة» للقائد. مجاز تعرفه مسبقاً، مع ذلك حين تُقحم فيه تشتغل حواسك وقواك بطريقة مختلفة، وتعيد حساباتك مجدداً كي تقوى على الرفض، أو القبول ببعض التنازلات.

سيعاودك طعم الصديد الذي ولّدته الشكيمةُ يوم أسروك، ويملؤك غضب عارم، ويخف وزنك، وقد تتمنى لو كنت لصاً أو قاطع طريق كي يتسنى لك الخروج من دون شروط. وحين تكتشف أن الأماني هراء، تدرك أن الاختبار الأخير الذي ينتظرك ما هو إلاّ النصل الباتر بين القيد والانعتاق، والطعنة الأولى في خاصرة «حريتك».

في غمرة خياريك المحدودين وذهول خلاياك، قد يمنحونك بعض الوقت لتفاوض نفسك وتتخذ قرارك. تعاودك وجوه أهلك ورفاق دربك ممن انحازوا إلى رفض التوقيع، أو القبول على مضض. تتراءى لك

أملك، ومسحة من الحيرة تغمر وجهها قبيل انتهاء الزيارة، تارة ملتمسةً إنهاء انتظارها وحصارك، وأخرى مشجّعةً، تشدّ أزرك. تليها امرأتك بإهاب أيم، تومئ لك أن تصغي إلى نبضها المرتعش. تتظاهر أنت بالصمم، فيأتيك صوت أشبه بشهيق البحر، مصحوب بصرخة فجيعتها يوم اختطفوك. تحاول أن تخلع عنك ثياب القلق التي تدثّرك ملامح وخبايا، وتستحضر لك أعذاراً لا تنتهي، وحين تيأس من إقناعك تتمالك احتراقها متنكّرة لتسرّع لسانها. وقبل أن تبرح المكان تودعك بقبلة غاصة بالعتب، وتورّث ابنها، الذي يراقب بمزاجٍ مولعٍ بالتفاصيل، نظرةً تستجدي كلمته الأخيرة.

شعاعان طفرا من عين الفتى عن صمت؛ ولما بلغا مرماهما فيّ، خلتُ مساماتي انتعشت، وتلاشى خدرُ الذهول. كنت أسمع تمتمته الغامضة، ولكنه، بدلاً من أن يقول شيئاً ما، مسّ كتفي بيد مضطربة، وعانقني بدفء لم أشهده من قبل.

قتل الروح بالتعهد

الموت هو الحدث الدنيوي الأسوأ بوصفه انتفاءً للكينونة، وقطعاً نوعياً مع الحياة، مع ذلك قد يكون توقّعه أو انتظار حلوله أسوأ منه بكل المقاييس؛ لا سيما حين يكون امتداداً لتعذيب رهيب، جسدي أو معنوي، يصل بضحاياه إلى تخوم الموت وبوابات الجحيم، ولكن دون أن يميتهم. لعل قتل الحلم، وقتل الروح بسلسلة متواصلة من عمليات الإذلال، كطلب الرحمة من المحكمة، أو مقابلة اللجنة الأمنية لاحقاً، التي ستشترط الإفراج عن السجين مقابل تعهدات سياسية أو أمنية (شفهية أو خطية)، تصل إلى حد الضغط لتحويله إلى عميل أو مخبر بطريقة ما. وثمة دائماً فروق في طبيعة التعامل مع القوى السياسية، وأحياناً بين الأفراد داخل الحزب الواحد؛ وفي سائر الأحوال يزوَّد المفرَج عنه بورقة، موقعة من قبله، وتقضي بمراجعة دورية لأحد الفروع الأمنية في المحافظة التي يتبع لها!

مقدمة تعهدات

قد تتراءى لكم مناعتي، محكمة كانت أم واهية، ضد اليأس، ضد الرضوخ إلى التمايل مع الذات، وإسباغ الرغبة عليها.

ثمة شيء آخر، أمرّ، لم يسألني عنه أحد منكم، ولعلّ الجميع كانوا ينطلقون من آثار الماضي، أو يخالون أنها الأكثر حضوراً ووطأة!! لا أزال أعتبر «الكفّ عن الصراع» هو التكثيف الأدق للهزيمة. هو التجلّي الصفيق للموت الروحي. فأسأل: هل كففتُ. بل أسأل نيابة عنكم وبالأصالة عن نفسي: هل ثمة ما يمكن خوض الصراع من أجله.

أرى إلى هذا الميدان الواسع ـ الضيق كخرم الإبرة، الثيران في الحلبة، وحدها الثيران تجول فيما المدرجات تغصّ بالنظّارةِ مكمومي الأفواه ومشدوهي العيون.

أرى إلى ما يجري، فيما أنا خارج الحلبة والمسرح معاً، يمرُّ أمامي أفلاطون بكل إهابه السياسي، وأرسطو الفيلسوف، والكواكبي وغاليله وكانت. يتحدثون، كلٌّ بلغته، والجميع لقضية متماثلة الحضور عبر التاريخ.

ستمنحني جلالة الألفية الثالثة بعض فرصة كي تألف نفسي هواء المدى المفتوح، وقد تمنحني فرصة الوقوف في مكان ما، والسير في مكان ما، والعيش في حيز يوسّع لي الرؤية.

لعلّ عدم بلوغي النهاية في درب هذه الملحمة الكسيرة، مرهون بما سيلي من خبايا في الآفاق التي يفصلني عنها عامان وما لا أعرف. وحتى ذلك الحين بوسعي أن أضع نفسي في خانة غير المكفوفين عن الصراع، مناوئاً ما استطعت صراط التشاؤم.

من كان منكم بلا شيء من الفضول فليرم الهواء بسهم.

لعلنا في العقد الخامس من حظر التفكير بصوت مسموع نصبح أكثر ميلاً إلى التأمل، ويشدّنا النظر إلى الداخل، واللجوء إلى مغاورنا. نبحث عن ذواتنا، وننزع عنها طبقات الممنوعات المتراكمة، ونرى إليها عبر زمن آخر، لعلنا نعثر على التغيرات التي ما عادت تشبهنا.

أحياناً يخيّل إليّ أنني في أمس الحاجة إلى عودة في الزمن، ربع قرن مثلاً، كي أمضي من جديد، ولكن بطريقة مغايرة. وأحياناً أخرى أتصوّر أن كل ما حدث كان لا بدّ أن يحدث. وفي الحالين تنتابني أحلام من هم في عمر الشباب، لكأن ما مضى مضى فقط كي يحفّزني من جديد على مغامرة أقل خطراً وأكثر عقلانية.

البحث عن مصالحة ناقصة مع الذات قد تورّث خيبة، دون أن تخلق توازناً؛ وتضع المرء في لعبة الاطمئنان النسبي، أو في خانة السلام الروحي الخادع. فهل حريٌّ بهذه اللعبة الناقصة أن تجعل من الهزيمة مجرّد خيبة؟ أم أن الحياة أوسع من محض خسارة أو نصر!

سيسألنا القادمون عن لغة النور والعتمة، عن الهطل والقحط، والحنطة السمراء والطير والمحار.

ويسألوننا عن البيادر وأغمار الحلم والمشاريع المخبّأة.

ويسألوننا عن انكسار الضوء فينا، وإيماننا الأخرق بأشياء لم تعد قابلة للعيش، ومقولات متناسخة ومتجددة لا تصلح إلاّ لملء فراغ رمادي في وعينا.

لا يليق بنا، بعد هذا كله، أن نخبئ أوجاعنا ووجوهنا، وامتداداتنا، وتقصُّف الأجنحة. ولا يلزمنا أيضاً أن نتزيّا بفائض من الثقة يُبدينا أقل ضعفاً مما نحن عليه. ينبغي الاعتراف بأسرار هذه التجربة وتبعاتها، والخشوع لأسئلتها بكل تقى المتصوفة!

شهادة

أنا الذي أحمل على جبيني بصمة الهزيمة، ما عاد يهمّني أن أشرع راية الكفر بثلاثة أرباع الشعارات الجميلة التي أثقلت كاهلي بإيمان أعمى. أنا الذي يتّهمني البعض بتثقيل كفة الأشياء التي تخصّني وحدي ما عدت أخجل من أنانيتي التي أحرص عليها، شريطة ألاّ أؤذي الآخر.

أنا الذي حُرمت من عشق امرأة راودني خيالها طيلة دهر دون أن أراها واقعياً، صرت أسيراً لتلك اللحظة التي سألتقيها فيها وأنعتق بعدئذٍ من كل ما كان يربطني بالماضي. سوف أمسح تلك الذاكرة بلا ندم، غير آسفٍ على أحلام يقظة كانت لي حين لم أكن أبصر. سأعود للانتماء إلى ما كان أبي يردده على مسمعي: «لا تسبح في النهر عميقا» هل قلت انتماء؟ أقصد تبنّي، لأنني ما عدت أطيق مفردة تخصُّ الانتماء!! سأعود إلى الطبيعة لعليّ أرجع بشراً سوياً ولعلّها تغسلني كما ينبغي من أدران البشر.

ويسألني بعض المهتمين بعلم نفس المهزومين، ماذا ترى في الغد؟

أيقنت أن الحديث عن نقاء الألوان في الحياة هو محض وهم، ففي كل ما شغل الناس حتى الآن ثمة طيف واسع ومتداخل. وما إن تنتهي حدود

الأول حتى تبدأ حدود الآخر. دونما إمكانية التمييز الدقيق بينها.لا أدري أي تنويم مغناطيسي كنتَ واقعاً تحت تأثيره، يوم كنت أرى الرمادي أبيض ناصعاً، أو أسود فاحماً؛ يوم كنت أرفض أي هدنة مهما كانت، حتى ولو مؤقتة، كأنني المنتصر إلى الأبد. الآن أقول لجميع من يرشقونني بأسئلة حول الغد إنني أوصدته بالرصاص، وصببت النار على كل أوراقي التي كتبتها وجمعتها وحميتها الى جانب روحي. أجل صببت اللهب على رومانسيتي الثورية، ولكنني في الحين ذاته أحتاج لعدة هزائم أخرى كي أفرّغ رأسي من بطولاتي الخرقاء.

وأقول لمن أثير لديه القرف من كلماتي هذه، دعني أتذوق مرارة هزائمي وحيداً، وامضِ أنت دون أن تلتفت إلى الوراء! سأترك لكَ غدك وشمسك وأحلامك الموهومة. دعني أخطط تقويمي الخاص الذي سأسعى كي يتّسع لثلاثين سنة أخرى، وإن وقعت عيناك عليه ذات يوم، أرجوك ألاّ تشطب تاريخ ذلك اليوم، لأنني أريده لي وحدي ولا يمت إلى ذاكرتكم المستقبلية بأية صلة! فهل تتفضّلون وتعفونني من أسئلة أخرى؟ قد لا تكون كلماتي جديرة بالعيش ساعة واحدة؛ ولكن، حتى في أسوأ المزابل قد يجد المرء شيئاً ذا قيمة!

لا أريد بَعدُ لهذي الرأس أن تُحشى بألغام جديدة، فهي مشحونة بما يكفي للانفجار في أي لحظة! وإلا ما الذي أطلق لدي رغبة الانتحار حين قرأت لرفيقنا «الشيخ» رسالة «الشفاعة» التي بعثها لنا إثر خروجه من المعتقل، وإلزامه بتوقيع تعهد بالكف عن العمل السياسي مقابل الإفراج عنه بمنةٍ بعد انقضاء فترة حكمه؟! أو حين أعلن سجين آخر قائلاً: «مقابل رفض كل التعهدات الجاهزة التي ستُطرح في وجهنا، أنا على استعداد أن أقبل بإجازة من السجن لسنة واحدة فقط، أريد خلالها أن أودّع أمي المريضة التي تنتظر اللحظة التي ستراني فيها فاتحاً درفتي البوابة الخارجية،

وذراعيّ. أريد أن أبقى إلى جانبها لمدة عام، متخلياً عن حقي في إخلاء السبيل، وأتعهد، وأنا بكل قواي العقلية، وتحت طائلة المسؤولية، بالعودة بعدئذ إلى السجن طواعية».

ماذا يعني للبشرية أن سجناء شرق أوسطيين أو أفارقة أو آسيويين أو سوريين أُجبروا في مستهل الألفية الثالثة أو ما قبلها، على توقيع تعهد ما! وما الإثم الذي ارتكبه هؤلاء بحقنا كي يطلبوا منا شفاعة؟ أوليس الأحرى بالعالم كله أن يطلب الشفاعة منهم على هذا الخذلان الذي ألحقه بهم؟

التماس ممهور بالدم

هيلموت برايت

«سيدي القاضي الجليل، ليتني متُّ قبل أن تتخفّى نواياي بهيئة شيطان أعمى، أعمى بصيرتي. ليتني عميت قبل أن أفلت من رقابة ذاتي. ماذا ستقول روحي التعيسة التي ستبارح جسدي بعد قليل، هل ستتجرّأ فتواجه أمي التي أتلف السل صدرها؟ هل ستحكي سفالتي لأبي الذي في الجبهة منذ عامين ونصف؟ هل ستعتذر لأختي التي كان لها كبير الفضل في إيصال نواياي لأولياء نعمتي كي ألقى قصاصي الذي أستحق؟

سيدي القاضي الأكبر، أعرف تمام المعرفة أنكم تدركون كنه ما يعتمل في ذهني أكثر مما أعرف، فإن كانت مصلحتي تقتضي أن أموت تشرّفاً بشفرة مقصلة الوطن العظيم، فليس هذا سوى بمِنّة سأبقى مديناً لها طيلة تقلّبي في الجحيم. ولقاء ذلك، ولكي تكونوا على يقين من صدق ولائي وإخلاصي وضِعتي، ألتمس منكم، وكلّي مذلة، أن تجعلوني عبرة لكل من تسوّل له نفسه ان يفكّر في سرّه، أو يحكّم عقله الشك في أي قضية سبق لسادته وأرباب حياته أن بتّوا بها أو أشاروا إليها بطريقة ما. واسمحوا لي في النهاية أن أضع حداً لحياتي كي لا تتلّوث أهداب بذّاتكم الرمادية بلوثة روحي».

ميشيل عفلق

«إنني قانع كل القناعة بأن هذا العهد الذي ترعونه وتنشؤونه يمثل أعظم الآمال وإمكانيات التقدم والمجد لبلادنا، فإذا شئتم فنكون في عداد الجنود البنائين، وإذا رغبتم أن نلزم الحياد والصمت فنحن مستعدون لذلك.

سيدي دولة الزعيم، إن هذه المجموعة من الشباب التي يضمّها البعث العربي قد عملت كثيراً في الماضي لتكون قدوة في النزاهة الوطنية الصادقة، وإن ماضيها ليشفع عندكم يا سيدي لكي تعذروا ما ظهر منها من تسرُّع بريء، وإن وراء مظهرها النزق نفوساً صافية ومؤهلات ثمينة للخدمة العامة ما أجدر عهدكم أن يفسح لها مجال التفتح والإنتاج. أما أنا يا سيدي الزعيم، فقد اخترت أن أنسحب نهائياً من كل عمل سياسي بعد أن انتبهت بمناسبة سجني إلى أخطاء أورثتني إياها سنين طويلة من النضال القومي ضد الاستعمار والعهد السابق، واعتقد أن مهمتي قد انتهت وأن أسلوبي لم يعد يصلح لعهدٍ جديد، وإن بلادي لن تجد من عملي السياسي أي نفع بعد اليوم.

ميشيل عفلق

11 حزيران 1949

محاكمة غاليليه

محاكمة غاليليه غاليلي التي بدأت في 12 نيسان 1633[1]. وفي 21 حزيران خضع إلى آخر استنطاق في قصر السانت ـ أوفيس في روما أمام محكمة التفتيش[2].

مقتطف من آخر ما قاله القاضي، وما رد عليه غاليليه:

يقول القاضي: «تقبل بأن تكون مبرأ شريطة أن ترتد بقلب مخلص وإيمان غير متكلف، وتلغي وتكره أمامنا الأغلاط والهرطقات المومأ إليها وكل غلط آخر ضد الكنيسة الكاثوليكية تحت الشكل الذي يفرض عليك».

خضع غاليليه، بصوت أصم وبطيء. صوت ميت، يطن تحت قبة قاعة الدومينكيين.. «جئت بقلب مخلص، وإيمان غير متكلف، لأجحد، وألعن

1ـ كان الاتهام الذي قدمته الكنيسة ضده اعتباره أن «الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس» على أن هذا باطل بالبداهة لأن الكتاب المقدس والكنيسة الكاثوليكية يؤكدان العكس.

2ـ عن كتاب »المحاكمات الكبرى في التاريخ.» فريدركلوتشر. ت نور الدين حاطوم دار الفاضل ص 258.

وأكره كل غلط وهرطقة مخالفة للكنيسة المقدسة. وأقسم على أنني في المستقبل، لا أقول، ولا أؤكد أبداً، لا لفظاً ولا كتابة، أموراً يمكن أن تجعلني مشبوهاً. أنا، غاليليه، ارتددت، كما في أعلاه ووقعت بيدي الخاصة».

ويعقب المؤلف لوتشر: وعلى نقيض ما يكرر غالباً، لم يقل أبداً بعد إدانته، متكلماً على الأرض: «ومع ذلك تدور». فهذا كان يكفي لإرساله إلى المحرقة. ولكنه من البديهي، أنه ما انفك يفكر به

مستقلة 1

في اليمن ـ يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني: «إننا نطلب من قادة الحزب الاشتراكي أن يصححوا مواقفهم تصحيحاً حقيقياً، كما أننا لا نيئّسهم من التوبة، لأن ديننا الحنيف يقبل التوبة (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين)، وللتوبة أربعة شروط في مثل حالتهم:

1 ـ الإقلاع عن الذنب، إذ عليهم أن يقلعوا عن الدعوة الاشتراكية والمبادئ التي كانوا يروجون لها.

2 ـ الندم على ما فات؛ فالذي يتوب يجب أن يُظهر الندم.

3 ـ أن يعترفوا بعدم العودة إلى ما فعلوه.

4 ـ إعادة الحقوق إلى أصحابها.

مستقلة 2

نص العريضة التي وجهها من تبقى من شعب الأوبيخ المهجَّر قسراً إلى تركيا، أرسلها إلى القيصر الروسي إثر معاناتهم في تركيا.

«إننا ونحن على حافة الموت الأكيد نشعر بالندم الصادق ونعترف بكل نزاهة بوبال الخطيئة التي ارتكبناها؛ إننا نحن الأوبيخ بعددنا الباقي من نساء ورجال، من شيب وشباب، نحني رؤوسنا أمام عظمتكم الإمبراطورية ونتوسل إليكم والدموع في مآقينا أن تسمحوا لنا بالعودة إلى الوطن، إلى بيوتنا التي تيتمت. إننا نتعهد مقسِمين إنه إذا وهبتمونا سماحكم لنا بالعودة إلى أرض الآباء فإننا وكل أحفادنا سنذكر إلى الأبد عطفكم القيصري ونخدم الدولة الروسية بولائنا الأكيد وإخلاصنا الشديد. إننا إذ نركع أمام جلالتكم نتوسل إليكم: ألاَّ تدعوا شعب الأوبيخ ينقرض على وجه الأرض».

تعهد الأخوان وبعث العراق

لا طعم للحرية التي خرجنا إليها سوى المرارة والمذلة، فبعد كل الويل الذي تجرعناه في السجون، وخلّف فينا شتى أنواع الرضوض والتشوهات الوجدانية والنفسية والجسدية، وأمراض القلب والسكري والسل والجرب، وما لا يخطر في بال طبيب، أجبرونا على توقيع تعهدات طالت أبعاداً شخصية وسياسية واجتماعية وأمنية، وجردتنا من كل إحساس بطبيعتنا البشرية. مراجعات دورية، شهرية وأحياناً أسبوعية، والإبلاغ عن كل اتصال،تحت الضغط والتهديد بعدم خروجنا من السجن في حال رفضنا.

مقدمة لموت الحب
ذاكرة مطعونة

كفراشة بين أزهار الربيع، غابت ملامحكِ عني.

بعيدةً مهوى القرط، لا غيرتُك تشفع كي تجعلني قرير الحواس، ولا فوضى خصلات شعرك تعابث وجهي ، حتى هذه ما عادت تحرك الزّغب!! وشفافية روحك؟!.

تنسرب، كما يبارح اليخضور بسمة الزهر.

وعيناك؟! حائرة كهواجس تتلاطم وقد غشيتها بلادة النوم.

وأنتِ؟!

عابرة كبرق،

حزينة، كسارية بلا علم.

ونحرُكِ؟!

اللغز الباقي بين الكشوفات، عنق يتقلص كالبنفسج اليائس.

وقامتك؟! واليدان، وأجفانك، والوجنتان؟!

كلها شهود صماء على أحجية كنت أبتغي حلها قبل أن تفر خيوطها

من نسيج عش كنت سأبنيه في قمة طنفٍ صخري.

كنتِ..

وكنتُ أحبك كعميق أسراري الحلوة..

كنتِ..

وكنتُ أتعرش بظلالك كظمآن في عز الحر، وفي غير بغتة وجدتُني عارياً حتى منها..

كنتُ..

وكنتِ شهقة الفرح غير المتوقع، وانتحار الويل، والبُرْء.

كنتُ..

وكنتِ، الأنا، الواحد في كلينا، حتى في غمرة الجهل العشقي.

كفراشة بين الأزهار، غارت ملامحك، غاصت بُعَيد المنال، ولا أدري إن كانت هذه أولى البداية فقط.

* * *

كيف تنتحر النهايات قبل أن يجف ماء القلب، كيف يحدث هذا كله دون أن يتخضَّب وجه السماء، وتنحني قامات الشجر؟ اليوم ذبلت وردة طاولتي حتى الصفرة، بعد أن كنتُ رعيتها برمش العين! بالأمس أخرجتْ شجرة التفاح أكمامها قبل أن يلثم الطير ريق الندى. لم تفتّح شجرة الكرز هذا العام. في العام الماضي أزهرت، ولم تثمر. وفي كل عام يأتي الخريف، ويجن السحاب، ويبعثر الليل أصداءه. وأنت لا تزالين تحبين ثمار الكرز، ربما!!.

هل أحزنك خداع السراب؟

هل ضاعت منك أسرار حواسي؟! إذن فليتغمدها الماضي بالرحمة!!.

غفرانكَ أيها الغد الرمادي، فلتنقصف كل الغايات التي لا تنتمي إلى المحبة! غفرانك صوتي، لا أريد نداءات موسمية كصرخة في واد. يكفي ما نسمعه من صدى!!

كجناحي فراشة في عز البرد، انسدلتِ على بقية عاشقة كانت دفيئة، حارة! الفصل صيف، أنتِ بجانبي، ويداي، إحداهما حول عنقك، والأخرى على صدري، والجهة اليسرى باردة، فهل أنت مسكونة بالصقيع؟!

ضاقت خطاكِ، وتردُّدي يضيق، لكنه لم يطاوعني حتى اللحظة كي أستحم بآخر قطرة ضوء وأغلق أذني عن طنين النحل، ثم أهيل التراب على قصة كُتبت على وريقات القلب.

وقلبُكِ؟ مشتمل بثوب الحداد.

وصوتك؟ غاص في بحة مباغتة.

وصدرك؟ كجذع شجرة أفرع ذات يوم.

* * *

كنتُ..
وكنتِ كشمعة تعبث بغرور الظلمة
كنتِ..
وكنتُ الشكوى لقنديل روحك.
كنتُ..
وكنتِ الغيث على جناح سحابة. وأوصيتك ألا تتريثي حتى يأتي الصيف!
وكنتِ، وكنتُ، وهمين جميلين، أو بعض حلم.

كنتِ..

وكان القمر يرشقني بمواعيده كلما حاذى كوّتي الصغيرة.

كنتُ،

وكنتِ عمود الصبح، فأتكئ عليّ وأعانق شمسي، والفرحة في عيني شاهد.

من صيَّرنا «دومينو» بين أصابع من زئبق، فأتى على مشهد عتيق، ومسرح فصلاً جديداً من الخُدعِ البصرية الباردة.

ساعة يدك، ككل التقاويم المعيارية، قصّرت عن وقتها، ربما سبّقت كثيراً، لكن الزمن يدور. تباً للزمن الآخر! طوبى للمتحرر من أسر الوقت!!

* * *

الرؤيا والرؤية تتشابهان حين الخواء يرسم كل التضاريس. وكلانا يقرأ طالعه في سرير نهر من حصى وعطش. لكن الصبح ما عاد يباغتني إن جاء عارياً من بهائه، فلقد تعودته كما لو محمولاً على تابوت. فما الفرق بين بكاءين فجائعيين سوى مسافة عامين أو ثلاثة من الحرية، أولهما ينسفح في أي مكان، وثانيهما في ذات المكان الواحد.

كنتُ..

وكنتِ تسرحين بين جنبات القلب كوعلة وسط غاب.

كنتِ..

وكنتُ ذا البوابات المفتوحة على كل الكائنات..

وكنا الشهيق، وكنا الزفير، والنسمة.

رب غد، وشمس، وعنادل وورود!

رب ماض، ذكرى لا تأتي مباغتة، والحاضر سيف ذو حدين..

يكفينا أمداء عجاف، لا الجهات تخفيها الشمس، ولا النهر يكف عن المحيط.

هل تنحسر الآفاق دونك، هاك السمت الأبعد إذن!

عيناك، شعرك، جبينك، خداك، ويداك.. الفراشة تلثم التويجات.. يتقطر القلب، وعسل النحل؛ وتأخر الربيع قليلاً عن موعده هذا العام.

انظري حواليك، هل طُعِنَت ذاكرتك مثلي؟!

هل كوّنت صباحاً ما، هل صليت على الغائب؟

كنتِ، كنتُ، وكان الزهر يضوع..

كنتُ، كنتِ، الوقت سحاب ممطر..

والآن، لا وقت لصلاة الاستمطار، فالغيث ضرير.

* * *

موت حب 1

فكرت في آخر مطاف هذا الليل أن أكتب لك، وأنا بشوق إلى صراخ، لعلك تسمعين من غير أن أقسو على حواسك. أردته نداء داخلياً ينسرب عنه نسيج من حزن وغيظ. فليتك منتظراً الورد كي لا أغم عليك فرحك.. ليتك!

هكذا هو الزمن دوماً، لا يخجل من تهداره، يمضي فارداً أجنحته بغطرسة طاووسية بليدة، يمضي غير آبه بكل دموع الصبايا وجدائلهن، ولا يولي بالاً لغياباتنا النازفة.

في الشهر الأخير من آخر عام أبلغتني صديقتي القريبة البعيدة أنه ينبغي أن نسهر ونشيّع هذه السنة العاتية، معتقدة أن ذلك قد يمنع من أن تطبع نسخة عنها. كانت كأنها تحمّلني أمانة، وحين تلوت الوصية على مسمع أصدقائي الذين يقاسموني سكناي، حملوها دَيناً، ورحنا نفتش عن كل ما من شأنه أن يحقق لنا بعض السكينة والفرح.

اقترب الموعد، كانت الأيام تتتالى كنهر، وقبل حلوله استبدلت السنة نفسها بجنازة أخرى لكأنها تقول لنا: إني هنا.. وأنتم.. أنتم شيعوا موتاكم أو دعوهم يمضون إلى نهاياتهم بلا قبور، بلا أكفان، وبلا نقوش أو شاهدة! أجل «موتوا بغيظكم»!

سنة تمضي، تدعس فوق ظهورنا بأقدامها الأبرية، مضت ترقص فوق أجسادنا وأرواحنا الملقاة بين الصمت والكآبة. ونحن سرنا إلى دوارنا، بمده وجزره، ننطح الصخر ونتمرغ بالزبد المالح والرمل.

حدثت نفسي أيها الصديق أن أُجري تحويراً طفيفاً على اسمك غير أنني لم أجرؤ. حاولت أن أكنّيك، مثلما تعودت بين وقت وآخر، لكن عجزت. فتشت عن سبب عجزي فوجدتُني قدام الإيحاءات الخاصة لاسمك، كانت ثابتة، راسخة، فأحجمت عن أي نداء آخر سوى اسمك. تساءلت، أيمكن أن تكون هنالك ثنائية طبيعية تلك التي يتشكل طرفاها من العجز ـ الحلم. علماً أن المقدرة تولّد، هي الأخرى، الحلم بطريقة ما ـ ولو مختلفة. لكن دعني أقل إن الحال التي كانت عليها الأمور، بُعيد كما قبيل رأس السنة، هي إحدى قمم اليأس، العجز التي وصلناها خلال سني هذا السفر المديد. ولم تهتز بي شعرة حين سميتها حالة فقدان التوازن والوزن على حد سواء. حالة انعدام الوزن هذه كشفت معظم أسرارنا الضائعة في عتمة أرواحنا. ما الذي بوسعك فعله وأنت تعيش في خضم هذا الكفر بكل شيء، وأنت تتقاذفك أمواج لا تملك إزاءها سوى الاستسلام للزوجة الأمواه وغطرستها التي قد تودي بك! وحتى دون أن تستهدي إلى من يمد لك يداً ولو خيالية، يداً من سراب، أو بقية مرسى.

كنت أعرف أنه خيار صعب، خيار اتخاذ الموقف صعب، ومهما صرخت ثمة آذان مصمتة، كالخائف لا يسمع. كنت أقدر واقع الحال، لا تكافؤ فيما نحن فيه، نفسياً كان أم ذهنياً. كنت أقول: فلتكن صرخة ألم، أنّة قط محاصر أو بقرة دون السكين. ما كنت أراهن كثيراً أبداً، وليس بوسعي أن أكون أكثر طموحاً مما ينبغي، مع ذلك قدّرت أحياناً أنه بالإمكان فعل شيء ما، ردة فعل، وليس فعلاً.

جاءت النتائج كما هو متوقع، وأتت معها إصابات أخرى ـ جائحة من

مرض شتائي غير عادي طالت أجنحة الدفء، جاءت أقسى النتائج مع نهاية ذلك العام بموت جديد. لم نسر في جنازة العام، بل في جنازة صديق. وودعنا الثانية عشرة باكين بحرقة، ودعناها بلا سهر الشموع، بل في عتمة الوسادة، فتبللنا ووسائدنا وأعناقنا.

أظنني لا أجهل الأسباب، فلكلٍّ أسبابه، بعضها لا يخلو من وجه حق، لكن ما حدث كان أشبه بنهاية طبيعية، كانت قمة من قمم الحزن، سورة الحب والألم، لحظة غنية متنوعة ذات مغزى عميق بكل مدلولاتها، ولو كمياً. القهر الذي لا تستطيع معه الإفصاح عن قرارة روحك، هو العجز!.

لا شك أن كثيراً مما أحكيه لك ينطوي على بعد وجداني ينضح بالمرارة، لكنني كنت مصراً على أن أهمس في أذنك كي تسمعني أكثر، أو أن أصرخ كي تسمعني وأنت تنتظر الورد الذي يأتيك كما يشاء، ندياً كقلبك. وفي الحالين هو نداء داخلي، أرجو ألا يفاقم من تعبك الدفين.

درجة حرارتي 39، لاحظ أصدقائي هدوئي الزائد ورزانتي غير المألوفة، واحمرار وجنتي. وأنا أكتب لك من نقاهتي في ذلك الكوخ الذي تعرفه. كل عام وتنبت لك في جديلتها وردة جديدة.

موت حب 2

إنني حزين وقصيم كأي طفل حرم فجأة من كل شيء. مات أبي وأنا في الأسر، وماتت أمي وأنا في الأسر أيضاً، يوجعني صمتي، لكن الكلمة قد تجرح حزني.

الآن، مع موت حبي، سأخرج عن القاعدة.

وصلتني رسالتكِ الشفوية الأولى ولم أشأ أن أصدقها، ثم الثانية، وقد كتبت باقتضاب حاسم:

«كل ما فيكَ متعب ومجيد، لكنني اتخذت قراري. سآتي لزيارتكَ كلما استطعت، من حقي أن أبقى مخلصة لما عانيناه معاً في الدروب الشائكة».

ومن حقكِ أن تبادري إلى هذا الخيار، ولعله الأصوب أن تتحرري مني! بيد أنني أشعر بصدع وجداني سحيق، وهذا حقي أيضاً. هي متاهة.. أعرف.. وقد أوافقك أن الأمور هنا ستجري بشكل روتيني حتى نهايتها إلا إذا حدث ما يضمره الغيب. أي أن أمامنا زمن طويل سيمضي ونحن بعيدان عن آخر الشوط. بيننا سنوات خمس من البعاد، ومثلها من التباعد الذي فرضته قسوة ظروفنا ما قبل الأسر، وقدرنا أن

نعيش بكل ما نملك من قوة وإرادة وعزم وأمل. عقلياً، بوسعي تفهم ذلك، غير أننا في المحصلة نحن بشر، نمتاز بمشاعر وأحاسيس لم تصبح حجرية بعد، نحزن ونفرح ونكابر ونرضخ ونتمرد و.. نستطيع الوقوف من جديد. وهذا جزء من المستحقات والخسائر على السواء، ولكن هذه المرة من الجانب النفسي والوجداني. وحين أتأمل هذه الإحباطات والفجائع والفداحات ألملم ذاتي كأنني في مرمى قدر بائس. أتجمع على نفسي، أفتش عن كل ما يمنحني بعض المعافاة، شأن كل أولئك الذين فقدوا عزيزاً.. مدركاً أن العمر يجري لا كما نهر، وإنما ينفذ من خزان. أعترف أنني فقدت امرأة من محبة ودفء وعذاب وحرقة.. امرأة موشحة بالليل والتأمل والتعب والمودة. هكذا.. كل شيء صار فجأة أبرد من صقيع.

موت الحب (أبو الخل)

لماذا تحدثت عن نسيج الحاسة السادسة وبعض ثمراته السرية؟ لأنني ذات تاريخ، ربما كان ذلك في نيسان 1993، سمعت من صديق لي يقول إن حبيبته طلبت إليه ألا يكلف نفسه عناء الهدايا. حدثني بالأمر ولا أدري إن كان حدسه قد أوحى له بشيء ما. لكنني أستطيع أن أتحدث عن نفسي ما دام هو لم يعلق شيئاً من هذا القبيل. كان ما فعلته أنني حاولت أن أفسر الأمر بطريقة عادية دون أن أدخل أياً من تفسيراتي الخاصة لا لسبب سوى أن أبعد ما أمكن شبح القلق عن روحه.. فهو صديقي قبل كل شيء، ثم إنني لا أملك أي برهان محسوس يسمح لي بإعلان هواجسي. لكنني مذ سمعت قوله انتابني شعور مخيف حاولت جاهداً أن أخفيه. بقي في داخلي حتى وقت طويل، غير أنه شغلني أكثر مما ينبغي في ذلك الوقت. وفي المساء عدت إلى نفسي أدقق في كل كلمة قيلت، قلبتها من جميع وجوهها. ولم أهتدِ إلا إلى شيء واحد. ترى هل لأنني كنت أحمل ذلك الهاجس في دمي بصورة غير مشعور بها تماماً؟ وجاءت الحادثة كي تترجم ذلك الهاجس إلى واقع ملموس، إلى شبه حقيقة لا مفر منها. أجل، هذا هو بالضبط ما فكرت فيه قبل ثلاث سنين حين كنا في مكان لا يبعث على المسرّة. حين كان مجرد ذكر هؤلاء النسوة ـ أشباه الآلهة يجعل من

أحدنا رجالاً في رجل، وطفلاً في ذروة الفرح. إذن لا أدري إن كان هذا يندرج في سياق الحدث المرهق أم التخوف مما سيجري. على أية حال أياً يكن الأمر، تكوّن لدي بصورة محتومة ذلك الذي أصبح في عداد الأسرار. بعد مرور زمن على تلك الحادثة جاءني صديقي والقلق ينهشه. وكنت منذ الليلة الفائتة قد لاحظت أن شروده هذه المرة لم يكن عادياً. كان يفتح كتاباً وعيناه مثبتتان في ما وراء الصفحات المكتوبة، كانت تخترقانه وصولاً إلى ما بعد خطوط الجبهة الخلفية التي تصل إلى أكثر من مائة كيلو متر، مجتازة الخنادق ومرابض المدفعية وحقول الألغام ومراصد الاستطلاع والتعرجات التي لا تنتهي، تلتفان خلف الأشجار ولا تولي اهتماماً للطيور المسقسقة... حيث تصلان في النهاية إلى تلك الغرفة الفقيرة التي تنتشر فيها أشياؤها العزيزة على قلبه. في الليلة السابقة، وكنت أجلس قبالته، وجدتني، بطريقة التخاطر، أطوف في ذهني الطرقات ذاتها، الأمكنة، الخبايا، متكبداً آلاماً عميقة. صمتاً... صمتاً.. هذا الصديق الذي من طبعه أن ينام باكراً، سهر تلك الليلة بشكل غير عادي... حكى... تدفقت ذكرياته كشلال، أفرغ بعض ما يفيض فيه من شجون، شجون شخصية صرفة هذه المرة... شرب حتى الثمالة. وكان الكل يرشقونه بالأسئلة سواي. يمازحونه، يهزرون، يضحكون، ولم يكن هو الآخر أقل تفاعلاً، على الأقل ظاهرياً. غير أني كنت أدرك أن ما يتفاعل في داخله كان أعمق وأوسع وأكثر كثافة بكثير. لم أعقّب ببنت شفة، تظاهرت بأنني سعيد كما الآخرين كي لا أعكر صفو هذه اللحظات التي تبدو جميلة بشكل فائق. كنت أتمزق، يأكلني هاجسي خلية خلية. كنت أتلوى ألماً على ما يضمره الغد لهذا الصديق. لقد دونت في ذاكرتي قصة من أكثر القصص مأساوية. فأي صراع يعيشه المرء في حالة كهذه: الإصرار على الإيهام بأنك بينهم وفي الحين ذاته أنت فعلياً في موقع بعيد كل البعد عما يجري أمامك.

موت حب 3

هل أستطيع أن أميز تغضنات النفس؟ هل تدري ماذا حل بي بعد أن انتهت علاقتنا؟ لقد صرت كمن ترك روحه مكشوفة على الوجل ووخز الشوك، وراحت تتبخر تاركة موته!! فكيف، بحق الآلهة، سأعيد نسغ روحي ووهج دمي ولغته الصاخبة؟ بأي نظام سأرتب خرائط قلبي؟

أعرف بأنك ستقول لي ما يهيئ النفس للأعظم، ستشير لي أن ألملم ريّاي المنسفحة!

إنني أقف على حافة موتي ساهماً، أقرأ حطامي، ودمار غابتي التي زلزلها هذا الزمن الفاحش. لقد ضيعت اتجاهي، وابتدعتُ جهاتي، فالجدران تقلبني. بعد هذا هل من سبيل لأوقظ كلماتي وأدب فيها جمراتي التي خمدت؟

تَهاجَرنا لا كرهاً ولا يأساً، بل عسفاً وقهراً. وكانت حكايتي بأطوارها الصاعدة والهابطة، ترويني حيناً، وتتركني يباباً حيناً آخر؛ وكذلك كان حالها. لقد أضنتني حكايتي التي نسجت كلماتها من خلايا دمي، أرّقتني وسلّطت علي شمسها وأنا أعانق الألم: يقال من يعانق ألمه لا يشيخ، بل يستعيد صباه. ولكي أتعرف على طالعي ومشهدي القادم

وأطمئن على أحوالي، قرأت كفي. تمعنت جيداً في المرآة، وعاينت وجه السماء. تهت في قيعاني ووادياني أفتش وألوب عن الحب والجمال والأحلام ولم أعثر على ضالتي. ما كنت أتصور أنني سأصاب بالخوف على قلبي وحبي إلى هذه الدرجة من الضياع. لقد أسرتني الحالة التناقضية والتي محصلتها متعادلة دون أي ترجيح. فمن ناحية، أجاهد لشد نفسي وتقويتها بهذا الحب الذي كاد يفحمني في بعض الأوقات، وفي أوقات أخرى كان يرفعني إلى السماء. من جهة ثالثة صرت أخشى الارتكاس والتخبط، أخشى أن تتحطم مواطن طمأنينتي وأمني، وأقع في دوامة جديدة، فلا ضمانة في ظل شروط كالتي نعيش.

إلى متى سيستمر هذا الركض.. ما أعرفه أنني صرت أبحث عن الصمت..!!.

موت الحب 4
خيبة / سميح

كنت أظن أن الدم لا يصير ماء في قلوبنا، نحن الذين حاولنا ولو دمعة صغيرة تروي فرحاً صغيراً. حاولنا بنظافة القلوب، ببساطتها، ونقاوتها، أن نرمي ولو وردة على جوع هذه الأرض. وحين انكسرت أحلامنا، كنت أظن أن قلوبنا لم تنكسر، لأن الخير والحق والعدالة شيء منها وفيها. شيء في أصل أرواحنا.

لقد كان رحيلها المفاجئ بذاته ذابحاً.. وكان قرارها، الذي اتخذته بصمت، ولوحدها، ومن وراء ظهر قلبي أكثر إيلاماً وفجيعة من هذا الرحيل (أنا لست سوى رقم في سجلات هذا الأسر ـ العشق، وليس من حقي، كأي مكتوف اليدين، إلا أن أتلقى قرارات وأتقبلها دون تفسير، ودون حتى حق في السؤال!! وكأن الحلم لم يكن حلمنا معاً.. وكأن العشق لم يكن عشقنا معاً!! ومن ثم هذه التبريرات الظالمة، والمخلة بشيء أصيل وحقيقي ورائع كان.

ما حدث حز فؤادي، واخترق مشاعري بعمق.

كان حبي عظيماً، حياً كما أعتقده. وإيماني كان أرسخ من أن تزعزعه سقطة مفاجئة أولى، وسقطة مفاجئة أخرى وثالثة. يا للسقطات المفاجئة!

أحرقتُ ظنوني مرة وأخرى، ورحت أديم النظر إلى خيوط دخانها السوداء. أجل كانت سوداء! أحرقتها عن بكرة أبيها، وقبلها أحرقت مراكبي ومضيت لا ألوي على وجع أو تحذير.

في قاع هوة سحيقة اكتشفت بعض رمادي، كان أبيض شاحباً كدمي.. أمعنت في النزول نحو الليل.. تمليت الأشياء الظاهرة، كنت مطمئناً أن ثمة جمراً في الخفاء.. وإذ بي مطمئناً مخدوعاً.. يا للنار!

أيها الوجد المطعون، كم كان حبها نقياً، أو هكذا كنت أحسب.. ولعلي لست أعمى.. فجأة ضيّعت حنيني بلا وجل، تركت وراءها كائناً نازفاً بلا ضماد؛ بقية حنايا مكسرة. كنت مخلع القلب والأظافر فلم أقوَ على قلع شوكي، أجهشت وأنا أنتشه بأسناني المسوسة.. في وسط عماء بدئي لا معقول.

أمغفل إلى هذا الحد أنا حتى أخال الحب لا يموت. من وشى بهذه المقولة في خلاياي؟ يا للغفلة المحزونة.. غادر الحب، والدم أبيض أبيض كالحقيقة القاتلة.

من فرض هذه الكلمات على لا وعينا: الحلم، الكبرياء، العرق الطاهر، والنبيذ المسكِر! لست سيد قرار، ولا وصياً.. يداي قيدان، وعيناي مغرورقتان بالألم.. كف أيها الحالم المفترض عن بقايا خرابك، للم حطام المراكب، لعل إبحاراً سيأتي ذات فجاءة..

تعلم، ولو مرة، أن تعصب جراحك برباط كتيم، ولا تتعب أوردتك تعسفاً!!

لمن يختلج القلب بعد أيها الورد الجاف؟

لمن تفرد الروح جناحيها أيها الميت حياً؟!

الخيبة لصيقة بالشرايين يا ماء! والعطش جاف في الأحشاء.

صمت، وكوابيس، وبراري بكر على شفا البيد.. فاتسع إلى ما سيأتي..

هل أستطيع تحولاً؟ وهل ينبغي!

كنت أظن الدم لا يصير ماء، والماء لا يصير حجراً، والحجر لا يصير دمعة..

وإذ بها جميعاً تصير.

تصير تماماً،

وتصير حتماً..!!

(موت حب وأبٍ) 5
ما بعد الخيبة راشد

لم أطعن بحربة.

ولكن من أين يتدفق هذا اللون؟ وكيف تسلل هذا الشحوب البارد إلى وجهي؟

وردة! كلمة! لوم. أي شيء!

أجلس في هذا الركن للمرة الأخيرة. كيف تزامنت هذه الحوادث. راحت دون أن ترفع يداً في آخر الطريق أو عند المنعطف.

أفرغت المكان من كل شيء، وجلست. استدعيت أبي على حين غرة. لم يكن ينتظر دعوتي في هذا الوقت الدامع. لكنه سيسامحني. لمن سأسفح الدمع إذن؟ لمن يا أبي؟

كان باكراً يا أبي أن تتركني وحيداً كالدرب. وأنت أيضاً رحلت دون أن تومئ لي بشهيق أو عناق أخير.

لن أبلغ أحداً بخروجي. سوف أمضي، وبوصلتي إليك خَيطان من الدمع والدم؛ وهناك، سأقبع عند رأسك وأغني متكئاً على موتك يا أبي. أجل على موتك. لن تتهمني بالجنون. فقد علمتَني أن أكون غيري في

حزني، مثلما علمتني يداك كيف أمسك القلم. هل تتذكر كيف كان يفلت من بين أصابعي الصغيرة! أنا أذكر يا أبي، لا أزال أحتفظ بدفء ذراعيك رغم البرد الذي يفتت عظامي.

أبي، غفران حزنك يا أبي؛ لكنني سأحكي لك ما لم أقله لأحد.

تلك المرأة التي كنت تدعو لقلبها بالفرح، ضاعت حضوراً مني، وتركتني أكتنف أحزان مريم وكل الثكالى.

اليوم يا أبي، وأنا هناك، أرى كبدي ينفطر عند ريحان قبرك والآس.

حاولت يا أبي أن أقلّم أنانيتي وخوفي، فانكمش في داخلي بعضي، تلملمت على شظاياي لأخفي مالا أدري، فتشكلت دلتا فراغية تحتي. وجدتُني معلَّقاً والذعر يتقطر من أنحائي.

سبعة عشر عاماً يا أبي وأنا أنهل من إيمانٍ عشقي يسعد الطيرَ في الثلج.

عشرون عاماً وأنا موزع بين نهرين وغرق مؤجل.

ما أصعب الغرق المتريِّث يا أبي! هل جربته بعد موتك أيضاً؟ أنت لم يدركك الجفاف في حياتك، فقد كنت غارقاً دوماً.

ما أرهب أن تعتقد عومك آمناً، وفجأة تراك في القاع، فيما الصخرة معلقة في قدميك.

ـ «هات يدك يا أبي، ارفعني إليك، موتي قاتل يا أبي..».

ـ «صخرتك تحتك، وصخرتي فوقي يا ابني. من منا أثقل من الآخر؟».

ـ «ولكنك أبي، وتستطيع كل شيء».

ـ «ما هو؟».

- «انحنِ حتى يصير القيد بين أسنانك، ثم اقطعه».

- «حاولت يا أبي، وأخفقت».

- «صِبر نملة ولا تيأس!»

- «سأسعى».

صرخت وصرخت. ما عاد أبي يسمعني. كان يكز على أسنانه. سمعت الصرير!! غرفتُ حفنتي رمل، وغسلت وجهي. استدرت على حركة خلفي. كانت الشمس بارتفاع قامة، وقامة أمي تضارع القرص النوراني.

نهضت، فقط لأسقط. نهضت ثانية فارتميت. كانت أمي واقفة قبالتي، فقط مدت لي يدها لتومئ لي أن أنهض.

طفل ينبغي أن يبدأ خطواته الأولى، كفى حبواً. حبوتُ بضع خطوات. وصلتُ حتى قدميها. أقعت قبالتي. وضعت يدي على ركبتيها، نهضت ببطء. كنت أرتفع، وهي ترتفع. وقفنا. زغردت أمي معلنة: مشى ولدي!!

شهادة باسل 1
وقفة خارج السياق

1995-12-14

قد تكون على علم ببعض أفكاري القديمة وبشيء من جديدها، أو لعلك سمعتَ عنها. ولكن تبقى هذه المعرفة ناقصة ولا شك، وربما محدودة جداً. ولأنني لا أخشى أن تكون كاملة قدر الإمكان، فقد وجدت لزاماً علي أن أطلعك، ولو بخطوط عريضة، سمّها رؤوس أقلام، عناوين هواجس، مفاصل عامة، محاورا بيد أني لا بد من التأكيد على قضية ألا وهي أنني أنا الذي أغفلت هذا الجانب، لأسباب لست بصددها الآن، ومن جرّاء ذلك أستطيع أن أقرّ بتحملي وحدي هذه المسؤولية. أما إذا حدث وتساءل البعض، وقد تكون أنت منهم، لماذا كان موقفي أمام هيئة المحلّفين، أو في مواقع أخرى، مغايراً إلى حدٍ ما، فإن لهذا أسبابه أيضاً. وليس أقلّها احترامي لذاك العقد الجماعي الذي انخرطت فيه بعد توقيعي عليه في مرحلة ما من حياتي، بصرف النظر عن كل القناعات «الجديدة» التي قد تكون أُدخلت على تفكيري وطريقتي في الحياة وفهمي للواقع وما إلى ذلك.

والآن تراودني تخوفات من المغامرة بتدوين أفكاري البعيدة منها والقريبة، النظرية وسواها، وذلك لشعوري بتواضع إمكانياتي أصلاً قياساً بالمستوى الفكري وسواه الذي يفترض أن أكون به. وكذلك خوفي من

مشاعري المستاءة من نفسي نتيجة إحساسي بضحالة ومحدودية أفكاري في مرحلة طويلة سابقة من حياتي (وكلّي أسف لقول ذلك). أرجو أن تنتبه إلى أنني لست من النوع الذي يحلو له جلد ذاته، وفي الوقت نفسه أنفر من المصالحة الكاذبة مع الذات؛ إنما أهدف إلى توصيف حالة، إقرار حقيقة، ترجمة مشاعر ووجدان وروح، عانيت منها الغم والقلق والتشوش قبل أن أقبلها في المحصلة عارية تحت عيني. غير أن ذلك كله لا يعني أبداً أنني غادرت الحياة لأنجو بنفسي دونما اكتراث بأحاسيسي وعقلي، أو لأتنحّى على هامش الحياة الخالي من القيمة؛ لا، ليس الأمر كذلك. إن لي دوراً بعدُ. وهو دور ليس بوسعي الآن تحديده كليةً، وأعجز في الحين ذاته عن رسم تفاصيله العملية. قد يكون دوراً قليل الأهمية، ولكن ليس هامشياً؛ قد يكون بطيئاً وموضوعياً، ولكن ليس حيادياً. قد يحمل بعض الانتظارية الراهنة، ولكنه ليس هروبياً إلى الخلف ولا إلى الأمام. أفترض دوراً بين (المثقفين) أو بين السياسيين المحليين، وهذا الافتراض هو الآخر مرتبط بسياق ما تتيحه لي الحياة. ولكن ما قصدته في الإمكانيات يتجلى بضيق إطار الحاضنة الفكرية والسياسية التي تشكل خزان أفكاري ومولّدها، لصالح اتساع نطاق الوهم والخيال، وبدون شك على حساب، وأحياناً، ضد الحقيقة. أحياناً، حين ألجأ إلى التكثيف، يراودني هاجسان: أولهما أن ينتج عن التكثيف بعض الالتباسات التي أصبح مديناً لها بالإيضاح، وثانيها أنني غير ميّال إلى الإسهاب والإطالة في مثل هذا الشرط الذي يفترض الأخذ والرد والدردشات التوضيحية وما إلى ذلك. وبين هذين الهاجسين أخالني أختار الأول على علاّته، الأمر الذي سأفعله الآن في مجرى تحديدي لما سميته محاور، عناوين الخ.

أ ـ لا يمكن تخطي الهوية القومية لمجتمعات المنطقة. ب ـ كل الحلول الإيديولوجية السحرية بما فيها الماركسية والإسلامية، بل وحتى الديمقراطية، مع بعض التحفظ. رغم أن هذا لا يعني تسطيح كل ما هو

إيديولوجي. فمن المستحيل الفكاك من الإيديولوجيا مهما أقسم المرء أغلظ الإيمان بأنه يمقت ذلك ويرفضه كلياً. جـ ـ القضايا العامة لا يمكن الاكتفاء بالتفكير فيها فردياً أو من قبل مجموعة أو شريحة ضيقة من المجتمع مهما اتسعت معارفها ورؤاها. بل إن القضايا العامة لا تكون كذلك حقاً إلا إذا كان للكتلة الأكبر من المجتمع صلة بها، ولا أقصد بالمعنى العددي الحصري، بل بمعنى الفعالية، أي أن الشريحة المفكرة، والتي هي دماغ المجتمع، تُقاس هنا كتعبير أكبر بكثير من نسبتها إلى الكتلة العددية لهذا المجتمع. د ـ السياسة لا تعني أبداً العمل الحزبي فحسب، بل إن أي فعل جماعي مهما كان، هو فعل سياسي بهذه الدرجة أو تلك، لكن الحزب هو جهاز وسلطة أو جنين، جهاز سلطة سياسية سواءٌ بالاحتكار أم بالمشاركة. هـ ـ السلطة السياسية مسألة جوهرية دائماً في أي مجتمع سياسي، وهي جوهرية أكثر من اللازم في مجتمعاتنا، وإن الطريق المؤدية إليها دائماً القوة؛ فإذا تعذّر على جهة ما مكامن القوة، أو إذا لم تركز اهتمامها أصلاً على ذلك فلتتنحَ جانباً ولتوفر على نفسها الآلام. و ـ ثمة قول سجلته في مفكرتي منذ عدة سنوات لا أدري من قائله، ولكنه هزّني من الأعماق بفجاجته ودلالته: «لا يلتقي المرء في سرداب الأعمال السرية إلا بالجرذان». وطبعاً فإن القول ليس مهماً إلا من جهة الدلالة ـ الفجة للجرذان هنا، والتي تعني لي نتائج تلك الأعمال مهما عظمت وسمت أهدافها ونواياها.

يمكن الحديث مطولاً عن هذه النقطة، لكنني أكثّف تعليقي على هذا باختصار بأنني صرت أعتقد بأن الهواء الطلق هو الشرط الصحي لأي عمل؛ وإن لم يكن ذلك ممكناً فلا يوجد أي مبرر للالتقاء بالجرذان!! ـ إن الرجال العظام في تاريخ أي أمة لا تقاس عظمتهم ودورهم الكبير في مجتمعاتهم بالنجاحات أو الإخفاقات المباشرة أو حتى الراهنة لحياتهم، بل إن دورهم في مجتمعاتنا يقترب من الدور الروحي الذي يتخطى الجوانب

المادية الملموسة. لكن رجال السياسة عموماً هم كذلك حقاً كلما استطاعوا الوصول إلى نجاحات مهما كانت طفيفة. وإلاّ فإن التاريخ سيرذلهم شاؤوا ذلك أم أبوا. أي أن على السياسي أن ينجح، وإذا استعصى عليه ذلك، وقد يحدث هذا لسبب ما، فعليه أن يخفف ما أمكن من حدة هزيمته، وأن تكون قياسات الربح والخسارة شاملة وحقيقية.

أما الشق الآخر المتصل بالظاهرة، فلأسبق القول إنني وبدون أدنى شك أشعر أنني كنت جزءاً منها، من تجربة نظيفة في مواجهة وضع فاسد على كافة الأصعدة، وهذا مدعاة للفخر بالنسبة لي. وإن ملاحظاتي القاسية الآن لا تعني أبداً المس بالجانب المعنوي، الذي كسبته جرّاء انتمائي لحامل مكافح في سبيل أهداف نبيلة.

1 ـ لو أنني أكتب للتاريخ لكنت سأقول شيئاً آخر. ولو أنني أقدم شهادة لعمل روائي ـ ملحمي لقلت: إن ما آلت إليه الظاهرة بعد قصفها هو أروع نتيجة يمكن أن تحققها الظاهرة واقعياً، لأنها دفعت كوكبة من الرجال إلى خوض غمار شرف المقارعة، وأي شرف. لو استطاعت الظاهرة بقدرة قادر أن تتقدم على طريق تحقيق ما طرحته لكانت تقدمت في الواقع على طريق يصل بها وبالعباد إلى محنة جديدة. 2 ـ التركيبة الطبقية. 3 ـ لم تعطِ الظاهرة الاهتمام الكافي لمعادلة القوى الفردية في أي فعل. وفي هذا مدعاة للفخر أيضاً من الجانب البطولي للمسألة، لكنه مدعاة للبكاء بالمعنى حصراً. 4 ـ كانت مصابة بدرجة ما بداء متعشش في المنطقة تاريخياً، داء «الفرقة الناجية»، ابتداء من رسم حدود صارمة بين هذه الفرقة وبقية العالم وانتهاء بروحية التفكير مروراً بالإيمان بالجهاد المقدس تحت راية المهدي أو زمرة من الأنبياء.

أعود إلى الفكرة الأولى التي طرحتها عن نفسي بعد أن أسجل شيئاً للتاريخ هذه المرة، إنها ظاهرة فريدة من حيث العديد من الجوانب،

وستبقى آثارها في أذهان البشر حتى مع افتراضي الموت العقلي أو الرمزي ـ الإيحائي. ولأطمئن ذاتي أولاً، أضيف بأن رصد وتقييم وسبر وتمحيص كل هذه الظاهرة من خارجها سيكون أرحم لها من سيوف النقد المشرعة في أيدي أبنائها.

أكاد أقول إنني أصبحت غير منهجي في طريقة تفكيري، بل أقبل وأحتمل تنوع المرجعيات التي أستند إليها للوصول إلى أفكاري، وكل ما أحرص عليه فيما أتبناه من أفكار هو محاولة الوصول إلى درجة من الاتساق فيما بينها. وإذا أردت الإيضاح والتبسيط فإنني أسمي نفسي متنوراً، ولا أسمي نفسي علمانياً لأن هذا المفهوم صار يعني عندنا الإلحاد المعلق أو المضمر بالأديان السماوية. ولأن العلمانية صارت عندنا تعني أيضاً تبني المفاهيم الفكرية للغرب، ولأنها أصبحت في بعض الأحيان يافطة مزيفة تخفي وراءها أكداساً من المستور المنافي لها. وعلى هذا الأساس فإن الدائرة التي صرت أشعر الآن أنني ضمن أمنها هي أوسع من هذه الظاهرة، أو حتى كل الظواهر اليسارية، بل إنني أشعر أنني أقرب إلى مفكري النهضة الأوائل مني إلى أطروحات أي حامل يساري متواجد الآن؛ أما من الناحية الفكرية. أما من الناحية فأنا الآن مغترب، أتشارك مع من يشاركني الآمال والآلام بأفكار مجردة، وهي ليست أكثر من حبر على ورق ما دمت كما أنا (زمانياً ومكانياً)، وما دمنا خارج الفعالية الحية، وليست لدينا امتدادات إليها. وإذا ما قدر لي العمل يوماً، فلن أسعى إلا إلى البحث عن قوة مادية تدافع عن أهداف وغايات محددة كعناوين عامة تكون استجابة لحاجات المجتمع في مرحلة معينة، ومن غير الضروري هنا أن يتفق الأفراد الفاعلون من أجل هذه الغايات في منظومة تفكيرهم.

وعن طريقة التفكير أقول بأن خبرتي الشخصية أوصلتني إلى قناعة أنه

من العبث، أو بالأحرى من الحماقة، الرضى بتصنيف الناس حسب أفكارهم فقط. إذ أن وصول الناس إلى تبني أفكار معينة هو مسألة معقدة ولا تأتي دائماً عن طريق النقاش والحوار الفكري بين فردين، حتى أنها نادراً ما تأتي عن هذا الطريق، لكن الشخصين الذين يلجآن إلى الحوار الفكري يتفقان في مسألة جوهرية وهي أن أحدهما ناقص بدون الآخر، أما الأخيران فكل منهما كامل دون الآخر، وسينقلبان على بعضهما عاجلاً أم آجلاً (وهنا بالطبع لا أغفل حقيقة تبعية العامة للنخبة المثقفة في الميدان الفكري) ولا يمكن الوصول بمجتمع إلى طريقة تفكير واحدة إلا إذا تخطى عتبة الحضارة. وعلى هذا الأساس فإن هدفي فيما تبقى من عمري (أو طموحي بالأحرى) هو أن أسعى للقاء مع من يشاركني بطريقة التفكير والتي يمكن توصيفها: ـ القبول بالتعدد اللامتناهي للميول والاتجاهات الفكرية ـ الميل لأن تكون أصيلة محلياً من ناحية الجوهر على حساب الاهتمام بالشكليات سواءاً عملية أم الواحدة ـ الاهتمام أساساً بالمعطيات الملموسة لأي حركة بغض النظر عن النوايا والتصورات المقدمة عنها ـ السعي لإنزال كل ما هو سماوي مقدس إلى المستوى الأرضي، مع القبول بحقيقة وجود من يؤمن بالمقدسات والتعامل مع من لا يحاول فرضها على سواه ـ هنا الجانب الأهم، فطريقتي تعتبر أن الحقيقة منحازة دائماً إلى الطرف الأقدر على فرض حقيقته، فالواقع ليس حقيقياً إذن إلا بمقدار ما هو واقعي، وذلك بغض النظر عن معادلة الصواب والخطأ. وهكذا فإنني حين أفكر بالمستقبل (لا أتحدث عن فعل راهني، فأنا لست سياسياً في الوقت الحاضر إلا بقدر كوني مغترباً، أما عدا ذلك فهو عبارة عن أوهام بأوهام) فإنني أسمح لنفسي بتأجيل البت في هذا الأمر إلى مرحلة لاحقة. وإن وجدت انسداداً في الأفاق فيكفيني تمثل القول: «إن رأى أحدكم وإن لم يستطع فبقلبه.. وهو أضعف الإيمان».

هلوسات محض عقلية
(شهادة2)«من فيصل»

فاوست 2 - 4 - 98

أعرف أن إرادتي قد تحطمت وهلكت.. على أن يأسي لم يبلغ بعدُ منتهاه.. شيء مدمر أن لا نمتلك من الإرادة ما يكفي، ومن اليأس ما يكفي أيضاً!!

هل ثمة بعد مفازات قصوى؟ ربما، من يدري! وحينها فلنرحب بها ما أمكن، علها توصل يأسنا إلى منتهاه. هل أقول تعال كما يحلو لك القدوم، ومن حيث تشاء، فلدي من الهزائم ما يكفي للرحابة والترحيب. سأزعم أني تعلمت منها ما لم يكن ليتيسر لي قط لولاها. لم لا أفخر بها إذن؟!

فأنا أرجع إلى الوراء، وأراجع ما مضى مني، وأظنها هي التي أضاءت لي لأرى جميع محاولاتي للمعرفة، وربما تجربتي برمتها ما كانت سوى تلمّسات أعمى في محاولاته لمعرفة ما يقع تحت يديه!!

لعلها هي التي سأقتفي لأرى أن حياتي أيضاً ستظل وتبقى، بمختلف مفرداتها وحيثياتها، «بروفة» تخفق وتفشل دوماً، لحياة أخرى سوف لن أعيشها أبداً. إذن لا بأس عليك أنت «تدنو من إغوائك النهائي» ولا بأس عليّ أيضاً، وأنا أتأرجح عند الحد الفاصل بين العقل والجنون، بين منتهى الأمل وما يوازيه من اليأس، بين الإرادة المطلقة والاستسلام الكلي. فلطالما أكون هناك، في تلك المنطقة الرجراجة، المهتزة على الدوام.

ولهذا السبب ليس غريباً أني كففت منذ أمد عن الثوابت واليقينيات والجزم. فلا ضير إذن كيف، وعبر أي الطرائق، تمضي، ولنُمِتْ موتَنا هذا، لنهل عليه التراب عسانا نحيا من جديد!

أترك بين يديك الكثير من الورد والشوق.

شهادة (3)

حكم عليّ بخمس سنوات، دون أن يلقوا القبض على الجاني الحقيقي الذي ألبست تهمته. الآن، وبعيداً عن القضية وتبعاتها القانونية والأخلاقية، اعترف بأنني أستحق هذي السنين الخمس ولكن لسببٍ آخر وفي محكمة أخرى، وما كنت لأكتشفه لولا ما عشته هنا. فقد تعلمت كيف أقوم بأعمال كنت أعتبرها سخيفة وتقلّل من قدر الرجل: غسيل الملابس، تنظيف منفضة السجائر، ترتيب الفراش، أو تحضير الطعام وغسل الأواني الخ. بعد هذي السنين الطويلة في الأسر أدركت قباحتي وهشاشة قيمي الأخلاقية. كنت أتعامل مع زوجتي وأولادي بجبروت فظيع، لم أكن أناديهم بأسمائهم بل بأوصاف أطلقها عليهم حسب المزاج، تماماً مثلما كان الحراس يفعلون معنا في المحمية التدمرية.

ـ ما الذي ستفعله فور خروجك؟

ـ سأطلب المغفرة من زوجتي أولاً، ثم أولادي، عن كل ما ارتكبتُه بحقهم، وسأعيد لهم الاعتبار لعلي أعود بشراً. لم يعد يهمني ذلك الضلال الذي قيّدني على مدى خمسة عقود من عمري.

لكن زوجته توفيت قبل إطلاقه بعام، أما هو فمات بعد سنة من إخلاء سبيله!

تحوُّل/شهادة (4)

كنت جريئاً في طرح أفكاري بقدر ما كانت تخيفني. تخيفني لأنني أُكرهت عليها في سياق الداء المركّب الذي أصابني، وكان خليطاً من الضعف والتعب وانسداد الآفاق والإحباط واليأس. ومنذ أن تسلل إلى داخلي ما عدت أرى ملامحي كما كانت من قبل. أحياناً أراني نحيل الوجه غائر العينين، كئيبهما، كأن الفزع عاث في محجريهما. صرت أشعر أن ملامحي تتخاصم فيما بينها، وأن لجبيني عدة طبقات، كل منها تضغط على الأخرى، وكلها معاً تضغط على دماغي، فيتراءى لي بأنه يجف ويضمر، وأحياناً يتورم حتى يكاد أن ينفجر؛ وحينئذ كنت ألوذ بالفراش كما حشرة من ذوات الدم البارد.

كانت أفكاري تتخذ شكل جلاد مرعب فأجدني منحازاً إليها، ثم مدافعاً عنها بشراسة، إلى أن أستحيل إلى امرئٍ عدواني إزاء كل من يحاول النيل منها. وحين أعود إلى نفسي مراجعاً، تتحكم بي أشباح السخط والاستياء منها ثم من نفسي، فتنهار قواي مرة أخرى وأسقط صريعاً تحت عجلات الندم الفائت.

قلائل أولئك الذين كنت أحترم مواقفهم المناقضة لمواقفي. وكنت أشعر تجاههم بشيء من الرهبة دون أن يمنعني ذلك أبداً من مقارعة

حججهم وآرائهم. وكانت نقطة ضعفي الأساسية أنني مكشوف لهم تماماً. هم حافظوا على حد كبير من الصلابة الكفاحية، ولم أكن أشك قط في مستوى انسجامهم الذاتي. كنت أحسُّ أن في داخلي شيئاً ما ينخسني كي أقف على قدمي، ولكن سرعان ما كنت أنساق بالاتجاه المعاكس؛ على الرغم من أن كلا الاتجاهين سواء فيما يتعلق بمصيرنا المشترك.

أحياناً أكتشف أنني جعلت من نفسي ملهاة، وأحياناً كثيرة أدرك عمق مأساتي التي لم أتمكن من دفعها حتى النهاية، أو تغيير مسارها. وأصبح بين الملهاة والمأساة مجرد شخصية تحدد موقعها بصورة خارجة عن إرادتها. وحين أتذكر لحظات جموحي السابقة يصيبني الذهول من جرّاء انتقالي العاصف الدرامي من تطرّف إلى آخر، لولا أن المسافة بينهما صارت عشر سنين. أتذكر أنني في تلك المرحلة، التي لم تعد تشبهني، لم أكن أتردد في اتهام الآخر بالتخاذل والضعف بمجرد انزياحه عن معاييري «الثورية» الخاصة! وذات مرة أجابني أحدهم ببرودة أعصاب متناهية:

ـ «ربما أكون قد ضعفتُ عني قبل خمس سنين، وهذا طبيعي. ولكن الرهان النهائي يا صاحبي يكمن في الحفاظ على أقل الخسائر».

وكسبَ الرهان. كسبه بامتياز، حتى أن عبارته لا تني تقرع أذنيّ ليل نهار. وأعترف أنني مذ أصبحت ما أنا عليه الآن لم تبرحني الهواجس الكريهة والشكاوى المرضية والحسابات الغريبة، وقد تزايدت لدي الشكوك بطريقة فظيعة، كما لو أن اليأس رماني بدائه وحال بيني والدواء. اختلفتْ عندي رؤية الناس والأشياء؛ وفقدتْ الزيارات بريقها، وكذلك السهرات والأصدقاء وكل شيء، كل شيء. صرت أقرأ في عيني أمي وكلمات أبي وإلماحات أخي اتهامات لا تحصى. حتى أن بعض الأفكار التي أجدها في الكتب باتت توحي لي بأنها تتحدث عني، ما جعلني أتحاشى قراءة الكثير منها.

حين تجلجل فيكَ أصوات غريبة وتجد صداها في ذاتك الأخرى، تنتعلك أوهام وتستبد بك قيود إضافية، محض ذاتية، تنضاف إلى سجلٍّ أسرك، رافضة أي مبادرة طيبة تأتيك من الآخر، مهما كان قريباً منك.

لم تعد تفيد وسائلي الدفاعية السابقة؛ لا الرياضة ولا التدخين ولا لعب الورق ولا الأشغال اليدوية. لجأت إلى طلب الأقراص المهدِّئة من الطبيب، بحجة الشقيقة، وظل الأرق والخوف يتفاقمان. وجدتني على حافة هاوية بلا قرار، إما خطوة واحدة إلى الوراء، أو السقوط الحتمي إلى القاع. كنت أتوسل صدمةً تعيد إليَّ بعضي، أو خياراً، ولو على ألم وتحمُّل واعتياد مغاير. لكن اليأس قتلني، هاجمني بكل إرادة القاتل المحترف، وأنا استسلمت له بكل جهل الضحية.

أبو آفاق / شهادة (5)

- 1 -

تجربتي هي كينونتي، ولا يمكنني أن أفصل بين ما أجرّبه وبين ما أكونه، أو بين ما جرّبته وبين ما كنته.

- 2 -

تعلمت - فقط - من ذاتي.. إنني «أنا تلميذ نفسي»!

- 3 -

في كينونتي ثلاثة مواضيع كبيرة؛ هي تعبير أو تكثيف لذاتي:

العاطفة والسياسة والكتابة. أؤكد أنني حين أمارس مواضيعي إنما أمارس ذاتي. موضوعي هو أنا، إلى الحد الذي أُمنع به عن ذاتي، فيما لو مُنعت عنه.

- 4 -

السياسة هي موضوعي الثاني الذي يصلني بذاتي، وأتعرف من خلاله على ذاتي. قد لا تكون السياسة موضوعاً كذلك الموضوع الذي لا غنى عنه، ولكن القسر عنه يشكل اختراقاً لوعي الذات. حين أتخلى عن الفكر، كأنني أتخلى عن القلب. «الاغتراب عن الفكر يرادف الاغتراب عن القلب»!

- 5 -

في الفترة التي حُرمتُ من العاطفة والسياسة، كانت الكتابة هي التعويض عن النفقين الآخرين في ذاتي. الكتابة شكل آخر، أو وجه آخر للسياسة!

- 6 -

لا أرى التمسك بالمفهوم في حد ذاته موقفاً يمكّنني من، أو يسهل عليّ، هضم الجديد والتجاوب مع التاريخ ومتطلبات التغير والتحول. إن فكرة الشيء في ذاته تجعلني ملكاً للأشياء، بدلاً من أن تكون الأشياء ملكي!

عليّ أن أحترز من نظرية العكس، يجب أن أوازن بيني وبين الأشياء. أنا للأشياء بقدر ما الأشياء لي. إنني أضع الأشياء في نفسي فأتشيّأ بها، كما أضع نفسي في الأشياء فتتأنسن بي. في العلاقة بيني وبين الأشياء، أخلع على الأشياء صفاتي، كما تخلع الأشياء صفاتها عليّ.

ألتمس عذراً للاغتراب.

إنه التناقض بين الوجود والماهية. فكرة الإنسان كما يراد له أن يكون: «إنساناً إنسانيا»، هي الوهم الذي ينحلّ فيه الاغتراب لانحلال التناقض بين ماهية الإنسان وبين وجوده.

ليس من الوهم أن يتوهم الإنسان، فقط، بل من الوهم أن لا يتوهم الإنسان أيضاً!!

- 7 -

حيث توجد ثنائيات، توجد معاناة. الرفض والقبول، اللذة والألم، الحق والباطل، الخير والشر، السعادة والشقاء، التعب والراحة، العلم والجهل، الصحة والمرض، الأمن والقلق. بين الثنائيات لا توجد هذه

المسافة المغرية، والجديرة بأن ينحاز المرء إلى أحد الضدين دون الآخر. إن أمتع وأسعد وأريح اللحظات هي تلك القادمة إلينا من لحظات الشقاء والألم والتعب.

لستُ من الذين يبحثون عن السعادة الأبدية، فينتهي بهم الأمر إلى الشقاء الأبدي، ولستُ من الذين يريدون كل شيء، فينتهي بهم الأمر إلى اللا شيء.

التناقض شرط الكائن، جذر الصراع هنا. «المأساوي شرط الإنساني»، و«الصراع هو المضمون الجوهري للحياة».

إن للتاريخ ـ دائماً ـ شيئاً ما يقوله. وليس مهماً ما إذا كان معي أم ضدي. الأحادية في كلا الضدين مثالية. إن التقدم نحو «المثال» ليس تاريخاً، لأن «المثال» هو إيقاف التاريخ، أو تعطيل عمل التاريخ!.

على كل واحد أن يكون مستعداً لأن، أو جديراً بأن يكون مجال اختراق النقيض. إنني أُقبِل على كينونتي كضد يعي ضرورته في ضده!!

- 8 -

الإنسان تزداد حاجاته كلما ازداد وعيه وتفتح عقله واتسعت مداركه. ولكن ازدياد الحاجات يعقد إمكانية إشباعها. ثمة تناسب عكسي بين تطور الحاجات وبين إمكانية إشباعها. وهذا هو سر اغتراب الذات عن ذاتها، لأن الاغتراب هو التناقض بين الذات وبين موضوعها.

كينونتي ليست خارج هذا التناقض. إلا أن فهمي لهذه الكينونة هو ما يجعلني أكثر مقدرة على مقاومة المعاناة. المعرفة قوة. لم تعد تغريني القيمة الأحادية للكينونة. إن الفهم المزيف للكينونة يُضعف العلاقة معها، في حين أن الفهم الحقيقي للكينونة يقوي العلاقة معها. الفهم المزيف يضع صاحبه في مواجهة عمياء لا ترى الحل إلا بما هو حل كامل. على حين أن

الفهم الحقيقي يفضي إلى أنه لا يوجد هناك حل كامل، يوجد نصف حل، الحل هو نصف الحل!!.

- 9 -

الهدف هو ذات صاحبه، إنه يعكس وجوداً ذاتياً لصاحبه، والإنسان عندما يختار هدفاً، إنما يختار ذاته. ليس الصراع من أجل الهدف سوى البحث عن الذات المفارقة. إنه، في العمق، صراع من أجل الذات. ولأنه يوجد هدف كامن في كل ذات بشرية، فإنه يوجد صراع كامن في تلك الذات. الصراع لا يكف عن أن يكون، حين البحث عن الذات لا يكف عن أن يكون!!.

- 10 -

أعي أن حاضري مُتضمَّن في ماضيّ. الماضي أساس الحاضر. ما كنته في الماضي هو ما أكونه الآن. ليس ثمة شيء في حاضري ما ليس له أساس في ماضيّ. أعي أنني لم يكن بوسعي أن أكون غير ما كنته، وما أكونه الآن. ما أنا فيه ليس إلا ما هو كامن فيّ. لقد اخترت ما يجب أن أختاره. اخترت هذا الذي اخترت لأنه تعين أو يتعين علي أن أختار شيئاً ما.

طبعي هو مصيري «طبع الإنسان مصير». توجد عوامل بنيوية فيّ (طبع ذاتي)، وتوجد عوامل خارجة عني (طبع موضوعي). التقاء هذين الطبعين جعلني على ما أنا عليه. ولم يكن ممكناً لأية قوة، لا في السماء ولا في الأرض، أن تجعلني غير ما أنا عليه. لا أؤمن - مطلقاً - بالمصادفة. تعبير «مصادفة» يجب شطبه. ليس في الحياة شيء أتى أو يأتي من أو عن طريق المصادفة. وما يسمى «مصادفة» ليس إلا «خرافة اخترعت لتبرير جهلنا».

أرفض الحتمية اللاهوتية، ولكنني أقبل الحتمية المادية. ثمة سلسلة من الأسباب والمعلولات المادية اشترطت بعضها البعض تاريخياً؛ من يتتبعها يخلص إلى أن كل ما كان وما يكون لا يمكن إلا أن يكون، بالضرورة

و«بالتوافق» إذاً لا شيء من فراغ أو من لا شيء!.

لا أفعل شيئاً لم يجب أن أفعله. إن إدراك الضرورة المتجوّية في كل حدث يدفع الندم والحسرة، ويجنب المزيد من الآلام والويلات الإضافية.

- 11 -

في البداية، كان العالم يبدو لي طيّ الإرادة. فشلت في أن أرى العالم كما أردته، لأنني أردته كما أرى. لا أرى ما أريد. ولأن العالم نجح في أن يراني كما أرادني فإنني أريد ما أرى. أريد ما أرى كي يتسنى لي أن أرى ما أريد!.

في عام 1964، بدأ شاعر المنفى «مشيئة الملاح تجري الريح، والتيار يغلبه السفين». بعد ثلاثين عاماً، انتهى الشاعر ذاته بـ«أين الطريق إلى أي شيء»؟.

ثمة زمن، أو مسافة، لا فرق؛ الزمن هو المسافة بين الإرادة واللا إرادة. بين أن يكون الشيء بإرادتي، وبين أن أكون بإرادة الشيء. أنا التاريخ وليس التاريخ أنا.

- 12 -

أن يفشل المرء ولا يعترف بفشله؛ هذه مكابرة وتعزئة بائسة للنفس. وليس الفشل مبعث ندم. منطقة الندم - عندي - ضيقة جداً، إن لم تكن معدومة. ليس للإنسان ألا يفشل، ولكن عليه ألا يندم. الفشل هو الشكل الآخر، أو الوجه الآخر لإنسانية التناقض والصراع.

- 13 -

إنني في تطوري أكوّن، أو أشكل نفسي حسب الضرورة. أنا إمكاني، قدر نفسي. في الضرورة القصوى يستنفر الإنسان أقصى طاقاته. الضرورة القصوى تستدعي فوراً الطاقات القصوى. ليس الإنسان

واحداً، الطاقات ليست واحدة، الإمكانات ليست واحدة، الأقدار ليست واحدة!.

عندما يحدث خلل كبير، أو عدم توازن بين الذات والموضوع، لا مفرّ من الخضوع للضرورة.

حين لا يتوفر للمرء الحد الأدنى للتحرر من الضرورة، فإن المواقف التي يتخذها، أياً كانت، لا يُلام عليها؛ لأنه في هذه الحالة سيكون ضحية أكثر منه مذنباً!.

لا يسرني كل ما افعله. ولكن ليس كل مالا يسرني يجب أن لا أفعله!.

عليّ ألا أحمي نفسي من الهزائم، ولكن عليّ أيضاً، أن أتجنب المزيد من الهزائم. إذا لم أتمكن من أن أحرر نفسي، علي أن أمنع عني «المزيد من الفتح المضاد»!!.

- 14 -

هل الأهم هو الحياة، أم كيفية الحياة؟ الحياة أولاً ثم كيفيتها ثانياً. يوجد أولاً ثم يوجد ثانياً. الشيء - أولاً - وجود، بداية، صفر. وجود الشيء يسبق كيفه، وليس كيفه يسبق وجوده. الحصول على الوجود شرط الحصول على الكيف. من أراد الثاني قبل الأول، فلن يحصل على أي منهما.

- 15 -

الإنسان مقاوم؛ يقاوم دوافعه، نزعاته، رغباته، حاجاته، أحاسيسه ومشاعره.. إنه يقاوم نفسه؛ ولكنه في الوقت الذي يقاوم نفسه، فإنه يقاوم من أجل نفسه. الانتصار على الذات شرط تحقّق الذات!

شهادة (6)

التقيته عرضاً. كان قد غاب عن وطنه لمدة عشرين عاماً. وحين عاد، استجابةً لبرقية عاجلة تبلغه بأن أمه تشارف الموت، اقتيد من الحدود إلى المعتقل، ولم يتمكن من رؤيتها. يقول: «أنا لا منتمٍ.. ولعل في داخلي كراهية لكل الانتماءات الضيقة، أنبذ العنف، أمقت الحروب، ويقشعر بدني للمؤامرات الدولية والحزبية والعائلية. صحيح أنني ذو جذور عشائرية، وقد تشرّبت منها الكثير في سنّ شبابي، إلا أن انقلاباً جذرياً قد حدث لي إثر معايشتي لصراعات شنيعة، بدأت ولم تنته في غير مكان من العالم. الآن أشعر أنني لا أنتمي إلى جيل، ولا إلى وطن بعينه. أشعر أنني عبدٌ لتجربتي، مدين لأصدقاء علّموني أن أحترم ذاتي، أن أسمع الآخر كي أتعرف على نفسي أكثر. لدي ميل إلى الرفض، أو على الأقل إلى عدم التقبل السريع لما يُطرح.

«قد أبدو للبعض متسيباً، مستهتراً، نظراً لرفضي الانحياز الأيديولوجي والمواقف المسبقة. أطمح إلى إنسانية حقيقية، والسعي إليها لا يثنيني عن الحلول الفردية، وهي رؤية كوَّنتها قبل ولوجي هذا المخاض بزمن. وقد تحمل في طياتها تناقضاً كبيراً، إلا أن فلسفتي في الحياة علمتني أن إشباع الحياة الفردية، مادياً وروحياً، أمر لا بد منه لبناء إنسانية أوسع بالمعنى العقلي للعبارة.

«أحب بشكل عنيف، وأكره بالطريقة نفسها، لكنني أستغرق وقتاً طويلاً حتى أتوصل إلى أحد هذين الحدين القصيين. ولهذا فقد عانيت

كثيراً ريثما تبلورت علاقاتي مع الأصدقاء، وعانوا معي أيضاً. وبعدئذ، وخلال علاقتي معهم، ما عادت مهمة تلك الأخطاء والعقبات الصغيرة التي تعترض حياتنا، فكل ما هو ثانوي يمكنني تجاوزه بسرعة.

«لي تناقضاتي الكثيرة التي تؤلمني بقدر تعلقي بها. تغريني الحالات البشرية ذات الأطوار الغريبة، فأتمعن في ممارساتها وأنتهز فرص التعرف عليها بدأب ودون افتعال. ولعل هذا ما دفعني للتعرف على زوجتي أساساً. فمن هذه النماذج تلتقط ما لا يمكن الإحاطة به عبر الأشخاص العاديين. لو سئلت الآن عن ابني ـ البعيد عني ـ لما استطعت التعبير عن حقيقة مشاعري نحوه.

«لو سئلت عن زوجتي، في هذه اللحظة بالذات، لقلت إنها الأقرب إلى عقلي، الصدر الذي استوعب جميع سقطاتي وهفواتي. لكنها الأنأى عن هواجسي، ربما لشدة ثقتي بها، ربما لأن جوارحي تعمل في متاهات أخرى لا أزال أسيراً لها طوال هذا الزمن.

«من تناقضاتي أيضاً أنني أقرأ بعناية فائقة إلا أنني أتسرع في استنتاجاتي. تروق لي العلاقات الصريحة المباشرة الواضحة، ولا تعجبني الكتابات التي تصل إلى القارئ على عجل.

«أميل إلى العزلة، على الرغم من أنني أصبح هشاً وضعيفاً جداً في مثل هذه الحالات. فالآخر دائماً مصدر قوتي، ومصدر ضيقي وقلقي وتساؤلاتي. وأتحيّن الفرصة كي أتوحد مع تأملاتي. أقرب إلى الهدوء، وتميزني المزاجية غالباً، وأسعى للإفلات من قيود العادات، أياً كانت. مَلول، أرغب في تغيير الأمكنة وإزاحة البرامج.

«إرادتي تنهار أثناء المرض؛وعندما أكون في حالة صحيةجيدة أشعر برغبة في الطيران. أحب الألوان الرمادية، ونقاء المرآة. أعتاش على القصص الاستثنائية، وإذا ما تأثرت بإحداها لا أتحرّج من أسطرتها».

السِتارة السابعة

سفر العودة

العام الأخير / الألم والقلق 1

انقضت دقيقة افتراضية واحدة، ستون ثانية.

الساعة الرابعة وبضع دقائق من هذا العصر المائل صوب الغروب.

كل هذه الساعات آيلة إلى التكرار ظاهرياً. تعاقبٌ له لغته الخاصة وفواصله وصريره واصطكاك عقاربه. لا يكلّ، يسير فينا، ينحفر في فيزيولوجيا أجسادنا، يحصي وظائف أعضائنا ودرجة صلاحيتها.

في هذه الساعة من كل سنة أنأى عن الوقت، أتتبع ذراته التي تتسلل عبر ساعته الرملية، متدافعة عند العنق الضيق، دون أن تترك أثراً إلا في ذواتنا.

تُرى من منح الوقت طغيانه، وسطوته الباردة، عتوّه وقسوته وقدرته الكونية؟ لا تضعفه مقاومة، ولا يتداول سلطته مع أحد. أنفاسه كألسنة اللهب، تحرق خلايانا وتحفر في أوصالنا ووجوهنا أخاديد لا تندمل، شرعُه الإغواء والتنكر والإبهار والبغتة.

أتذكر هذه الساعة الرابعة وبضع الدقائق من قرن مضى، حين تحطمت مرايا الحرية، وبدلاً منها تشكلت في كياني ذرات زجاجية تعشّقتْ في نسيجي الأسري يوماً بعد يوم. ومنذئذ رحت أفتش عما ينسيني دنيا

غربتي الجديدة، ويذكرني كل مطلع فجر بأن ألقي السلام على رفاقي النائمين وأصدقائي ومواطنيّ جميعاً.

من وراء أبواب سبعة، تحرسها أرتال من الأحذية المسكونة، أعيد تشكيل الألوان التي نصلت ما إن وُضعت العصابة على عينيّ أول مرة. أتبصّر الدرب وأحصي آلامه، وأجني خامات أحلامي، كي أخفيها جميعاً في أقصى مخابئ الذاكرة، وأجنّبها مهاوي الإحباط والهزيمة.

قُلتُ: «أنت واحدٌ، والطريق كُثُر».

أجل، منذئذٍ احتدم فيّ نوع آخر من القلق، يبدو بسيطاً واضحاً، وجذاباً؛ ولكن ما إن تتورّط فيه حتى يكتسب غموضاً رمادياً. يدججك بأسلحة جديدة، ويترك لك حرية منكبيك وسهادك والخيال. أعدل ما فيه أنه لا يخون، وأصعبه أنه لا يُخان.

القلق كائن يسبل عليك رداء الحيرة ويؤويك من كآبة الفجيعة، وما إن تلبي النداء حتى ينقلك بين سكرات البحث، ويغالي في أرجحتك بين مغارب عقلك ومشارقه. وحين تتعرق أحزانُك بالحمّى يوعز لعقلك باستخدام كمّاداته المضادة للألم.

بمن أحتفي في سنتي الرابعة عشرة؟

كلاهما، القلق والألم، كانا رفيقَيّ، وعصوي ترحالي. لم يخذلاني، ظلاّ يعوضانني حلماً بحلم، يجرحان ويضمدان، ويرفقان بي عقلاً وجسداً. أولهما يحن عليّ كناي راعٍ، فيتكشّف لي عن قبس من نور؛ وثانيهما يحنو عليّ كمرضعة أيام القحط.

اقتفيت أثري على ملامح الأفق، رأيت قوافل لا تنتهي، وزخّات مطر بعيدة تجفّف توق شفتي. أغمضَ الألمُ عينيّ، وكان فمي مشدوهاً كمنقار

طائر جائع، وأهدابي مسفوعة بوهج الشمس المنعكسة على الرمال. إذ ذاك أرسل القلق وُشَاته، وقيّد القضية غفلاً، مقَدِّماً بعض الأسباب المخفّفة.

أيهذا المطروح على حصير أسرك، قلت لنفسي، كُنْ غيرك وانظر إليكَ بعيني ظلّك. استدرجْ حبيبتك حتى الوجع كي تمهّد لك قيامةً تليق. وأسمعها غناءَك وتشبّث بضفيرة من شعرها، ستعينك على الوقوف. سوف تبكي على حبوك الرجولي مرةً، لكنها ستشهد انتصاب قامتك ودنو السماء. ستهرِّبك إلى حقل صدرها في هيئة فراشة بيضاء، ثم تمسح عينيك بكفيّها وترمّمهما.

دعوتكِ، هبطتِ فوق كوة زنزانتي كيمامة خافقة. كان الوقت ليلاً، وساعة يدي مصادرة. راودني الدمع حين عجزتُ عن النهوض لعناقك. لمتِ جناحيك، والتفتِ حولك ترصدين المكان. كان جيراني في الزنازين يتنفسون بعمق.

قلتِ: «لم آتِ لأمتحنَ جهات أوجاعك، بل جئت لأبلسم أزهار روحك، وأمسّد تغضنات الفراغ. جئتُ لكَ بنداءاتِ ابنتك وخصلة من شعري كي تتدثّر بها في البرد. صوتك الممزّق يؤول إلى سمعي حيثما أكون، فآتي إليكَ لهفى كي ألمس المفرش الذي يختزن دماءك الجافة. الزمن لا يعود القهقرى، لكن العدّ العكسي يخلق لدي شعوراً مخفّفاً. الكل يحتفل برأس السنة وهم مدركون أنهم كبروا عاماً آخر، واقتربوا من شيخوختهم عاماً آخر، وتغضّنت ملامحهم وشابت شعورهم عاماً آخر؛ أما أنا، التي أشبههم في ذلك كله، فإني أتمسك بحجة أخرى: أن انتظاري نقص عاماً آخر».

ماخراً عباب كهولتي بعد مضي زمن طويل في الأسر، أتفحص شراعي، متأبطاً أذرعة الريح كي أتملّى هذا المسار الطويل. البرُّ أمامي،

يتأرجح تحت الشمس. أتخيَّل وجوهاً وقامات أعرفها، وأخرى كبرت، تنوي أن تلعب معي «الغميضة» كي تفاجئني فَرِحَةً بتضليلي قائلةً: «تغيَّرنا كثيرا».

«وأنا كذلك، ربما تغيَّرت أكثر»، تجيب أناي وهي واقفة عند مقدمِ الشراع.

أشعر دائماً أن ثمة ولداً في كهولتي، يعرِّش عليها، يلازمها، ويقودها أحياناً. تحاول مغالبته، أو إخضاعه، لكنه غالباً ما يعاند. أحياناً أراقبهما بحياد، فأرى كيف يفتش الولد عن صدع في جدار عمري، فيحكّ ويحفر ويوسّع الثغرة، ثم ينظر إلى الخارج، ويقفز.

هذه العلاقة بين الولد والكهل ترصد توازن الصراع فيَّ؛ كأنها دورة متواصلة من التفاعل والتنابذ؟ هنالك لحظات، هادئة حيناً وعاصفة أحياناً، يتنحّى خلالها الولد فيّ لصالح الكهل، أو يتدخل كأنه لكي يذكّرني بحميّتي وفضاءات أحلامي، ويبعد اليأس عني، أو يعيد الاعتبار إليّ. إنه الندُّ الذي أتشبث به، وأحترس من تهوُّره. يتكئ على كهولتي ويتظلل بها، ويفلحان أحياناً في التوصل إلى تواكؤ خفي.

* * *

إطلالة على «الحرية»

اليوم سيتبقى لي حتى أكون خارج هذه الرحم المليمتري من الشخانة المعدنية تسعةُ أشهر جنينية بالتمام والكمال. فتحت الأبواب في السادسة صباحاً. بعد نصف ساعة خرجت من مسكني، ولم أكن قد نمت بعد. أعددت فنجاني قهوة، كلاهما لي في الأصل، وأحدهما على سبيل الاحتياط، ربما يقتحم وحدتي شخص ما. ارتفاع النوافذ عن أرض الممر حوالي 190 سم. أتيت ببرميل ماء فارغ، ووضعت عليه كرسياً، ثم أحضرت بعض عدتي: دفتراً وقلماً وعلبة التبغ والقهوة. قلت سأرمي الرماد في هذا الفضاء.

شدَّني البعيد أولاً، رحت أجاري ببصري نور الشمس الذي بدأ يضيء قمم التلال البعيدة المقابلة. الرؤية جلية، فالشمس وراء المبنى وضوؤها يسطع غرباً. خطوط الظل وكتله تنحسر شيئاً فشيئاً فوق صدر تلك التلال المنحدرة من الشمال الغربي باتجاه الجنوب الشرقي.إلى أن تنتهي

مع الطريق الإسفلتي الذي أخذ يستقبل أول السيارات. لحظات قليلة كف بخار القهوة عن تشكيل خط ملتوٍ أمام بصري. قبل قليل كان يتصاعد آخذاً طريقه من بين قضيبين معدنيين في الجهة اليسرى من النافذة.

قلت في سري: حقاً حريٌّ بهذا الصباح أن يكون له وجه الحرية. التلال جرداء، وكلما اقترب امتدادها نحوي تبرز الخضرة، أشجار تين وعنب، ثم أجمات من الأشجار الحراجية، وشجرتا كينا كبيرتان ترتفعان عند مفترق الطريق الفرعية المؤدية إلى السجن.

لافتة على الطريق الواسع، سبق لي أن رأيتها قبل دخولي المكان دُهنت عدة مرات خلال هذه السنين، كانت الآن تعكس ضوء الشمس بحيث لم أستطع أن أرى منها سوى وجه مرآة مبهرة.

الشمس ترتفع، بلغت السور الخارجي الأول من بعض جوانبه، يتلاشى التفاف السور مع مفترق الظلال متماثلاً مع لون التراب. اقترب ببصري أكثر فأكثر، تقع عيني على الأشواك الجافة المنتشرة بين السورين الخارجي والداخلي، حفر هائلة، وبعض البقع المحفورة، وإلى اليسار دوالي العنب تعانق الأرض.

أربعة حتى الآن ألقوا علي تحية الصباح، وعلى غير العادة، لم يتوقف أي منهم بقربي كي يحدثني بفكرة أو حلم زاره في الليل الفائت، بمن فيهم شيخ جناحنا العجوز أبو مازن الذي لا يستطيع أن يلقي سلاماً دون أن يرفقه بدعابة دمشقية ورغبة في التواصل حتى لو كانت عينا المستمع مغشية بعدُ بالنعاس.

على محيط السور الداخلي ترتفع أشجار السرو والزيزفون والأوكاليبتوس. فيما قرب الباب العريض المغلق يقف جندي، ماداً ذراعه

إلى غصن شجرة مشمش عاقر، راح يهزه بإيقاع متواتر. تجاهلت البندقية المعلقة بكتفه حتى غابت عن بصري نهائياً.

تذكرت أحد الحراس الذي قال لنا ذات يوم: أحياناً نحسدكم. يكفي أنكم لا تقومون بالحراسة ولا توزعون الطعام الذي يسرق جهاراً، ولستم تحت المراقبة الدائمة.

أشار إلي الجندي كي أنزل، ولا بد أنه استغرب بروز نصفي العلوي من النافذة. بادلته الإشارة بإيماءة تحية من يدي. فأطرق ثم استدار عكس اتجاه الشمس وتركني أتأمله.

جعلت حدود الرؤية السور الداخلي، وبدأت أمعن في الحديقة المحيطة، التي يلتف حولها طريق مخصّص للخدمات الداخلية وحركة السيارات والزوار. كانت مسوّرة بورود الجوري بلونيه الأبيض والأحمر. لأول مرة ألحظ هذا الغنى الوردي المتناسق. فشجيرات الدفلى هي الأخرى عامرة باللونين إياهما، إضافة إلى اللون الزهري الفاتح. تشكيلة بديعة من الأشجار تتلألأ أوراقها بقطرات الماء التي ترشها المراوح في هذا الوقت بالذات. يظهر في حقل رؤيتي سبع شجرات مشمش وشجرتا كرز وثلاث أشجار من الدراق. وعشرات الشجيرات الصغيرة. وإلى اليسار أنساق رائعة من أشجار الصنوبر التي شكلت تحتها بساطاً متطاولاً من الأوراق البرية. كنا في أيام الرعي، ونحن صغار نستلقي عليها ونمرح ونغني وننام. ثلاثون عاماً مضت على ملمس تلك الأوراق.

سرب من طيور الدوري حطّ على شجرة المشمش الكبرى التي تتوسط الحديقة. عرس دُعيتُ إليه في هذا الصباح الشمسي. تحت الشجرة ثمة قط، كان يزور مهاجعنا أحياناً، يلطأ متربصاً بإفطار، بيد أن الطيور الصغيرة تحفظ هذه اللعبة عن غريزة أكثر تبصراً من عقولنا. فرّت

العصافير، كأنها تلقَّت إيعازاً حاسماً، وآخرها فرَّ باتجاه الهر ثم حلَّق عالياً بهزء.

حاولت أن أزيح مكاني قليلاً فوق البرميل، برزت فقط ثلاث لافتات عند الباب الرئيسي السابع للخروج من السجن. ثم ظهر لي مبنى صغير يتسع لبضعة مأمورين. غامت اللوحة أمامي، بدا لي كما لو أن النافذة تنغلق من تلقائها على ثلاثة قضبانها المعدنية العمودية واثنيها الأفقيين. أصبح وجهي لصيقاً بالورقة. فنجان القهوة برد ولم أرتشف منه شيئاً. وسيجارتي انطفأت منذ الثلث الأول. توقفت، ألقيت نظرة أوسع، انفتح أمامي الأفق مرة أخرى، بمستطيلاته المقطّعة نفسها. كانت الشمس قد حسرت معظم ظل المبنى الذي أنا فيه وبلغت الحديقة مصبِّحة على الورد.

آلمني قيدي، رحت أتحسَّس يديَّ، شعور كاذب.

لقاء في الحرية

ثمانية عشر عاماً تفصل ما بين سِفري الخروج والعودة، وجسر من الشتات الوجداني المنسوج على نول الغياب؛ أشبه بأرجوحة من شوك تتناوشني كلما اقترب موعد خروجي إلى الحياة.

قبل عدة سنوات كنت أتحسّب للقاء أولئك الذين تكبدوا فراق موتِ محبيّهم، وكان أكثر ما يخيفني من بينهم الصغار الذين قد ينهالون عليَّ بأسئلة كبيرة ومحرجة كالعجز، يليهم تلك النسوة - زوجات أو أمهات اللاتي ينتظرن شيئاً ما منّا.

الموعد آت والوقت ينداح سريعاً، وملامح الناس تتوالى قبالتي كما مشهد متسارع يظهر عبر نافذة قطارٍ منطلق، وأحياناً أخرى تتهاوى إلى أن تنتصب أمامي معاندة، محاورة، مربكة. أستعين بخلاصة صبري، ورغباتي، ولا يغيب عن بالي أن هذه الشريحة الزمنية بكل مضامينها ومشقاتها وطولها لها أثر كبير عليهم في معمعان الحياة.

أسئلة كثيرة تتوالد ذاتياً، تطال الجميع: أخوة وأهل وأصدقاء وزملاء وأقران وجيران ومعارف وقوى سياسية، مستثنياً هنا أسرتي التي كانت الحلقة الأولى في مساراتي السابقة وشجوني. تُرى إذا كنت ما أزال حتى

الآن أتمسّك بالكثير من قناعاتي السابقة في شتى المجالات، فما الذي طرأ على الآخرين؟ وإن كان ثمة تبدل جوهري لديهم ألن أكون أمام امتحان حقيقي لقدرتي على ردم المسافة فيما بيننا ما دمتُ معنياً بالعيش بين ظهرانيهم؟ألسنا في حاجة إلى خلق نوع من التناغم،وتقديم بعض التنازلات هنا وهناك. ترى كم من التدابير الاستباقية التي ينبغي اتخاذها كي أستطيع أن أتجرع كأسي؟ فالقطيعة مع الحياة قد حدثت، وخلال غيابي كبر الأطفال واكتهل الشباب وشاخ الكهول. هاجرت الطيور ثمانية عشر فصلاً وأثلجت الدنيا ثمانية عشر فصلاً وتبرعمت الأشجار ثمانية عشر فصلاً وطلعت شموس وأقمار كثيرة.

وكم من الجنازات مرّت في شوارع المدن وأزقة القرى!

كم من العيون التي رأت النور، وكم من المطر!

تناسَلَ من المحاربين ما يزيد عن إفناء الدنيا ألف مرة؛ ومن الشعراء ما تأفف عن بعضهم قصور الطغيان، وما تجدر ببعضهم الآخر وردة؛ ومن المغنين ما يخذل قلب عاشق.

إن بطلت تخوفاتي وهواجسي فهذا جُلّ ما أبتغيه، وإن صحّت، فمن يجسّر بين مقطعيْ هذا الزمن؟

* * *

«إليكم الهاتف، ليتصل كل منكم بذويه، السيارات في الخارج». قال الضابط بتهذيب أريستوقراطي.

إذن، صار إطلاق سراحنا أكيداً. لم ألمح بسمةً على وجه أي منا نحن التسعة. هل يُعقل أن تكون قشعريرة الخلاص من حمّى السجن قد انتابتنا جميعاً، أم أنه وزر الوداع التأبيني لمن تبقوا هناك؟ كان اشتياقي إلى باب بيتنا يثقل علي، أشعر أنني ظلّ حقلي يحمل أشجارَه. مشهد وحيد ارتسم

في خيالي: بعد قليل سأتكئ على الدنيا قبل أن أدق الباب، لأستعيد بعض أنفاسي. سأضطرب خوفاً من لحظة العناق. يدي اليسرى تمسك الحقيبة، واليمنى تخفي ارتجافة لا تهدأ. العين السحرية لا ترى شيئاً. من؟ يسأل صوت من الداخل. أنا، العائد بلا هوية، يخرج صوتي جريحاً.

صوت ابنتي على الطرف الآخر من الخط الهاتفي. صوت غريب عني، صوت لفتاة لم أميِّز من فوضاه سوى موعدٍ على مدخل الجادة المؤدية إلى بيت لا أعرف موقعه إلاَّ في خارطة البال. هبطنا الدرجات الخمس الأولى نحو «الحرية»! أوجعني النور الطبيعي للكون، أغضضت بصري. اجترحت أجوبة خرافية لأسئلة عفو الخاطر. دوَّامة من الأحاسيس الخاطفة تتناهب ما تبقَّى مني خلال النصف ساعة الأولى من الطرقات الدمشقية. استدركْتُ نبضي ولهاثي: بعد قليل ستلتقي بمنتظريك، سيجرِّدونك من الزمان والمكان في طرفة عين، ويعيدون تشكيلك على مقام النوى والزغاريد والدمع والذهول، ويرفعونك إلى سلم الفرح العالي. وأنت، مع انعدام وزنك، ما إن تقع عيناك على أمٍ ترى فيك ابنَها الأسير المنتَظَر، حتى تسقط ويستبد بك الشعور بخذلانها. لو أنك خمَّنت أنها ستتوسل رائحته فيك، لما فكرت بالاستحمام حتى تراهُنَّ جميعاً.

توشكُكَ شهقة خانقة، تزدردها، فتنكمش خلايا الفرحة لديك. تطالعك وجوههم واحداً واحداً، حين ودَّعوك عند الباب الأول، وشيعوك بأبصارهم حتى الباب الأخير، المودي بحريتك والمؤدي إليها، وأنت أعجز عن التفاتة إلى الوراء. إذ ذاك، تتأكد للمرة الألف أن لا شيء بلغ منتهاه بعدُ: لا الحزن ولا الفرح، لا المكتسبات الصغيرة ولا الخسائر، حتى اسمك الذي كان لك قبل الأسر يعاودك خلسةً مخافةَ ضبطه متلبساً بانتحال الرقم الذي مُنِحتَه طويلاً في قائمة الرعايا.

هانت وراح الكثير/من عباس

ليست ثلاث كلمات عادية تقال. إنها تكثيف مرير وقائظ لزمن تجاوز مرحلة العد. زمن من عمر بكل الفصول تعتّق في أكمام الزهر وخوابي التاريخ! كم من فضاءات ثلجية مرت، دون أن نتراشق بكرات الثلج يا سمرائي المعذَّبة! كم من أوراق الخريف الملونة سقطت! كم من الينابيع والهطل والبرد والضباب والحر والانكماش على الجسد يا ذات المعطف الكرزي وشال الصوف الأسود! وكم! وكم!!.

تكتبين، تطفح الكلمات بإيحاءات الهموم. تمزقين أوراقاً لا ذنب لها. وقبل أن تبدأي من جديد تتساءلين عمّاذا وكيف. لا طائل من وراء أدوات الاستفهام، ستلاحقنا شئنا أم أبينا! فتضيق متاهة الورق، تقترحين لغة أخرى، لغة على هواها.. ويلاحقك القلم كأنما ظلك. جميل كلامكِ على عواهنه. تغمضين عيون بالك وتدوِّنين: «أطَمئِنُ نفسي للثوابت».. وأقف قبالتك، صدراً لصدر، تتشابك غرّتانا، وما بين دائرتي العيون نحتفي بقامة اللقاء، فتنكسر الظلال، وتنسدل الأجفان على كلينا.

أنتِ، واقفة عند وصيد القلب. حيرة غيابكِ، والصعود الشاهق إلى ذروة الوله يشكلان أحرفك المبللة. فأغتابك بسؤال: لمن تتفتح وريقاتك نبضك الراعش؟

امرأة بشعرها ومشوارها الطويلين تنساب كالألق، وحين تحاول الالتفات، تتعثر بوعورة العودة. تلوّح لي بيدها. توشك على السقوط من البرد، ثم تنهض كفرس. وترفع هامتها المثقلة باللغة المغتالة وثمار العذاب.

تحدوني رغبة ظميئة إلى تحري خلاياك. أستدعي وهم حضورك، ونتعانق: خيالان كفيفان ومدى لا يُحدُّ، تنوّرُ شموس الجسدوسط ضفيرتين مخيمتين على كتفيك، تغرق أوراق السر في عرق اللهفة. فنتحيّن جهات الدم الواجف، ننتشر، كلٌ في أغوار ذاته الأخرى، توحّدنا شجرة، وتختبرنا سحابة. وحين يستقر الخفق، نموت.

يا النجمة الصبحية، من منكما تتدلى من الأخرى، السماء أم أنتِ؟!.

تعدينني بمملكة خارج سلالات الوحشة، وبإقدام جنوني كي نسلك دروب النار والشهوة، حتى إذا دعانا قصف الرعد، كنا عاصفته.

أعدك بكل مستحقات الغياب.

«حين ألتقطُ عشقكَ، ينط قلبي من مكانه.. أحسُّه حتى حين لا تكون عيناي في عينيك..».

أين أعلق سراجي يا رغيدة الظل، في خاصرة جرح أم قصيدة؟ في خلود الروح أم غفلةعن الظلمة؟ سأجعل منها سُلَّماً كي لا ننجو من ماض جمَّع بيناتنا على عجلٍ وفرّق.

كيف أستعجل قطاراً معطل الوقت أو يكاد! ألهو بضلال المكان وأعبث بملامحه المشوهة. هل تكفي سخرية موصولة بكل مخططات

العسف المحبوكة على نول الجهالة! لابد من هصر شرائح الزمن، واستعادة ألوان الذهول والدهشة كي تخرج أصداء الصراخ الهستيري، وتتطهر أذاننا من تراكم الفجائع.

أيتها الآيية إليَّ من أسفارك كلها، ما هذا اللهو العبثي النازف وسط كوميديا سوداء أكثر مما ينبغي. لقد آن لستائرها البالية أن تنسدل بعد طول عقود. ولكن لا مفر..

هل نخترع هروباً على صهوة راحلة مشدودة اللجام ومطلقة الخوف؟ هل نقترف بقاءً أبكم كالطحالب، ونقول لدائرة الحياة توقفي، أم ماذا؟

قد يسألنا الأحبة والكارهون: ما الذي يُبْقي اثنين على حبٍ مجرَّح بمبضع آثم؟ هاجسه إمحاء الذاكرة والجرأة، وإحالة الغرس البشري إلى زيزفون عاقر؟!

ما الذي يجعل نسغ قلبين جارياً رغم جفوة المسافات وجفافها؟

أهي ضريبة النبض المستحقة، طغيان ذكريات طفيفة، توق إلى الهلاك وفاءً، كبرياء جريح، إصرار على استمرار شعلة الأخلاق متقدة، أم مناهزة المحال، والإصغاء إلى صوت المزامير في سماء خلت من الأعراس؟!

إن أنتِ، كانت، حارسة لمصيري المتصل، فلْنَندفع الخيبات تباعاً، ولنبطئ نحو بدايات أخرى كما يفعل غجري ودليلهم الليالي القمراء وبيادر القرى. وكلما انبلج صبح وجهك في بعض الطريق، دعي لي نوبة الحراسة التالية.

رفيقتي، يا الغلطة الفردوسية الأولى، تراءى لي اشتعالك فوق صدر السهوب، فاحترقتُ في مقيل حواسي البدئية، وانسكبت قدام صمت اللهب أضحية لعينيك. وأهرقت شقائي ورماد الغربة في حضرة جمرك الألِق.

يا للندى الذي يطلق عنان الحب إلى آخره..

ثمة فسحة لمشاريع أنين مكابر يبدد تباريح الأسر،

ثمة في قاع الجرار بقية من خمر وأجنحة روح طائرة.

فلتتناثر إذن أشلاء العبث والقدر اللذين رميا أسماءنا في قفار سقيمة. ولترنح عقارب الوقت الحجرية التي تمسك بتلابيب الغد.

وتدَوّنين:

«ضحلَتْ أحلام اليقظة.. أتوق لـِ نبع عينيكَ.. ولو بالقطارة..».

تتنقلين بين العقل والوجدان، تحطين فوق غصنيهما، قبّرة حائرة، أفتتن بتموج لوعتك القلقة ولا أقوى على الإفلات من خفق صدري؛ أصير كطير البرد.

حيث تغويك أسوارك بالغموض، أعيد تشكيل تضاريسك في خارطتي.. أحاول أثقالي، تنزاح لبعض برهة، وتجتاحني بعدئذ نبالة سحابك. وعلى حين غرّة تسألين بذهول عاشقة نسّاءة، لا تريد أن تكبر أبداً:

ـ ما أحب أطواري إليكَ؟.

ـ الهلالْ.

ـ الأنني لم أتكمل بعدُ؟!

ـ لا، بل لأنك لا تريدين أن تكبري، وهل نسيت أيضاً يا التلميذة الحبيبة! هل نسيت ما قلتِه قبل قليل؟!.

ـ نعم. ولكن لماذا أيضاً؟.

ـ لأنني تطوّقني طمأنينة جنينية وأنا بين هلالي عينيك الآسرين.

ـ وماذا بعدُ أيها المشرد بين الغرابة والوضوح، بين أقصى الهواجس وعادية اللوعة. لا تجبني إن شئتَ، دعني تتبختر حاستي السادسة فوق قسمات عقلك، علها تستكشف هدأته وفوراته الصاخبة.. دعني!.

ـ لا يضير البحر، يا نورستي، أن تثمل السفن على صدره..

ـ أهي واحدة من هبّات الجنون؟.

ـ كل حب فيه مسٌّ.

تعودين إلى أوراقك وتعدين «بأحلى باقة من الورد»..

هو، هو، قلبك بياضه وصفاء طفولته؛ فلمن تنحني قامات الحور.. أغمره بطوق من الهدايا الحارَّة. أقدم له عرفاني بالجميل أنه أبقاك صغيرة، بتأجج روحك وغنى غمامك، وجبينك واسمك العاليين.

أرفع دعاء الحب الأشهى لعشاق بُلَهاء، بسطاء، كي لا تصيبهم حمى الحيرة.. أعلّق أيقونة الشعر والثلج لكل الصدور التي لم تخفق بعد.. لعل عشباً أخضر غضاً تضحك عنه الصخور وتعتمر براعمه بالندى..

لمشيئة شتاتنا أفتح بوابات الفرح، أنثني على ظلي، أحفن التراب وأرشه بكل اتجاه، وأتلفت بلا اتجاه كي تنبت ذاكرة أخرى لأحلام الأرض!!.

أقف، هكذا، في عُرْي الدنيا، كما يبتغيني قدر الانتظار..

أقف وتراتيل تتدفق من أكفّ المدى صارخة: إني قادم..

تتلفتين، فتتفتح أقاحي البراري،

تعاودني طبيعتي النبعية، وضحكتي الفصيحة كأغاني الطير..

أتوكأ على نهري فأنداح مدوِّناً لنا علامة فائقة في كراريس الفرح.

ما الذي ستفعله أول خروجك من السجن؟

عندما كنت تلميذا في الابتدائية، كنت أذهب سيراً على الأقدام إلى قرية أخرى، لأن قريتنا لم يكن فيها مدرسة. وكنت حين العودة، وعندما أصل إلى الطرف الآخر المقابل لبيتنا، الذي يفصله نهر وواد عميق، كنت أنادي أمي مبلغاً إياها أنني قد عدت، حتى إذا ما وصلت إلى البيت أجدها بانتظاري والغداء جاهز. ولو سئلت عن أجمل ذكرى في حياتي لقلت إنه ذلك النداء الطفولي الذي لا يبارحني، وقد أصبح أتعب ذكرى أيضاً مذ كفّت أمي عن الحياة. الآن وبعد خمسة عشر عاماً من الأسر سيكون أول ما أفعله لحظة عودتي إلى القرية هو الوقوف في المكان إياه، وأصرخ ملء حنجرتي: يا أمي لقد عدت من المدرسة!

* * *

الستارة الثامنة

نحن في مرايا الآخرين اللامرئي

هي ليست مرايا، بل شظايا يتداخل فيها الحقيقي، الذي وصل إلينا شفهياً أو مكتوباً عبر زياراتكم لنا، بالمتخيَّل الذي ولَّدته الهواجس والرغبات والنوايا والأوهام عبر زمن طويل من الاغتراب. قد تبدو قراءاتنا مقتصرة على غبش سطحها، وربما تكون تعبيراً عن لسان حال بعضكم، فرادى أو معاً. ولكن إن أوجعتكم، فادفنوها في ذمة الماضي، ذلك العهد من الخذلان والجبروت والعبثية والتكفير وفقدان التوازن، وإن كان فيها ما يبعث على ترميم ما انكسر على مر السنين فلنحاول إعادة تركيبها معاً!

المرآة الأولى / من صديق

حييٌّ منك أيها الصديق، أكاد ألاَّ أصدق انكسار نفسي، ولا أصدق ما يطفو على سطح بالي من شظايا تركها الخوف والنسيان.

لم أركَ منذ نيفٍ وعقد، فماذا يفيد أن أعتذر لك عن كل هذا الزمن من التجاهل ودفن الرأس في الرمال؟ ماذا ينفع الآن لو اعترفت لكَ بخوائي وانحناء قامتي خجلاً من آلامك وصبرك المجيد؟

أحدِّث زوجتي وأولادي عنك دائماً كما لو أنني أريد أن أنتزع منهم شهادة ضمنية تسعفني في تحمُّل عجزي. وكم أحرجت نفسي، وألححت

عليها بسؤال يرتعش له جسدي: أنحن صديقان؟ حينئذٍ كنت أحتدم بذكرياتنا المشتركة، وبالكثير من الأوقات التي قضيناها معاً، أو بصحبة آخرين ممن نحب. ولأنني لم أتوصل إلى جواب وافٍ، كنت أتحايل بأجوبة غير آمنة، ومناورات لا تنتهي، كما لو أنني أتنكر لطبيعتي.

ما زلت أحتفظ برسالتك التي كتبتها لي بشيء من التلميح والتصريح، قبل حوالي عقدين وقد وصلني ما فيها من إيحاءات. وقدَّرت أيضاً كم ستكون فترة التخفي والملاحقة قاسية عليك، وعلى أولئك الذين تركتهم وراءك. ولكن الحدث اللاحق، الاعتقال، كان أعتى بكثير، وشكَّل عتبة فاصلة في حياتي. فالريح العاتية التي عصفت بكم آنئذ، وأوجعتكم بما يكفي، كانت كفيلة بقطع كل أواصر الجرأة لدي.

فكرت مراراً بأن أتقدم بمسعى ما نحو أسرتك، وكان ذلك بعد انقضاء سنوات. ثم أقول لنفسي: كيف لي أن أقابلها بعد كل هذا الزمن من الانقطاع؟ وكانت زوجتي تحثّني على ذلك معلنة انحيازها الكبير لمشاعرها نحوكم، ومضمِرة خوفها العارم من المغامرة، وفي كل مرة كنت أتواطأ مع ما تضمره. فأكتفي بتقصي أخباركم من بعيد عبر أشخاص أقلّ إخلاصاً للحذر والخوف.

ربما يصعب عليك أن تقدّر أسلوب عيشنا واهتماماتنا. يجدر بي أن أقول لك أن انشغالاتي تزايدت أكثر مما تقدّر، ولا أزال أعمل قرابة الاثنتي عشرة ساعة يومياً. فالأولاد كبروا ومعهم تزايدت الحاجات والمتطلبات وتفاقمت نزعتهم الاستهلاكية حتى تجاوزت الحدود. قد لا يعنيك هذا كله، أعرف ذلك، ولكن سامحني على تهربي من قول ما أخجل من قوله!

ما الذي سأفعله غداً حين نلتقي بعد خروجك من الأسر؟ لا أدري، حيرتي تكبر في داخلي على حرج أصم. لذلك أحاول أن أتحاشى التفكير

فيه، معوّلاً على أمرين: قدرتك على التفهم، واستعدادي لمواجهة الأمر في حينه.

التقيت أصدقاءك الذين خرجوا، وسألتهم عنك، وعرفت منهم الكثير. بعضهم كان قريباً جداً منك، والبعض الآخر عايشك عن بعد، بيد أن الجميع حملوا إليّ طمأنينة أنتظرها وأتوقعها؛ وأحسست أنك ستغفر لصديق قصّر حيالك وقت الضيق. أغبطك على اتساع صدرك وتكيُّفك؛ ومع ذلك سوف تصاب بالبغتات المتتالية ما إن تلامس قدماك أرض الواقع، مثلما جرى مع من سبقوك إلى «الحرية». لقد تغيَّر كل شيء تقريباً عبر هذه السنوات. ستفاجئك ابنتي باهتماماتها وكذلك زوجتي أو ابني، وستغمض عينيك مراتٍ، ربما، قبل أن تجيب عن سؤال، أو تتقبل أفكارنا. فأنت ما زلت تعيش في عالم مختلف جداً عن عالمنا.

إن كان لي ما أختم به حديثي معك أقول: أرجو لقادم الأيام أن تحمل لهذا الوطن قبساً من نور طالما كنتم تأملون به.

المرآة الثانية / من أخت

لو كنت أؤمن بسعود الطوالع ونحوسها لكنت قلت إننا، أنت وأنا، مصابان بالعين، أو منذوران للشقاء.

قبيل أسرك زارتني ثلاث صديقات يتذكرنك دائماً بودٍ ويخفن عليك، وكنتَ حديث مسائنا. لا أدري كيف أجمعن في تلك الأمسية على تحميلك خطأ خيارك السياسي، واعتبرن أنه مجازفة خطرة في ظروف كالتي نعيشها. لم ألبث أن انفجرت في وجوههن من غير أن أراعي كونهن زائرات، أو أمنح نفسي فرصة الرد بما لدي من حجج كافية. باختصار سبقني نزَقي، محمولة بواجب الدفاع عنك. حاولن استدراك ما أغضبني، واعتذرن عما حدث، ولكن بعد فوات الأوان. في تلك الليلة، وبعد أن غادرن، لمحت نظرات العتب في عيني زوجي. لم أنتظر أن يبادرني

بكلماته الهادئة التي أعرفها؛ بل تقدمت منه مباشرة وقلت: أدرك أنني تصرفت بغضب وتوتر، كان علي أن أرد بموقف أعقل وأكثر هدوءاً، ولكنهن تفهمن موقفي. ابتسم صديقك. عانقني، وربّت على كتفي، ولم يقل شيئاً. عرفت أن مزاجه قد تعكر، انزوى قليلاً على مسند الأريكة، ثم نهض. فتح الباب وجلس على الشرفة وأشعل سيجارته. تركته بضع دقائق، أعددت خلالها فنجانَي قهوة، وقبل أن أوافيه، دققت باب الشرفة من الداخل ممازحة، وخرجت إليه. كان يمسك بيديه نهاية غصين حبق ويشمه. وضعت الصينية ووقفت وراءه، وألقيت بذراعي على كتفيه. نصف التفاتة، ومغفرة طليّة انبعثت من عينيه. جلسنا على الكنبة الخشبية الضيقة، التي خصصناها باتفاق ضمني للحظات الحرد، وقد شهدت أيضاً الكثير من مصالحاتنا الرائعة.

بعد اعتقالك صرت أكثر ضراوة في الدفاع عن مواقفكم، بالرغم من ملاحظاتي الكثيرة على أدائكم العام. مع ذلك لا أتحمل أن يتهمك أحد في غيابك، أو يقول: فلينزع شوكه بيديه! ولن يحدث ذلك ما دمتُ على قناعة بأن ما قمتم به كان جديراً بأن يُفعل، مدركة كم كان ذلك باهظ الكلفة. فقد أديتموه مع آخرين سواكم نيابة عن أغلبية مطلقة حوَّلها زمن الخوف والقهر إلى جماعات تأكل وتنام وتتكاثر، وربما تحمد أرباب نقمتها ولقمتها أنها ما تزال على قيد الحياة!

لا أخفيك أنني بدأت أتلمس تغيرات كثيرة في مسارات روحي وعقلي بعد أن تعرض مركب حياتي إلى صدمات متتالية. تغييبك في السجن وانقطاع أخبارك عنا، موت صديق مشترك، وأخيراً موت زوجي بعد معاناة قاسية مع المرض، وبقيت شبه وحدي، مع طفلين بأسنان حليبية. لقد أوجعني الافتقاد، وأحسست معه أنني مهيضة الجناح وضعيفة، خصوصاً عند المنعرجات الحادة. صرت أتذكرك أكثر،

وتحدوني الحاجة إليك حتى في أقسى مِحَنِك، لأكتشف أنك خطي الدفاعي الأخير، ولكن غير المتاح!

لم أكن أريد أن أتجلى في مرآتي على هذه الملامح العارمة بشظايا الذكريات الحزينة؛ لكن مهابة أبراج روحك تشجعني على الهروب إليك، وتسامحني ربما؟ فاختر منها ما شئت من تأويلات ورموز وألوان وتفاصيل أخرى، ودع لي حرية التنقل في أي مطرح تختاره نفسي، فالأمكنة ضاقت أثناء غيابك العسير، وكادت أن تنغلق نهائياً إثر ارتحال صديقك لولا ما تفترض سنن الحياة من مخارج.

لقد مضى عقد على غيابك، و «الحبل على الجرار». وقتك يتباطأ، متثاقلاً كجبل من جليد، وأحسبه أحياناً كما لو أنه يراوح، فيما تتسارع بنا عجلة الدهر كأننا لن نلتقي أبداً. لو أنه عام، عامان، ثلاثة، لكان الزمن مضى بوجعٍ أقل، وحسابات مختلفة. لكنه جزء من عمر اكتهلَ، وأوشك على شيخوخته. إنني أغبط كل من كان صبره أطول من عمره؛ وأنت لك هذا الامتياز.

هل أهتف إلى طفولتي أن ارجعي كي أستطيع تحيُّن الحياة بطريقة أخرى؟ لا مطلب متعذراً كهذا! بوسعي أن أستدرج شريط ذكرياتنا القديمة، أحكيها لولديَّ، وألوِّنها بخيال طفولي يرضيني ويحاكي يفاعتهما. أنت وأنا طفلان في الحواري والحواكير والحقول وباحة الدار، نجتمع على خطة ضعيفة ونفترق على أنانية وغيرة. لا الجغرافيا الوعرة بقادرة على منعك من ملاحقتي والإتيان بي من شَعري، ولا رشاقة يديك الهزيلتين تستطيع أن تحول بيني والصراخ. «بطولات» مضحكة وتحديات، ونكايات ومناكفات بلا توقيت أديناها كما أي مشاغبَين. خمش الأظافر الناعمة الحادة، وعض الأصابع أحياناً، والشعر المتطاير، والملابس الملطخة بالتراب أو الوحل أو العشب. وفي المساءات يلملمنا

بيت ترابي واسع، طاوياً شغب النهار ومهاتراته وشقاواته، ليردد لنا هذه اللازمة: «عفا الله عما مضى».

ذات قيلولة حلمت أن لك وجهَ طائر. جئتَ إلى بيتنا عند الغروب، وحططت في الفناء تحت وردة الجوري الحمراء. اقترب ابني منك. قفزت على فرع منها. ناداني بصوت فرح: عسفور ماما. نقرتَ كؤيس وردة مفتحة بابتهاج. بضع وريقات سقطن عند قدمي ابني الذي صار يحدثك على بُعد خطوات ثلاث. مد يده مزغرداً، ومددتَ عنقك، فيما جناحاك يصفقان. كنتُ خلف الزجاج أتهيب النظر إليك. عرفتك، وتجاهلت خوفي. الكعكة الممدودة نحوك تتحول في يد الصغير إلى وجبة عشاء. تجمدتُ في مكاني، وكذلك ابني، وأنت تستزيد. تسقط الكعكة من يد الطفل. يحاول الإمساك بك، تناور حول شجيرة الجوري، تلتقط وريقة حمراء، ويقطف الصغير ورقة خضراء، وأنا أخرج إليكما لأراك في لا مكان. كنتَ قد طرتَ.

* * *

في النهارات الكأداء، كنت أشعر أن البهجة تفر مني مثلما فررتَ في عز بحثي عنك، لكن فرارك كان شهادة أخرى على حضورك. وبدل أن تضج الأرصفة بخطواتي الطائشة، كنت ألازم البيت وأحكم إغلاق ذاتي بعيداً عن الضجيج؛ ولا تلبث عواصف الويل أن تدوِّم في داخلي فتبعثر مشاعري كالقش المحصود.

حين أنعتق من جنون الألم، ينتابني الغناء، وتنتشر فيّ نسائم المودة لكل من حولي. أتحسس جبيني مخافة أن تكون الحمى وراء الوهم. وعندما أوقن أنه فرح آمن، أدعو الأصدقاء والأحبة كي يشاركوني حقيقة تلك اللحظات، وبعد مغادرتهم أتمسك بعمرها القصير كي أصدق نفسي.

في حياتي تقويمان، أحدهما ينتمي للحياة، والآخر لمآسيها. أولهما

يمضي خبباً، والآخر ببطء مغم. وما إن بدأتُ أؤرّخ للثاني حتى أدركت كيف ينحفر الزمن فينا عميقاً بلا هوادة؛ بينما يتروّض على يديك ويمنحك القدرة على الانشغال كما ينبغي بأسيرا

المرآة الثالثة / من أب

لم أندم قط على نصيحة أسديتها لك يوماً، أكانت في شكل نهي أم أمر، مدركاً في الوقت نفسه أن دروس الحياة ستكون أجدى من كل النصائح. ولقد سعيت جهدي أن أقتدي بضميري مع يقيني أنني سأكون عرضة للخطأ، كسائر خلق الله.

صحيح أنني قلت إن الشجاعة المستحقة تضحية لا بد منها، وإن «كلمة حق في وجه سلطان جائر» هي ملمح جهادي. بيد أنني ذكرتكم بأن المرء يجب أن يخاف ممن لا يخاف الله؛ ولا لثنيكم عما ينبغي فعله، وإنما فقط كي لا ترموا بأنفسكم في التهلكة.

بني! لقد دخلتُ عقدي التاسع، وأنت الآن موشك على الخمسين من عمرك، وهذه الرسالة، التي لا أدري كيف ستصلك، ستكون الأخيرة بين رسائل نادرة كتبتها طوال حياتي. ولو كنت بعدُ قادراً على زيارتك في أسرك لما استجبت لإلحاحك الشديد في أن ترى نفسك في مرآتي التي شاخت هي الأخرى!

الغربة مرض الروح، وغيبتك، التي طالت حتى بدت لنا كما لو أنها بلا نهاية، كانت تؤلمني دوماً وتشغلني عليك، وكنت أخفي ذلك أمام أمك بمزيد من الدعاء لك بالصبر والقوة. ولكنني شعرت بالراحة منذ رأيتك في الزيارات الأولى، حيث تأكدتْ لي قوة شكيمتك وتحملك، ووجدتك أهلاً لمواجهة ما أنت فيه.

الفارق بين أمك وبيني كبير، كل منا له مشاعره ومعاناته، وكل يمسك

بالحياة على طريقته؛ ولكن المرء يمكن أن يكتشف ما لدى الأم من مكنونات وأحاسيس ببساطة أكبر مما هو الحال لدى الرجل.

في ظروف ملاحقتك، حين التقينا على عجل في بيت صديق، كان لدي الكثير مما يجب البوح به. أخفيت عنك ما يؤرقني، وحدثتك عن أمك المعذبة وما يلاحقها من كوابيس، وعن عائلتك الصغرى التي تركتها في وجه العاصفة، وأختك الصغرى الأسيرة أيضاً، التي لم نكن نعرف بعدُ شيئاً عن وضعها. يومئذ قسوت عليك أمام مضيفنا، وأبلغتك بموقفي العلني المخالف لمغامرتكم السياسية، مدركاً في الوقت نفسه أنكم على حق، ولكن ليس صاحب الحق هو الغالب دوماً؛ كما أن العدّة التي بين أيديكم أضعف من أن ترهب سلطاناً جائراً. إثر ذلك اللقاء، وقبل أن أنام، حدّثت نفسي طويلاً، محاولاً تنخيل قناعاتي، وفي النهاية قلت: يارب، إن كانت إرادتك تقتضي أن يستمر في هذه الطريق، فخذ بيده يا إلهي، واهدِه إلى ما فيه مرضاتك. وفي صبيحة اليوم التالي قبلتك على جبينك وأنت نائم.

أحسست بنوع من السلام الروحي، ولكنني منذئذ بدأتُ أتحسب لوقوع الواقعة.

ووقعت!

«اللهم أجِرنا من الأعظم!» هذه العبارة التي ورثتها أمك عن جدتك، صارت ترددها على طول الخط، وكنت أقول لها: احمدي الله أنه ليس مريضاً ولا ميتاً، وليس مقترفاً لجرم أو كبيرة. حينئذ كانت تلوذ بحمده وعفوه تعالى.

وبُلِّغنا بالأعظم، حين اعتقالك، فمُنحنا الطاقة التي ربما كانت مخبأة لليوم الأسود، وابتُعثت كي تحمينا. كانت السنة الأولى من تغريبتك أعتى سنة واجهتُها في حياتي مع أمك. كانت تتعبني، وكنت أترك الأمر لولي

الأمر والتدبير. كنت أخشى فقط أن يخذلك جسدك النحيل. ولما وصلتني أخبارك أحسست بالطمأنينة. وخلال احتجازكم في تدمر، كما وصفها بعضهم لنا، كنا نتوجس من ضربة طائشة. في هذه الفترة ذات السنين الأربع، تكرر عليّ حلم ثقيل لم أقصصه على أحد. أنا لا أتذكر أحلامي عادة، إلا أن هذا كان عصياً على النسيان، فقد لازمني طويلاً حتى بتّ أخشاه لشدة ما كان يثقل كاهلي، حتى ما بعد استيقاظي. ولكن بعد أول زيارة رأيتك فيها بارحني ذلك الكابوس.

المكان الحلمي: أرضنا الواقعة في أسفل الوادي.

الوقت: الضحى.

كنت وإياك نعمل في الأرض، أنت تسقي مساكب الخضرة. تغنّي ألحاناً تشبه التراتيل الشعرية التي حفظتموها في طفولتكم وغَرارتكم. صوتك يتعالى ويتخامد. وأنا أقلّم بعض الأشجار، مستمتعاً بصوتك الذي كان ينقلني إلى بيتنا القديم، حيث كنت وأختك تؤديان بعض القصائد غناء، نزولاً عند طلب جدتك. بعد قليل، طلبت إليك أن تنشد لي قصيدة. راح صوتك يغالب هدير الماء، كان سمعي يتلقفه ويستزيد. ومع بلوغك البيت الخامس لم أعد أسمع شيئاً. صوت الماء المنسكب من أعلى كان طاغياً. ظننتك انتقلت إلى مكان آخر. فجأة دوّت صرخة مقطوعة. ناديتك. لم تجبني. ناديت ثلاثاً، ولم تجبني! هرعت باتجاهك متسلقاً السلاسل الأربع التي تفصل بيننا فوجدتك ممدداً على الأرض، المجرفة تحتك، ونصفك السفلي في ساقية الماء. ناديتك عن قرب. لا صوت، لا حركة، سكونٌ مطلق. قلّبتك يميناً وشمالاً، أخرجتك من الماء، لا أثر لدم أو ضربة أو رضوض. نزعت عنك قميصك. نظرت إلى صدرك وظهرك والكتفين والرأس. وضعت رأسي فوق صدرك، ويدي على معصمك، لا خفقان ولا نبض. رحت أضغط بكلتا يدي على

يسراك، حسبما علّمني صديقي الطبيب. زفرت في فمك، ولكن دون جدوى. المُحيي هو الله! قلت في سري. تهالكتُ، حاولت النهوض، خذلتني ركبتاي، وسقطت قربك.

ـ أنت في حلم يا شيخ، انهض! أمرني إيماني.

أمسكت بذراعيك، رفعتك من تحت إبطيك، فتدلى جذعك فوق ظهري كجريح. نهضت بك واندفعت صعوداً باتجاه القرية. شخص ما، غاب عن ذاكرتي الحلمية، يظهر قبالتنا في منتصف طريق العودة، يندفع نحوي ويحملك. تفلت مني خيوط الحلم، فأجد نفسي في حقل من الآس يخرج منه طيف ويناولني غمراً من الريحان؛ وقبل أن يتلاشى أعرف في مشيته أمي. أناديها. تبتعد. أصرخ: أمي، أمي. تبتعد وهي تقول: عجّل، إنه مسجّى في سرير العين. أنتَ ستغسله!

أركض ما وسعتني شيخوختي. أجد الناس متحلقين، يمسك كل منهم بيد الآخر، نساء ورجال وأطفال، كانوا كما لو في حلقة رقص. أراقب من بعيد. لا تبدو لي الأشياء كما هي. أتقدم بصمت، أخترق الحلقة لأجدك ممدداً على مصطبة العين، وثمة رتلان من الفتية، كل في يده غصن آس، يدورون حول جثمانك، ويرمون فوق جسدك صمتَ أغصانِهم!

رجل بلحية شعثاء شائبة يقترب مني مؤدياً نصف انحناءة. لم أر ذلك الوجه من قبل. يسألني شيئاً ما. أومئ برأسي أن نعم. لم أعد أتذكر سؤاله. يبادرني بنبرة حيية:

ـ عليك أن تغسله بنفسك ياعم!

ـ لكنه ليس ميتاً يا أخي، صدقني إنه مجرد حلم!

يمسك الرجل بيدي. نقترب من جسدك. يُخرج من جيبه مرآة صغيرة ويقرّبها من فمك. «انظر!»، يقول لي. المرآة نقية السطح. تصفعني

طفولتك فجأة، ومعها الحادثة المروّعة التي كادت أن تودي بحياتك؛ الصفعة ذاتها التي وجهها إليك جدُّك حزناً عليك وحباً.

ـ لم يمت يا أخي. قلت ثانية. إنها المرة الأولى في حياتي التي لا أصدِّق فيها حلول الأجل! حاورتني ثقتي بالله، أذعنت للحق. في تلك اللحظة اخترقتْ سمعي زغرودة مشروخة بنشيج عرفت فيها أمك. زغرودة لم أسمعها منذ عشرين سنة، يوم جاؤوا بشهيد إلى قريتنا.

تتحامل عليّ ملكاتي العقلية واقفة ضدي: لم أستطع أن أتصور جدثاً سيُفتح بعد قليل ليحتوي جسدك. وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض. أدركت أنه تعالى يبلوني. استغفرته في سري وتوسلته أن يسامحني على غسلك بطريقة غير مسبوقة.

حملتك بين ذراعي، كنتَ بوزنك طفلاً. أنزلتك في اللُّجة، ورفعت رأسك فوق حجر. زاغ بصري. كانت الشمس في سَمتها، وشلالات الضوء تنسكب فوقك كرذاذ نوراني. جاءني صوت متعدد ملح، كأنه للملائكة، يدعوني: اغسله... اغسله!

ارتعش جسدي كله، رحت أستجدي الصبر، متشاغلاً عن الصوت الآمر الذي ظلَّ يردد: اغسله، اغسله!

القرية تنتظر الكلمة الأولى. لم يغادر أحد. كيف لي أن أغسل جسدك في خلوة إذن؟ كيف لي أن أفيض الماء على رأسك، فيما رأسك غارقة فيه. ينبغي أن أسرِّح لك شعرك ولحيتك.

رضختْ ركبتاي لأوامر الغيب، جثوت، كان الماء قد غمرني حتى السرَّة. كانت صلاتي مرتعشة واجفة، وطقوس المراثي تنسكب مع الماء حولي؛ فيما الرجل ذو اللحية الشائبة كان ينسج من عيدان الآس الخضراء ستراً لعورتك. حينئذ أفلتت مني صرخة مدوية.

أفقنا معاً، أمك وأنا، لكنها اعتقدت أن الصوت صادر عن حلمها هي لا عن كابوسي الثقيل!

المرآة الرابعة / (زوجة)

صيف بلا ظلال، وشتاء مفجوع بالمطر؛ وأنفاسي اللاهثة تتصاعد مخلّفة وراءها تربتي المشققة. ملّني بأس الاحتمال، وساورتني أفاعي اليأس عن يميني وعن شمالي، فكنت أديم النظر حولي وأمامي، لعل يداً، جناحاً، أو أي متكأ يحنو عليّ.

مرت بضع السنوات الأولى ثقيلة كالصخر. وفي كل عشية، بعد أن يترسّب تعبي النهاري، كنت أحصي جنود إرادتي وصبري، وأدفن بعض همومي في مخابئ بيتنا الصغير الدافئ، ثم أنام متحسّبة لمفاجآت كفاحي المستمر مع الحياة.

أستعيد ذكرياتي مع أبي الذي كان يحبني وأعانده، أستمد منه العون والقوة دون أن أُوحي بشيء مما يعتريني. يأتي إلى زيارتي بكل غلظة قلبه الظاهرية وعاطفته المكبوتة. أعانقه، يكتفي بتقبيل رأسي، محتفظاً بملامحه الجادة، وغالباً الحادة، لا لسبب سوى اكتتام عفويته وعدم الإفصاح عن نفسه ومشاعره. كنت أسكت رداً على صمته، وأقابله بالمثل أحياناً، مع بعض الشفقة، مصرّةً على محاكاته كرماً وحفاوة.

ينظر بامتعاض إلى أشياء البيت الفقيرة التي لا يسعني تبديلها بأخرى جديدة. يتمعن في هندام ابنتي الذي لا يروق له؛ وكنت أخمّن أفكاره، فأقطّب جبيني كي أقطع عليه تعليقاً في غير مكانه. وأنجح فعلاً في تغيير مزاجه قليلاً، أحملها بين ذراعي وأسأله: أليست جميلة هذه الثياب الغجرية؟ يختصر ابتسامة صادقة ويجيب: فعلاً غجرية، قاصداً إغاظتي!

رحم الله أبي! مات دون أن يراك، مات قبل عدة أشهر من زيارتي

الأولى لك. كان يكن لك شعورين متناقضين؛ يحبك ويكرهك في آن، لكنه لا يخفي احترامه لأمثالك. كان أبي يتعثر بما يصبو إليه، ويصبو إلى ما لا يستطيع، أما أنت فلك طبيعة أخرى.

في عشية كهذه، وبعد أن تزخم رائحةُ الوحدة حواسي، أزاول فراغاً قاسياً ينهكني أكثر مما يفعله بي عمل الأسبوع بكامله. كسلٌ مجهِد يتحكَّم بمفاصلي، فيما أفكاري تجوب دنيا سنواتي الثلاث والثلاثين. قليلها مطَمئِن، وكثيرها يطلق الأشواك في أوردتي. أحياناً تتناوبني قامتان: إحداهما قوية، وأخرى معطَّلة بالحرمان. أناور، أحاول شيئاً ما، أتنبَّه إلى أنبل حاجاتي الروحية: الأمل. يندحر الخذلان قليلاً وأنا أستعرض ما ينتظرني في اليوم التالي، أخفي ارتباكي، وأتلهى بتقليب صورك التي كانت دوماً أحد خطوطي الدفاعية. يستحيل لهاثي إلى تنهدات نفيسة تهدهدني بدأب، فيتصاعد منسوبي الروحي، وأتابع تقليب الألبوم بهدوء.

ذات حنين، رتَّبت صُورنا، لم أتعامل معها وفق القِدَم، أو كما أرغب، بل امتثلتُ لعفوية ابنتنا التي أمْلتْ عليّ أوامرها. يومئذ وضعتُ أمامي مجموعة من الصور، وراحت تختار منها بعشوائية مُدهشة. تمنيت لو أستطيع فهم ما يدور في خلدها. أربع صور قلَّبْتُها بعد تمعُّن، كانت ملامحك فيها متعبة. تزيح هذه وتبعد تلك وتختار أخرى، تبتسم أو تصمت تماماً أو تُرجِع رأسها إلى الخلف أو تشير بإصبعها موافقة أو رافضة، وأنا أراقبها عن مسافة سنتيمترية دون أي تدخل. كنتُ طوع مزاجها المستبد الجميل. صار الألبوم الجديد جاهزاً.

عمق لا نهائي يمتد في خلفية الصورة الأولى. أتذكر تماماً المكان والزمان. صعدتَ إلى قمة صخرة؛ البحر وراءكَ والوقت غروب. كانت الساعة السادسة صيفاً. قلتُ لك: لنغير مكان اللقطة، فالشمس قبالة

العدسة. كان إصرارك أكثر عناداً من سببي المنطقي. رحت أنظر إليك عبر الكاميرا، حاولتُ المناورة على بؤرة الضوء التي كانت تبهر بصري. لا جدوى. ثمة درب من النور يمتد من أول الساحل إلى آخر الأفق المشع. يكاد وجهك ألاَّ يعبِّر عنك. بدوتَ لي كما لو أنك كائن من سراب. ولكن هذا أنت، ألمس زر قميصك العلوي، ذقنك، شاربيك، غاضةً الطرف عن الضوء الساطع الذي يشغلني عن تعقب ملامحك. يا أجملك. عبق غيابك هائم في دمي، يشعلني أَوْجَين: سلاماً وناراً؛ وأوتار النوى تخفق في صدري.

راحلتُكَ هوت في بعض الطريق، ولا موعد لعودتك. لو أن دربك صعود إلى المريخ، لقلتُ إنك تائق إلى مملكتك البدئية! لكنه يوحي بصعود إلى الجلجلة، بديلاً عن باراباس، أو بطورٍ بعليٍ بامتياز. أجل، شرعك الرحيل وأكثر، ودربك طويل ومتعرج وأكثر، ولا رادَّ لمصيرك!

أمرِّر أصابعي على سلسلة من صورك المحاطة بهالة من الوجع، كلها تقول لي إنك عائد. ولكن متى! من يرسل لي غصناً من زيتون برِّك، أو سعفة من النخيل التدمري؟ لقد خذلتْك الآلهة وأنت في هيئة فَصل ناضج. هل أصابني مسٌّ على عجل؟ فجأة تهالكت أعصابي عند صورة لنا: غرسة يافعة في يديك، وفي يدي وعاء. وابنتي على بُعد خطوتين من الحفرة، رافعة يدها كأنها تحذر من زرع غرسة. أخافتني؛ لكنني تعودتُ على طفرات عقلها الصغير! تهويمات ليس إلاَّ. ربما وجلٌ من المجهول، مع ذلك، أعلم أن زرعاً سينبت، وأن العرق الذي تفصَّد يوماً من وصال جسدين سيصير إلى غمامة ماطرة.

* * *

أنتم هناك، في عالم أحادي، ربما نسيتم ما الذي تفعله النسوة في وحدتهن؛ إذن سأهرِّب لك بعضاً من دفتر ذكرياتي، وأسرق من عرسي

شمعة أستعين بها للمضي شوطاً نحو الأمل ومثيله عن الفجائع.

دعني أقرأ لك:

ـ مع بداية ارتحالك كان لظهوراتك في أحلام يقظتي أن تجعل كل غمامات الكون تمطر فوق زرعي الذابل، وترم أخاديد أرضي العطشى. أستحضرك في أوقات انشغالي والفراغ. أعيد تكوينك في نهاراتي كي أمحو كوابيس الليل التي تلاحقني. ما أتعبك ليلاً! عيناك أشبه بمحجرين غائرين، ووجهك بلا ملامح محددة! مشاهد متكررة لرجل يركض في كل اتجاه، ملاحقاً بالأشباح، أو يتلوى في غرف التحقيق تحت أدوات التعذيب، يتهاوى كلما حاول النهوض، فيعوِّض بالمشي الحبو، فاقداً القدرة على الحركة. أحياناً كنت أراك صاعداً إلى لا مكان، ظهرك محني ويداك تتشبثان بالصخور الناتئة والأشجار، وفجأة تسقط إلى أسفل الواد.

ـ كوَّنتُ جمهورية صغرى متواضعة من الحوافز والرغبات التي تبدو في الظاهر فصامية، لكنها كانت في الواقع تعزِّيني، وتوسِّع بصيرتي. وقد حاولت أيسرها تناولاً وأقلها إيلاماً، كي لا يوجعني تناقضي. اقتضت الخطوة الأولى أن أتخلَّى عن بعض العادات التي رافقتني قبل اغترابنا، وأخوض معارك متوسطة تلائم خياراتي التي كنت أخشاها من قبل. لم أعد آبه بمن يحصي علي حركاتي وأنفاسي وبكائي وضحكي، فقد حسمت أمري تماماً. بلغت الطور الثاني من عمر التمرد، صار رفضي علنياً حاسماً، وبلا مناورات. وتلك كانت الفترة الأكثر وعورة في خطتي «الخمسية الأولى»! كيف كان لي أن أعلم مسبقاً أن أمامي ثلاث خمسيات ونصف كي تكتمل جمهوريتي هذه!؟

ـ اليوم بداية الانقلاب الخريفي في شرع الكون. تخليت عن ثلاث حماقات متتالية في هذا النهار، دون أي سبب مقنع: رفضت زيارة الطبيب؛ رفضت دعوة أصدقائنا وقضاء السهرة عندهم؛ رفضت

الاستجابة لنداءات ابنتي وهي تطالبني بتلقيمها ثديي بعد مرور أسبوع على فطامها. لم تكن لدي نية للقيام بشيء محدد بقية هذا اليوم. تكبدت صعوبة شديدة حتى جعلتها تنام. لا بد أنها نامت على كره، بالرغم من مبالغتي في احتضانها وتقبيلها وتدليلها. في الساعة التاسعة من الواحد والعشرين من أيلول كان الطقس معتدلاً. أطفأتُ الضوء، وفتحت نافذة البيت الوحيدة، المطلة على الشرق، ووقفت مسندةً ذراعي على الحافة الخشبية. فجأة أطلقت ابنتي تنهيدة أشبه بالنشيج. جفلتُ ملتفتة إليها. عيناها مغمضتان، لا توحيان بنوم مريح. راقبت وجهها لبضع دقائق، وأنا أكتم رغبة في إيقاظها على ملمس ثديي. خرجت إلى الحجرة الثانية، وبلا وعي وجدتُني ألطم خدي عقاباً. أحسست بعدئذ بشيء من الهدوء النفسي. صببتُ كأساً ما، وعدت إلى النافذة، حيث أمضيت الليل حتى الثالثة صباحاً في حضرة غيابك.

ـ سنة واحدة عشناها معاً، فيما غيابك سيكون قرابة عقدين. سنة من الذكريات القليلة التي تركتْ آثارها على دربنا القصير، هل يمكن أن تكون وقوداً كافياً لبقية الطريق؟ هي قليلة حقاً، لكنها لا تبارحني؛ بعضها ما يزال يغضبني حتى اللحظة، وبعضها الآخر يأخذ بيدي، أشبه بصمام أمان لعقلي وقلبي.

ـ ما السر الذي يجعل المرأة، في هذا المشرق، قادرة على مكابدة القهر والتحمل حفاظاً على بيتها الداخلي؟ الأولاد والتقاليد والقناعة الفردية والخوف على السمعة والمستقبل! ولكن ماذا عن الوجدان! هل الحب أولاً والحب ثانياً والحب أبداً، أم أنه آخر الحسابات هنا؟ أتساءل دائماً إلى أي مدىً كان الحب سراجي، وما الذي يعزيني حقاً، الحب أم التعلق بحبال الوهم!؟ أتفقد زيت مشكاتي فأراني أذوي مع نضوبه، فيما عيناي تراقبان خمود الشعلة وشحوبها. هل عرفت الآن لماذا «أعلّم الشعر ولا

أقوله»، كما ذكر أحدهم؟ لأن الكثير مما أخبئه لك لن يرى الحياة قبل أن تطلع في ربيع ما، كبعل، وألقاك حواسّ وجسداً آدمياً وروحاً. هل عرفت الآن لماذا أطلب منك أن تكرّس نفسك لنا في زياراتنا الشهرية القصيرة؛ وأن تخفف من رسائل العقل المتعِبة، وتعوضها بأخرى إلى القلب، لعلها تُحدِث فيّ ما يشبه القيامة.

ـ هل يجوع الجسد، وهل يتصوّح حقاً؟

أجل يذبل. أعترف أن جسدي قد عطش وتضوّر. كنت أجتاز أوقاتاً أكاد أن أشعر خلالها أنه يتصوّح؛ يخيل إلي أنني أسمع توسُّف أدَمَتي بظاهرها وباطنها. إذ ذاك، كنت أتمدد على صقيع الفراش، أفرك قدمي بعضهما ببعض، أتشنج، أعابث شعري بفظاظة أحياناً، أقضم أطراف جديلتي، أعض الوسادة حتى الدمع، ولا أدري مَن منا تبكي الأخرى. أنهض بجفول مباغت، وأسند ظهري إلى القسوة الجدارية أو خشب السرير، فيما بصري شارد في اللا مكان. أستدعي حضورك، فإن عزّ علي، أرضى ببعضه: صدرك، ذراعيك، كتفيك تحت ذقني، عنقك فوق رأسي، أصابع يديك تلهو بشعري المرسل الأسود، أنفك، شفتاك اللتان تبعثان فيّ رعشة الدفء. إنه حنين الجسد الباحث عما يشبه وهم الإشباع، إنه التوق إلى حرية ليست في المتناول؟ تلك هي بعض محاولاتي المسرحية، الهامسة والمسموعة، التي تبدو لي كما وصفة مهدئة لعذوبة الجنون، حتى لو اختل لها توازن هذا المشرق.

سأقرأ لك أيضاً:

كنت وابنتي في زيارة شتائية لصديقة، وكنت حضرت لها مرات عديدة دون أن أقوم بها. صديقتي تعتبرني مقصرة في التواصل مع الآخرين، واليوم سأفي بوعدي مؤكدة أنني سأنام وابنتي عندها.

استقبلتنا بحفاوتها المتعبة، وأمضت الساعة الأولى وهي في سعادة

غامرة، تداعب ابنتي وتثرثر معها، حتى أنهما راحتا تعبثان بمحتويات البيت كأنهما في سن واحدة. وبعد أن نامت ابنتي، جلسنا نتحدث عن حياتنا الخاصة. حاولت منذ اللحظات الأولى الاستئثار بكامل الوقت كي تقول ما لم أسمعه منها قبلاً؛ مع أن غُرَّة بوحها كانت مغايرة لنهايته. قرأتْ لي شيئاً من هواجسها، وكانت تتكشف عن قدر كبير من التدفق. في الواقع استغربتُ جرأتها؛ فهي عادة متحفظة قليلاً، تشكو من ضعف الثقة بالنفس، وتخاف اللوم. كانت تبكي بين وقت وآخر، دون أن أميز ما إذا كانت تبكي حالها أم حبيبها الذي يعاني مصير كل أولئك المختطفين من الحياة.

فجأة انقلبتْ امرأة تفوق عمرها عقداً. كانت سابقاً تضع صورته داخل مرآة كبيرة في صالونها الصغير. سألتها: هل تغيرين صوره بشكل دائم؟ أتذكر أن صورة أخرى لكما معاً كانت معلقة منذ فترة في المكان ذاته! أجابت بشيء من الإقناع: غيّرتها لأنها تشعرني بالعزلة أكثر مما لو كانت صورته وحده.

أخذنا فسحة من الوقت، كفَّت خلالها عن الكلام، تاركة لي فرصة التعقيب. راحت تصغي إليَّ باهتمام، وتدقق أحياناً في بعض ما أقول. ولم أُخفِ توجسي من مفاجأة تخبئها لي. أدركت ذلك في هروب عينيها عن ملاقاة عيني. قلت مداعبة: يا بنت ماذا وراءك؟ ضحكتْ. أحسستُ أنها تمهد لي السبيل لتقبُّل ما لا يمكن التنبؤ به. غير أنها لم تدعني أبتعد كثيراً، فسرعان ما أخرجت إحدى رسائله ورجتني أن أقرأها. رفضت في البدء لشعوري أنها هي الأقدر على تمثُّل ما فيها من نزوعات وعوالم وشقاءات وخصوصيات.

ـ أرجوكِ ألاّ ترفضي طلبي. ألحّت ثانية، وقالت بطريقة لم آلفها من قبل: كل أكوام الرسائل التي يبعثون بها إلينا متشابهة، ولا تحدث فرقاً!

سكن المكان. أحسستُ كأن السقف أطبق، وكذلك روحي، واختلطت مشاعري. ما بال هذه المرأة، تكاد أن تتلاعب بأعصابي بنجاح؟ تأججت ظنوني. ما الذي حدث لها؟ قبل لحظات كانت مسكونة به، والآن مجردة منه كالعراء!

دون تريُّث رحت أقرأ؛ في كل سطر كنت أندم أكثر، وأتحرق فضولاً أيضاً إلى استكناه هذا الدُّوار الذي أصاب قلبها. كنت منحازة إليه دون تردد، وقلت: تستطيع المرأة أن تكون وَرداً وشوكاً معاً؛ ولكن يصعب أن تكون أياً منهما على حدة! وطالبتها أن تتخلى عن معابثته، أو تبلغه موقفها النهائي منه. قرأت السطر الأخير من رسالته بصوت مسموع: «يا امرأة من خزامى وسنديان، أنت قنديلي الذي يضيء نهاية هذا النفق».

ـ اكتشفتُ أنني ما عدت قادرة على هذا التارجح، وحيرتي تُفقدني ذاتي. قالت. طبقات الصدأ تتراكم فوق نفسي وجسدي سنة سنة ويوماً بعد يوم، حتى صرت غريبة عني. الطحالب والعلق وعيون الجن ترتع دون رحمة؛ لا أريد أن أنزف سراً، أو أُغرم سراً أو أجترّ صباحاتي ومساءاتي كبقرة جائعة.

قولي ما تشائين، بما في ذلك ما أحفظه غيباً، ربما تحاولين تخديري بالصبر، أو تلفحينني بنار الحماس والوفاء والتضحية، وقد ترمينني بشواظ لعنتها الأبدية لعلي أشفى من دواري. أخجل منكِ، من صوتك الحاني، أبارك حنجرتك التي تردد بإخلاص كل وصايا الرسل والأنبياء. ولكن دعيني أحمّلك وطأة الإجابة عن سؤال: أليس حقاً لي أن أعترف بهذا الضعف الطبيعي، بدل أن أخفيه؟ كل ما أبتغيه أن تغفري لي يوماً ما ذنبي الذي سأقترفه عن عمد. أن تقفي قبالتي في محكمة ما، شاهدة على عدم ارتكابي معصية كبيرة، أو محظور. سوف أبلغه موقفي بنفسي، دون احتمال لشبهة أو التباس. سوف أضع بين يديه عجزي، وأستميح روحه

الشفاعةَ والرحمة؛ ولن أبادر إلى مغامرة جديدة إلا بعد إزاحة ما علق على محراب غيابه. حينئذ فقط سأستجديه كي يساعدني في إسدال الستار على قديم آلامي؛ أجل سألتمس منه العون كي أختار طريقاً أخرى.

فجأة صمتتْ. ثم دفنت رأسها في صدري كأنما تستجرني إلى التسليم بالأمر الواقع. لم تكن من قبل على هذه الدرجة من الشفافية والجرأة والحياء! حاولتُ أن أتخير ما ينبغي قوله. تكاسلتُ! ربما كي أترك لها فرصة نشيج كافية، وربما لأنها رمتني بالحيرة أيضاً؛ فقد طالتني عدوى مشاعرها، وأصابني ما يشبه الخدر. أبعدتُ رأسها عن صدري محتفظة به بين يدي. نظرتْ إلي كأنما تقول: المرأة مرآة المرأة. سمَّرتْ بصرها فيَّ، ولم تنطق بحرف.

استأذنتُها العودة إلى البيت. استجابت دون تردد. نهضنا. ساعدتني في توضيب الحقيبة. ناولتني وشاحاً صغيراً لففت به ابنتي، وغادرنا إلى البيت. وضعت ابنتي في سريرها، وهرعت إلى درج الخزانة، أخرجت صورة لك ولي، واستبدلتها بأخرى كانت معلقة فوق سريرنا.

كنت أعتقدك فصلاً واحداً من فصول حياتي، فإذا بك أصائلي وغسقي، نهاراتي وشفقي، ضلالاتي ويقيني وعواصفي والسكون. فكيف تأتّى لك أن تكون ذلك كله، من إغوائي بحفيف شمعتك حتى احتراقي؟ ومع بداية كل نهاية تخمد تأوهاتي، ويتصاعد حنيني، فتنضج سنابل شوق لرائحتك الخالدة في حناياي، وتنضح عيناي ببريق من «الخفر الشعري»، كما تسميه أنت! فأحسب نفسي شفيفة كالماء، قصيمة كتويجات الزنبق؛ ولولا أنني مسيّجة بحوش لخلتُني روحاً محضة.

إلى فائزة

لكِ، مع سبق العشق

يا امرأة تعلو على وجع المراكب المحطَّمة،

لا تزالين النجمة الخافقة في سماء منقسمة على سوادها..

يا لون الفجر، اقتربي لغةً وابتعدي قصيدة كيما يكون الصباح.

حين حبونا معاً إلى قصة عشق، كنتِ لي الخط الفاصل بين الاحتراق بأنفاسك واحتراف البدايات، فدوّنتكِ على أول يقظتي، ودخلت مواقيت صحوي وضبابي، وانوصل ما بيننا.

قبلكِ، كنتُ سرَّ البحث عن كلمته، فاكتفيت بسهم أصاب مني يسراي..

بعدكِ، تعرفتُ عليَّ والدهشة تعتريني، فآلفت بيني قبل العشق وبعده.. معكِ، عبرت قفاراً من ضياء وجنون..

يا امرأة تدنو من حريق الانتظار، عيناك غيث وعناق وقبلة. حضورك وجد، وغيابك وجيف، وما بينهما والحلم سرقة قصوى!

لا تزالين دالية خمري، وينبوع غرقي في ظمأ الحب.

يا لروعة الثمل على صدرك المبلّل بالندى والمطر.

حين مشينا إلى غدٍ نسجناه معاً تغيرت مقاييس الزمن في الليل والنهار.

قبلكِ، كان الحلم سحاباًبلا غيث، وبعدك، صار إلى رذاذ.

معك طلع العشب، واخضرت التربة.. فسميتك «أم الغمام».

يا امرأة برسم الخطيئة الفردوسية الأولى، كانت جرأتك ويل، وجنونك حكمة!

من وشى لك بي، فوجدتك؟

من أوحى لك بحميّا القطاف، وطعم الخطيئة الجميلة التي تبتغى.

هل ضلّتْ خطاك عن هبوب، فأبطأتْ وعاد الحمام.

هل انغلق كتابك من تلقائه، فاتبعتِ طريقاً أخرى!

يا لروعة قراءتك في ضوء القمر لمسةً لمسة..

حين تناخبنا القبلة الأولى، غضّ الكونُ طرفه وتفتحت عذريته.

قبلكِ، كانت السفن تمضي دون صفير انتظار.

بعدكِ، اتخذ البحر وجه مرسى.

معك، ازداد العمر سفراً ومواعيد غياب أليم.

يا امرأة كانت أحجية الفصول، فتنبأت بها أسراب السنونو.

هل يقلقك الماضي بعبث لا نهائي، أم تقودين دفة الريح.

هل كونت دفترك الفصيح من تجاعيد الورق الملون.

يا للوقت الحجري حين النطق للذاكرة فقط!

حين وحّدنا الاغتراب، فاض بنا الرحيل على قارعة الزمن، فكانت

عتبة البيت أجمل محطات اللهفة وأقصاها.

قبلك، مرآتي من زجاج.

ومعك صارت مرآتي امرأةمن مطر وريح وسفر.

* * *

بلا موعد مسبق أتيت، ترفلين بماض تتآكله الحسرة على غده. تأتين والعواصف تجرجر معها ما نسيتِ هنا وهناك من شرفات وقصب ونخيل وقصاصات بيضاء مبعثرة.

أقف عند مفترق اليابسة مع البحر. أراقب مشهدك البدئي. ولادة مغايرة لامرأة تصارع الموج كي تكون مختلفة عن كل ما عرفت الخليقة... تظهرين ثم تختفين، ويتراءى لي في عمق البحر برق، يرتفع على علو قامة ثم يتهادى نحوي... يصعد متن موجة وأخرى ثم ثالثة.

أنت الآن في النقطة الحاسمة، يتأوه البحر، يتكدر ماؤه، وتشحب السماء، وليس سواي من يشهد هذا الحدث.

غاب المشهدان معاً، هدأت العاصفة، وثاب البحر إلى عقله.

على عجل جُنَّ الليل، لا نجم في هذا الغسق الكتيم، والقمر حنث بوعده.

نسائم حيادية تعبث بأجمة من الأشواك اليابسة، يشايعها صفير مأتمي وأصوات ليلية مرتعشة.

أنتظر واقفاً، وعدتي سلسلة معدنية، وما يكفي من الصبر والأرق.

تُرى هل شرع البحر، حين يتمخض السكون، على عكس أنثى الكائنات الأخرى؟ أم أن العاصفة وهم، وكذلك ما رأيت قبالتي من مدّ!

ينتابني شعور بالعجز، لا أستطيع شيئاً مع ولادتك الجديدة أو حضورك المفاجئ، كلانا ينتظر شيئاً ما.. أنا أعرف كنه انتظاري، وأنت، ربما لشدة الملوحة غابت حلماتك.

تقدمت من الشاطئ، لامست الأمواج الكسلى التي تتلاشى فوق الرمال. دنوت أكثر، وغمرت رأسي في الماء ورحت أناديك، لعل الباطن أجدى في إيصال الصوت. كان الصدى يرجع، متلاشياً في المسامات الرملية.

أتراجع إلى برّي بعد قضاء سويعات من الليل حسبتُها دهراً.. ثم أصوات طير غير مألوفة، الطيور لا تشدو في العتمة، ثم حفيف أشجار خفيف، وتساقط أوراق. بساط كثيف من الصنوبر الأبرية تحت قدمي العاريتين. أتحسس موقعاً مرتفعاً قليلاً عن سطح التربة. أستلقي ويداي تحت رأسي. تسقط ثمرة فوق صدري. أجفل، وأمد يداً إلى يسراي، كانت متفتحة، وضعتها فوق سرّتي ورحت أعد ما علق بها من أشواك.

ها هي خيوط الفجر تنسج إبداعاتها الأولى على الأغصان المتباعدة، تلتمع حبات الندى قبل أن تسقط واحدة تلو الأخرى حولي وفوق جسدي الممدد. فتحت فمي وعيني وأنا أتلقف قطرات الصبح تغسل الملوحة من حلقي ومقلتيّ. ومع أول شعاع شمس غلبني نعاس نهاري مفعم بخفيف الأحلام وأعذبها:

عصافير لا حصر لها تتراشق بندى العشق.

يحط طائر على خاصرة سنبلة، تتمايل كراقصة هندية محترفة.

يمشط الطائر شعرها بمنقاره الثلجي قبل أن ينقر حبةتسقط منه عند أسفل الساق.

لا بأس! في الموسم التالي سيجد سنبلة أخرى تبعث فيه الحبور.

غجرية سمراء تشمر عن يديها،

ترفع أهداف فستانها الطويل وتمشي حافية.

تتلفت حولها؛ وتمسح المديينظرة واسعة: المكان آمن خال،

تقترب من النهر، تغط ساقيها، يند عنها صوت إحساس بالبرودة.

ترشق حفنات من الماء على جسدها. يبتلّ النسيج الرقيق، فيلتصق بالجسد،

متخذاً ملامحه البارزة.

تدويرة الكتفين، النهدان المباركان بكرز الرب الألمى،

وهدة السرَّة، ومجاهيل أخرى.

تخلع السمراء ما يخفي، وترمي به بعيداً؛ فتنفر قبَّرة راصدة.

يشرئب عنق السمراء، تنتر رأسها، فينسدل الشعر الفاحم على هضبة رخامية مزغَّبة.

في الأعلى، على غصن متمادٍ في استطالته النهرية، ينتفض هدهد، ثم يسكن عند قمة الغصن المتأرجحة. تراه السمراء، تغطس في الماء، فيطفو الشعر على اللجين الرقراق. تنقلب السمراء بطناً لظهر، يغمض الهدهد عينيه:

ـ لمَ الحياء! تسأله الغجرية العارية.

يقفز الطائر مجنحاً، ويحط على صخرة تشاطئ النهر.

رذاذ خفيف يتناثر من اصطفاق الذراعين بالماء، يبتل جناحا الهدهد. يدفن رأسه في صدره.

تخمن أنه يرغب بالاستحمام، فترشقه بحفنة قليلة. يخلل منقاره بين

ريشاته ويفرد جناحيه،ثم يحوّم فوق السمراء العارية كما لو أنه في نوبة حراسة.

ترفع ابنة الترحال ذراعيها متوسلة نزوله، وسرعان ما استجاب، وأغمض عينيه، وربما أغمي عليه منعماً بدفء سرير نهديها!

انتابها وخز الغياب عن الحبيب الذي أبعدته القبيلة. تحسست صدرها بهدوء، أفاق الطائر، غمرته بقبلة. ثم على عجل خرجت من الماء، ارتدت ثوبها البليل، وركضت وهي تعتذر الطائر: لا أستطيع أن آخذك معي، فنحن معشر الغجر، عاجزون عن الضيافة، وليس لنا مستقر في هذه الدنيا سوى الترحال.

أيتها الغجرية السمراء الضائعة عن عمد، أدعوك وحبيبك لإقامة دائمة على قارعة القلوب المتعبة!

* * *

مرآة عاكسة / عباس

تأملت اختبار المرايا هذا، فسقطتُ في شراك التحفظ، بدلاً من المضي حتى النهاية في الرهان الذي أبرمته معكم.لم أستطع أن أدوّنكم كما قرأتم. لم أُمنَح الجرأة الكافية كي أُخرِج نفسي عن شرع الحياة المألوف لديكم، فحاولت تقليص المسافة بين بصيرتي وبصري. لم أمارس حيلة وإنما خاتلتُ لغتي فحسب. استعرت عينين غجريتين وقلب متصوف، لكنني عجزت عن سداد الحق، خوفاً على توقعاتكم من الصدمة، ومخافة أن يؤدي الوضوح إلى واسع الجرح بديلاً عن التئامه. فشل في إغوائي لسبب بسيط

الآن أستجيب لنصيحة راقت لعقلي: «انظر في مرايا الآخرين ثم عد إلى مرآة ذاتك».

كم من أخت وأم وابنة يلذن بحكايات قديمة، ربما تعود إلى أبعد ما اكتهفت الذكريات!

كم من أخ أو صديق أو أب يستدركون الوقت بالتأمل، مستحضرين ظلال وقائع لم يبق منها سوى أصداء عالقة فوق رفوف العمر!

وكم من الحَبيبات يتلوين تحت وطأة الوحدة وبؤس الحرمان! يبتنين أكواخاً من الشوق، نسيجها أطياف متخيلة مع كل إغماضة عين، وقصاراها أحلام تُطوى مع الفجر؟ يتضورن هوىً، ويستعجلن الوقت لحلول رأس سنة جديدة، فقط كي يحسبن ما تبقى لهن من زمن الاغتراب!

كل قول شحيح.

* * *

لن يبرأ الجرح تماماً، ولكن هل سينكأ؟

لن تأتمر السماء بأمر الظلمة، فثمة من الأنجم ما لم يأفل بعدُ.

ولن يصير الأولاد بناتاً والبنات أولاداً إن مروا بقوس قزح.

لن يطرأ تعريف جديد للحب والصداقة والأخوة والأمومة قبل أن يمر من الوقت ما يكفي لاعتبار الماضي كله بهتاناً.

وربما، لن تتقوّل الحياة علينا بشيء لم نفعله.

إذن دعوني أقلّبْ صفحات مراياكم!

* * *

من حيث تبدون ظاهرياً بلا اضطراب ألمح أحزانكم. وخلال المعابر التي تودون اجتيازها تتسع هالة النسيان، فتصير لحظاتكم مليئة

بالمستقبل. وتنقلبون موقتاً على الماضي بمثابرة مذهلة. تستجمعون رغبة لا نهائية في اتباع طريقة مرسومة بعناية، بيد أن أشياء كثيرة تفلت من ثنايا حاضركم فتجعل الدرب محفوفاً بالخطر.

أما أنا فأتهاون مع إلحاحات رغبتي بغية توافق يسهّل علي النهايات، ويمهدني لقبول ما يصعب توقعه. لأن فعل الزمن ضدنا كان أشبه بتسليط النار على شجرة خضراء.

هل لاحظتم حذري، ومحاولتي ترك الأمور تتراوح بين أقصى البهاء والعتمة؟ ليس غريباً أن نهرب أحياناً من الهلع الذي يعشش فينا، إنه بحث عن بعض الأمان المفقود، أو تسلح بمضادات الانصياع؛ إنه نوع من التوالف الذي لا غنى عنه بين ظاهر حيواتنا وباطنها.

* * *

السّتارة التاسعة

سقراط الصغير

أنهى معلّم الفلسفة درسه لطلاب الثاني الثانوي، ثم أطبق الكتاب ودوَّن على السبورة بخط عريض:

«كل إنسانٍ فان، سقراط إنسان، سقراط فان».

طلب إلى تلاميذه أن يشرحوا هذه المقولة، كواجب منزلي، على أن يقدِّموا أمثلة مشابهة.

ـ من منكم دوَّن هذه العبارة على السبورة؟ سأل الموجه التلاميذ موحياً أنه لا يعرف من الفاعل، فقد رآهما بالأمس يخرجان من الصف بعد مغادرة الجميع.

ـ «معلّم الفلسفة». أجاب عدد من التلاميذ دفعة واحدة.

ـ «لا أقصد العبارة العلوية. وإنما «صديق عدوك عدوك»!

لم يترك جلال مجالاً للأخذ والرد، انبرى معلناً بصوت جهير أنه هو الفاعل.

ـ أعرف، أعرف، فقد رأيتكما البارحة بأم عيني من خلال النافذة، ومنعت عامل التنظيفات من محوها. وستدفعان ثمن فعلتكما الشائنة هذه. هيا معي أيها الإبليسان!

أمسكهما من قذاليهما وجرّهما كخروفي أضاحي؛ وقبل أن يدخلهما إلى غرفة المدير، حيث كان رجال الأمن بانتظارهما، عزلهما، كلٌّ في حجرة مستقلة.

كان الموجه قد بلّغ عن الحادثة منذ الليلة الفائتة حين اتصل بالقسم الأمني الذي يتعامل معه، وقد أدرج اسم معلم الفلسفة في حديثه معتقداً أن له دوراً ما. وكان يضمر كراهية شديدة له فقط لكونه يحظى بمحبة الجميع واحترامهم. إلا أن المعلم أُخرج من القضية كلياً. أما التوأمان فقد اعترفا، كل على حدة، بأنه الفاعل، فأحيلا معاً إلى المركز الأمني في المحافظة، وبعد أيام إلى العاصمة مصحوبَين بتقرير يشتمل على تهم الإخلال بأمن الوطن وسمعته، والتشهير بقيادته وإطلاق الشائعات، ما يكفي لإ يداعهما السجن عرفياً إلى أجل غير معروف في حال ثبوت الإدانة.

وصل الأخوان إلى القسم المركزي في ذلك الخميس الأسود. كان نمير طوال الطريق يرجو قائد الدورية أن ينهي الأمر بسرعة لعلهما يتمكنان من العودة إلى المدرسة كي لا تفوتهما المذاكرات.

ـ «لا تخف، سنعيدكما حالاً. ولكن لا بد أولاً من المرور إلى القسم لأن القضية خرجت من أيدينا. ولكن إن كنتما صادقين وأخبرتما رئيس القسم عمن دفعكما للقيام بهذا العمل فلن تبقيا لحظة واحدة».

لكن آمر القسم لم يقابلهما إلا بعد أن تعرّضا لجولات تعذيب شديدة، أودت بخوفهما الطفولي على المذاكرة! وكان الصوت الوحيد الذي يصدر عنهما: «آخ يا أمي».

أما أمهما فقد تسلمت حقيبتهما بعد ساعة فقط من مغادرتهما المدرسة. وكانت زوادة كل منهما لا تزال كما هي: لفيفة خبز مع بعض شرائح الجبنة القليلة.

دخل الضابط المسؤول، كانا مستلقيين على الأرض شبه عاريين. وبدأ حديثه معهما بمخاتلة واضحة، محاولاً التعرُّف منهما عن سبب وجودهما في القسم. وزجر أحد مرؤسيه على تسرعه في تعذيبهما، موحياً بأنه لا يعلم عن وجودهما شيئاً. وقد تركز حديثه على معرفة الشخص الذي أوقعهما في هذه الورطة.

مرّ الأسبوع الأول، والثاني، وبعد ثلاثة أسابيع على وجودهما في القسم المركزي، واستكمال ملفهما على ضوء التحقيقات، رُحِّلا، كسائر الموقوفين السياسيين، إلى المعتقل. إلا أنهما عُزِلا في حجرة انفرادية ولم يوضعا مع الآخرين، وقد مُنح كل منهما رقماً بدلاً من اسمه.

قرآ على باب الحجرة الانفرادية لوحة كتب عليها بالخط العريض «الجرائم الواقعة على أمن الدولة».

ما إن أغلق الباب حتى وقعت عينا نمير على لفيفة من الخبز يابسة. تذكَّر أمه والمذاكرت التي فاتته ولفيفة الجبنة، وانفجر بنحيب مخنوق.

جلس جلال قرب أخيه والألم يعتصره؛ حاول في سرّه أن يختلق كلاماً ما، ولم يستطع. فكَّر في أن يذكِّر أخاه بأن أمه ستتعذب إن علمت أنه يبكي، لكنه عدَّل رأيه. ثم فجأة مرَّ في خاطره صورة معلم الفلسفة وعمه وأخوته الصغار الذين يبكون غيابه. وفجأة راودته كل دواعي البكاء: أبوه الذي مات مجاناً، أمه التي تجوع من أجلهم، المذاكرات، معلم الفلسفة الذي كتم نصف الحقيقة، الخيانة، الخيزرانة التي خدَّرت قفاه بلا سبب، ضعفه، استحالة اسمه إلى رقم ثم أخوه الذي تحوَّل بكاؤه العلني إلى نشيج مخنوق.

يتيمان بعد النكسة، حبيسان في زنزانة ضيقة، يتوشوشان دمعاً وشهيقاً. قدرهما الأرق والشتات، سماؤهما سقف حتى حين، وأرضهما زوج من البطانيات الواخذة العفنة، أما مداهما فلا يتجاوز

الباب المقفَل إلى ما شاء «صديق عدوك».

ناما من فرط التعب والوحدة، كل منهما يتوسد لهاث الآخر والأصداء المختلطة.

سُجِّلت ليلةٌ جديدة في تقويم العالم المقفَّص الذي اندرج التوأمان في لوائحه.

في اليوم التالي بدآ يتعرفان بنفسيهما على التقاليد الراسخة المتوارثة، جلاّداً عن جلاد، وطاغية عن طاغية. هناك، في ذلك المعسكر، سرعان ما يتعلم الضحايا كيفية التعامل مع الحياة اليومية. هناك، لا أحد يحذر النزلاء أو يقدم لهم توجيهاته؛ تكفيك دورة زمنية قصيرة واحدة حتى تصبح جزءاً من تلك الحياة وتتعلم تسيير أمورك كالساعة؛ فالشرائع السائدة في تلك المحمية لا يعلم سوى الله كيف يجري العمل بها على هذه الدرجة من الدقة.

تفتح أبواب جحيمك في الصباح لإدخال طعام الفطور دون توقيت محدّد، ثم يأتي موعد التفقد. وبعد الظهيرة تقدَّم وجبة الغداء ثم العشاء، يليهما التفقد المسائي. قد يخرجونك أحياناً إلى التنفس، وليتهم يتركونك في الداخل بلا تنفس ولا شمس! وثمة مواعيد متفرقة أخرى؛ الحلاقة والاستحمام الفصلي، والتفتيش العشوائي، يومياً، وأسبوعياً، والعقوبات الدورية وشبه الدورية التي تشمل المعسكر بكامله. وهذا يجري غالباً بحضور آمر صغير، قد يكون الرقيب أو العريف، محاطاً برهط من الجنود، حيث توضع له كرسي عند باب الباحة، ويقف بجانبه من يقدم له الشاي، أو عصير الفواكه، أو يشعل له سيجارته.

ـ تُمنع كافة أنواع الأسئلة.

ـ تمارس كافة أشكال القهر والقمع دون توقيت محدد أو سبب. يكفي

أن يفتح بابٌ ما، حتى تنصب حمم السياط والعصي والقضبان المعدنية على من هم خلف تلك الأبواب.

- لا يسمع اسم آسرٍ أو أسير أبداً، ولا تُرى وجوه القيّمين عليك، لأن وجهك منكب دوماً إلى الأرض وظهرك مقوس في وضعية الذل الأبدي.

- لا يجوز أن تنزل الإماتة عن 2% وخاصة أيام الجمعة والأعياد الوطنية.

- إذا تأبّى أسير عن الصراخ والاستغاثة خلال التعذيب، سيثير كل ما في الجلاّد من وحشية وهياج.

- وسط هذه الحمأة المريعة سيمضي نمير وجلال بقية مراهقتهما، وسيبدآ تقويمهما الجديد منذ اللحظة التي فُتح فيها بابهما وطلب إليهما الخروج لإدخال الطعام. ولأنهما يجهلان هذه القوانين خرج نمير مرفوع الرأس.

مسكين نمير! لقد انتهك حرمة الباحة الخامسة! اندغر عليه الجند وراحوا يمزقون ثيابه ويضربونه بجنون على رأسه ووجهه وظهره. وظل نمير يتفلّت منهم متعقباً خيط الدم النازف من جسده دون أن يصرخ أو يطأطئ. دورة، دورتان، وصورة أبيه في الحرب تحفزه قبيل موته بقذيفة. كانوا يريدون استكمال خريطة الجسد الممزق وجعله يتهاوى تلقائياً.

وجلال، ما عاد يدري ما الذي يحدث في الخارج بعد أن أدخل الطعام وأُغلق عليه الباب. بعد قليل قُذفت ثيابه الممزقة عبر الكوّة الصغيرة، وأُلقي نمير أمام عتبة زنزانته، ليسّجل في ملفّه منذ اليوم الأول: مجرم عنيد، لا يصرخ، ولا يطأطئ رأسه، ولا يستنجد بأحد. لم يستطع جلال حمل أخيه، جرّه جراً إلى الداخل، وراح يعالج جروحاته النازفة بالخرق الممزقة والماء والعزاء. استرخت تأوهات نمير وما لبثت أن استحالت إلى أصوات استغاثة أخوية ناحبة.

مـن حـقك يـا نمير أن تـبـكـي، ابكِ بين ذراعـيَّ، وادفـن رأسك في صدري،فقد صارنا كل منا وصياً عن الآخر. لا نعرف أي مصير ينتظرنا ونحن معزولان عمن سبقونا، جاهلين ما يجري في أماكن أخرى من هذا الجحيم؛ وقد ننضج عقلاً وألماً قبل الأوان بكثير. هنا يا نمير لا يضربون على القفا كما كانت تفعل أمك أحياناً!

لأول مرة يتعرّف نمير على أخيه: روحه العذبة، لمسات التشجيع والتهدئة، والدموع الحرَّة التي تسرَّبت إلى مسامات الجروح. كان جلال يسعى دوماً إلى جعل الحياة الداخلية للزنزانة مفعمة بالفرح، والمشاهد المضحكة الجميلة، والأمل. وكان يتحاشى التطرق إلى كل ما يثيرالقلق والخوف، محاولاً حرف انتباه أخيه كلما رآه يتذكر أمه والمدرسة وأخوته.

وتكـرّ الأيام والأسابيع، ولم تتراجع وتيرة الضرب والتعذيب التي يتعرض لها نمير، ما عدا الأيام التي يكون فيها غير قادرٍ على الحركة، حينئذ فقط تكون حصة جلال مضاعفة. ومع أن كل منهما كان يدري بأن عناد ومكابرة نمير كانتا سبباً إضافياً دائماً في التركيز عليهما على نحو خاص. إلا أن أياً منهما لم يناقش هذا الموضوع قط مع الآخر.

أن يأتي الليل بأسرع ما يمكن كان أقصى أمانيهما، لأن النهار هو اللعنة الأبدية التي ستحل عليهما ماداما أحياء. مع ذلك، فقد تمكنا من ابتداع حوارات ووسائل تسلية وألعاب ومشاغبات كانت تعزُّ على الكبار هناك. وأحيانا كانا يشرعان بالضحك والعبث والقفز والصراخ ما إن يُغلق باب الساحة ويصبحان في مأمن، بعيدين عن سمع وبصر الحراس. وكان جميع من في الزنازين الأخرى يندهشون إزاء ما يصدر عنهما من أصوات وضجيج وما إلى ذلك، كأنهما بالفطرة يخلقان حالة من التوازن النفسي ـ العقلي ـ العصبي تجنبهما الموت صمتاً أو الجنون.

ـ «قل يا رقم 1967، ماذا تفضّل الليل أم النهار؟ هكذا كان جلال

ينادي أخيه حين يبتغي السخرية من كل تلك القوانين.

ـ الليل بالطبع. ومن سيفضّل النهار هنا يا مجنون؟ »

ـ «طيب، لو كان لديك الآن ورقة وقلم، ماذا كنت ستفعل؟»».

ـ كنت سأرسمك، وأطلب إليك أن ترسمني.

ـ ولماذا ستفعل ذلك، ونحن قابعان أحدنا قبالة الآخر على مدى 24 ساعة؟

ـ كي يرى كل منا وجهه يا فهيم.

ـ نسيت أن أحكي لك أنني رأيت وجهي في وعاء الشاي أول البارحة حين تركني مشرف الطعام منتظراً دوري في أخذ الحصة.

ـ وكيف وجدته؟

ـ صدقني يا أخي لم أتعرّف على نفسي أبداً. لأول مرة أرى رأسي كالبطيخة، بلا شعر، وعيناي منفوختان، وهذه الرجفة اللعينة في فكي السفلي أرعبتني.

ـ أجبني يا جلال، لو كنتَ صديقاً لي، هل كنت تقبل بي أخاً؟

ـ لا، بكل تأكيد.

ـ عجيب، كيف إذن قبلتني صديقاً رغم أننا أخوان؟

ـ لأننا لو كنا صديقين فقط، لكان أحدنا هنا والآخر هناك يتابع دراسته وحياته بصورة طبيعية.

ـ والله غلبتني يا جلال، ولكن لو لم نكن معاً كيف يمكن لأحدنا أن يعيش بمفرده، ربما ستقتله التوأمة، أو يتحدث لنفسه كالمجنون كي لا ينسى الكلام مثلما حدث لعدد كبير ممن سمعنا عنهم. كيف فقدوا بعض حواسهم خلال عزلتهم الطويلة.

هكذا دائماً كان نمير وجلال يتسامران ويقضيان وقتهما. ولم يكن يفوتهما مراجعة منهاجهما الدراسي، حيث يختبر كل منهما الآخر في جميع المواد. وحين يريدان تزجية الوقت وتناسي البلاء كانا يتباريان في الشعر. وكلما كان جسداهما يترممان قليلاً كانا يقومان بأشغال يدوية لا تخطر في بال الجن، على الرغم من بؤس المواد الخام والأدوات التي بين أيديهما: أكياس النايلون، بذور الزيتون، الخبز الذي يعيدانه عجيناً، الإبرة التي رماها لهم شخص ما من الزنزانة المجاورة. وأول منتجاتهما كان رقعة شطرنج من قميص نمير الممزق، وحجارته المصنوعة من العجين المخلوط بالشاي المحلّى. أما الخيوط فكانت نايلونية إلى أن اكتشفا خيوط الحرامات. وكان نمير قد اقترح على أخيه أن يلوّن المربعات برب البندورة. إلا أن جلال أقنعه بفكرة تلوينها بدم جروحهما. وكان ذلك.

مع أوّل تفتيش يلي عمل هذه الورشة الدؤوبة كانت المصنوعات تصادَر، والورشة ويعاقب عاملاها ليعيدا من جديد دورة إنتاجهما، وفي كل مرة تبقى الإبرة عصيّة على المصادرة، وربما لم ينتبه إلى دورها أحد. وكانت رقعة الشطرنج تُرتدى تحت الملابس كلما فتح باب الساحة، وغالباً ما تخفى في السروال، لأنه الوحيد الذي لا يُخلع أثناء جولات التعذيب الدورية والمفاجئة هذه. وكانا يتبادلان التعليقات حولها، فبعد انتهاء العلقة اللعينة التي بدآ يعتادانها، إلا إذا كانت استثنائية جداً، كان من شأن أحدهما أن يبادر الآخر: «لو كانت القطع محمّلة على الرقعة كيف كان سيبدو سروالك الداخلي! » وينفجران إثر ذلك بضحك طفولي رائع.

إذا كان التوأمان الفتيان، جلال ونمير، قد اهتديا إلى السخرية بوصفها أنجع وسيلة دفاعية، فأية دفاعات ستلجأ إليها أمهما سوى الدمع والحزن القاتل والحنين.

عام كامل انصرم، ولا تعرف الأم عن مصيرهما شيئاً، ولا عن مكانهما. وكان العم الطيب قد استدان مبلغاً باهظاً دفعه رشوةً فقط ليتأكد من أنهما على قيد الحياة.

وكان ذلك بأن جاء أحدهم ذات يوم إلى زنزانتهما وسألهما عن أمرٍ لا يعرفه سوى العائلة والتوأمين. شعرا بأن الشخص، الذي لم يريا وجهه، فاعل خير، إذ أنه نقل لهما عبارة تشبه كلمة سرٍ مصدرها العم والأم حصراً، ورمى لهما من كوة الحجرة العلوية شالاً نسائياً وبعض الثياب.

ياله من طقس احتفالي. يالها من بغتة مفرحة أعادت لهما الروح. وما إن انصرف المتحدث حتى طفقا يرقصان ويتقافزان ويتعانقان ويبكيان ويضحكان. يكفي لمراقب خارجي أن يرى لحظة اشتعال العيون حدَّ الجحوظ، والحركات العشوائية المنفلتة من كل قيد حتى يكتشف أن الولدين قد فقدا صوابهما. كان كل منهما يلف جزءاً من الشال حول عنقه ويقبلّه ويبكيه، ورائحة الأم بينهما تحملهما إلى السماء السابعة.

ـ «إنني جاهز غداً لتلقيّ ألف سوط وجبةً واحدة. » قال نمير.

ـ وأنا مستعد لنيلها عنك مضروبة باثنين؛ قال جلال والدمع يتدفق من عينيه.

لم يناما تلك الليلة، راحا يتشممان شالها العبق كأنه إكسير الحياة. ليلتها ساد صمت عجيب، كل منهما كان يطوف مع أحلام يقظته، يعانق أمه وأخوته يشعر بطعم حليبها ورائحته في فمه وأنفه. يحتضنها، يلفُّ شعرها الأسود الطويل حول عنقه، كما كان يفعل ذات شغب طفولي، يناكدها ثم يقبّل يديها ويهم بتقبيل قدميها المخددتين تحت وطأة الشقاء.

يا للمسكينة أمهما، تلك المرأة المطعونة بحربة فقدانهما، حين وصلها خبر بقائهما على قيد الحياة، نذرت روحها لعودتهما. جمعت ثيابهما، كما تفعل عادة كل أسبوع، طيلة غيابهما، وغسلتهان ثم جففتها وأعادتها إلى مكانها الدائم: فوق فراشها. كانت، حين تنام، تنشرها حولها، تعانق قميص جلالوبنطالنمير، وتحاورهما إلى أن تسقط في أحضان النوم، متعبة مهزومة، ولاتني أن تواصل حوارها في الحلم.

وكانت غالباً ما ترمي باللائمة على القدر الذي انتزع زوجها من الحياة وأبقى على أولئك الذين سرقوا شهادته فباعوها وطرّزوا صدورهم بنياشين من ثمنها.

في اليوم التالي بدت لهما الأشياء على غير معهودها. فُتح باب الباحة كذلك باب حجرتهما دون صراخ وشتائم، ولم تفرّ العصافير كما كان يحدث دائماً. ودخل الجنود غير مزوّدين بالسياط وزرد الحديد والقضبان العدنية. ولم تُشم رائحة الدم. وكانت نسبة الجعالة أكبر من الطبيعي. كما أن الإدارة وزّعت على الجميع ثياباً داخلية وبدلات زرق خاصة. كل ذلك جعل جلال يتجرّأ على طلب الطبيب من الرقيب من أجل معالجة أخيه. كان على يقين من أنهم سيستجيبون له نظراً لتغير المعاملة في هذا اليوم. وفعلاً حضر الطبيب ومعه وجوه جديدة لم يرها الأخَوان من قبل. وكان بينهم وجه ذئبي متعطش للقتل استطاعا أن يميزاه من خلال بروز أنيابه التي ابتسما لها معتقدين أنه يلاطفهما بلا مناسبة.

فتح عليهما الباب، ثم طلب إخراج المريض إلى الرصيف المحاذي لأبواب الزنازين لأن الطبيب لم يطق تحمّل رائحة العفونة التي انبعثت من الداخل. وبعد أن مدد نمير على الأرض العارية راح الطبيب يقلبه يمنة ويسرة بعصاه ورجله، ثم طلب من جلال أن يجرده من ثيابه. اكتشف الطبيب دون جهد تلك القروح والندوب التي يخرج منها القيح والدم. ثم فحص قلب المريض وصدره، وعاين القشع الذي يفرزه نمير دون توقف. المريض مصاب بالسل، وينبغي عزله فوراً. يا للبلاء! لم يستلزم تنفيذ القرار أكثر من بضع دقائق راح خلالها أحد الجنود يفتش عن زنزانة أخرى فارغة فيما كان جلال يجمع له أشياءه من حجرته الأم. حذاء بلاستيكي محصن بخيوط النايلون المجدولة، حصيرة من النايلون ذاته، درّاعة: وهي رداء خارجي خيطت عليه ثلاث طبقات من أكياس النايلون

لتقيهما شر البرد، ولوح الكتابة الذي صنّعاه من قطعة كرتون مقوّى، وخرقة قماش داكنة مطلية بالدسم الذي يطبخ به الطعام، وجميعها مغلفة بقطعة من النايلون. حيث يمكن الكتابة على النايلون. وما إن ترفع قطعة النايلون حتى تمحي الأشياء المدّونة. ولم يبقِ جلال الشال لنفسه بل أعطاه لأخيه بعد أن نسلَ منه خيطاً صوفياً أزرق ووضع هذه الأشياء، إضافة للثياب القليلة التي تعود لأخيه، وضعها في كيس من النايلون ورماه قرب أخيه دون أن يتاح له حتى لمسة للوداع. فقد أدخلوه إلى زنزانته بسرعة البرق وأغلقوا عليه. ولولا أنه استرق السمع لما كان من الممكن أن يعرف أن أخاه في الحجرة المجاورة تماماً، لأنك هناك يستحيل عليك التعرف على أحد.

الخوف من الشيء أصعب من الوقوع فيه. تذكّر جلال كلمات أخيه عن الوحدة والعزلة اللتين قد تؤديان إلى الجنون. لكنه لم يستسلم لهذه الفكرة القاتلة. وما إن أغلقت أبواب الجحيم وعمَّ الهدوء حتى راح ينقر بأصابعه على جدار زنزانة جاره. كان نمير نائماً إثر جرعة من الأدوية. ولعلَّ الخوف قد أودى بعزيمته، وكذلك انفصاله عن أخيه. لم يتوقف جلال عن محاولاته المتكررة، وكان يغير الإيقاع كي لا يتحول إلى ما يشبه الهدهدة مما يسمح لنمير باستغراق أعمق في النوم. بعد ساعة وصلته الاستجابة. وراحا يتحدثان معاً مستخدمين أبجديتهما الأولى. إنها الطريقة التي علمهما إياها أحد الموقوفين في زنازين البوليس السري. دَقّة الأمان، التحية، الفاصل، الحكايا المختصرة، وكان نصيب الشال هو الأوفر دائماً. وقد اتفقا أن يتبادلا إبرة الخياطة كل عدة أيام على أن يضعاها في مكان محدد. وبقيا يمارسان هذه الطريقة في التواصل إلى أن اكتشفا صدفة إمكانية التحدث المباشر عبر صنبور الماء حين تكون المياه مقطوعة، وهي قلّما تأتي أصلاً. كان نمير يغسل يديه قرب الأنبوب حين تناهى إلى سمعه غناء سبق له أن ردده مئات المرات. أصاخ السمع وراح

يدني أذنه من الأمكنة التي يخمن أنها مصدر الصوت إلى أن التصقت أذنه بفوهة الصنبور. ها هو صوت جلال يأتيه من الطرف الآخر. دق على الجدار مرسلاً إشارة التعارف، وجاءه الرد. فأبلغ جلال باكتشافه. ولم يعودا إلى المورس بعدئذ إلا حين النوم، أو عندما تكون الباحة موبوءة بضجيج العسكر وصراخاتهم.

عادا للعب بالشطرنج بعد أن رسم أحدهما الرقعة على اللوح فيما الآخر كان يحتفظ بالأصلية.

ـ هل عرفت الآن يا نمير لماذا تمنيت أن أكون قطاً ولا نمراً. كنت سأتمكن من التسلل إلى عندك متى شئت. من الفتحة السقفية. كنت سأخر قرب أذنك حتى تنام، ولن يجرؤ جرذ أو فأر على دخول حجرتك.

ـ كفاك أمنيات مشؤومة! والله لو أصبحت قطاً يا جلال لما عادت الأرض تتسع لك.

ـ اسمعني يا نمير، ينبغي أن تحكي كل مشاهداتك البصرية والسمعية، وأنا كذلك سأحكيها لك. ينبغي تكرارها أيضاً حين لا نصادف حوادث جديدة. ولا تنسى أن تدفن الرقم الذي مُنحتَه. أدفنه كل يوم قبل أن تنام وإلا فإن اسمك سيتآكل مع الزمن.

ـ أوافقك يا جلال، يجب ألا ينسى المرء ما يرى هنا، وما يسمع وما يعاني، ولكنني أخشى غداً عندما نحكي للناس أن يعتبرونا أولاداً، وأن ما نحكيه لهم ليس إلا أحلاماً كابوسية لنخيفهم بها. هل سيصدق هؤلاء أننا نعامَل كالحشرات، ولا ينادى هنا بالأسماء. وأنه يجري تعقيمنا كل شهرين بماء تصل حرارته إلى ما فوق السبعين درجة مئوية، فنعود شبه مسلوخي الجلود. وحين تكون أجسادنا قابلة للترميم بسرعة كيف ستقنع أي امرءٍ أنها تعرضت للحز بالإبر ثم سكب عليها الماء المملّح مائة مرة.

ـ لقد تذكرت أستاذ التاريخ الذي كان يحدثنا عن العبودية في الإمبراطورية الرومانية. يومها كنت أشعر أنه ما من إنسان يمكن أن يتحمل تلك الفظاعات أو يمارسها بحق أخيه الإنسان. والآن صار بوسعي تصديق كل تلك الحكايات بما فيها الخيالية. ألم تسمع البارحة نداء الحارس على نزيل الحجرة الرابعة والثلاثين حيث طلب منه الجلوس تحت فتحة السطح تماماً. ولما جلس المسكين بال الجندي على رأسه.

صمت نمير فجأة، لديه خبر جاءه بشكل عرضي في قصاصة الصحيفة التي أُحضرت إليه والأدوية في داخلها. وقد مضى على وجوده عنده ساعتان. لم يجرؤ على إبلاغ أخيه بمضمونها فقد يصاب بصدمة عصبية وربما عقلية. وكانت المرة الأولى التي يرى فيها حرفاً مطبوعاً منذ عام ونصف. يقول الخبر أن نتائج الشهادة الثانوية ستصدر في غضون الأيام الثلاثة القادمة.

استغرب جلال صمت نمير المفاجئ، انتظر أن يرسل له أخاه إشارة الأمان كي يبادره الحديث، وبقي كذلك إلى أن ناداه نمير من جديد.

ـ هه يا جلال، كيف حال ركبتيك وكوعيك بعد حفلة الزحف التي تعرضت لها اليوم؟

والله يا أخي خشيت على البنطال أكثر، لأن الجندي الأزرق مسح حذاءه به بعد أن جعلني أخلعه، ثم طلب من أحدهم أن يأخذه ويخرج به من الباحة. وكنت طوال فترة التعذيب أفكر به لأنني لم أتوقع أنهم سيعيدونه إلي. لكنه أعيد والحمد لله، بعد أن قُصَّ جزء منه، واعتقد أنهم سيستخدمون تلك القطعة لمسح أحذيتهم لأن نسيجه أعجبهم».

فجأة فُتح باب الباحة، وأطلق إيعاز صارخ: انتباه!

عجباً! لا بد أن شيئاً فظيعاً سيحدث اليوم. فمن النادر أن يأتوا في

وقت متأخرٍ هكذا. لبد الجميع في أمكنتهم منتظرين. صمت مطبق عمَّ المكان.

بعد لحظات دخل حشد من الجنود وانتشروا في الباحة، كلٌّ أمام حجرة. ثم تلاهم شميدت، وبعد لحظات دخل القيّم، وراحوا يفتحون له الزنازين واحدة تلو الأخرى إلى أن وصل إلى مقصورة جلال. كان هذا الأخير واقفاً باستعداد ووجهه إلى الحائط، كما أُمر قبل قليل. توجَّه إليه المسؤول الأكبر بهدوء ورزانة، وبلكنة جديدة فيها بعض الود:

ـ «افتح عينيك والتفت إلي». قال المسؤول.

التفت جلال دون أن ينظر في عيني ذلك الرجل. تذكَّر موجِّه المدرسة، أراد أن يبصق في وجهه، إلا أنه سرعان ما ازدرد ريقه وقد ثاب إلى رشده.

ـ غداً سيطلب منك المشاركة في التصويت على اختيار رئيس الوطن. ما اسمك»؟

ـ 1966 يا سيدي، ولكنني محروم من هذا الحق، كما أبلغوني في العاصمة».

إنني أسألك عن اسمك يا بني، ثم إننا سنمنحك حقك في التصويت»؟

ـ جلال برتيس سايروس. حلب ـ الصف الثاني الثانوي.

دوّن الاسم في سجل شميدت. وانتقل المسؤول إلى الحجرة المجاورة بعد أن سُمع يتحدث إلى مأموره بصوت خفيض، ودار بينهما حوار قصير. كان نمير مسنداً رأسه إلى الجدار حين بادره شميدت بصوته الضفدعي:

ـ التفت إلى الوراء!

التفت نمير، رافعاً رأسه، مفتّح العينين كعادته دائماً. وما إن وقع بصر المسؤول عليه حتى التفت إلى مأموره مؤنّباً.

ـ كيف فتحت الزنزانة ذاتها يا غبي؟

لم يحر المأمور جواباً إذ أخطأ بالفعل، وقد اختلط عليه الأمر، بالرغم من أنه أشرف على تعذيب نمير عشرات المرات. إلا أنه استدرك بعد لحظة وقال لسيده أن نزيلي الزنزانتين أخوان ـ توأمان ويصعب التمييز بينهما.

ـ ولماذا كل منهما في حجرة منفصلة عن الآخر؟

ـ الرقم 1967 مصاب بالسل يا سيدي.

ـ لماذا لم تضعه في المحجر الجماعي؟

ـ سوف يُخلى سبيلهما قريباً، وفضّلت ألاّ يختلط بالآخرين. وثمة توصية بشأنهما يا سيدي، وصلت مؤخراً. وهما أصغر موقوفين عندنا. فلم يبلغا الثامنة عشرة بعد.

لم تلفِت انتباه المسؤول هذه الإضافة الأخيرة، استكمل الإجراءات كأن شيئاً لم يكن. وتابع مهمته إلى الحجرات الأخرى.

تسللت حرارة الروح إلى عتم الليل، وعاد التوأمان نمير وجلال إلى صخبهما الأنبوبي وهواجسهما. كان دماغ جلال يمور بنداءات تختلج بين طفولة تتناءى وشيخوخة باكرة؛ تكرّ وتفرّ وسط أربعة جدران. وحين كان يرد على أخيه كان يتحدث كما لو أنه لا يقول شيئاً. صحيح أنهما تذكرا أمهما ومعلم الفلسفة والعم وأخاهما الأصغر، وضحكا. وقد ترددت كلمات الموت والحياة في حديث جلال أكثر من أي وقت مضى. ولم يوفّر اتهاماته الموجهة ضد كل ذلك اللغو الفارغ الذي يلقّنه لهم

معلّموهم، وذلك الهراء الذي يطلقه المذياع المحلي ليل نهار. وكانت الفاجعة حين سمع من أخيه خبر إعلان النتائج. شعر أن قلبه توقّف عن النبض ولسانه انقفل. لم يُظهر قلقه، بل اكتفى بعبارات تشجيعية آملة. وقد استغرب نمير ردة فعله. لم يكن ليعرف ما يخطط له جلال.

كان القمر في الخارج قد دخل يومه الثامن عشر. القضاة يغطّون في عميق نومهم. والجلاّدون يشحذون أدمغتهم بحثاً عن طرائق جديدة للتعذيب. السيد نائم في ملكوته. والسماء، في سكونها الشاحب، تردد أصداء الشهيق الأخير المشطور لمراهق تدلّى موته العاري من جديلة نايلونيةموشاة بخيط صوفي أزرق.

في صبيحة الانتخابات فتح باب الرقم 1966. قرأوا على الحائط:

«جلال ـ أخو نمير التوأم ـ الثاني الثانوي، يرفض تلويث حقه، يعلن:

«صديقك صديقك. صديق عدوك عدوك. عدو صديقك عدوك».

الحكاية لم تنته.

خلال ذلك كان الأخوان نمير وجلال يتهامسان، ولم ينتبها إلى ما قاله المعلّم. كانا يتناقشان حول الفكرة ذاتها مذ شرحها لهم المعلم قبل قليل. وكان نمير يحاول إقناع جلال بأن المثل الذي يقول: «صديق عدوّك عدوّك» قد ينطبق على المقولة لجهة التسوية الجارية في الشرق الأوسط؛ لولا أن هناك حلقة مفقودة كان يبحث عنها لإقناع أخيه، ولجأ إلى المعلم مُكْرَهاً، بعد أن ضبطهما منهمكين في شغبهما الهامس.

ـ قل لي يا نمير، يا بني، هل دونت الوظيفة؟

ـ لا يا أستاذ؛ لم تطلب منا ذلك؟

ـ وأنت يا جلال؟

تلعثم جلال، وربما كانت المرة الأولى التي يشعر فيها بالحرج تجاه معلمه الذي يحبه كثيراً.

رفع نمير يده مستأذناً بالحديث، ومقدِّراً في الوقت نفسه، أنه قد يحرِّر أخاه من مأزقه. طرح المثل «صديق عدوّك عدوّك» وراح يوضح أفكاره بجدية محاولاً مطابقته مع المقولة، فيما كانت ابتسامة معلمه الهادئة الطيبة تزيده حماساً. وكان يغمض عينيه كلما استعصت عليه فكرة؛ لكنه نجح أخيراً بمساعدة أسداها له المعلم. غمره شعور بالفرح وهو يردد في سرّه: «وجدتها، وجدتها» فيما كان العرق يتصبب من وجهه.

ـ أحسنت يا نمير، أحسنت يا بني»، قال المعلم وارتسمت على وجهه علامات الارتياح. ثم توّجه إلى جلال الذي كان ما يزال ضاماً رأسه بين يديه:

ـ هل اقتنعت الآن يا جلال؟

ـ كنت مقتنعاً منذ البداية، لكنني لم أستطع استيعاب مفاوضات التسوية هذه!

ـ ما يصح على المنطق يا بني لا يُسحب على الحياة بالطريقة ذاتها. ثم... دعك من هذا الموضوع.

صمت جلال مخذولاً؛ أحسَّ كما لو أنه تلقّى صفعه على وجهه. وراح يتمتم: ما فائدة المنطق إذن؟ ولماذا يعلموننا ما لا يصح على قضايا الحياة؟

تذكر استشهاد أبيه دفاعاً عن الأرض.

إذن نحن نصافح أصدقاء أعدائنا، يعني كأننا...

التفت جلال حوله، كان التلاميذ قد غادروا الصف، ولم يبقَ سوى أخيه. نهض من مقعده، اتجه إلى السبورة ودوَّن:

«كل إنسان فان، سقراط إنسان، سقراط فان».

«صديق عدوّك عدوّك».

غادر التوأمان المدرسة متوجّهين إلى المنزل، وفي ذلك المساء أنجزا واجباتهما المدرسية، متجاهلين وظيفة «المنطق» تلكَ. ونام الجميع ما عدا جلال. كانت صورة أبيه المعلقة قبالته على الحائط تزيد من وتيرة دفاعاته الحوارية المضادة، حيث لم يعد يرى فيها سوى الشريطة السوداء القائمة التي تبرز في زاويتها العلوية. افترض محاوراً متخيلاً آخر (موجّه المدرسة) وراح يقارعه بالحجج؛ فهو لا يطيق رؤيته، ويتسبَّب له دائماً بعقوبات تربوية، لا لذنب يرتكبه، وإنما فقط لأنه يرفض بعض أوامره التعسفية.

في الصباح التالي توجه نمير وجلال إلى المدرسة وهما يتحاوران طوال الطريق، ومع وصولهما إلى الباحة كان التلاميذ قد بدأوا يصطفون. كان الموجه بخيزرانته يقف عند المدخل كي يتصيَّد المتأخرين.

حيّا نميرالموجه بكل تهذيب، إلا أن هذا الأخير لم يرد التحية، ما وفَّر على جلال إلقاءها. التحقا بأرتال الاجتماع الصباحي، وحين انتهت تحية العلم والمراسم المعهودة الأخرى اندفع التلاميذ إلى صفوفهم. كان الموجه قد دخل صف الأخوين مسبقاً؛ ووجده التلاميذ جالساً على الكرسي مكفهر الوجهه كجنرال مهزوم، وعصاه بيده.

وفي هذه المرة لم يسمع الضجيج الذي يصدر عادة لدى دخول التلاميذ إلى الصف وتوزعهم على مقاعدهم. وقد ظل الجميع واقفين، متوقعين أن ثمة توجيهاً إدارياً إضافياً يخص صفهم وحده وليس كامل

المدرسة. إلا أن الموجه قطع عليهم توقعاتهم حين نهض عن كرسيه وراح يتجول بين المقاعد متفرّساً الوجوه. وفي كل مرة كان يطيل النظر في وجهي التوأمين حتى كاد جلال يصرخ في وجهه من شدة غيظه. كان ما يزال يشعر بالخدر في مؤخرته بسبب الضربة اللئيمة التي كيلت له قبل أيام دون وجه حق.

وما إن ولجا الشارع الترابي حتى راح جلال يضرب الحجارة بمقدم حذائه فيما الغبار يتطاير من حوله. وقد نسي توجيهات أمه وتحذيرها المتكرر كي يتخلّى عن تلك العادة اللعينة التي تضيف عبئاً آخر على نفقات البيت والمدرسة. كان جلال يتلف زوجين من الأحذية كل ستة أشهر بالرغم من جهود عمّه المتتالية لتصليح الحذاء، وتوبيخاته الأبوية له:

ـ يا بني، ارحم والدتك، كان الله في عونها. ألا يكفي ما تعانيه من أجلكم! كيف يمكنها تغطية حاجاتكم لولا أنها تقطع عن نفسها وعن إخوتك الصغار كي تجعلكم تتابعون دراستكم، ألا يكفيها ما تقوم به من أعمال السخرة والأجرة عند الناس. فالراتب التقاعدي الذي تركه لكم المرحوم أبوكم لا يكفي لإعاشتكم أكثر من عشرة أيام في الشهر. لماذا لا تكون مثل أخيك نمير، فهو يستهلك حذاءً واحداً كل عام ثم يجلبه لي كي أصلحه وأعطيه لأخيك الأصغر. لا تكرر لي حجتك المعروفة بأن أخاك يستهلك ألبسة أكثر منك. هذا صحيح، ولكن معظمها يأتي مجاناً أو لقاء خدماته التي يقدمها لزملائه، يرسم لهم الخرائط، ويحل لهم المسائل الرياضية، ويساعد الناس في بعض الأعمال، أما أنت فكنت ترفض دائماً القيام بأعمال كهذه.

كانا يتقاسمان الغرفة مع ثلاثة أخوة آخرين. لم يكن قد استنفد أفكاره التي راودته أثناء حواره القصير مع المعلم؛ ومع ذلك شعر بهزيمة نكراء.

ولو لم يكن معلم الفلسفة هو الطرف الآخر في الحوار لكان جلال على استعداد لرشقه بكل حجارة الدنيا!

وفي وسط الغبشة التي تملأ جو الغرفة، تراءى لجلال شبح أبيه الذي استشهد قبل عدة سنوات. كان أبوه بكامل عدته الحربية التي رآه فيها آخر مرة، حين زارهم لمدة ساعتين فقط، قبيل انطلاق قافلته العسكرية التي كانت تنقل العتاد والمؤونة من المواقع الخلفية إلى الجبهة.

جلال لم يفاجأ، لم يذرف دمعة واحدة، ولم يطلق صرخة؛ كأنه كان على موعد مسبق مع شبح أبيه. حكى له ما حدث اليوم في درس المنطق، وأسمعه العبارة التي سجّلها على السبورة. وحدّثه عن موجّه المدرسة وعلاقته المشبوهة بالبوليس السري، وتعامله الفوقي مع طاقم المدرسة بالكامل، وعلى رأسهم المدير؛ إضافة إلى سفره المتكرر إلى العاصمة دون أن يجرؤ أحد على مساءلته عن تغيبه المتكرر.

تراخت أجفان جلال، وانسدل الستار على حلم اليقظة الذي تداعى مع هجومه المتوتر على الموجّه، وكذلك كل خططه التي رسمها في حضرة أبيه، ليعود ذلك الفتى الهادئ الوسيم الذي أخذ إيقاع تنفسه ينتظم، وجسده يسترخي، ويده اليمنى تفلت من شعره وتستقر بتلقائية على كتف نمير الذي كان غارقاً في عميق أحلامه.

بحثت أمهما عنهما في أقسام الشرطة، والفروع الأخرى التابعة للبوليس السري. وحين كلّت من طرق الأبواب ذهبت إلى مكتب الشهداء ظانّة أنه المكان الوحيد الذي يمكنها أن تدخله دون توسل واستجداء، لطرح قضية ولديها بقوة أكبر.

خرجت من مكتب المدير محبطة ومخذولة؛ فالعبارة الأخيرة التي قالها

لها كانت كافية لإخراج قلبها من صدرها.

ـ أستطيع أن أساعدك في أية قضية مهما عظمت، إلا إذا كانت سياسية.

ـ لكنهما ولدان صغيران، ولا يعرفان عن هذه الأمور شيئاً. أرجوك تدخّل من أجلهما، فهما أمانة في أعناقكم. هل نسيتم أن أباهما شهيد؟

ـ لقد حاولت في السابق التدخل من أجل إنقاذ أحد أقاربي الذي تورط في قضية كهذه، وكان معروفاً جداً بالنسبة لهم، فهو حائز على وسام الشجاعة من الدرجة الأولى. هل تعرفين ما الذي قالوه لي حين تدخلت بشأنه؟ لقد قالوا: «لو أنه حرَّر كامل أراضينا المحتلة، فلن يفيده ذلك شيئاً ما دام ولاؤه مشكوكاً فيه».

أما معلم الفلسفة المسكين فقد أغفل في حديثه خلال الاستجواب مضمون الحوار الذي دار أثناء درس البارحة معتقداً أن أية إشارة نافلة قد تودي بمصيره. ومعتبراً في الحين ذاته أن البوليس لن يولي الحادثة كبير اهتمام على الأقل لكونهما حدثين.

ـ «كيف سيكون مزاج سايروس الصغير في غيابنا يا جلال؟».

ـ «أظن أنه يفتش عن بديل من بين أخوتنا كي يتسلق على ظهره ويفتل به داخل الغرفة. ألا تتذكر كيف كان يركب على ظهرك والمسطرة في يده، يضربك بها كلما توقفت. إنني مطمئن على سايروس يا نمير، فهو طفل ذكي، يستطيع تدبر أمره بكافة الوسائل، إذا لم ينجح بالبكاء، لديه من الحيل ما يكفي لإيقاعنا بالتعاطف معه والخضوع لابتزازاته».

حاول مدير المدرسة التدخل لمصلحة «الولدين»، فقد قيمهما كما يستحقان فعلاً: ذكيان، مجتهدان، مهذبان، يساعدان الآخرين، ويتمتعان

بسمعة أخلاقية طيبة، ويناديهما الناس دوماً: «أولاد الشهيد».

أشاد ببطولة أبيهما وتضحيته تجاه وطنه، وأوحى لهما أنه يعرف والدهما شخصياً، وأن الوطن لا ينسى أبناءه، خاصة الشهداء منهم، وأنه يوفر لهم حياة كريمة. إلا أن الأخوين ظلاً متمسكين بحقيقة مسؤوليتهما عما جرى، ولم يدفعهما أحد إلى ذلك. حتى أن جلال واصل الدفاع عن فكرته الأساسية، معتبراً أن مصافحة الأعداء خيانة، وهذا ما تربّى عليه منذ طفولته.

فصام نيساني

الأرض أظمأ من حلقٍ هائم في صحراء.

ـ عادت لكَ جلالتك أيها ا لحارس المقيَّد إلى نفسك

لم يتفوه بشيء.

ـ لماذا تبكي يا سيدي، وأنت هنا منذ بدء الخليقة، وحواسك تنداح فينا كما التيار؟

ـ ليس ما تراه دمعاً يا بني، إنني أتقطَّركم هويةًهوية،إلام تتركونني وترحلون؟

ـ وما أدراك أننا راحلون؟

ـ وهل يخفى على وطنٍ هروب! ما وصل أحدٌ إلى هذه التخوم وعاد. كلهم

يَعدِونني بالعودة.

ـ ولم يعودوا؟

ـ من فعل منهم، عاد على خشبة، أو في محملٍ بلا عَلَم.

ـ لكنني سأعود. أعدك.

ـ جميعهم فاضت أفواههم بالأيمان. فلا تُقْسِم يا بني مخافة أن تَخلف. لا أريد أن أحمل وعودكم وطأة أخرى.

طويت خيبتي، وموتي الاحتياطي وانزويت إلى صخرة. كانت خاصرتها الأخرى تحتوي على أسماء وتواريخ وحروف. قرأتها. كدت أن أتعرّف على أصحابها. كانت مفاتيحهم السرِّية واضحة لي كوجه أمي.

وقفت بعيداً عني، قرأت ظلّي هناك على صخرة الرحيل. كان الشيخ هناك، أيضاً في مكاني، وظهره إليّ. وفكرّت، ماذا لو يرحل هو الآخر ويحملنا في غربته كما حملناه هنا! وفجأة التفت إلي كأنه خمَّن مسارّتي.

ـ لا يمكنُ ذلك يا بني حتى لو بقيت هنا مجرّد ذكرى. وسأظلّ أنزع عني مشيبي إلى أن أعود كما خلقَتني عناصر هذه الأرض وجبالُها وبحورها. خلتني عوداً مفرغاً، خاوياً وسط هذا الخريف المفتوح على الهباء. كانت الريح تصفر فيَّ، وأشواك الإثم تنغرز في قامتي. تلفّتُ إلى ظلي الأول، كانت نهايته تبدأ عند طريق محفَّرة. هممت بان أصرخ، فتنبهت إلى غياب صوتي والشيخ معاً. كان ثمة أمامي شبح سرابي يحمل على كتفيه الوقت، وتشايعه مزقةُ غيم.

تهويم كسوفي

ساعات قليلة وتفقد الكينونة البشرية إحساسها بذاتها مادياً وروحياً. يعود الكون إلى حالته البدئية التي وصفها السومريون بالعصر الذهبي، حيث صوَّر الإنسان في الفردوس قبل هبوطه إلى الدنيا.

بعد ساعات، وهي ليست شيئاً في شريحة الكون الزمنية، نعود إلى حضن أمنا الطبيعة، فتحنو علينا بكل رقتها وقسوتها، وتبكي كما لم تبكِ من قبل. تحتضن أسرارنا التي ستموت معنا، وهمومنا ومشاريعنا وانحرافاتنا وادعاءاتنا وصدقنا وشجاعتنا وجبننا وكفرنا وإيماننا وفرحنا وحزننا وخوفنا ومجازفاتنا وقبحنا وحسننا ورذائلنا وفضائلنا وكل شيء، كل شيء.

من منَّا كان بوسعه أن يصفو، هكذا دفعة واحدة، كما دودة الحرير، لولا هذا الخوف العميق المقنَّع! من كان بوسعه أن يعتقد أن عمر الإنسان كله ليس سوى لحظة عابرة في عمر الكون؟ لقد تذكرت ما قاله لي أبي ذات يوم، مواسياً بوفاة صديق لي:

«بني ما الإنسان سوى ضيفٍ عابرٍ على مائدة الحياة».

إن كان ثمة أجيال ستبقى، فإليها أتوجه، وإلاَّ فرسالتي متوجهة إلى

كينونة بشرية قد تجد طريقها إلى الحياة، مثلما انوجدت كينونتنا من قبل.

ليست إرادتنا، ولا غريزتنا، ولا الأساطير هي التي جعلتنا نرى الحياة. وليست صدفة هوجاء تلك التي جاءت بنا إلى هذه الأرض. ولكن ثمة غائية واعية أو لا مُدْركة من وراء هذا الخلق. لكن سؤالاً عنيداً يلازمنا مع لحظة إدراكنا لذاتنا كبشر: لماذا نحن نعيش؟

سؤال محيِّر، ولعلّ الأجوبة الإنسانية، على تنوّعها وغناها، كان من شأنها أن ترمينا في خِضَمٍّ متلاطم الأمواج، خضم من الحيرة والقلق والاضطراب والخوف والضياع!!

من منا قادرٌ على افتراض إجابةٍ نقية كالماء، صارمةٍ قاطعةٍ كحدّ السيف؟

هل غاية الحياةِ العيشُ المجرّد، العيش من أجل العيش؟

لو كان الأمر كذلك لكانت البشرية قد كفّت منذ زمن بعيد عن مشاريعها الإنسانية وغير الإنسانية على السواء، ولكانت الكائنات الحية الأخرى هي والبشر سواء. لو كان واقع الحال كذلك، لمسختنا غرائزنا إلى مجرد كائنات منكبة على الطعام والشراب والجنس والقتل وغيرذلك.

بعد ساعات قلائل لن يتاح لنا، ربما، الوقوف دقيقة صمت على روح كل الفلسفات والإيديولوجيات والصراعات، الشريّرة منها والخيّرة. فماذا يمكن القول لمن سيأتي فيما بعد؟ هل نعترف بفظاعات البشر المرتبكة في حق ذاتها، وفي حق التاريخ والطبيعة، بأرضها وسمائها!! ؟

أجل، لم يستطع الإنسان حتى الآن التفوّق على غرائزه تماماً، لم يوفّق إلى صراطٍ حقيقية رغم هذه المنارات البهية التي تركها لنا عشاق الحياة. وإليكم أيها القادمون، الحالمون بحياة أرقى إنسانياً وأخلاقياً صورة مكثّفة، ملتقطة على عجل قبيل هذا الموت الكارثي الكوني.

حقب تاريخية ضجّت بالويلات والمآسي التي ولّدتها الحروب الحقيقية والمتخيّلة، فخلّفت أشلاء بشرية وحيوانية، وتساوى فيها الجماد مع الروح الآدمية في سواقي الدم ووحل الهزائم والانتصارات، وكانت الخسائر دوماً لكل تلك الضمائر الحية والأدمغة التي أرادت أن تفكر بعيداً عن معادلات القتل والعبثية بحكايات الأطفال الجميلة.

كانت الحرية بالنسبة للأكثرية البشرية فضاء من الحلم المستعصي، وظلت كذلك ونحن نلفظ أنفاسنا الأخيرة، حتى في لحظات الاحتضار هذه كنا نتوق إلى شهقة حقيقية تبطل أضغاث أحلامنا... ولكن حتى تلك الشهقة حملتها الريح العاتية إلى غير مكان.

قد تستغربون إن قلنا أننا أدمنّا الموت في الحياة، ولكن إن بلغ بكم عدم التصديق حدّه، فتلكم أنهار مخضّبة بجراحاتنا، ومستنقعات تحتوي على كل أنواع القلق التي تطفلت على حياتنا، فلم يجد من بدّ في امتصاص نسغنا حتى النهاية. وعرفنا أننا حين نموت لن يجد الدود ما يأكله جفّت شرايينا ناهيكم عن لحمنا. أجل أكوام جبلية من العظام لا تغري الطيور الجارحة، وستضطر هذه الأخيرة إلى التنازل فتنقضُّ على أحشاء المستنقعات.

إن قُيِّض لطفل، ولد قبيل موت أمه بقليل، أن يبقى حياً ليكمل هذه السيرورة فقد يجد من الأشياء - بقايانا وما يسعفه على المضي قدماً ولن يضيره أبداً أن تعنى به ذئبة، لعل تواؤماً من نوع ما قد يحصل. لعلّ ما أقوله في هذه النقطة بالتحديد لا يعدو كونه هلوسات امرئ وحشرجاتها ورمقها الأخير. مثلما أتيح لنا كشف النقاب عن أسرار من قضوا قبلنا عبر آلاف السنين. الأرض، أقصد باطن الأرض سيكون مليئاً بحجارة سبق أن بنيناها، وأخرى هدمناها، وبأجداث وعظام وكنوز قد تهكم ذات صحوة معرفية.

وإن كفّت الحياة عن الوجود بيولوجياً، فلا بد لحيوات قادمة أن تولد مثلما ولدنا، وتبدأ صيرورة جديدة، ثم متطورة إلى أن تبنوا تاريخاً حقيقياً لا كما فعلنا، تاريخاً وقوده التجربة التي لا تحرق أبناءها، والمآثر الجديرة بالذكر. وإنني أتقدّم من أمهاتكم، معلناً هزيمتنا روحاً وعقلاً وجسداً، وطالباً المغفرة عن ذنب ارتكبته الإيديولوجيات القاتلة، والسياسات المدمّرة، تحت اسم العقل والوطن وإلى ما لانهاية من الشعارات. . .

إن عثرتم على تاريخنا الممتد على مدى آلاف الأعوام فاقرأوه بعقول مرتابة، لا بتسليم. وإن شئتم خذوا بهذا التحفظ: ليست الشعوب هي التي دونت تواريخها وأحداث حياتها وإنما السلطات وكَتَبتُها المحرّفون. ولهذا لا يجدر بكم أن تنطلقوا منه على علاّته. ففي الحروب يكون التاريخ للمنتصر، وفي السلم تتوحّد، أو تتقارب مصالح الأعداء، فينصب جام الظلم واللامساواة على العامّة.

ثمة رجال، كسقراط مثلاً، مات لأنه رفض أن يكون أداة في أيدي غاصبي إرادته وحريته. ورجال، كسواه، ماتوا وهم مستسلمون، وظلّت عتبات بيوتهم تئن وتئن على غيابهم حتى تآكلت.

والفقر، ما الفقر؟ إنه يفضي إلى أحد اتجاهين، إما إلى الركون والذل، وإما إلى التمرّد والاقتتال أو. . أشياء مذمومة أخرى.

هكذا بعد ساعات قليلة قد نموت دون أن ينضج أحد في الصور. والقيامة التالية أنتم. . فإن خرجتم من بين أنقاضنا ستجدون تلك التركة الباهظة التي ورّثناها لكم. . وإن كانت المسافة الزمنية بيننا شاسعة، فعلى عاتقكم سيقع كل شيء.

* * *

الكسوف (ريبورتاج)

سؤال واحد موجَّه لعيِّنة واسعة مختلفة الاتجاهات ومتباينة في السن والتجربة والثقافة والوعي:

«لو افترضنا أن نهاية الكون ستكون في مغرب هذا اليوم، أي بعد عشر ساعات من الآن، وأنت في هذا المكان، ما الذي يمكن أن تفعله أو تتمناه في هذه الشريحة الزمنية القصيرة؟!

ـ أصلي صلاة الكسوف، أفتح القرآن، وأستمر في قراءة القرآن إلى أن تعود الأمانة ـ روحي ـ إلى باريها (خمسة قالوا ما يشبه ذلك).

ـ سأجلس متأملاً كل شيء حولي حتى ما قبل الموعد ـ الكارثي المؤلم بنصف ساعة، أتناول كأس نبيذٍ، إن توفّر، وأحتسيه ببطء صبور، وفي اللحظة المعنيَّة، أضع الكأس في مكان ما بقربي وأغمض عيني. (ثلاث عينات قالت ذلك).

ـ أمسك بقلم، ودفتر، وأشرع بالكتابة؛ أكتب ما أهجس به، ما يقلقني، وأستمر في ذلك حتى الموت.

ـ أتناول وجبة خفيفة، ثم استلقي على فراشي باسترخاء تام، أتأمّل ناظراً إلى لا شيء، ومع بدء الكسوف سوف أشعل الخمسين شمعة التي عندي ـ وهي مساوية لعمري، أخلق شمساً بديلة، ولا أغادر المكان بعدئذ أبداً.

ـ لن أفعل شيئاً خاصاً. أمارس حياتي الطبيعية.

ـ أستحم وأرتدي أزهى ملابسي، أحلق ذقني، أعتزل في زاوية من الغرفة، لا أكلم أحداً، ولا أرد على سؤال. أتناول ديواناً من الشعر، عزيزاً على قلبي، وأختار أجمل الحماقات التي ارتكبها قلم الشاعر، ثم أبدأ القراءة هامساً، ومكرراً، ومغنياً حتى يأتيني النداء الذي لم أسمعه من قبل. حينئذ أضع الكتاب مفتوحاً فوق صدري وأصالب يدي فوق وجهي اتقاء وجه المنادي!!

ـ أستلقي مسنداً رأسي إلى ظهر صديقي، أضع ساقاً فوق الأخرى، وأغني أغنية للحب والحرية وأنا أتأمل حقيقة أو وهم وجه الله

ـ أزور جميع من حولي في هذا المكان، أودعهم واحداً واحداً، ثم أعود إلى مكاني مفترضاً أنه بيتي الذي وُلدت فيه.

ـ أعلن إيماني، فأنا حتى هذه اللحظة مشتَّت الذهن متعبُه، لأن شيئاً عميقاً في لا وعيي يقرّبني من الله، بقدر ما يدفعني وعيي الظاهري إلى غير ذلك. في هذه اللحظة المُريعة سيُكتب النصر إلى لا وعيي دون ندم.

ـ أدعو إلى غرفتي كل من لي خلاف معهم، أصافحهم فرداً فرداً، أصالحهم من كل قلبي، وبكل صفاء روحي، وأطب منهم أن نغني للحب بكل اللغات واللهجات التي تجمعنا أو تفرق ما بيننا.

ـ أتمنى أن أُمنح فرصة اللقاء مع عائلتي، أولادي الخمسة وزوجتي وأمي الأرملة منذ ولادتي، وأضمّهم جميعاً بين ذراعي، وأقبّل عنهم

جميعاً ابنتي التي لم أرها قط، ثم نموت معاً عند حافة نبع القرية.

ـ أن أرى أمي وأبي بعد غيابي المميت الذي دام قرابة الثلاثين عاماً، أقبّل جبينهما، ثم أطلب من أبي أن يسمح لي بالجلوس في حضن أمي، ثم معاً، نعود إلى حضن أمنا الطبيعة.

(أمنيتي الوحيدة أن أرى رفيقاً لي كنت قد أمضيت معه سنيناً في جبل الثلج والموت ثم افترقنا دون سابق إنذار، فقط لأعترف له أنني كذبت عليه مرة جُرح بسببها، إذ لا تزال تلك الكذبة أنشوطة تخنقني في نومي ويقظتي

ـ إن فكرة عدم وجود يوم الحساب ترعبني منذ أن تعرضت لأول صفعة ظالمة، مروراً بكل ما خبرته من غبن على يد الأخ الإنسان. أملي أن يكون اعتقادي خاطئاً كي يُحاسب كل من أساء للغير، ما دامت لا تتملكني نزعة الانتقام.

ـ سوف أنظر في عين الشمس المكسوفة، لأقول يوماً، إن بقيت حياً، إننا لا نجرؤ إلا على النظر في العيون المكسورة، وإن عميت عيناي أكون عبرةً لكل الجاحدين بالعلم. أنا لا أدخن، لكنني سأشعل سيجارة قبيل موتي بقليل، وأراقب موت السيجارة البطيء، مفترضاً أننا نموت معاً فأنا لا أطيق أن أتخيل موت من معي من بني البشر.

ـ أفكر بعمق، هل سيكون هنالك عالم آخر.. وحتى لو وُجد فما الذي يعنيه ذلك، ما دمت لا أستطيع الشعور بوجوده الآن؟؟؟

ـ سوف أختار ستة أشخاص، الأعز على قلبي، وأحكي لهم عن تلك الأشياء التي لم أحكها لأحدٍ من قبل. أطلب منهم أن نرقص رقصة النار الهندية، ونظل ندور ونقفز حتى يرمينا ذلك الكائن الخفي جميعاً في الهاوية.

ـ ثمة منطقة أراها في أحلامي دائماً، هي خليط عجيب من التضاريس. أحياناً أشعر بأنني أعرفها، وأحياناً تبدو لي شديدة الغرابة: نبع ماء في قمة جبل، تحيط به أسراب من شجيرات العلّيق المثمرة، وخلفها أشجار سنديان عظيمة، وثمة صخرة مفرّغة في منتصفها، أراني جالساً في عمقها الكهفي وأنا في سن العاشرة أو الحادية عشرة؛ في هذا المكان بالذات تجتاحني رغبة شديدة في أن أكون فيه لحظة قدوم أجلي.

ـ لا أدري إن كنت أستطيع تحمُّل هذه الساعات الحجرية وهي تدق رأسي بلا مبالاة لا تستغرب أنني قد أختار ميتتي بيدي. قد انتحر قبل لحظات من الموعد المحدّد، فقط كي أشعر باستقلالية قراري، ولو لمرة واحدة خلال هذه السنوات العشرين من أسري وغيابي. قد أضع حدّاً لنهاية البداية، أقصد الحياة الأخرى، مع معرفتي الأكيدة أن سلوكي هذا مخالفاً لما آمنت به دوماً: «قتل النفس حرام» في كل الشرائع السماوية. إلا أنني سأفعل شيئاً واحداً قبل أن أُقْدم على فعلتي المميتة هذه. سوف أحفر اسمي وتاريخ ميلادي واسم أمي في هذه البقعة الجدارية البيضاء، وأدون العبارة التالية: «أيتها الأرض، إن كنت ستنجبين أجيالاً يتامى الحرية، فأجّلي مخاضك حتى حين!!».

ـ ما دام الزمن سيترك لي هذه المِنّة الرائعة. عدة ساعات، فإنني سأقتفي آثار أخطائي التي ارتكبتها منذ وعيت على هذه الدنيا، تلك الأخطاء التي تثقل عليّ بين وقت وآخر، ثم أحصي مآثري، إن كان يصح تسميتها كذلك، وأقوم بنفسي بوضعها في الميزان لا لكي أريح المعنيين بالأمر يوم الحساب، وإنما كي أشعر بالراحة، أو بعبء أكبر، حين يأتي ملاك الموت، ولا يهم بعدئذ إن كان قطر القمر 3700 كم وقطر الشمس 1,400,000 كم)؟!

* * *

الستارة العاشرة

رسائل

من قابض على «حرية» إلى مقبوض عنها

لوجوه الرجال قبلة، ولأرواحهم الجمر، ولعيونهم الضوء والورد.

من الصعب القول «الادعاء» أنني استطعت العيش بكل كياني، ليس فقط لأن ذلك غير ممكن في الظروف التاريخية والراهنة للساحة، التي لا تزال تضغط بكل ثقلها تقريباً على العقل والروح والجسد، بل ولسبب آخر لا يزال يعتصر الوجدان كلما بادرت إلى العيش، بدءاً بلقاءات الأهالي والأصدقاء، مروراً بكأس الخمر، وانتهاء بأية محاولة لممارسة الحياة على اختلاف مناحيها، بما في ذلك، وفي المقدمة، محاولة الإبحار في دروب العشق.

قلت: لا يزال الضغط ماثلاً بكل عناصره تقريباً في الساحتين العامة والخاصة، وبخاصة في الأولى منها، لأن الثانية يمكن امتصاصها من خلال الاحتضان الواسع الذي حظينا به مادياً ومعنوياً من المقربين.

لم أستطع أن أنسى الناس عندكم، ولا أزال في معظم الحالات الوجدانية والاجتماعية أعيش معكم نقاشات وسهرات وجلسات حميمة وغناء، وأجزم أننا كنا نعالج موضوعات فكرية واجتماعية

ووجدانية أعمق وأصدق وأكثر إبداعاً وأغنى أخلاقاً، وأكثر تقدماً بما لا يقاس بما وجدته هنا. لقد فتقنا موضوعات واجترحنا حوارات أبعد إلى الأمام من الكتلة المثقفة المنسية هنا التي لا تزال تراوح في مستنقع العشيرة والحي والمصالح الوطنية الضيقة والأفكار المكرورة والمذعورة من العالم والمتغيرات العملاقة الراهنة إلى حد الرهاب. وأعتقد أننا سنكون بحاجة إلى الكثير من الحبر والحوار حتى نستطيع نقل وجهة نظرنا، على الأقل لأن إمكانية الإقناع لا تزال بعيدة فيما يتعلق بالأفكار الكونية والإنسانية العامة.

أحن بشكل خاص إلى روحك ووجهك وعينيك المشتعلتين على ضوء الشموع في أواخر الليالي، وأحن إلى صوتك المبحوح وعودك الحنون غزالة بيضاء. أحن بإلحاح إلى A.Z بجبينه العالي والساطع بتدفقه الإنساني والعاصف عند اشتعال الوجدان، بالفيض العارم بالأسئلة التي تحرق أطراف اللسان. أحن إلى Kh بكل ما هو عليه صمتاً وكلاماً ونقاء وحدساً وحساسية واشتعالاً في بعض المحطات، إليكم جميعاً أحن، عشاقاً للحرية والحياة والعشق. كما أحن بالتحديد إلى ليلة /1 ـ 2/ أيار ليلة عيد ميلادك الذي لا يزال طعمه ماثلاً في روحي، وآمل أن نتمكن معاً من إحيائه هنا قريباً تحت الشمس والسماء والقمر والمدى بلا حدود، وفي أحضان الأهل والأحبة. أرجو أن أتمكن من جديد من قراءة القلب المفتوح الذي سمعته تلك الليلة منك على امتداد صفحات كثيرة من الورق والعقل والوجدان. فهل هذا ممكن؟ ولا أعرف ما إذا كان مدعاة للأسف أو العكس أن أقول: ربما لن يهنأ لي عيش مادمتم هناك.

للسماء طيورَها وللأرض المطر

أشبك قلبي مع قلوبكم جميعاً، على أياديكم أشد، اقبلوني واحداً منكم وفيكم ومع أرواحكم حتى الحرية.

لكم أن تقدّروا الغصة الحزينة التي أنشبت أسنانها في أحلامنا وآمالنا، أهلاً وأصدقاء.

من طالب

«سندي في الغياب التالي أنتم، وندائي المستمر: لكم الحرية والزهر. أجل هي انكفاءات الأفق وسواد العتمة، لا طمأنينة هنا، لا أمان. والثقة تأتي إليك كما شوكة في القدم، سأعمل كي أنتزع ثقتي منك. انكسارات، ولكن ليس نهاية التاريخ، والدنيا لم تصل إلى أقصى جمالياتها. لا يزال لدي ما يكفي من القوة والأمل والحب، وثمة فسحة لدي للعمل، وفسحة لتجاوز مختلف صنوف الاغتراب والاستلاب. سأفرح وأستمتع بمباهج الحياة بقدر ما تكون الظروف حليمة معي. سأكون معكم قادراً على صنع مشروع محبة. وسأكون وفياً له، لك، للجميع، والدم ينبض».

غياث

لك، راجياً أن تقرأها عيناك وأنت في صحة ومعنويات عالية، وأن نراك فيما بيننا قريباً وقد استعدت نسبياً ذلك الشيء الغالي ولصيق الحاجة بالإنسان، والمرء لا يحيا بدونه حياة كريمة.

لقد سمعت الكثير، وتتبعت أخبارك وأنشطتك، طباعك وخصالك، مما زاد في شوقي للتعرف عليك والتفاعل معك. وكان آخرها دردشات مكثفة مع العمة هدية: كم أنت حين تحدوك نفسك، تغدق للغمام سيول وجدك... فيمطرك الهيام.

من أنت حين تحور روحك فتنة بالبيلسان.

التماع برق يحاكي ثغر بركان... كم أنت وجدان.

يا واحداً متوحداً والوحدة أنت... يحاصرك الزمن في علبة الجدران... يعثرك على زمنين... يشتق جلدك معطفاً من جلده.. وأنا، من أين لي أن أتوحد فيك مع الفجيعة.

(1) لولا شظايا من عناد الروح لاستسلمت للذكرى... واندلعت في السجايا كألسنة الحريق.

قم بحلّ... واسع وجهك العاري إلا من ملامح لو تريمْ.

قم، وقل لا... وأنت تجهد أن تكابد كي تزين بالبلاد صدر النشيد بكل ما اقتربت يداك... وكلما اتسعت خطاك.

ها أنت يقظان... والحلم ينسلّ من بين الأصابع قضباناً من الوطن المغلف بالسواد، نوافذ للوجوه المشرئبة... ثقوب للعيون الساخطات... مربعات الليل تسمع بامتداد اليد لتعبث بالهواء... مساحات من الصفيح تدل على طويتهم لعمر تعضعضه تضاريس فراس... ووطن يأكل العمر

أسراباً، وقصيدة تنسرح كما الأصابع على ضفائر طفلة يصرحها الغدير.

وبسمة هاجم السجان حيادها، فارتدت لمرافئ الروح العزيزة، لتستحم بفيضها حمماً من الألوان والألحان كحلها القلق، شلال حبٍّ دافق كالمهرجان... كم أنت وجدان.

يهيم الكلام حيناً ويهوى... فللحروف ألوان وأرواح تعشق وتنفر... واللغة فتح... نسيجه ملتبس غامض... يستر ويواري بقدر ما يوشك أن يكشف عن التماع الخاطر.

(2) حاولت كثيراً أن أحاور العيش لأهزمه، لكنه هزمني، فابتعدت عن الفساد الحجري.

نسيت براءة الكلمات الأولى... الكلمات الخالقة دون اجترار أو استهلاك.

لكنني فقدت بريق العيون، وغادرني المدهش، والمجدي، والطازج... فتمسكت بأهداب كل ما له صلة بالفكر والأدب والفن والحياة والإنسان، وكانت Fat نقطة وصل ما انقطع... لتعزز إحساساً بالانتماء. وكان عزائي... فنحن قلق الجيل، تمرده، ضياعه، غربته، تكسر أحلامه، نحن من خنقتهم لهفات الصدور... وشابت ذؤابات الزمن على جباههم باكراً.

(3) لكن النشوة تغسل أوراق الحياة... أوغلت في البحث عن طيوفها الساحرة الموحية... علها تلمُّ خطاي وتجعلها وطيدة. Fat صارت ضمانتي كي لا أخون الكبائر، لكنني عاجز عن أن أغرس حقول الزيتون في رماد المجامر.

إليك ومعك عنها وعني...

لقد شدتني إليها أواصر عديدة لا يتسع المجال لذكرها، لكنني أخص

بالذكر، أصالتها ونبل معدنها، وتلك الصلابة التي تبديها في الدفاع عن كرامتها وعزة نفسها.

(4) بنفس الدرجة التي أسرتني بها وشائج جميلة أهمها حنانها اللا محدود، وخفرها المحبب، وابتسامتها الدالّة على طويتها وحسها الإنساني تجاه الجميع، عدا عن تفانيها في خدمة كل من حولها دون ادعاء أو تصنُّع... وكنت أرقب ذلك جيداً في تهدج صوتها أحياناً لبعض المواقف والتماعة عينيها الموحية، ورقتها في مواقف أخرى.

(5) أما علاقتنا فقد مضى عليها عام، وأنا من جهتي أشعر باستقرار وراحة نادرة، وأعتقد أن لديها نفس الشعور والتقييم. نحن منسجمان لحد كبير، قل أكثر من ذلك فإن تفاهماً عميقاً واحتراماً متبادلاً ومتميزاً نشأ ونما بيننا. أملنا كبير في أن يتوطد وتتعزز عراه.

من جهتي.. مارست مهناً مختلفة... وتحسن الحال قليلاً ما لبث أن تراجع بوتائر متسارعة.

ختاماً: أودعك مع أطيب الأمنيات بالصحة... تمنياتي لك شخصياً... للجميع.

إلى مثقفي سوريا عبر صديق

ـ على عتبة قرن ثالث 32 ـ 11 ـ 1996

أنتم تجعلون من الحبة قبة حين لا يهمّ الأمر إلاّكم، وتجعلون من الفجيعة مهزلة حين ينبغي عليكم الفعل!

حين سمعت كيف أبّن يزبك أندريه مالرو سرت قشعريرة في جسدي. وتساءلت بيني وبيني: ما الذي يمكن قوله عن حوالي عشرة أعشار مثقفينا وأدبائنا؟ هل نقرأ الفاتحة على تلك الذات النخبوية التي لم تكن كما ينبغي في أيّما وقت، أم نكتفي بحسرة على بلايا تشوي ضلوعنا دون أن نقوى حتى على إعلان آلامنا أو امتشاق شوكة؟

صديقي، أفترض أنك ستسمعني، فقد تكون بعد في حالة سمعية جيدة، رغم خوفي على حواسك! فلا تعتقد إذن أنهم يضربونا كي نموت، بل لكي نتمرَّغ في وحل الآلام والذلّ قبلئذ، وليتعلَّم الآخرون كيف يتحاشون رفع جنازاتنا فوق أكفّهم، كيف لا يصرخون كي لا يقلقوا الآذان أو يثيروا العدوى. فهل عرفت الآن أيّ فداحة تشي بها زغاريد الروح؟

بين ويلين يا صديقي، نفتش عن عزاء، عبر اسم ما، تجرأ على الامتناع

عن إرسال برقيات التهنئة المنهالة على رب النقمة واللقمة. حتى في هذه الحدود الضيقة بتنا نجد العزاء المؤقت. ولا ننسى أسماء كهذه، مثلما نحفظ تلك المُبرقة عن ظهر قلب.

وبعدُ، هل مِن «هاملت دونكيشوتي» مهما استيقظ متأخراً، لعله يفرِج عن بصيص حياة! هل من أمل نتوسَّمه في «حارس زيتون» أو «صهيل رياح» أو أي عنوان آخر؟

بين هروب ولجوء يتّسع فينا وجع آدمي مبّرح. بين أسرٍ وكسر نضيق بنا حتى شفا «على الدنيا السلام»، فهل نحن على طريق أهل الكهف بعد زمن ثقيل مصمت مكثّف صدِئ، فيما هناك يتجيَّل مجمتع برمّته على إدمانات جمعية جديدة؟

ترددت كثيراً قبل أن أرشقكم بمرثاة ـ علينا، رغم معرفتي المسبقة أن هذه الخربشات الحادة تغريك، وربما تتعبك في الآن ذاته. ولأنني أعرف ذلك، فقد ترددت وحسمت أيضاً، مع خشيتي أن تحرِّك فيك هذه المرثاة الجماعية بعض الرماد أو تخمد فيك شيئاً من التمرد. وحين حسمت، قلت: دعه نهباً للحالين، فبي طمأنينة ـ مبعثها ظروف العسف ـ في أن الحال قيد وأن حميَّة العشريني لن تتقمص الخمسيني، ولا العشريني تتلبَّسه حسابات الشيخوخة.

أمِن فداحة أكبر من أن تُحرق هويتنا، ثم نسجّى برمادها! لا عليك، بوسعك أن تتحدى أتقى المؤمنين وأدهى الكفرة إن كان بوسعهم أن يكشفوا النقاب عن جهنم أغشم! بوسعك أن تتعرّف ببساطة على بديهية عبادة البشر للشمس والقمر والنار والهواء والماء والتراب، وأقل القليل من الحاجات البشرية. وأن تصدّق قول الشاعر: «عوى الذئب فاستأنست».
أجل كانت أصوات الدواب تتناهى إلينا من خارج الأسوار، فتزيح الكثير من كوابيس الليل والنهار المفزعة. فكيف بقرع النواقيس، وأصوات

تلاميذ المدارس التي تتعالى في البعيد؟

أجل ها هنا اكتشفنا عناصر الحياة من جديد، ووسائل العمل البدائية، واختصرنا التجربة البشرية والزمن. كانت عناصر شحيحة وبسيطة وثمينة في آن، لأنها بلسمت أرواحنا القابعة وسط صقيع حارق!

نحن في غيابكم، نشفق عليكم بلا حدود، نتبادل التعازي والفرح، الدمع والسهر، فهل لازلتم تفعلون مثلنا؟

لدينا بعض الوقت للتأمل، والفوضى الطفولية، والعتب والعبث، والصراع والتكاتف، والنفور والحب؛ فهل لديكم وقت لبعض الشطط الجميل بأفكاركم؟

نملك أن نتألم، نسمع الآخر، نحزن، نُغرِق وسائدنا بالأحلام، وننام ملء الجفون، نستيقظ وننام متى نشاء، نتعبدالوقت ونهدره. فهل تتيح لكم حريتكم المجازية بعضاً من هذا؟ نحن نشتم «آذان» الجدران إن نفد الصبر، فهل تملكون تحية الصباح!

في موقعنا الجغرافي هذا استعصى علينا الأفق الشرقي، فخلقنا آخر داخليا فعوضناه بمواعيد طلوع نجم في الأفق الغربي وقمر. نلتقي بمن نحب دون رؤية، فهل لديكم من الوقت ما يكفي لمشوار تحت المطر؟! ونحتفظ بذاكرة تؤجج أسى الصوّان وتخلق قوس قزح؛ فهل ما تشهدونه أهل للذكرى؟!

قالوا: ستنسون الحليب الذي رضعتموه نسينا ما هو ألصق بنا: أسماء أمهاتنا، وجوه من نحب، أحزاننا. أزالوا عن أجسادنا كل ما خلّفته جولات التعذيب السابقة لتحل محلها كدمات وندوب وتشوهات صحراوية!!

وبعدُ حتى العقد الأخير من العقود المئتين للميلاد ما عادت «كل نفسٍ

ذائقة الموت» في متناول التائقين إليه، وما عادت حضارة القتل تسمح بموت عاجل وسلس، بل بإماتة متريثة، تقتل ولا تميت.

ما أكتبه لك الآن ليس مهرّباً إلى أحدٍ على وجه التحديد، وليس لأناس مجهولين أيضاً. قد يكون لأناس لا أعرفهم أصلاً، إلا أنهم معنيون بهذا الصراخ،وربما يرتبطون بقضيتنا على نحو ما. نحن لا ننتظر شيئاً على وجه التذكير، لا ثياباً، ولا طعاماً ولا أدوات جلّ ما نبتغيه أن ترفعوا الغبن عن ضحكاتكم وصمت اللسان.قد لا يكون التاريخ مهماً، ولا المكان ولا الشخوص، مادام هذا العهد، بكل قباحته، يطال الجميع على السواء. الوقت من صوان وعبثية.

أخيراً، وسط هذا النطع قد تتعرّفون علينا بلا رتوش، بلا حبكات روائية، وبلا خيالٍ وفذلكات. فوهج مفرداتنا من جمر الواقع، وحيثما شئتم، فتّشوا عن الزوائد، اشطبوا ما شئتم، وقصقصوا، وإن أتعبتكم هذه الأوراق أكثر مما ينبغي، مزّقوها على عجل، كي لا تعيدكم إلى واقع الحال.

إلى مثقفي سوريا

في مجلس الشام عرض معاوية بيعة يزيد ابنه ولياً
للعهد، فكثر الأخذ والرد، وانقسم الناس بين
مؤيدٍ ومعارض. فقام واحد وخطب قائلاً:
أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية.
فإن مات فهذا   وأشار إلى يزيد .
فمن أبى فهذا   وأشار إلى السيف.

فقال له معاوية: «اجلس فأنت سيِّد الخطباء». المستطرف الجديد. هـ. العلوي

إنني أسعى قصاراي ألاّ أنطلق من المسافة التي تفصل بين رجال السياسة ورجال الفكر والفن والأدب، وإنما من الموقع البغيض الذي وُضع فيه الجميع على حد سواء، فعملت فيهم السلطة احتواءً وهضماً، أو تشتيتاً وتذريراً بحيث أن محصلة جمع كل هؤلاء الأفراد لم تعد تشكّل كلاً جمعياً، بل مجرّد شتات مضيّع، مخدّر القوى والطاقات.

بيد أن ما حدث في حقل المعارضة السياسية بكل اتجاهاتها كان أعتى.

فإذا كان الاعتقال السياسي يعني، في عرف البشرية، الإخراج من ميدان الفعل اليومي، أي كف أيدي النشطاء عن العمل السياسي، فإنه في قاموس «حضارات القمع» يعني شيئاً آخر مختلفاً كلياً؛ إنه يعني الإخراج من سكة الحياة بالمعنى المليء للكلمة، والتعريض للإتلاف الجسدي والذهني والروحي. إذن لن يكون مستغرباً بالنسبة لكم، أن تنتشر في الأوساط الأسْرية أمراض شبيهة بتلك السائدة في الخارج؛ ولن يكون مستغرباً أيضاً صعوبة تأسيس أعراف وتقاليد تدعو إلى التضامن والتكافل وبث روح المواجهة، أو على الأقل الحفاظ على البشر هنا بوصفهم كائنات سياسية اجتماعية إنسانية. وهذا بحد ذاته لم يكن نتاجاً للعقلية العقابية التي ووجهوا بها فحسب، وإنما امتداداً أيضاً لحالة الضعف والترهُّل والموات التي يتعرض لها البشر خارج الأسر، وفي مقدمتهم النخبة الثقافية والسياسية. كنا نحسّ أننا بلا سند، بلا ظهير، مرميين في مهب النسيان والخذلان. الخصوم، بمن فيهم جهابذة التحالف السلطوي، يقذفوننا بحجارة التشفي والتخوين والشماتة والخروج عن وصاياهم، فيما الأصدقاء بلا حول، انكفأوا حتى عن أضعف الإيمان!

مع ذلك كله حاولنا صبراً على الحياة، صراخاً احتجاجياً أحياناً، توازناً بطرائق ابتداعية فعّالة، جرّبنا تفاعلات لها لونٌ ورائحةٌ آدميان. خلقنا طقوساً مشتركة لا بدَّ منها للاستمرار في الإحساس بوجودنا. تجاوزنا صراعات جدية وخلافات هامشية بغية الحفاظ على ما يؤلف بين قلوبنا في الأسر. ولكن الدفاعات الخارجية كانت تتهاوى تباعاً، فتتساقط ركاماتها فوق رؤوسنا. حتى حين قُدِّم الناس إلى المحاكمات، صرنا نشعر أن الأحكام التي تقلّ عن الخمس أو الست سنوات كانت بمثابة أحكام ترضية قياساً بتلك العقدية فما فوق التي كانت تصدر بالجملة. وكلما سمعنا صوتاً من خارج أسوارنا كنا نعتقد أن أشباهها محلياً سوف تسمع عما قريب، وفي كل مرة كانت أحلامنا التأملية تنهار.

يا أخي افترضوا أنكم تخالفون شرعنا السياسي، وطرائق عملنا، وآلية تفكيرنا، ومنهجنا الفكري والعملي من ألفه إلى يائه، هل هذا يحول دونكم والدفاع بالحد الأدنى عن حقنا في ممارسة ذاتنا ما دام ذلك كله يندرج فيما تبيحه جميع الشرائع الدولية؟ افترضوا أننا كنا مراهقين سياسيين، متطرفين يساريين، طفوليين، ضيقي الأفق، انفعاليين، أو ما شاء لكم تحليلكم من أوصاف، هل كان ينبغي أن يمنعكم ذلك من الدفاع عن حقنا في الوجود السياسي؟ تصوروا أن كل المذكرات والمطالبات والأسئلة التي كانت توجهها المنظمات المهتمة بحقوق الإنسان إلى القيمين على هذه الأمور هنا كانت تلقى أسوأ أنواع التطنيش والاستهتار، وفي حال تمَّ الرد عليها ذات طفرة، لم يكن يتم الاعتراف بنا إلا كمجرمين؛ فأي لطخة هذه؟ أية فظاعة منهجية وممنهجة واستصغار واستضعاف؟ كنا نتساءل، ترى لماذا يجري الاهتمام بحالة الجزائر أو مصر أو حتى السعودية أو رواندا أو تركيا... إلخ على هذه الدرجة من التركيز والكثافة؟ أليس لأن هنالك بشراً ـ داخل تلك البلدان ـ يثيرون قضايا تشغلهم وتهم مستقبل بلدانهم. بالطبع ثمة أسباب أخرى، لكنني أردت أن أشير إلى أن السبب الذي كنت بصدده: دور المثقفين والأدباء والفنانين وكل الذين يحملون عادةً عبء المخاطر الجسيمة كهذه.

اسمحوا لنا أيها الأصدقاء الافتراضيون أن نعلن، إذن، صرخة ملامة، احتجاجاً غيرياً في وجوهكم، صوتاً أبلغكم فيه بعض ما لحق بنا من غبنٍ على أيديكم أنتم عبر هذه السنوات؟! أليس من واجبنا أن نُسِرَّ لكم بما نحسه تجاهكم، وما نعتبره، من جهة أخرى، إنصافاً سماوياً جاءنا من ظهر الغيب، وشملنا، أنتم ونحن بعفوه، نسبياً على الأقل! فمن البديهي أننا وأنتم نتقلّى في جحيم العسف، وعلى مدى سنوات، مع الاحتفاظ بفارق المعاناة وموقعها.

إن ما يجمع بيننا ربما يفوق بكثير ما يفرّق، وخاصة في الآونة الأخيرة. وأرجو بكل حرص ألاّ يفهم أنني أسعى إلى براغماتية،مهما كانت واهية، وأظنكم تدركون مثلنا أن حجم الضريبة التي دفعناها كانت متناسبة عكساً مع الرؤية البراغماتية، نظرياً وعملياً.

سأتجرأ على اعتباركم أصدقاء مفترضين وأقول: «الصديق وقت الضيق». هكذا بكل بساطة هذا المثل الكوني الذي طرق مسامعكم آلاف المرات خلال حياتكم، ولا بدّ أنه طرقها مراتٍ أيضاً على لساننا، ولو عبر التخاطر. وأرجّح، دونما حاجة إلى مَلَكَة التنبؤ، أن وضع هذا (المثل) موضع التنفيذ، فيما سبق، كان يقتضي خوض غمار مغامرة لا ترضي عقباها، ولو أنها كانت محمودة، فآثرتم التطنيش على مضض، وربما على حياء مستَحَق.

ولو أننا بادرنا في حينه إلى استثارتكم واستنهاض هممكم لبدا الأمر أشبه بدعوةٍ لاقتحام النار في عزّ اصطلائها، مدركين في الوقت نفسه أنها لم تكن لتستحيل ـ بمعجزة ربانية ـ إلى برد وسلام عليكم!!

أعتقد شبه جازمٍ أن كل ما قلته ليس بخافٍ عليكم، فما تحسسه جميع الحريصين منذ عقود ـ مثقفون أو ساسة ـ لم يكن سوى أجنّة لهواجس تمخضت فولدت المرّ؛ بكل خطورته وسُمّيته وترويعه، وفظاعته. وما قمنا به خلال المرحلة الفائتة، مع من سبقونا أو لحقوا بنا، لم يكن ليُدعى تهوراً أو تطرفاً لولا حدّة الطغيان من جهة والتطرف في الاستسلام لما هو قائم من جهة أخرى لم يكن ليُدعى كذلك لولا تنحّي فرسان الكلمة عن إسراج ألسنتهم وقناديلهم في وقت كان الوطن في مسيس الحاجة إلى لغة ونورٍ يليقان به. وهكذا استحالت سماؤه إلى عتمة مهرجانية يصول فيها الخفافيش ويجولون.

إذن، لعلّها ذكرى!! لعلّه حوار بين طرفين، لائمٍ وملوم في البدء،

ومفتوح على المدى لاحقاً. لعلّ كل ما مضى ذكره لا يعدو كونه فاتحة لحملة سلمية وجريئة على أخطاء الماضي، بكل من وما فيه، أملتها الظروف التي استجدت خلال العام الأخير، والتي شهدت بعض انحسار في طبقات الظلمة المعمَّرة، دون الانعتاق من المظالم بعدُ.

هذا التحاشي المزمن للاتهامات لن يفيدكم في شيء. فلو أن صرختكم علت قبل ثمان وثلاثين عاماً أو ثلاثين أو عشرين أو عشرة، أو عامين أو بالأمس، لقوبلت بالسؤال المكرور ذاته: لماذا في هذا الوقت بالذات؟! على الرغم من أنكم لو استطعتم تحييد الزمن - تجنباً للسؤال - لفعلتم. بيد أن ذلك لن يكون في منأى عمّا لا يحصى من المطاعن المعلنة والمضمرة في صميم انتمائكم الذي باسمه ومن أجله صرختم، وباسمه ومن أجله يدّعون الطعن بكم. ويا لهول المفارقة؟!

لذلك كله كنا نتمنى لو بادرتم إلى ذلك، أو، على الأقل لو أعلنتم لاحقاً، لذويكم ومواطنيكم وأنفسكم عن مسايل الجراح الوجدانية التي تنتابكم من جرّاء تلك المرحلة الحدادية. أو لو اعتذرتم ضمناً عن اتهامنا - ذات ويل - بالتهور والاندفاع والسير على غير هدى وما شابه ذلك، لأننا كنا سنجد أنفسنا إزاء رديف آخر من الإنصاف الأرضي هذه المرة، وكنا سننحني، ولا بدَّ، احتراماً لأوجاعكم، مقابل ما انقشع عن أرواحنا الأسْرية من غبن.

في سرّنا والعلن، كنا كل ليلة نردّد: تصبحون على وطن. لنُباغَت في الصبيحة التالية أننا ما نزال في مدجنة شأنها تفريخ مشاريع أقزام، بالجملة، ومدّعين، لا حول لهم ذاتياً سوى ما يُحقنون به من فتات وخُطَب، لا أهواء لهم أو أحلام أو طموحات سوى ما يُرضي ربَّ النعمة!!

في سرّنا والعلن، كنا ننام على حلم يقظة، نرى فيه خروجكم من

أقفاص الترويع واللاعدالة التي زجتكم فيها قوى الظلام. نتحرّق شوقاً إلى اللحظة التي ستستعيدون فيها علاماتكم الفارقة المميزة لحقيقتكم الإبداعية والإنسانية؛ أدباً وفكراً وفناً وحساسية وعمقاً واجتراحاً لأسئلةٍ تتّقد دونها شفاهكم... ومشاريع أجوبة.

في سرّنا والعلن كنا نحزن من أجلكم، ونتساءل بلا انقطاع ما إذا كانت الغيرة تتأكلكم وأنتم تشهدون مساحات الحرية الإبداعية التي ينعم بها الآخرون من أبناء جلدتكم في الكثير من بقاع الأرض!! أو ما الذي كنتم تعانونه حقاً حين راح الوطن يستصرخكم أن تنتزعوه من وِجار الذئب، دون أن يحظى بـ «معتصماه»!

أحدثكم ونحن ما نزال في وسط الحمأة، وما من شك في أن ما نحن فيه الآن لا يقبل المقارنة مع ما خبرناه قبل ثماني سنين أو عشر. وليست هذه المقارنة الضمنية نافلة لأنها كانت دائماً تشكل بالنسبة لنا محاولة للتأقلم والتكيف الضروريين للأسير. لقد كسرت ظهورنا هذه النسبية المحترمة، ومع ذلك نجلّها أيّما إجلال، فلولاها لاختزلت أجسادنا وأرواحنا إلى عصف مأكول. وقد يكفي مثال واحد فقط كي يجعلكم تتصورون اللوحة أو تقاربونها بطريقة ما. كانت صيدنايا أشبه بجنة عدن قياساً إلى الخالة التدمرية الصحراوية ذات القلب الحجري الذي لا يرحم.

دون أن نكون مضطرين لأن نقسم بأغلظ الأيمان، صدّقوا أننا لا ندّعي لأنفسنا اجتراح المآثر أبداً؛ فما فعلناه بمعيّة آخرين لم يكن شيئاً خارقاً لمعهود الطاقات البشرية الكامنة، لم يكن فتحاً أو سابقة، وإنما هو في صلب الاستحقاقات الموجبة التي كنا نطمح إلى أن يتنطع لها كل من يستطيع. ما فعلناه لا يقتضي منّةً ولا تشوّفاً، ولسنا لنبتغي من ورائه جزاءً أو نياشين أو شهادات إعفاء من خدمة الغد، ما دمنا لم نتوافر بعدُ على نسبة عجزٍ عضال كافية لمنحنا تقاعداً نهائياً.

لن أذكّركم بكل ما كان بوسعكم فعله في الماضي، فما من شك في أن تجارب الآخرين في متناولكم أكثر منا بكثير، وكان يمكن الإفادة منها. لكن عليكم أن تصدّقوا أن أقلّ القليل الذي كنا ـ نحن ـ ننتظره منكم، كان متواضعاً شيئاً ما: صرخة، أو مقالة، أو قصيدة، أو وردة، أو تحية على سبيل إشعارنا بوجودنا أو ببقائكم قيد الحضور. سنوات طويلة لم تحظ فيها حواسنا بلحظة هدنة، وإنما كانت مستنفرة دوماً، نسمع الإذاعات ونقرأ الصحافة والكتب المتوفرة ونترصّد الأخبار، والإشاعات أحياناً، علّنا نصادف تواصلاً من نوعٍ ما، مرثاة، أو وشاية أو شتيمة (حسب زياد الرحباني) أو نميمة أو تميمة ينقلها لنا زائر؛ بيد أن عيوننا وآذاننا وجوارحنا كانت تصطدم ـ عذراً ـ بالخذلان... مع ذلك كنا نحاول إيجاد بعض عذرٍ لكم بين حين وآخر، معولين على أنكم لن تجعلوا حاجة الساحة لكم بظهر في نهاية المطاف. وكم طال هذا المطاف!!

ثم حدث ما حدث العام الماضي (2000). وما إن بدأتم خطواتكم الأولى، الشفهية والمكتوبة، حتى أحسسنا بانتعاش مأمولٍ طويلاً. وفجأة، وعلى نحو تلقائي، شخصت أبصارنا نحو الغد، منكفئة عن النظر إلى الماضي؛ ليس عملاً بـ «ما فات مات» وإنما نزولاً عند الحاجة إلى التعوّد على رؤية الأمداء الجديدة بأبعادها وقسماتها وانفتاح صيرورتها. ولا نخفيكم أبداً أن معنوياتنا ارتفعت، وزال عنا الكثير من الإحساس المزمن بالعجز، في حين، بالمقابل، تولّد لدينا شعور ثقيل بمجانيّة استمرار بقائنا هنا. وقد يكون هذا مفاجئاً لكم، ففي السابق كنا نتحسّب بل نتهيب «حرية» تفتقر لأي مسحة عزاء.

أقول، إنها إذن؛ انفتاح صيرورة، ربما لا تعدو مجرّد ثقب في جدار، سبّب انحساراً جزئياً في طغيان العتمة. ولا أدري إن كنتم توافقون على أن ذلك كان أولاً بفعل قوة لابشرية؛ وبما يحق للأَجَل أن يعتبر نفسه سيّد

الموقف. يضاف إلى ذلك، بالطبع، استفحال الأزمة العامة /سياسية أو اقتصادية واجتماعية وثقافية وأخلاقية/ وضغطها الشديد أيضاً، مع ما رافق ذلك من إيماءات للتغيير صدرت من علٍ، بصرف النظر عن حقيقة النوايا التي تقبع وراءها، أو مدى أصالة أو لا أصالة الشعارات المطروحة - مع ترجيحي التام للثانية. بيد أن ما يمكن التعويل عليه يقع في الطرف الآخر للمعادلة والذي أخذ يعبّر عن نفسه قبيل الحدث - الفصل، وبُعيده من خلال مراكمات حدثت هنا وهناك، كان من أبرزها البيانات التي صدرت أواخر العام الفائت مشفوعة بتفاعلات ميدانية تجلت في ندوات وحوارات ونداءات ومقابلات صحفية وإذاعية، تنبئ بتباشير حراك كانت بالنسبة لنا أشبه بـ «بشارة سمري»!

بشارة حقاً، بيد أنها فتحت معها معركة قد تكون من أهم المعارك السلمية في تاريخنا المجتمعي الحديث. وقد تكون مديدة ومتعرّجة، ليس فقط لأن الطرف الذي ما يزال الأقوى فيها سيعمد إلى حسمها بكل الوسائل التي يحتاجها، وهي متوفرة لديه، وإنما أيضاً لأننا - كقوى مجتمعية - نعاني من عطالة عمرها عقود، وأن قطيعةً حادة ضعضعت الجسر الواصل بين ذاكرتنا عن ديمقراطية عاشتها ساحتنا على تواضعها (ما بعد الاستقلال) وبين ما نحن عليه الآن، الأمر الذي أضعف الحوامل الديمقراطية وولّد شرخاً عميقاً فيما بينها، ربما يحتاج إلى وقت غير قصير كيما يلتئم؛ اللهم إلاّ إذا توفرت النية الحسنة والاستعداد والإرادة لبذل جهود جمعية من شأنها إعادة العربة إلى سكتها الحقيقية. وفي هذا السياق قد يكون جلّ ما نحن جميعاً بصدده هو توسيع الثقب الجداري في حائط الديكتاتورية، والمراهنة على الذات المجتمعية عموماً، والشريحة النخبوية المتحركة خصوصاً بوصفها العتلة الأكثر أهمية في هذه المرحلة. مع الحذر، كل الحذر، من الركون إلى الوعود والشعارات الأوفر حرفاً التي قد لا تتمخض إلاّ عن زَبَدٍ وتسويف يعبّران عن حقيقة ما في الإناء. هذا

الإناء الذي اختبرتموه كفاية بل أكثر مما ينبغي. فالقيّمون عليه قد يسارعون في أية لحظة إلى استدراك إيحاءاتهم بالتضليل والمراوغة، ويعودون إلى سابق عهدهم لدى استشعار الخوف الناجم عن جديّة الآخرين؛ ناهيكم أصلاً عن أن كل المحاولات الترقيعية والإجراءات السياسية والاقتصادية الباهتة لم تخرج عن كونها فوقية ـ إجرائية غير مدعّمة بتشريعات قانونية تضمن استمرارها وصونها ومصداقيتها.

أعتقد أن ثلاثين عاماً من التجربة كانت أكثر من كفيلة بتعويدنا على التحوُّط والتوجس، وبالتالي التريث الشديد في التعاطي مع ما تطرحه هذه البنية العقلية، وهو الشيء الذي يجنّبنا الرهان على غمامٍ أقحل من ظامئ الرمل. وإذا ما اتفقنا على أن الحرية تؤخذ، بل في مثل أحوالنا تُنتزع، فلا بدّ من التحسُّب لإمكانية الانقضاض لقطع الطريق على كل ما من شأنه خدمة هذه الصيرورة الجنينية الجديدة. فقد تحمرّ العيون الهرمية، وتنتفخ أوداج أصحابها، فيمارسون لغة التخوين والعمالة ضد كل الساعين إلى صب القمح في طاحونة الديمقراطية والمجتمع المدني. ولعلّها احمرّت أصلاً وبصورة أبكر مما هو متوقع بكثير، حين بادروا، بالأصالة عن أنفسهم، وبالنيابة عن كل المرعوبين من أي تغيير، إلى قذف التهم يميناً ويساراً، معتبرين البيان التأسيسي لجمعية أصدقاء المجتمع المدني «البيان رقم واحد»!! في حين تنبحنا صحفهم وخطبهم صباح مساء بعبارات التجديد والتحديث التي ليست سوى رضوخ مؤقت لعاصفة الأزمة المركّبة التي تجتاح كل شيء. إنها لا تعدو مراوغة وانسلاخ جلد لتغيير الإهاب الخارجي. وإلا فما الذي يجعلهم مستقتلين للدفاع عن سلطةٍ التهمت أخضر المجتمع ويابسه بما في ذلك دولتها، ويرفعون في الوقت نفسه يافطات الدفاع عن الدولة ومؤسساتها في مواجهة «شبح» مؤسسات المجتمع المدني المفترضة. إن هذه البنية المناوئة في العمق لفكرة دولة القانون، لن تتورّع عن إطفاء أي وميض يخرج على قناعاتها

الظلامية عملاً وإخلاصاً لنزوعها التقليدي إلى تفصيلنا ـ كرعايا ـ على قدِّ سريرها البروكوستي البغيض.

كي لا نُلدغ مراتٍ من الجحر ذاته، أعتقد أنه من المبكّر جداً أن نستعجل الصعداء، أو نسترخي على وسادة رهان خاسر.

والآن سأتوقف عند بيان الـ /99/ مثقفاً الذي تلاه بيانات أخرى ومذكرات ونداءات في الداخل والخارج. هذا البيان الذي لاقى اهتماماً وترحيباً من قبل الصحافة العربية، وقد صدرته إحدى الصحف قائلة: «للمرة الأولى منذ أكثر من ثلاثين عاماً يصدر عن تجمع كبير بلغ /99/ شخصاً من الأدباء والمفكرين والفنانين... بيان يطالب السلطة بإلغاء حالة الطوارئ والأحكام العرفية والعفو عن جميع... وإطلاق الحريات... الخس. فإذا كان لبعض هذه الصحف أو الإذاعات أو القوى الحية أن تحتفي على هذه الدرجة من السعادة الغامرة، فإن المشاعر التي عشناها هنا كانت عصيّة على الوصف، وطعم المعاناة المرّ الذي كان لا يزال يحرق ألسنتنا وبدأ يمتزج ببلسم منعشٍ ومؤلم في آن يشي بولادةٍ جديدة لحلم مشتهى طويلا».

في البدء سمعنا البيان، ثم قرأناه بعد حين. قرأناه مطلباً مطلباً واسماً اسماً وحرفاً حرفاً؛ وأكبَرْنا كل ما ورد فيه. ولأنني الآن لست بصدد كيل المزيد من المديح له، وهذا ما يستحقه بجد، فلسوف أُشرع أمامكم السؤال الذي طرح نفسه ما إن «راحت السكرة!»، أشرعه بكل ما ينطوي عليه من ملاحة وغيظ وتوجُّس: هل تقلّصت القشرة الحاملة للحراك الاجتماعي ـ والتي سمعنا مؤخراً عن نشاطاتها المتنوعة ـ إلى ما يمكن تسميته «نخبة النخبة المصطفاة!» متجسّدة برقم مقدّس لم يبلغ المائة؟!

لا أخفيكم أن هذا السؤال قد تفرّعت عنه تساؤلات عديدة أخرى

دون أن أعثر على جواب عن أي منها. فلو جاء البيان مسلوقاً أو قاصراً أو ضعيفاً في مطالبه، لربّما سَهُل إسناد التسرع في إعلانه إلى السبق الديمقراطي على حساب المضمون. أما وأنه واضح وقوي وهادئ من حيث الشكل والجوهر، فلابدّ إذن من وجود أسباب أخرى ـ نجهلها بالطبع ـ جعلته مقتصراً على هذا العدد. بالتأكيد ليست الفانتازيا الرقمية. وليس الإيحاء بأن واقع الحال بائس إلى هذا الحد. وليس لأنها مجرّد فرصة محدودة الأجل، فمن لحق بها ظفر ومن قصّر عنها حُرِم من إدراج اسمه.

لن يكون مستغرباً بالنسبة لنا أن يتم توقيع بيان كهذا من قبل عدد أقل لو أنه صدر قبل عدة سنين، وذلك استناداً إلى كامل الشروط المرافقة آنئذٍ؛ أما في توقيت كالذي نشهده الآن، فإن الأمر مغاير تماماً، ولا ندري بالضبط إن كانت قد مورست الانتقائية أو الاستبعادية والإقصاء أو الغربلة النخبوية، في وقت كانت فيه مطالب البيان أحوج إلى توسيع قاعدة حامليها، وحشد كل الإمكانيات المتاحة للتفاعل حولها والدفاع عنها.

وبما أن «الموقعين على البيان لا يحملون صفة التنظيم السياسي» حسبما صرّح أحد المشاركين فيه، «وأنهم مجموعة مثقفون مستقلون عن كل الأحزاب بينهم من لا ينتمي لحزب ولا يمثل بالضرورة سوى صفة المثقف»، إذن، بما أنهم كذلك، ألم يكن ممكناً ومطلوباً أن يُعرض البيان على الكثيرين ممن خاضوا تجربة طويلة في الأسر أو الملاحقة ولديهم استعداد للمشاركة في نشاط كهذا بصفتهم الفردية وبالصيغة التي حددتموها؟! أليست مفارقة تاريخية فعلاً أن يُحرموا من حق كهذا؟!

ترى أهو النسيان أم الإهمال أم تجنب الوقوع في الحرج كونهم يتحدرون من ماضٍ سياسي، أم لأنهم لم يُمنحوا الوقت الكافي لتوكيد حضورهم داخل النسيج الثقافي والاجتماعي وانغراسهم فيه. لنتذكر أيها الأصدقاء أن المذكرة التي ستُرفع إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة بمناسبة

الذكرى الخمسين لإنشاء منظمة العفو الدولية (أواخر كانون أول 2001) ضمَّت أكثر من (60) مليون توقيع. وهذا ليس نافلاً أبداً. لأن أي فعل يستمد زخمه من قوة واتساع القاعدة التي تشارك فيه، إضافة، بالطبع، إلى عوامل أخرى لست بصددها.

بالتأكيد هي أسئلة مشروعة ومؤلمة، وهي من صلب حق الآخرين عليكم، ماذا لو سئلوا عن رأيهم واستعدادهم، أو عمَّا إذا كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً من هذا الحاضر، وامتداداً لمستقبل وطن يودّون الإسهام في بعثه من جديد!! إنهم بين ظهرانيكم، ومنهم الكاتب والصحفي والمحامي والطبيب والقاص والشاعر وما إلى ذلك، اللهم إذا اتفقنا على أن ممارسة المهنة ليس أمراً مشروطاً لاعتبارات تخصّ تغييبهم الطويل عن الحياة.

أرجو ألاّ يُوحى من كلامي أنني أطالبكم بالتعامل مع هذا الرأسمال الرمزي - أقصد الأسر - كما لو أنه خالدٌ، لا يحول ولا يزول. أو كما لو أنه دَين عصيٌّ على السداد، أو أنشوطة تطوّق أعناقكم. فكل ما أردت الإشارة إليه هو أن تروه ضريبةً، عربوناً لشعلة مهما كانت ضعيفة، بصيصاً ابتعث من روح الواجب الذي افترضته الحياة، مرتبطاً بزمن ينزاح تدريجياً إلى ماضٍ. هذا الرأسمال الرمزي الخاص الذي تكوّن خلال أعتى سنوات البطش، وتراكم مع شيء من الجنون العاقل، لا الدونكيشوتية العبثية؛ أقول هذا الرأسمال قد يستحيل إلى عملة باطلة إن سمَّرناه إلى وتد الماضي، أو حسبناه ملكاً شخصياً لا جمعياً. إذاً من الطبيعي أن يوضع في رصيد مجتمع نحن بعضه، وأن يصبح جزءاً من تراثه، كيما نستعيد مواطنيتنا التي انتُزعت منا، وكي تكتمل أثافي هويتنا الثلاث، بماضيها وحاضرها وغدها بكل ما تنطوي عليه من كبوات وجموح وتعقيد وتعدد وضعف وقوة وانتماء وتمرد وحقوق وواجبات... لا أن تكون مجرّد بطاقة ورقية تمنح صاحبها حق التصويت والتأييد فحسب...

في النهاية، هي صرخة مفردة، شخصية محضة؛ أخالها باسم الكثيرين وباسمي. صرخة أردتها مطلقة إلى آخر الحبال، تخلّقت في العام الأخير من الأسر والتعذيب، وقد لا تصلكم إلا متأخرة جداً. فإن وصلت، أرجو لها وادياً ذا زرع، لعلها تجد متّسعاً لدى سمعكم وبين أصواتكم، وعذراً في ضمائركم، فربما قد علق بها بعض ظلال المكان وقسوته ومظالمه، وربما يكون لصداها نكهة مفارقة أو مقاربة لأصواتكم! أما إن وصلتكم متأخرة أكثر مما أبتغي، فاعلموا أن الأبواب فائضة عن حاجة سَدَنتها بمقدار الحاجة إلى تهريب هذه الرسالة، بمقدار حرية مسروقة من بين خمسين عيناً عسسية.

من أجل مشاركات أوسع وأفعل في أية خطوة تالية، آمل أن تلقى هذه الصرخة المهرّبة تفاعلاً ما لديكم، سواء بدت لكم مغرقة في سورياليتها أم في واقعيتها، لعلّ حقاً وراءه مُطالب تتبدّى تباشيره في الأفق.

أملاً في بردى مستعيدٍ ريّاه من شامهِ والياسمين، وفي عاصٍ عاصٍ؛ «تصبحون على وطن»، وطن «تتوزع فيه اللقمة والنقمة على جميع أبنائه»...

...إلى أن بتُّ على يقين أن الإنسان في أي منهم قد يكون أيضاً في مكانٍ آخر أو في الموقع ذاته. فلقد أتيح لي الإطلاع على أولئك الجنود المجهولين الذين عملوا على مدى عقود في خدمة أناس لا يعرفونهم قط، وجازفوا من أجلهم وتعرّضوا لمخاطر الاعتقال والتهديد بالموت وروعتهم أشباح الظلمة، أولئك الذين عملوا في السرّ ما كانوا يأملون في القيام به علانية: تقديم العون لضحايا التمييز العنصري في ج. أفريقيا، في العهد الأسبق Apartheid أمُ كل من قدّموا خدمة للإنسانية في مجالات أخرى: اكتشفت أن ثمة دوماً خيطاً متيناً، مهما كان رفيعاً، يربط بين هؤلاء أياً كانت مواقعهم فوق هذه الأرض. خيط ينجدل ويثخن يوماً بعد يوم.

إلى عبد القادر خياشي
(مونت كارلو)

في البدء عليّ أن أذكّرك بمقابلة هاتفية لا أخالك نسيتها، لأنها حدثت مؤخراً جداً، وقد أجريتَها مع أحد الخارجين إلى الدنيا بعد أن قضى ثمانية عشر عاماً هنا. يومئذ أحسست أن لصوتك نغمةً مميزة، ولأسئلتك مغازٍ تسمو على المألوف، وتتمتع بمعان أبعد ما تكون عن الانحياز الوظيفي، وقد سميناك مجازاً صديقاً.

في أرض قد تكون نسيتَ موقعها على خارطة بلادك، على الرغم من شهرتها التاريخية والأثرية؛ فيها بالضبط سمعت صوتك لأول مرة عبر المذياع، ولم يكن يعني لي شيئاً مغايراً لما تعنيه أصوات مقدمي البرامج الآخرين، حتى أنني لم أكن أعرف أنك من مواطنيّ المهاجرين قسراً أو طوعاً، فهذا بحد ذاته لم يكن يشكّل حدثاً خاصاً بالنسبة لنا، قياساً بالعدد الهائل من مواطنينا الذين آثروا الاغتراب على البقاء هنا، وكل لأسبابه المختلفة.

ربما أتيح لك أن تقرأ أسماءنا وأرقامنا مراتٍ كثيرة، ولا بد أنك تدرك المسافة بين اغترابين، ولنقل الفارق بين منفَيَيْن، أحدهما داخلي والآخر خارجي. منفانا مؤطّرٌ على قدّ السلاطين، ومنفاك يتّسع لكل من ابتغى وطناً احتياطياً، وهوية مؤجّلة. أما نحن فعرفناك مؤخراً جداً، وقد بدا لي

أنني أستطيع مخاطبتك بالنيابة عن كثيرين معي. وأسمِعك صوتاً خرج عن حباله الصوتية وقوانين الصمت.

سلاماً لك عبر هذا الخيط الإنساني الذي يربط فيما بيننا.

وسلاماً لصديق على سبيل الافتراض!!

كلانا يعترف بمواطنية الآخر منعاً لكل الالتباسات التي خلقها الطغيان، وتجسيداً لمشاعر المواطنية المغيبة، وأخيراً تكريساً لإنسانيتنا المجروحة.

ذات كيد، صرخ بنا صوت من أمكنة محيطة ومركزية في هذه الجغرافية أن: «احملوا صلبانكم واتبعوني!» ففعلنا. كنا ندرك حقيقةً أن المسافة بين الصوت وهمس الحلم مفروشة بالشوك والوعورة، وأن الجلجلة قد تكوم مآلاً تحدده رغبة طاغٍ أو رعونته. (أي قد تكون قاب قيد وأدنى...) بدأنا وعيوننا إلى فجرٍ، أو وردة، أو قوس قزح،

وأسماؤنا كانت ما تزال لنا، دون امتياز، لكننا نحبها لشدة ما ألفناها. وعندما بدأنا نعبِّر عن ذواتنا الساعية إلى استقلال، استحالت أسماؤنا إلى أخرى جديدة، تعودناها هي الأخرى، وخبَّأنا تلك القديمة في حدقات أمهاتنا... وبعد سنين من التوق واللهاث اختزلت هذه الأسماء، وتلك، إلى أرقام لم نألفها قط.

لا أدري أيهما أشدّ قسوة، الحنين إلى الوطن Nostalgia أم الحنين إلى الحرية Freedom sickness. بيد أنك

لن تصاب بالدهشة إن همست في أذنك أننا نعاني الحالين معاً. لأنه عندما يتحول الوطن إلى مملكة «عبودية» وتستحيل الهوية إلى نير يقرن أعناقنا، عندئذٍ يصبح الوجود عدماً والاسم إلى رقم، والحلم إلى مجرّد كابوس عاتٍ لا راد لوطأته.

في البدء ذكرتك بجزيرة مشلوحة على خريطة بلادك، مستباحة كما دم المصارعين العبيد داخل المجتلد. والآن سأسميها لك. إنها جزيرة «مورا». أما من يكتب لك الآن فهو امرؤ مغيّب في أحشائها منذ حوالي عقد من الزمن، وعلى وجه التحديد منذ تسع سنين وسبعة أشهر ومطلعي شمس. إنني ككثير من سواي نعيش في عالمها السفلي نتضوّر جوعاً وبرداً وصبراً، نَحُولُ بيننا والموت قهراً. لكننا منذ بضعة أشهر أصبحنا فوق الأرض، أي أن المسافة اتسعت بين أجسادنا والتلف. وبدأ ميزاننا النفسي يعتدل شيئاً فشيئاً نظراً لتوفر بعض الحاجات البسيطة التي كانت محجوبة عنا طيلة السنين الماضية، رغم أنها جزء أساسي من حقوقنا حسب كل الأعراف الدولية منها والمحلية. إذن يمكن القول أن قفزة فعلية في صحتنا النفسية قد تحققت بالقياس لما كان عليه الأمر سابقاً. وقد أعتبرُني من المحظوظين في جزيرة مورا مقارنة بما سبق لي أن شهدته رأياً وسمعاً، وعايشته. ولم أكن قط في حاجة لمنسوجات خيال، وإنما على العكس كنت أحوج إلى التقليص الافتراضي الذهني لنتاجات الواقع، خشية الجنون.

إنني أدرك أنك، لا أنت كفرد، ولا أنت كجماعة يمكن أن تحقق ما نصبو إليه، ومع ذلك قد تسهم في إضاءة بعض المعتّم والمخفي. واحتراماً للمقارنة الواردة أعلاه أعتبر أن هنالك من هم أحرى بأن يحكى عنهم، مؤجّلاً الحديث عن الأقل سوءاً ومرارة. فثمة من هم أشبه بحالٍ سوريالية، لكن عصية على الوصف، يناهزون، زمنياً، في وجودهم داخل هذه الجزيرة، مانديلا، ويبزّونه في طبيعة المعاناة التي قاسوها. أمضوا أكثر من نصف أعمارهم هنا، وفي جزر أخرى أكثر سوءاً. وكما ترى فإنني أبتغي معك خطاباً لا يتحيز إلى انتماء أو دين أو موقف أو أيديولوجيا، بل إلى ما هو إنساني صرف بعيداً عمّا يمكن أن يكون بيننا من خلافات أو اتفاقات في قضايا أخرى.

إن من أتحدث عنهم أجّلوا كل ما يمكن أن يحلم به المرء، أجّلوه حتى حين. إلا ما يمكن اعتباره في متناول اليد والروح ـ أحلام اللحظة الزمنية المرئية ـ ومع ذلك ما زالوا يستطيعون الغناء وتبادل المحبة واجتراح الأسرار الصغيرة التي تشكل محور تواصلهم. ومما يجدر ذكره أنهم لم يفقدوا بعدُ أهلهم جميعاً، لا يزال لهم بعض الأخوة والأخوات، يرفضون أن يموتوا كي يبقوا بالنسبة لهم خيطهم مع الحياة، وتبقّت لهم أم، أجل صارت أمهم جميعاً، بما يزيد عن المجاز بأكثر من حبل سرة. أما أصدقاؤهم فقد استهلكتهم مطالب الحياة وقوّضهم الخوف.

هؤلاء ثلثاهم مرضى، والثلث الأخير له طريقته الخاصة في ترجمة ذاته، أوجد صيغة ما، ناجعة، لتوازن جميل يقوم على قوة الإرادة والعناد والمكابرة والمبادرة. قليل الشكوى، وكثير المعاناة. مات أبوه وأخواه الأكبر والأصغر، ولو مضينا في سيرة الموت حتى النهاية لكان حرياً القول إن ابنة عمه ماتت انتظاراً على الصبر.

لقد قاموا من بين الأموات، لكن الموت لا ينِي يلاحقهم بعناد إعصار. وحين كانوا في العالم السفلي أتقنوا كل درجات التحمل والصمت تحت طائلة الضرب المبرح لحارس أبكم. لا يمكن اختصارهم إلى مجرّد صفحات في رواية أو قصيدة على سبيل التأثر العابر أو تزجية الوقت، فهم مفعمون بالحياة؛ وكلٌّ منهم رواية بحد ذاتها. أجل فهم يتشاورون في ما تفرزه نفوسهم ولاوعيهم من مهازل سوداء وحكايات ومن شر البلية. قال لي كبيرهم ذات يوم: اليوم أكملت عشرين عاماً لم أر فيها حلماً خارج هذه الجزيرة. ضحك آخرون قائلين في وقت واحد: المتشائم والطمّاع هو من لا تكفيه أحلام اليقظة؟

إذن قولوا شيئاً فوق تلك الأصوات، قل شيئاً في وجه من يرفعون أصواتهم فوق صوت «أنبيائهم» الأرضيين المدججين بالخوف على

مصائرهم. قل ما لا نستطيع. أبلغ أولئك الذين لا خوف على حريتهم أن الحرية بالنسبة لنا أصبحت أضغاث أحلام. قل لهم إننا جميعاً نحمل هواجسنا، ونمتح من ضعفنا قوة كي لا نسقط صرعى خيبات متتالية. احكِ عن بشرٍ من لحم ودمٍ، وبؤس، مشبعين حتى العظم بالكولسترول والهزائم والنسيان وروح الإصرار على البقاء.

ارفع صوتك قائلاً: عاجزة كل الأديان والمذاهب والأيديولوجيات والاتجاهات الفكرية والسياسية والفلسفية والاجتماعية عن إيجاد سبب لبقائهم قيد حلم بسيط.

ارفعه قائلاً: من يصدق أن الأم ذات الثمانين حولاً ما تزال تأتي لزيارتهم، بوصفهم أبناءها، حاملة على ظهرها المحني كلَّ ما يجعل لحياتها معنى، وكلَّ ما يجعلهم جماعة واحدة، وقلباً واحداً. تأتيهم بوتيرة منتظمة كي تفك قيود أيديهم وأرجلهم، وتسخر من جلاديهم حتى الدمع. تنزع الأكمّة عن أفواههم وأرواحهم وتتلو عليهم ما تيسّر لها من سورة الجدات؛ فقط كي تعود في آخر النهار إلى البيت وتدفع ضريبتها الخاصة، فاتورة الحزن اللايائس... وتبكي ما قدّر الله لها. فقط كي تتجنب آخر الليل، وقبيل النوم بقليل، عبارة: لن يصيبكم إلاّ ما كتب الله لكم. مدركة أن ذلك ليس من صنع الله. وما إن تتحسَّب إلى احتمال أن يكون الله ـ تعالى ـ قد فهمها على غير حقيقتها، حتى تذكّره: ربي، إنك تعلم السرَّ وما يخفى... فاقرأ نواياي... ولا تأخذني في اللغو. تصلي ركعتين خوفاً من أن تصبح على كفر. وحين يطلع الفجر، تبدأ بتوضيب حكاياتها الجديدة إلى أحفادها، متشاغلة عمّا يحيكه لها الموت من وقائع.

ارفع صوتك، أيها الصديق، قائلاً: طوبى لثمانينية تتلهى بالزمن كما لو أنه سُبّحة بيديها، كي لا ينتابها ملك البغتة على حين صلاة.

نص الشهادة

تقول الحكاية:

«إن أحد الخانات وقع في غابر الأزمان أسيراً بيد خانٍ آخر. فقال هذا الأخير للخان الأسير:

إذا أردت، فستحيا لديّ عبداً رقيقاً، وإلاّ فسأجيبك إلى أحبّ الأماني إلى قلبك، ثم أقتلك بعدها. فكّر الأسير الخان مليّاً ثم قال:

ـ لا أريد أن أحيا عبداً، والأفضل أن تقتلني، على أن تدعو لي قبل مقتلي أوّل راعٍ تلقاه من وطني.

ـ ما حاجتك إليه؟ سأل الخان.

فأجاب الأسير: أريد أن أستمع منه قبل موتي كيف يغنّي!!».

* * *

قبل أن تمضي بي الطريق وشت لي دون مواربة:

«إنني شائكة ووعرة ومتعرّجة ما أمكن، وأنا موقوته البغتات ككلّ الدروب المناوئة للعسف!!».

كذا شرع العمل السياسي المعارض، أشبه بالسير في حقل ألغام حين تكون بعض حقوقك الدستورية معلّقة إلى أجل يحدّده أولياء حياتك.

إن «حرية التعبير» و«الإسهام في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية» وسواهما، كلها حقوق نصّ عليها الدستور السوري الدائم لعام 1973، وقد عُهد للمشّرع بسنّ القوانين والتشريعات التي تكفل ممارسة هذه الحقوق. أما واقع الحال فإن مفهوم «الحرية حق مقدّس» كما صيغَ في متن الدستور فقد ظلّ خارج القاموس السياسي السائد ولم يرَ الحياة، والحضور المطلق لقوانين الطوارئ والأحكام العرفية منذ عام 1963، كان يسيراً جداً أن يعتبر النظامُ قوى المعارضة بأسرها خارج القانون، أو خارجة على قوانين الاستثناء سارية المفعول. وبالتالي فقد تمَّ إطلاق العنان لقانون القوة، خصماً وحكماً في آن، واعتبرت كل هذه الأحزاب محظورة.

في ظل ظروف كهذه ولدت رابطة العمل الشيوعي (حزب العمل الشيوعي لاحقاً)، بصفتها تنظيماً سياسياً معارضاً، واختارت العمل السري مكرهة، شأنها شأن جميع التنظيمات السياسية المعارضة، وكانت الجريدة السياسية وسيلتها الوحيدة في التعبير عن مصالح الطبقات الشعبية وتطلعاتها نحو مجتمع يسود فيه القانون والعدالة. وقد رافقتها حملات القمع والملاحقة والاعتقال على نحو مستمر منذ نشوئها كرابطة ومن ثم حزباً، إلى أن شهدت أعوام التسعينات من القرن الماضي انتصار النظام بشكل ساحق على كل الأصوات الوطنية التي لم تندرج تحت مظلته.

في أوائل عام 1978 انتميت إلى رابطة العمل الشيوعي وكنت آنئذ موظفاً وطالباً جامعياً . وقد عملت في عدد من الهيئات الحزبية، وحين اعتقلت كنت عضواً في اللجنة المركزية لحزب العمل الشيوعي.

في عام 1984 لوحقتُ من قبل الجهات الأمنية ولم تكن ابنتي قد

بلغت الأشهر الخمسة من عمرها. وبقيت متوارياً لثلاث سنوات تقريباً كنت متفرّغاً خلالها للعمل السياسي إلى أن جرى اعتقالي في مدينة حمص بتاريخ 1987/4/14: من قبل فرع فلسطين.

وهناك تعرّضت لشتى صنوف التعذيب النفسي والجسدي، واستمرّت هذه الحال نحو أحد عشر شهراً في ظروف تحقيق بالغة السوء.

في 1988/3/2 رُحلّت إلى سجن تدمر مع خمسة عشر رفيقاً لا نحمل سوى أقلّ القليل مما يخس وزنه وثمنه، بما في ذلك أجسادنا التي استُبيحت هناك أيّما استباحة، ضرباً وتنكيلاً، بينما كانت في أمسّ الحاجة إلى الترميم واستعادة بعض قواها.

كنا نعتقد أن اعتقالنا، رغم لا مشروعيته، هو إقصاء عن العمل السياسي أي إخراج من ساحة النشاط اليومي، لنكتشف أن معتقل تدمر يعني الإقصاء عن كل ما يصلك بالحياة وتقطيع أواصرك معها. يعني تفكيك الذات الإنسانية عبر العزلة المطلقة والعطالة وتعطيل الحواس. يعني الترقّب المريع، والهلع من المجهول، والعيش في حمأة التوتر اليومي. يعني الشحّ في كل شيء ماعدا التعذيب متعدد الضروب. يعني، باختصار شديد، جهنم من صنع البشر!!!

ما من شك في أن الشروط التي تتوافر عليها السجون العسكرية الثلاثة: تدمر، المزة ، صيدنايا، متفاوتة بين سجن وآخر، بيد أنها جميعاً لا تتناسب والمعايير الدولية، ولكن فيما يتعلق بسجن تدمر فإنه يمتاز بافتقاره لأدنى الشروط الإنسانية، حيث أن الطقوس الفظيعة التي تمارس فيه كفيلة بإماتة القطط.

ففي المرحلة الأولى من وجودنا فيه، كنا كمن يقف في حلق هاوية، بلا قرار، عرضة للضرب والتعذيب والإهانات، يكفي أن يُفتح باب المهجع حتى تنهال العصي واللكمات والركلات والقضبان من كل حدب

وصوب. ومن يشهد إدخال الطعام أو لحظة الخروج إلى «التنفس» في الباحة يعتقد أنه في ساحة وغى. وما من شك في أن ظروف المعتقلين الآخرين ممن ينتمون إلى حركة الإخوان المسلمين وحزب البعث الموالي للعراق كانت أكثر سوءاً بما لا يقاس.

فالاختلاف في التعامل يبرز ليس فقط بين سجن وآخر، وإنما أيضاً بين جماعة وأخرى داخل السجن الواحد، وفقاً للتقديرات السياسية والأمنية والتوصيات العقابية الخاصة بكل مجموعة على حدة. كما أن هنالك هامشاً كبيراً لمدير هذا السجن أو ذاك للتحرّك داخله بحرية، ناهيكم عن أن السجّان بحدّ ذاته ـ وهو أداة التنفيذ المباشرة ـ قادر على التحكّم بهذا الهامش دون حسيب أو رقيب، فهو المعني أصلاً بابتداع وسائله الخاصة في التعذيب وتطبيقها على المعتقلين جسدياً ونفسياً. وليس مهماً بالنسبة له أن يرتكب السجين خطأ ما، لأن النتيجة تكاد تكون واحدة في ظل غياب حقوق السجين وجهله لواجباته التي ينبغي أن يكتشفها بنفسه، ولكن ليس قبل أن يدفع ثمنها غالياً من دمه وروحه.

إن عددنا القليل جنّبنا الآثار المرعبة للازدحام الذي كان يعانيه باقي المعتقلين: التوتّر والضغط النفسي وعدوى الأمراض وكميات الطعام التي توزّع على المهاجع دون الأخذ في الاعتبار عدد نزلائه.

بعد معاناة قاسية دامت أشهراً لم يكن من الصعب خلالها التوصل إلى حقيقة مفادها أن ليس ثمة قرار سياسي بتصفيتنا جسدياً، ولكن كل ماعدا ذلك كان متاحاً ضدنا إلى ما لا نهاية. وكانت وسائلنا الدفاعية شبه الوحيدة التململ الجزئي والصبر ونزع الذرائع. ومع استمرار دورة الآلام اليومية لم يبق أمامنا سوى خيار واحد وحيد: الرفض الواضح لهذه السياسة العقابية والاحتجاج على كل تلك الممارسات المجنونة. وفعلاً خرجنا تدريجياً من وطأة القهر والخوف، وارتفعت أصواتنا، وبدأت

مطالبنا تتزايد، وكذلك حاجاتنا، مدركين في الوقت نفسه أن ما نطالب به لا يعدو كونه أدنى متطلبات السجين السياسي وحقوقه، من قبيل: وضع حد للضرب العشوائي، رفع الرأس وفتح العينين لدى خروجنا إلى باحة التنفس، تحسين الطعام، إيقاف الشتائم والإهانات ، تلقّي المعالجة الطبية، الحصول على كمية من المنظفات كافية (الصابون العسكري طبعاً)، توفير الصحافة والكتب من مكتبة السجن ـ وهذا المطلب الأخير لم يتحقق إلا بعد خوضنا الإضراب الأول (ليوم واحد) في 89/6/6، ولم ينتظم وصول الصحف المحليّة والكتب إلاّ بعيد إضرابنا الثاني عن الطعام (12 يوماً) وذلك في 89/10/12، حيث تمّ نقلنا إلى مكان آخر كجزء من مطالبنا الجديدة. مع ذلك كله كانت مطالبنا، على الرغم من تحققها النسبي، تواجه بالتطنيش والتسويف والتقطّع. ولعلّ الهدنة الوحيدة التي عشناها هي تلك الفترة التي سبقت إضرابنا الثالث (17 يوماً) في 1991/2/17، الذي كنا نسعى من ورائه إلى تكريس ما حققناه خلال المرحلة الفائتة وانتزاع حقوق ومطالب جديدة. وفي هذا الإضراب كنا قد ازددنا ثلاثة، وصار عددنا تسعة عشر رفيقاً، وعلى الرغم من أن أوضاعنا باتت أقل سوءاً إلاّ أننا بقينا معزولين كلياً عن العالم الخارجي، محرومين من الزيارات لمدة خمس سنوات ومن الأوراق والأقلام والراديو والثياب وعدة النوم الكافية.

في تدمر كان ثمة سؤال مصيري انبرى أمامنا من تلقائه: كيف سنحافظ على قوانا الذهنية والنفسية والجسدية بأقل الخسائر؟

حاولنا منذ البداية الاحتيال على الشرطين، الخارجي والداخلي، من خلال ابتداع وسائل مناوئة للوقت والأسر: كنا نتحاور، نتبادل الخبرات، نخلق وسائل تسلية من شأنها إزاحة كابوس المشاهد اليومية المريعة عن نفوسنا، كنا جميعاً نتعلّم من ونعلّم بعضنا بعضاً: قمنا بدورات تعليمية

شفهية في الاقتصاد واللغات والعروض وما إلى ذلك، نحفظ الشعر كجزء من تمرين الذاكرة، ونتبارى شعرياً، ونحكي القصص والروايات والسيَّر الشخصية. اغتنت تعارفاتنا، وصرنا أكثر إحاطة وتفهّماً، واتضحت سماتنا بكل ما فيها من سجايا حسنة أو غير مستحبة، ومن تناقضات وأصبح الكل مرئياً في مرايا الكل. باختصار كوّنا بدائل مؤقتة ولو متواضعة، وكنا نسعى إلى إدخال الفرح من أي كوةٍ متاحة. نحتفل بأعياد ميلاد أولادنا ومناسبات زواجنا، ولدى رؤية حمامة تحطٌ مصادفة فوق غصن شجرة السرو البعيدة، أو حين عصافير الدوري تقيم أعراسها الموسمية. في المعتقل تعابثك الذكريات فقط لكي تؤكد لك أن وجدانك ما يزال على قيد الحياة، وأن قدرتك على تحديد جهات أربع وسط هذه الدائرة الصوانيّة ما تزال حاضرة.

في بؤر العسف يتلو القاضي حكمه عليك وهو أشبه بمومياء ضاحكة، ويجلدك السّجان وهو يقهقه، فارضاً عليك أن تعدّ العصي، حتى إذا سها عقلك تحت وطأة الألم، يعيدك إلى البداية، مستأسداً إلى أقصى الجبروت والانفلات من عناصره البشرية. في لحظات كهذه كنت أتذكّر نُعرَةَ الخيل، تلك الذبابة الزرقاء الكبيرة التي تعذّب ضحيتها. تناور، تئز، تخاتل إلى أن تنسلّ إلى أنف الحصان. يتململ، يراوح، يدور في مكانه، يضرب برأسه صعوداً وهبوطاً، ينخر. تخرج. تعاوده، تداور، تنقض، تلدغ، تفرّ، تلتصق تحت الذيل. يركل الأرض بقوائمه، يتحرك بعشوائية المهتاج يفتل عنقه، يضرب بذيله، يحمحم ألماً وغيظاً، يحتكّ بجذع شجرة، يسقط يتقلّب، تفرّ، تدوّم، تئز تنتصر. وما إن يشرع بالوقوف ثانية على قدميه، حتى تعاوده من جديد: البغاث البشري زرقته سوداء قاتمة!!!

هذا العالمُ الأَسْري اللامتوازن، اللاعقلاني يريدك ألاّ تكفَّ عن عدِّ

الخسائر، وألاَّ يخرجَ عقلك أو ذاكرتك من هذه المظلمة، الأمر الذي يفرض عليك تحدّياً ثنائياً، أوّلهما إزاء الظرف المحيط بك وثانيهما إزاء كينونتك الداخلية. تنشأ لديك معايير خاصة لحبّ الحياة، تفترض بك خلق توازن يليق بذاتك الإنسانية، ونسج صراط لحمتهُ الفعل وسداته الإرادة الواعية.

إنها لحاجة ماسة أن يصير أحدُنا العقل البلسمي للآخر وصمّام أمانه على الرغم من جسامة الضريبة المترتّبة على دور كهذا.

أحياناً تكفي تمريرة يد على كتفك كي تُنسيك الدم النازف من هامتك، تكفي ابتسامة خافقة، أو دمعة وارفة الرحمة كي تحيل اليأس بأساً. وربما تكفي طُرفة على سبيل التأسّي كي تخلق مهزلة من هذه الدراما الجهنمية كلها!! تلك هي الضمادات الإنسانية التي التأمت بها جراحاتنا. وما دامت تندرج في إطار السلوك الجمعي فإن ضمانتها فيها، وكذلك عناصر استمرارها، ذلك إن القوى الذاتية لكل فرد غالباً ما تكون، والحالة هذه، محصلة لطاقات المجموعة البشرية التي تحتويك بين ظهرانيها.

بدءاً من محطة تدمر وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام خصمٍ وصديق في آن: الوقت (مكررة). كنت مدركاً أنه، في مكان كهذا، يمكن للوقت أن ينطوي على نقيضي الخصومة والصداقة، ولذلك فقد خضت الرهان معه، وربما جميعنا خاض الرهان نفسه، كل بطريقته الخاصة: من سيمتطي صهوة الآخر؟ كنت على يقين من أنه مزوّد بما تقتضيه عدّة الفارس أما أنا فكنت موثقاً بكل دواعي المطيّة. هذا الرهان يتطلّب من السجين أن يشغل نفسه ما أمكن، أن يتخلّى عن بعض العادات المقابل أسْرية ويجترح لنفسه أخرى بديلة. أن يسأل نفسه كل ليلة: ما الذي فعلتهُ سحابةَ هذا النهار؟ أن يتأكد من أن عوامل تكيّفه مع الأسر فعّالة.

فالتكيّف سيف ذو حدين، أحدهما ضدّك والآخر لك. أولهما يودي بك إلى مهاوي كهفك الجوّاني فتتآكل ذاتياً وببطء، فيما الآخر يشدّ أزرك، ويعلو بك فوق الأسر، كي يمنحك القدرة على إيفاء ذاتك حقّها، وإنصاف الآخر، الذي يشاركك المصير نفسه، ويجعلك أكثر اتساعاً للعطاء والتواصل، أي يقرّبك من كينونتك أكثر.

قد يسأل سائل: هل أضافت لك شيئاً هذه التجربة، هل أغنتك، هل أفقدتك شيئاً، وهل تركت آثارها عليك؟؟

بين معتقل تدمر وسجن صيدنايا بضع مئات من الكيلومترات، وحلمٌ أو بعض حرية مبتغاة. البون بينهما خرافي في المحتوى. وصفرٌ عن متناول الحرية الحقيقية، وكلاهما استمرار للتجربة.

حين قالوا لنا: ضبّوا أغراضكم، تقمّصتنا ملامح الأطفال صبيحة «العيدية»! وعاودتنا قسمات الأمل بصورة مغايرة، كذا الأحلام ومشاريع الفرح. لم ننم طوال تلك الليلة التي سبقت ترحيلنا. كان بودِّ السماء أن تمطر لولا أن شرع الطبيعة في أيار صحراوي لا يقضي بذلك. إذن كان الخامس من أيار 1992 معلماً لا يُضاهى. خلع المكان عنه حياديته، فتوادعنا مذ أصبح في ذمة الماضي. وهناك في صيدنايا، السجن، بدأنا نشهد آثار الزمن والشوق على وجوه رفاقنا، ثم أهلينا لاحقاً، ونشهد طلوع الشمس وغروبها، ومحاكماتنا في محكمة أمن الدولة العليا التي أُحِلنا إليها في 1992/5/7، أي بعد وصولنا إلى سجن صيدنايا بيومين، واستمرت جلسات المحكمة حتى 1995/6/27 يوم صدور الحكم بحق مجموعتنا.

في سجن صيدنايا تعرّفنا على الدفء والشجر، على الأوراق والأقلام والأصوات والوجوه والزيارات والراديو والثياب، وكل هذه الأشياء كانت مستحيلة في تدمر وتعدُّ «ترفاً» محضاً!!

أبدأ من السؤال الفرعي الأخير لأقول: ما من شك في أن التجربة قد خلّفت آثاراً متنوعة قد يحتاج بعضها إلى وقت طويل كي نتجاوزها. ولكن ما مقدار هذه الآثار وكيف ستتمظهر فهذا سؤال في عهدة الآخرين ممن يحيطون بنا، وكذلك في قدرتنا على غربلة الذات بصورة واعية وقصدية، بل تنخيلها حين ينبغي.

لا أدري بالضبط إلى أي حدٍ أصبحت متفارقاً مع أناي السابقة، لكنني أقدّر أنني تجاوزتُني في مواضع ومواقف وآراء عديدة. وأفترض أن هويتي ذات الأثافي الثلاث ـ الماضي والحاضر والغد ـ قد اتسعت إنسانياً، واحتدمت ربما، بصراعات ذاتية المنشأ أكثر بكثير من السابق. ولعلّ الآخر، بوصفه المرآة الأنجع ، يمكنه أن يعكس ما تغيّر لدي، تعديلاً أو إلغاءً أو تطويراً بصورة أقلّ خداعاً، وذلك أن مرآة الذات قد تشتمل على غبشٍ مردّه نزعة التصالح مع الذات أو التستّر الضمني، وأحياناً على النقيض من ذلك: جلد الذات المبالغ فيه!! أستطيع الزعم بأنني بتُّ أرى الألوان بكل اتساعها الطيفي محترماً تدرجّها القاضي بالتباين لا الإلغاء. وربما استطعت أن أنزع عني الميل إلى التفتيش عن إيمان تحصيني واهم، وترسخّت قناعتي في أن تخليد المعتقدات أو محاولة إكسابها طابعاً مناعياً أمر مردّه التهيّب النفسي والخوف الفطري من كل ما هو جديد على المرء، ولذلك فغالباً ما نمارس تصفيات حقيقية لما يخالف قناعاتنا.

إن ضريبة من «كعب الدست» قوامها خمسة عشر عاماً من السجن وثلاثة أعوام ملاحقة لا يمكن إلاّ أن تكتنف، شأنها شأن أي تجربة بشرية، لحظات ضعف وقوة، خسائر عامة وفردية، بقعاً مضيئة وأخرى معتمة. والأمر الأكيد من بين هذه القضايا كلها، أنني أصبحت أكثر تشبثاً بأهداب الحرية التي تستحق أن يُبذل الكثير من أجلها. فلو أخذنا بعين الاعتبار الفروقات في الخصائص الفردية بين الناس من حيث التجربة

والوعي وتفرعاتهما، لحريٌّ بنا أن نضيف أيضاً عوامل الإضعاف المباشرة وغير المباشرة، وأن نرى إلى عناصر القوة أيضاً.

أولاً: ماذا يعني أن يُحكم على صديق سياسي لحزب معارض بـ 15 سنة أو بعشر سنين أو حتى بسنة واحدة؟ إنها الروح العقابية الردعية التي أرادت أن تجعل منه عبرة لشعبٍ بأكمله، وفزّاعة تقطع دابر القول ناهيكم عن الفعل السياسي. وقد نجحت هذه الروحية في ترويع الناس عموماً وتفريغ النخبة الثقافية والفكرية السياسية من أضعف الإيمان.

وإلاّ ما معنى أن تُزجَّ قوى المعارضة الوطنية في السجون وتجرجَر إلى المحاكم بالجملة دون أن نسمع صوتاً جماعياً على سبيل المؤازرة أو الإنصاف من قبل مواطنينا من الساسة والمثقفين؟! أو ليست فداحة أن يُختزلَ العدد الهائل للمحامين السوريين إلى مجرّد كوكبة صغيرة من أكباش الفداء الذين تطوعوا للدفاع عن المئات من المعتقلين السياسيين رغم إدراكهم أن هذه المحاكمات سياسية وأمنية أصلاً؟ ما معنى أن يكون هؤلاء الذين قضوا ربع أعمارهم أو خمسها أو سدسها في السجن مجردّين الآن من حقوقهم المدنية من دون أن تهتز شعرة لنقابة المحامين، أو تنبري جماعة من الأطباء لمعالجتهم صحياً أو يتدافع الغيورون لتأمين العمل لهم.. الخ؟! إنها أسئلة برسم الجميع. ليست تحسّراً على ما فات، وليست استجداء لصدقة. فهذه التجربة بكل مالها وما عليها ما عادت ملكاً حصرياً لمن خاضها. وما ذكرته ليست سوى عيّنة لا نهائية من الأسئلة المرّة التي انتابتنا داخل السجن وخارجه على السواء، هي أمثلة شبه نموذجية عن بعض عوامل الخذلان والإضعاف، وبالتالي فإن الشفاء من تداعيات الأسر الطويل يرتهن بعناصر عدة منها الطبيعة الذهنية والنفسية للفرد، وطبيعة التجربة، وكذلك مجمل الشروط التي تلي محطة الانعتاق، أقصد ألاّ يكون ما ينتظرك هو مجرد حريّة مجازيّة أو انتقال جغرافي. أنا

أؤمن بالنسيان الرحيم، لكنني لا أعتبر الماضي ماضياً إلاّ بمقدار التنكّر له، أو حذفه من تقويم الكائن البشري، أما تجاوزه على نحو إيجابي وفعال فهذا هو التحدي المطلوب.

من لحظات الضعف الأخرى، والتي تشكل في حدّ ذاتها شحنة إنسانية عارمة، أن يعتريك وجه أمّك أو زوجك أو ابنك!! أو أن تبادرك طفلتك على نحو مفاجئ وربما متوقع، قائلة: «أبي! لم أستطع أن أتذكّر منك شيئاً، على الرغم من صورك الموزعة حول سريري!».

حين خرجت من المعتقل استقبلني والدي متوكئاً على عكازه الذي ورثه عن أبيه وقال وهو يغمرني بشيخوخته ذات العقد التاسع: هل تذكر يا بني تلك الخلاصة التي دونها النبي يوسف عليه السلام على جدار سجنه لحظة إطلاقه «هنا مقبرة الأحياء هنا تجربة الأصدقاء؟؟».

قاصر كل قول عن الإحاطة بفيض المشاعر التي انتابتني لحظة عناقي «الحرية». ما من شك في أن رئتيَّ اتسعتا عن حاجتي بمقدار صراخ، على الرغم من إصابتي الرّبوية. أوجعني النور من جرّاء مديد الظلمة التي أودعناها، وكان الاختبار الأوّل، قل الانتشال الأول، صوت ابنتي على الطرف الآخر من الخط الهاتفي. صوتٌ لم أتبيَّن من حشرجاته وفوضاه سوى موعدٍ على مفترق الجادة المؤدّية إلى بيت لا أعرف موقعه إلاّ في خارطة البال. دوّامة من الأحاسيس المتناقضة والأسئلة المشرعة كانت تتناهب الروح والعقل آنئذ. بعد قليل ستلتقي بكل منتظريك على قارعة الغياب، يرفعونك إلى السماء السابعة من انعدام الوزن، ويجرّدونك من الزمان والمكان في طرفة عين. لكنْ، ما إن تقع عيناك على أمٍ ترى فيك ابنها الأسير بعدُ، حتى يستبدّ بك البكم فتطرق رأسك كما لو أنك مسؤول عن بقائه رهن الأسر. تطالعك وجوه من ودعوك عند الباب الأوّل وشيّعوك حتى الباب الأخير المؤدي إلى حريتك، وأنت أعجز عن

التفاته إلى الوراء. تزدرد شهقةً أملوها لك صعداَء، فتنكمش خلايا الفرحة منذ تلك اللحظة. إذ ذاك تتأكد للمرة الألف من أن لا شيء بلغ منتهاه بعد: لا الفرح ولا الحزن، لا المكتسبات الصغيرة ولا الخسائر، حتى أن أسمك الذي كان لك ذات ولادة، يعود إليك متوجّساً، قبل أن يستجمع شجاعته وينزع عنك الرقم الذي مُنِحتَه خلال سني أسرك.

أنت خارج من «العالم الآخر» إلى عالم لا يشبهك، كأن كل منكما غريب عن الثاني. تقتحم الحياة وأنت مدرك تماماً أن الكثير من معاييرك الأسْرية صارت في عهدة الماضي وأن صراعاً، من نوع آخر، سوف تكون معنياً بخوضه، ليس أقلّه ردم تلك الهوّة الزمنية التي تفصلك عن البشر، بكل ما انطوت عليه من تغيرات، إذ ذاك، أيضاً، تترسّخ لديك حقيقة أن القدَر الذي اخترته طواعية ذات يوم لا يتوقّف ثمنه عند الشريحة الزمنية التي سدّدتها من عمرك، بل يتعدّاها عمقاً واتساعاً. فالتصورات والأفكار التي كنت تجهد في صوغها داخل الأسر لم تكن تُمتحن على محك الواقع بما يكفي لتجنيبك المفاجآت اللاحقة على مسرح الحياة.

* * *

أما بصدد سير المحاكمة وتوجيه التهم إليَّ من قبل محكمة أمن الدولة العليا وصولاً إلى جلسة النطق بالحكم فيمكن إيراد ما يلي:

في 1992/5/7، أي بعد يومين من وصولنا إلى سجن صيدنايا، جرت إحالتي إلى محكمة أمن الدولة العليا، وكانت الجلسة الأولى في هذا التاريخ، والجدير بالذكر أن أكثر من خمس سنوات كانت قد مضت على اعتقالي عرفياً، وهناك معتقلون آخرون كانوا قد أمضوا أكثر من عشر سنين قبل إحالتهم إلى هذه المحكمة. ولعلَّ قراراً كان قد اتخذ بإحالة

معتقلي الرأي جميعاً، شمل أحزاباً وقوى سياسية أخرى: الحزب الشيوعي السوري ـ المكتب السياسي، حزب البعث الديمقراطي، حزب التحرير الإسلامي، حزب العمال الكردستاني، حزب العمال الثوري، لجان الدفاع عن حقوق الإنسان إضافة لمعتقلين من قوى قومية وإسلامية أيضاً.

وبصفتي عضواً في حزب العمل الشيوعي في سوريا، ومؤيداً لبرنامجه السياسي وشعاراته التي أقرّها المؤتمر التأسيسي ، وممارساً لحقي الذي مُنحتهُ أصلاً من قبل الدستور السوري ـ على الأقل نصّاً، فقد تمت ملاحقتي ومن ثم اعتقالي فمحاكمتي.

رفضت الإجابة على جميع الأسئلة التي وجّهها إليّ قضاة التحقيق، اللهم ما خلا تأكيد عضويتي وموقعي التنظيمي في الحزب وقد طالبتُ على غرار الكثيرين، بإحالتنا إلى محكمة مدنية عادية علنية وعادلة بديلاً عن محكمة أمن الدولة العليا الاستثنائية واللادستورية، ولمّا كان ذلك مستحيلاً فقد طالبنا بعلنية الجلسات مراراً، وكان ثمة استجابة جزئية من قبيل السماح لذوينا ومحامينا بالحضور. وخلال هذه الفترة تقدّمت بطلب رسمي إلى رئاسة محكمة أمن الدولة العليا ذكرت فيه:

«السيد رئيس محكمة أمن الدولة العليا:

سبق لي وقبلت أن أوكّل محامين للدفاع عني، كما تهيأت للدفاع عن نفسي شخصياً، أملاً أن تتيح لي المحكمة ولو حداً أدنى من الشروط والحقوق التي تسمح لي على الأقل بإيصال صوتي إلى المعنيين والمهتمين من أبناء شعبي وقواه السياسية، والهيئات المختصة بحقوق الإنسان محلياً وعربياً وعالمياً.

وإذا ظهر بعض الإيجابيات المحدودة جداً في بداية سير المحاكمة، والتي كان يمكن لها، لو استمرت في التصاعد إيجابياً، أن توفّر جزءاً بسيطاً من شروط المحاكمة العادية المعروفة لديكم جيداً. إلاّ أن الوقائع اللاحقة لم تكن متناسبة حتى مع الوعود التي قدّمت في الجلسات الأولى، لذلك أرى لزاماً عليّ إبلاغكم أنني أرهن استمراري في توكيل المحامين بتوفّر شروط المحاكمة العلنية والتي ألخصها بما يلي:

1 ـ السماح لكل من يرغب بحضور الجلسات.

2 ـ السماح للمحامين والمتّهم بتقديم مرافعاتهم شفهياً».

«المعتقل بسبب الانتماء إلى حزب العمل الشيوعي في سوريا»

عباس محمود عباس

بالطبع لم تجد مطالبنا هذه إذناً صاغية، زد على ذلك أننا حُرمنا كمتهّمين من حيازة لائحة الاتهام التي تُليت على مسامعنا شفهياً. وقد تضمنت اللائحة الموجهة ضدي التهم التالي:

1 ـ جناية الانتساب إلى جمعية أنشئت بقصد تغيير كيان الدولة وفق المادة /306/ من قانون العقوبات العام.

2 ـ جناية مناهضة أهداف الثورة عن طريق القيام بالتجمّعات والتحريض على أعمال الشغب وبنشر الأخبار الكاذبة بقصد البلبلة وزعزعة ثقة الجماهير بأهداف الثورة وفق ا المادتين /3و4/ من المرسوم التشريعي رقم /6/ لعام 1965.

3 ـ جناية القيام بأعمال مخالفة لتطبيق النظام الاشتراكي.

خلال الفترة اللاحقة كانت الجلسات تتواصل بين تأجيل وانعقاد

شكلي إلى أن تبيّن لي بما لا يقبل الشك أن جميع المطالب المطروحة كانت تتبخّر تدريجياً، الأمر الذي دفعني إلى تقديم بيان مقاطعة في إحدى جلسات الدفاع التسويفية، بعد أن كنت قد حضّرت مرافعتي الشخصية، وكذلك المرافعة الجماعية التي شاركت في إعدادها وصياغتها، كما كنت قد أبلغت المحامين الموكّلين بالدفاع عني بموقفي هذا وسحبت التوكيل. وقد جاء في بيان المقاطعة، الذي سلّمته إلى المحكمة ما يلي:

منذ البداية كان واضحاً لي، وكنت مدركاً تماماً ماذا يعني أن أمثل أمام محكمة استثنائية تشكّل في الأصل امتداداً عضوياً للسلطة التنفيذية التي هي من وجهة نظري سلطة ديكتاتورية استثنائية لا شرعية، مثلما كان واضحاً لي بالقدر نفسه أن القوانين التي أحاكَم في ظلها هي أيضاً قوانين الطوارئ الاستثنائية، والأمر نفسه فيما يتعلق بالمرسوم /6/ الذي أحاكم بالاستناد إليه. ومع ذلك قبلتُ أن أوكل محامين عني، كما تهيأت للدفاع عن نفسي شخصياً أملاً في أن تثبت المحكمة بالملموس قدراً من الاستقلال الكافي عن توجيهات السلطة التنفيذية وأجهزة الأمن، خصوصاً بعد ظهور بعض الإيجابيات المحدودة جداً في بداية المحاكمة التي كان من المقدّر لها، لو استمرت في التصاعد إيجابياً، أن توفر جزءاً ولو بسيطاً من شروط المحاكمة العادية. ولأن الوقائع اللاحقة لم تكن متناسبة مع الآمال والوعود التي قُدمت سابقاً، ولأن جميع جلسات الدفاع تنعقد دون أن يسمح لمن يرغب بحضورها الدخول إلى قاعة المحكمة، ودون أن يتاح لي أو للمحامين تقديم المرافعة بصورة شفهية، لاسيّما أن مقابلتي الوحيدة مع المحامي لم تتح لي الإطلاع على دفاعه عني، ولأنني اضطررت أيضاً لإعداد دفاعي الشخصي دون تسلُّم نصّ الاتهام مكتوباً أقول لأن كل ذلك كذلك ولأن المحكمة لم تثبت بالملموس استقلاليتها عن السلطة التنفيذية، مما جعلها تفقد هي الأخرى أي شرعية، فإنني أسحب توكيلي

من جميع المحامين الذين سبق لي أن وكلتهم وأعتبر أن أي محام تعيّنه المحكمة لا يمثلني إطلاقاً، وأعلن مقاطعتي لمحكمتكم، وأعتصم بالصمت، محتفظاً بما أعتبره حقي في حجب دفاعي عن هيئة المحكمة، وتقديمه إلى أعلى مرجعية في وطني أعني شعبي.

المعتقل بسبب الانتماء إلى حزب العمل الشيوعي في سوريا

عباس محمود عباس.

قررت المحكمة بتاريخ 1995/6/27 وبموجب القرار رقم /33/ تجريمي بـ :

1 ـ جناية الانتساب إلى جمعية والحكم عليّ بالأشغال الشاقة مدة خمسة عشرة سنة.

2 ـ جناية مناهضة أهداف الثورة والحكم عليّ بالأشغال الشاقة مدة ست سنوات وبكون هذا الجرم مشمولاً جزئياً بقانون العفو رقم 11 / لعام 1988، تمّ تنزيل العقوبة إلى أربع سنوات ودغم هاتين العقوبتين، وتنفيذ الأشد، وهي أشغال شاقة مدة خمس عشرة سنة وفق المادة /204/ من قانون العقوبات العام.

3 ـ جرى تجريدي مدنياً عملاً بأحكام المادتين /50 و63/ من قانون العقوبات العام، على أن تُحسب لي المدة اعتباراً من 1987/4/14.

٤ ـ براءتي من جناية مخالفة تطبيق النظام الاشتراكي.

والتعقيب الوحيد الذي يمكن قوله بصدد هذه الأحكام هو أنها خارج نطاق المعقول، وأنها أحكام سياسية أمنية لا تمت إلى المشروعية القانونية بصلة.

أحكام رادعة عقابية مطابقة للتهم التي فُصّلت سلفاً على قدّها، مجرِّدة المتهم وجهة الدفاع من وسائل الطعن أو النقض لدى أي مصدر قضائي.

وهذا بحد ذاته ما يؤكد لا دستورية تشكيل محكمة أمن الدولة العليا، ومجافاة مرسوم تشكيلها لقواعد العدالة والحق والقانون، وتناقضها الصارخ مع المادة /18/ الفقرة /4/ من الدستور السوري: «حق التقاضي وسلوك سبل الطعن والدفاع أمام القضاء وصونه بالقانون». ناهيكم بالمواد والفقرات الدستورية الأخرى!!!

أهم أعمال عباس محمود عباس

عباس محمود عباس (إجازة في اللغة الانكليزية من جامعة دمشق)... عمل مدرساً للغة الانكليزية بعيد خروجه من المعتقل ثم تفرّغ للترجمة والتعريب منذ عام 2003. فعمل محرراً ومترجماً في مجلة «الثرى» الإلكترونية وفي عدد من دور النشر المتخصصة، كما كان مترجماً فورياً في عدد من الندوات الإقليمية والدوليّة.

ترجم عن الإنكليزية مجموعة كبيرة من الكتب وهو يصارع مرض السرطان في الرئة منذ بداية سنة 2005، نذكر منها:

1 ـ الليبرلة في سوريا «ريموند أ هينوخ». 2 ـ الإيديولوجيات السياسية «مجموعة من الباحثين». 3 ـ كرنفال الثورة «هافل». 4 ـ الجنس في أديان العالم «جيفري باردنر». 5 ـ السلطة والاستمرارية والتغيير في الشريعة الاسلامية «وائل ب حلاق». 6 ـ الشريعة والسلطة في العالم الاسلامي «سامي زبيدة». 7 ـ الأمة والمواطنة في عصر العولمة «ريتشارد مينش».

8 ـ مانديلا «مجموعة مقالات». 9 ـ الحياة الجنسية في المجتمع العثماني «سيما نلغناردوغان». 10 ـ القدس فرانسيس (رواية) نيكوسكازانتزاكي.

11 ـ العدل (رواية) باهيا ناخجفاني. 12 ـ العرب (ديوان شعر) إريك أور مسبي. 13 ـ الشرق الأوسط القديم، الجديد.

وترجم عن الفرنسية:

1 ـ زمن تنهيدة (مع عبد القادر نابلسي). 2 ـ أصداء الحب. 3 ـ الحلزون: ثلاثة روايات لآن فيليب. 4 ـ الأمير الصغير «أنطوني دوسانتإكزوبري».

ونقل عن العربية إلى اللغة الإنكيزية:

1 ـ خطاب التجديد الاسلامي «مجموعة من المفكرين العرب».

2 ـ ثلاثة كراسات في النصوص القرآنية.

3 ـ عشرة بحوث قانونية عن المرأة والطفل والجنوسة.

4 ـ العلمانية في المشرق العربي «مجموعة من الباحثين العرب ـ إعداد لؤي حسين».

كما قام بكتابة مجموعة من المقالات والدراسات نذكر منها:

1 ـ المثقف بين مطرقة السلطة وسندان الايديولوجيا.

2 ـ دعوة إلى التفكير بصوت مسموع.

3 ـ قراءة في مشروع موضوعات المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري عام 2004 وغيرها.....

إضافة لمراجعاته لعدد كبير من الترجمات وتدقيقها.....

ولكن العمل الأهم والذي بدأه وهو في المعتقل وقضى سنوات طويلة في كتابته ومراجعته وتدقيقه بمسؤولية قلّ نظيرها ،وبوجع لاضفاف له، هو كتابه (وشائج الموت والحياة)، بعد أن تم تجميع كل القصاصات الورقية المهربة من السجن وإعادة تحريرها وكتابتها. وبعد أن انعزل لعدة شهور وبفترات متقطعة ليتفرغ لإنجاز هذا العمل خلال عدة سنوات. في آخر أيامه سُئل: هل انتهيت من وشائج الموت والحياة؟ فأجاب: من الكتاب نعم. أما الوشائج فلن تنتهي أبداً ... رحل عباس قبل أن يرى وشائجه مطبوعة وموضوعة بين دفتي كتاب. رحل في الخامس من أيلول 2012 بعد صراع مرير مع مرض السرطان ودفن في باريس. رحل جسده لكن روحه ما تزال ترفرف بين أحبابه وفي سماء بلاده التي عشق، ولعلكم ستجدون روحه الأبية الآن تعانق كل كلمة في هذا الكتاب الذي بين أيديكم.

د. نور الدين ناصر

الفهرست

المقدمة.............................5
الفصل ما بعد الأخير............17
إهداء..............................27
الستارة الأولى سفر الخروج....39
اليوم الأوم.........................43
شهادات اليوم الأول..........55
اعتقال في الجامعة/سبع دقائق
وسواها.........................75
الستارة الثانية تدمر..............83
تجربتنا والأخوان..........99
شهادة أخ مسلم 101
مراهقو الأسر..................104
عطف الأقواس/ التشريفة....108
الزربية...........................109
المساعد..........................113
أبو عمار..........................117
مربعات..........................121
كابوس جماعي.................123
جنون...........................124
صمت الكابوس...............126
نحن ومعشر الطير(العش)....128
الطائر ذو الحاسة السابعة.....129
ضيف في الزنزانة.............133
من وحي العتمة...............140
حوارية الليل والنهار...........149
أنواع السجانة.................159

تدمر وحماة..................163
الستارة الثالثة سفر المرأة......169
وشوشات دوما................175
الورقة الأولى....................181
الوريقة الثانية..................182
الورقة الثالثة....................183
الورقة الرابعة (زيارة).........185
الورقة الخامسة.................186
الورقة السادسة.................196
روزنامة (1)......................202
حكايتي واللهب (2).........206
التباس (3).........................211
أسرار امرأة (4)..................217
الستارة الرابعة..................219
زيارة سرية........................222
أسرارنا الصغرى.................230
من ديمة............................236
الستارة الخامسة................229
ثقب العجائب....................243
التواصل في أقبية الفروع.....229
الترحيل من تدمر..............247
الزيارة الأولى/صيدنايا.........250
احباط آخر داخل زنزانتي.....257
خيمة في المرصاد...............258
عباس في ازدلاف القرن.......264
أهلي في الزيارة.................266
جحيم الزيارة الأولى/تدمر2 272
الستارة السادسة ألوان الموت 279
قتل الروح بالتعهد.............281
مقدمة تعهدات..................282
شهادة..............................285
التماس ممهور بالدم............288
ميشيل عفلق......................289
محاكمة غاليليو..................290
مستقلة 1.........................292
مستقلة 2.........................293
تعهد الأخوان وبعث العراق 294
مقدمة لموت الحب............295
موت حب 1......................300
(موت الحب) 2.................303

موت الحب (أبو الخل)........305
موت حب 3....................307
موت الحب 4 خيبة/ سميح..309
(موت حب وأب) 5 313
شهادة باسل (1)...............315
هلوسات محض عقلية (2).....321
شهادة (3).......................323
تحوُّل /شهادة (4)..............324
أبو آفاق/ شهادة (5)..........327
شهادة (6)........................333
الستارة السابعة.................335
إطلالة على «الحرية»..........339
لقاء في الحرية..................343
هانت وراح الكثير............346
ما الذي ستفعله أول خروجك من السجن؟.......................349
الستارة الثامنة.................353
إلى فائزة.........................373
الستارة التاسعة سقراط الصغير 381
فصام نيساني.....................403
تهويم كسوفي....................405
الكسوف (ريبورتاج).........409
الستارة العاشرة رسائل.......413
للسماء طيور وللأرض المطر.............................415
إلى مثقفي سوريا عبر صديق..419
إلى مثقفي سوريا..............423
إلى عبد القادر خياشي (مونت كارلو)...........................436
نص الشهادة....................441
أهم أعمال عباس محمود عباس.............................459

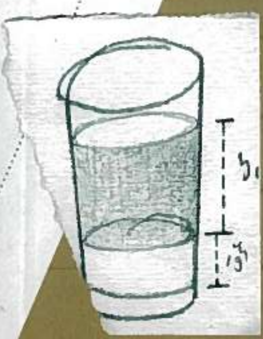

"لا كتب تفي، ولا مدونات. فالخسائر على فداحتها، لم تبلغ نهاياتها كي تحصى"

توقاً إلى الحياة: نص ملحمي من تاريخ سوريا مليئ بالشهادات الحية والإحساس الرهيف عاشها الكاتب بأدق تفاصيلها، بكامل وعيه وإرادته متنزهاً عن كل متاع الدنيا متحملاً أعظم آلامها، هدفه حلمه الكبير بوطن جميل تزينه الحريه والعدالة... وربات البيوت المتلهفات لعودة أبطالهن من أعمالهم متورمة عضلاتهم من شقاء النهار وحر الشمس.

لم يتجرأ فارسنا المقدام الطاعن بالحب وبالرغبة أن يخبرنا ولو لمرة واحدة عن فتاته ولون عينيها ولا حتى عن ابتسامتها. بل أخبرنا عن وصيته، و شهاداته، ومشاهداته، ولحظاته الإنسانية، التي سلبت منه ومن رفاقه "المتهمين" بحب الوطن والناس. كلهم "مجرمون" اعتقلوا من جامعاتهم وأحضان أسرهم ومراكز عملهم وحولوا جميعاً إلى أرقام تقبع تحت الأرض فاقدين كل حقوقهم وانسانيتهم. وجال بنا على فروع التحقيق وأقبيتها النتنة ورجالها الغلاظ عديمي البصر والبصيرة الحاقدين ضد كل الأشكال والألوان والوطنيه والحرية والديمقراطية، إنها لعنة حلت وانتجت كل هذه الفوضى وهذا القهر.

وشائج الموت والحياة كحلٍّ عربي على عيون ثاقبة وبخور أزاح رائحة المكان لغير هذا الزمان. ونحن هنا لا نكتشف البارود أو نفضح الاسرار فالحقيقة كالشمس من يريد أن يراها أو يلتقطها فهي بين يديه ومن أغمض عينيه أو أشاحها ربما يرى البسطار تفاحة أو أيقونه يصلي لها ويعبدها.

"لقد علمني هذا الكتاب بقدر ما أرشدني إلى يقين خالٍ من الخصومة، بل ألهمني إجابات كثيرة عن تساؤلات طالما عادتني وشغلت عقلي"

عادل زيني

أبو عبدو البغل

9789953823051

دار الخيال

بناية يعقوبيان - بلوك B طابق 3 - شارع الكويت -
المنارة - بيروت - لبنان - تلفاكس: 740110 - 009611
www.darelkhayal.com E-mail: alkhayal.com.lb